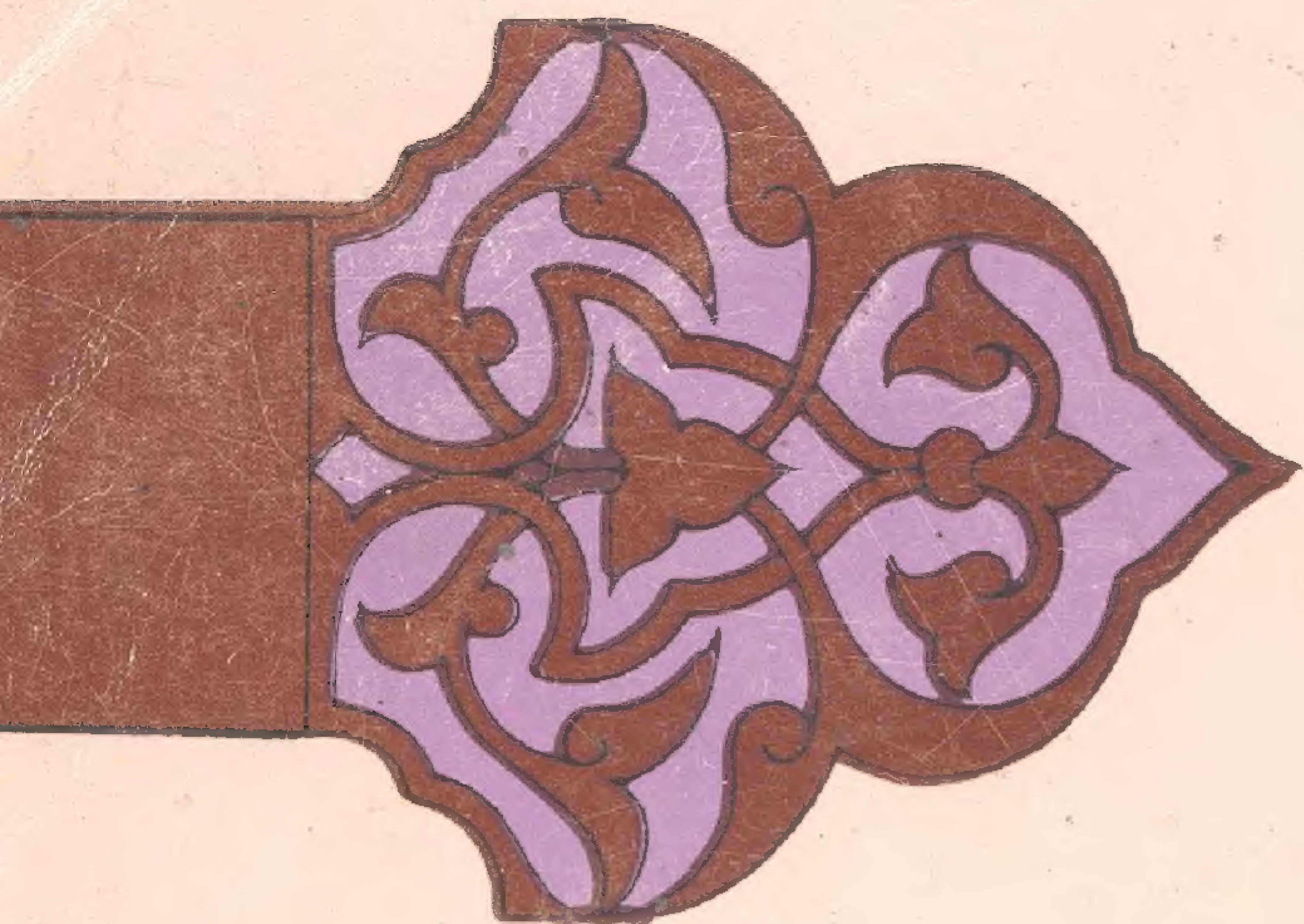


الذخائر ٧٠

نوادر المخطوطات

تحقيق

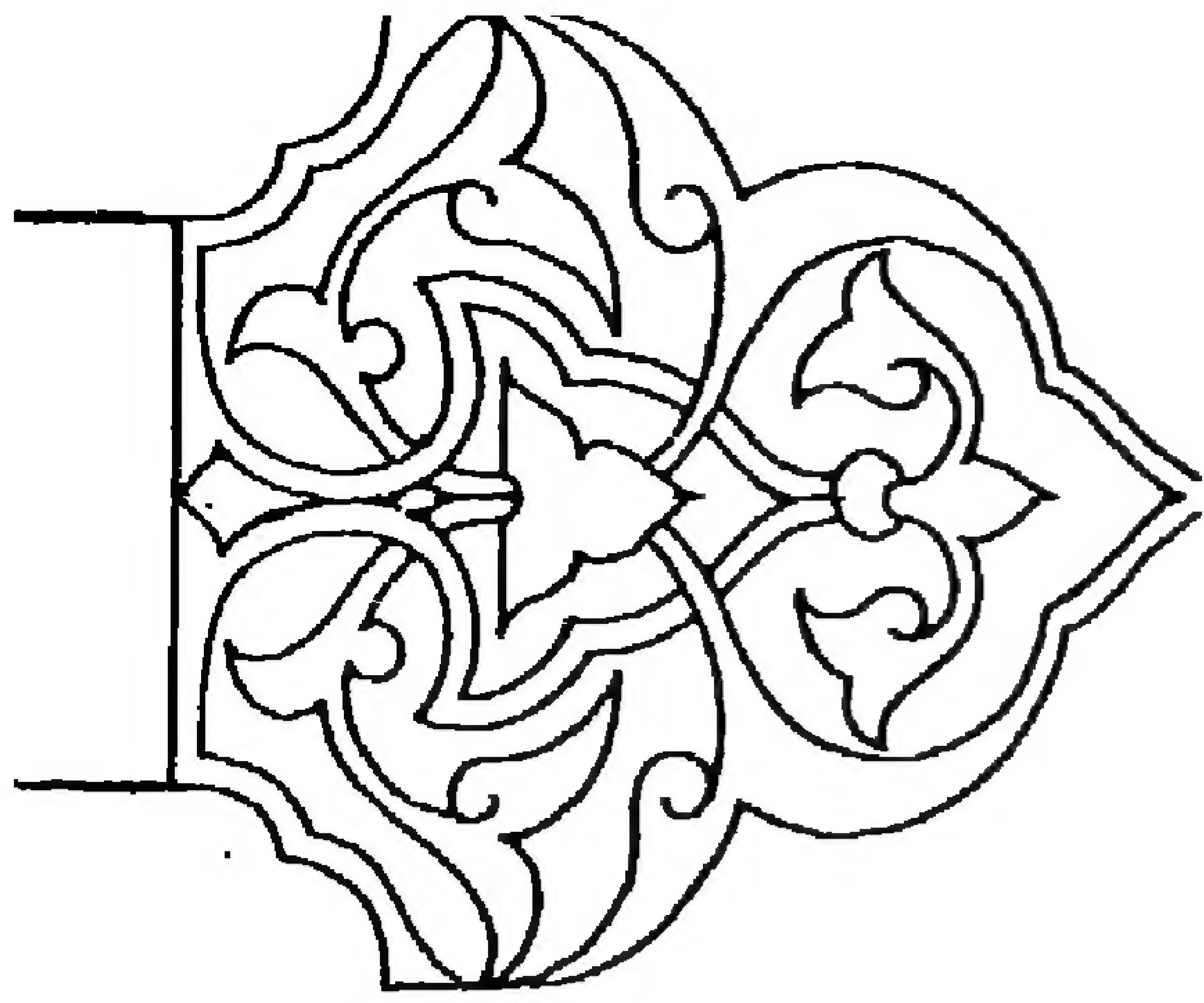
عبد السلام هارون

تقديم

أ.د/ محمد زغلول سلام



الهيئة العامة لقصور الثقافة



الذخائر ٧٠

نوادر المخطوطات

تحقيق

عبد السلام هارون

تقديم

أ.د/ محمد زغلول سلام



الهيئة العامة لقصور الثقافة

الذخائر

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالى

١٦ أ ش أمين سامى - قصر العينى - القاهرة

رقم بريدى ١١٥٦١

تعريف

عزيزى القارئ.. باقة جديدة من حديقة (الذخائر) نقدمها إليك، هى مجموعة (نوادر المخطوطات) التى اختارها وقام بتحقيقها المرحوم عبد السلام هارون، إنّ تأمّل هذه المجموعة التى صدرت فى جزءين – نقدم أوّلهما فى هذه الحلقة – يعيد إلى الأذهان عدداً من الحقائق عن تراثنا العربى الإسلامى، من هذه الحقائق :

– عمق وعى المثقف العربى بالحياة حوله فى شتّى أبعادها.. إنسانيّة وثقافيّة وسياسية وطبيعية واجتماعية.

– التطرّق – انطلاقا من ذلك الوعى المرهف – إلى الكتابة فى كلّ ما يشغله من هذه الأبعاد التى يدخل كثير منها فى عداد ما هو طريف، ولافت ، ودالٌّ فى نفس الوقت.

– سعة الأفق والقبول بالحوار والاختلاف مع الاعتراف بالرأى الآخر ومناقشته.

ولا تتضح هذه الحقائق من مجرد المضامين التى تنطوى عليها كل رسالة فى ذاتها فحسب.. وإنما تتضح أيضا من مجموعة الكتب والرسائل مضموماً بعضها إلى بعض فى عمل واحد حيث يظهر التنوع جليا فى مادتها وثقافة مؤلفيها وأوطانهم وأزمانهم.

وليس من هدفى تفصيل الحديث فى أى من هذه الجوانب ، يكفى أن نقول : إننا – فى هذه المجموعة – أمام حشد من الموضوعات منها ما يهم دارس اللغة وما يهم دارس الأدب وتاريخه وما يهم صاحب التاريخ العام وتاريخ الفكر والسياسة وما يهم

صاحب الاجتماع، هذا إلى بعض الرسائل التى قد يتجاذبها أكثر من مجال معرفى وربما أكثر من نوع أدبى، كالذى نلاحظه فى أولى رسائل هذا المجلد، وهى (الرسالة المصرية) التى يتجاذبها التاريخ العام، وأدب الرحلات، وتاريخ الأدب، إلى جانب الترجمة الذاتية. فإذا جئت إلى عصور مؤلفيها - مجموعة الرسائل - رأيتها تمتد بك من القرن الثانى الهجرى إلى القرن الحادى عشر وربما إلى ما بعده، وإذا نظرت إلى بلدانهم وجدتها تمتد من شرق العالم الإسلامى إلى أقصى غربه، ومن شماله إلى أقصى جنوبه، وهكذا يجىء تفاوت أزمان المؤلفين وتعدد مواطنهم مطرداً مع تعدد موضوعات مؤلفاتهم.

لكل ذلك كان وصفنا لهذه المجموعة بأنها (باقة) من حديقة (الذخائر)، ويبدو أنه لكل ذلك أيضا، ولغيره، كان اختيار المرحوم الأستاذ هارون لهذه المجموعة وقيامه بتحقيقها ونشرها منذ عقود عدة، وهو ما قام لدينا بمثابة قرينة إضافية على القيمة التاريخية التى لاشك فيها لهذه المجموعة.

كان الأستاذ هارون رحمه الله (١٩٠٩ - ١٩٨٨) واحداً من أبرز كبار المحققين ، وقد غطت تحقيقاته مختلف مجالات التراث: النحو واللغة والأدب، وحين نقول (الأدب) فإنما نقصد كلا من معناه الخاص المتحقق فى النصوص الإبداعية، كما نقصد معناه العام الذى يتضمن ما أنتجته قرائح أبناء هذه الأمة وعقولها فى كثير من مجالات الفكر والثقافة. ولأننا نترقب مناسبات أخرى لتعداد أعمال ذلك العالم الثبت، فإننا نكتفى هنا بتقديم هذه المجموعة القيمة من محققاته.

وقد تخرج رحمه الله فى دار العلوم العليا سنة ١٩٣٢ وتدرّج فى سلّم التدريس بالجامعة مدرسًا بآداب الإسكندرية، ثم أستاذاً مساعداً فأستاذا بدار العلوم، فرئيسا لقسم النحو والصرف والعروض بها، كما عهد إليه بإنشاء ورئاسة قسم اللغة

العربية بجامعة الكويت. وانتخب عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، ثم تولى منصب الأمين العام للمجمع، وبقى فى هذا المنصب إلى أن لقى وجه ربه فى سنة ١٩٨٨.

وكما شرفت هذه المجموعة بمحققها المرحوم الأستاذ عبد السلام هارون فإنها تشرفُ بمقدِّمها الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام الذى عمل أستاذاً لكرسى اللغة العربية وآدابها بجامعة الإسكندرية منذ سنة ١٩٦٩، كما تولى رئاسة قسم اللغة العربية بكلية آداب القاهرة - فرع الخرطوم، ثم رئاسة قسم اللغة العربية بآداب جامعة الإسكندرية، ثم كان عميداً لكلية آداب بنها - جامعة الزقازيق. وهو حالياً أستاذ متفرغ بالكلية ذاتها.

وللأستاذ الدكتور سلام عطاء علمى متنوع ما بين التأليف والتحقيق، ويمتد كل من نوعى النشاط إلى مجالات النقد والبلاغة والأدب المصرى وتاريخ الأدب العربى عامة وبعض ما يتصل بهذه المجالات من فروع التراث. فمن مؤلفاته : (أثر القرآن فى تطور النقد العربى)، و(ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد والبلاغة)، و(تاريخ النقد الأدبى والبلاغة حتى القرن العاشر)، و(النقد الأدبى الحديث)، ثم (الأدب العربى فى عصر العباسيين)، وموسوعة تاريخ الأدب المصرى التى تضم (الأدب فى العصر الفاطمى)، و(الأدب فى العصر الأيوبى)، و(الأدب فى العصر المملوكى). أما فى مجال التحقيق فله (ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن) - للخطابى والرمانى وعبد القاهر - بالاشتراك مع الأستاذ محمد خلف الله، و(عيار الشعر) لابن طباطبا العلوى، بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور طه الحاجرى ،و(جوهر الكنز) لنجم الدين بن الأثير الحلبى و(نكت الانتصار لنقل القرآن) للصابونى و(معانى المعانى) لمحمد أبى بكر الرازى و(ديوان الصبابة) لابن حَجلَة.

ونعود إلى مجموعتنا فنقول : إنه إذا كان محققها المرحوم الأستاذ هارون قد لفتته صفة (الندرة) فى مخطوطات المجموعة - بمعنى عزة وجودها - فأطلق عليها اسم (نوادر المخطوطات) .. فإن من المقطوع به أنه لم تخطئه صفة الطرافة والندرة فى موضوعاتها أيضا، بحيث لا نكون مبالغين إذا قلنا : إننا نقدم لك - عزيزى القارئ - مجموعة من (نوادر المخطوطات فى طرائف الموضوعات).

عبدالحكيم راضى

تقديم

الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام

مجموعة نوادر المخطوطات التى تقدم للمجلد الأول فيها والتى جمعها محققها الأستاذ عبد السلام هارون فى طبعتها الكائنة فى مجلدين - تعتبر من أعمال التحقيق الهامة لتراث المخطوطات العربية التى تربط بين ماضى الأمة الثقافى وحاضرها .

واهتمام الأستاذ عبد السلام هارون بتحقيق التراث المخطوط يعتبر امتدادا لحرص علماء السلف على العلم ونقله فقد خطوا لهذا النقل منهجاً عرف بين الدارسين بـ«المنهج النقلى» فى العلم والمعرفة. والتلقى .

وكان القدامى يهتمون برواية العلم بطريق السماع المباشر على المؤلف، والكتابة عنه إملاء، ومن ثم إجازته روايته لمن حضر مجلسه وسمعه عنه ورواه .

ويختلف درجات الرواية والسماع، على ما فصله العلماء فى طرق تحصيل العلم. ويهمنا هنا نقل العلم عن طريق ما يسمونه الوجادة. أى أخذ العلم عن طريق الصحف أو الكتب دون السماع والرواية المباشرة عن المؤلف. ذلك أن عصر الرواية انقضى ومضت قرون دونه. ووجد علماؤنا فى عصر النهضة كما من المخطوطات أرادوا أن يتعرفوا عليها وينشروا ما ضمت من العلم لتنتفع به الأجيال وتتواصل .

وكان للمستشرقين فضل إعادة تجقيق ونشر كثير من كتب التراث وإتاحتها لجمهور الدارسين بعد اختراع الطباعة التى نشرت نسخ عدد من النسخ دون اللجوء إلى الكتابة اليدوية المعتادة فى نشر الكتب بواسطة النساخ والوراقين.

وانتهج أولئك المستشرقين نهجاً لضبط النقل، وتحقيق النص بصورة تقربه من

الأصل، وتتيح للقارئ فهمه واستيعاب مادته وطبع بعضهم هذا النهج فى كتيبات لتضع أمام المبتدئين الطريقة المثلى لتحقيق النصوص .

وقد أخذ بعض من قاموا على تحقيق المخطوطات ونشرها فى عالمنا العربى بهذا المنهج الاستشراقى، وأضافوا إليه من تجاربهم. وكان الأستاذ عبد السلام هارون ممن أسهم فى هذا المجال بنشره كتيبا فى كيفية تحقيق النصوص ونشرها.

ويحدثنا عن تجربته فى هذا الميدان فيقول :

« .. وكان مما صنع لى الله أن ألقيت نفسى فى أطراف ميدان النشر العلمى أكافح فيه، والسلاح ضعيف، فما أزال أجمع سلاحاً إلى سلاح، وأقتحم الصعاب إثر الصعاب، وأنا فيما بين ذلك أستلهم الله العون والتوفيق فيمدنى بسبب منه، وفيض كريم وكلما ظننت أنى رويت غلة النفس زاد ما بى من ظمأ إلى مزاولة هذا الجهاد الصادق ».

ويحدثنا عن اتجاهه إلى هذا النوع من المخطوطات الصغيرة غير الشهرة ولا المعروفة ليعيد إليها الحياة باستخراجها من مكامنها فيقول :

« .. وقد رأيت أن همة الناشرين المحققين تتجه فى أغلب ما تتجه إلى المخطوطات ذات الشهرة الظاهرة، وإلى ما جل مقداره من كتب السلف مغفلين فى أكثر الأمر هذه الرسائل الصغيرة.

فصح منى العزم على أن أكشف عن طائفة من هذه الكتب الصغيرة وأقدم منها إلى جمهرة الباحثين مادة نادرة، وأن أجعل هذا فى مجموعات متتالية متسلسلة الأرقام والصفحات.» .

وعنون لهذه المجموعات بـ «نوادر المخطوطات». والندرة هنا قد تعنى قلة تداولها بين الدارسين. أو بعدها عن تناولهم. وقد تعنى الندرة أيضاً فيما تعنى نفاستها وغناءها، كقولنا عن الشيء النادر إنه نفيس لندرته إضافة إلى عظيم قيمته .

وتجتمع فى هذه المجموعة تلك المعانى قلة تداول، وندرة وجود. إذ قلما يوجد

منها أكثر من نسخة بينما تتعدد نسخ غيرها من الكتب التى درج السلف على تداولها. والمعنى الثالث عظم القدر والفائدة لما قد تضيفه إلى المعرفة من أشياء كانت ناقصة فأتمتها أو غائمة فكشفتها .

واتبع الأستاذ عبد السلام هارون فى تحقيقها النهج الذى أشرنا إليه مهتدياً بمن سبقه من عمل المستشرقون وتجارب الأولين ممن كان لهم يد طولى، وكان قريب الصلة بهم من أمثال الشيخ أحمد محمد شاكر والعلامة محمود محمد شاكر وأضرابهم ومن تقدمهم وكان لشخصية الأستاذ عبد السلام وثقافته آثارهما فيما عمد إليه من تطبيقات لمنهج التحقيق .

وأولى خطوات تحقيق النص سلامة القراءة، أو قراءة النسخة المخطوطة قراءة صيحة. وقد يقع المحقق فى مزالق كثيرة إذا افتقد القدرة على قراءة النص قراءة صحيحة، والعقبات كثيرة والطريق محفوفة بالمخاطر .

فالخط العربى، وطرق الكتابة للحروف، وتنوع الخطوط بين قديم وحديث، مشرقى ومغربى، نسخى أو كوفى، معجم أو غير معجم. فضلاً عما قد يقع فى النص من أخطاء إملائية أو لغوية، أو نحوية. وما يسقط من النساخ من ألفاظ أثناء الكتابة تشوه السياق، أو ما قد يقعون فيه من سهو أو تحريف نتيجة الجهل وعدم التدقيق، وعدم الإلمام أحياناً بأساليب الكتابة وعروض الشعر. كل هذه المخاطر والمحاذير تتطلب من المحقق التدقيق والمراجعة فضلاً عن العلم والإحاطة وطول الممارسة والتجربة .

وقد جمع الأستاذ هارون من الأدوات ما أهله لأن يقرأ النص المخطوط قراءة صحيحة فهو أستاذ عالم فى اللغة والنحو، قارئ مطلع واسع الاطلاع على أساليب القدماء وطرائقهم فى القول .

ويعين على تقويم النص وجود نسخ متعددة أو أكثر من نسخة «الأم» التى يعتمد عليها المحقق وفى المجموعة التى نحن بصددها مخطوطات مفردة ليس لها ما يقين

على قراءتها. وإن لجأ المحقق تقضى ما نقل منها فى كتب منشورة.

ولم يوفق المحقق فى بعض هذه المجموعة إلى نسخة أصلية للنص فقام بنشر مختصر له، ولم يتبين ذلك إلا بعد الطبع، وأشار إلى أنه سيستدرك ذلك ويقوم بنشر النص الكامل عند إعادة الطبع ؛ وهذا مزلق من مزالق عدم وجود نسخة تعزز النص المفرد .

على أن الدكتور عبد السلام لم يأل جهداً فى تقصى أكثر من نسخة، وفى المجموعة أمثلة غير قليلة لاعتماده على أكثر من نسخة .

ومما يطمئن على صحة النص العمل على توثيقه، وإثبات صحة نسبته إلى صاحبه مع التعريف به وبمكانته العملية وعلاقة النص به، وبموضوعاته .

ونرى إفاضة فى تقديمه لبعض الكتب والرسائل فى المجموعة فى ترجمة المؤلف، وعصره، وحياته، وثقافته، ومكانته العلمية ومكان الرسالة أو الكتاب بين مؤلفاته، وقد يفيض فى أسباب تأليف النص، وملابساته كما فعل فى «كتاب العصا» لأسامة بن منقذ، ورسالة «ابن غرسية» فى الشعوبية. والردود عليه فى جملة من الرسائل التى ردت عليه .

ويحتاج النص المحقق إلى إضاءة، أو تفسير بعض جوانبه التى تغمض على القارئ أحيانا من مصطلح أو لبس فى مفنى اللفظ أو تعريف بحدث أو واقعة أو علم، أو مكان، كما يحتاج النص إلى توثيق ما يرد به من أبيات الشعر، وصحة نسبتها إلى قائله. فكثيراً ما يحدث أن ينسب الشعر إلى غير صاحبه أو يقع بالشعر تحريف أو تصحيف يحتاج من المحقق إلى أن يرده إلى أصله فى ديوان الشاعر، أو صحيح ما نقل عنه فى مصادر غير الديوان. وقد يحتاج الشعر إلى إقامة وزنه بتصحيح لفظه .

تلك ملامح منهج تحقيق النصوص كما يأخذ بها العاملون فى هذا المجال من الباحثين والعلماء. وكما عمل به الأستاذ عبد السلام هارون فى هذه المجموعة .

وتنتقل إلى الحديث عن المجموعة نفسها إذ يضم المجلد الأول أربع مجموعات هى:

المجموعة الأولى :

١ ـ الرسالة المصرية لأبى الصلت أمية بن أبى الصلت الأندلسى المتوفى عام ٥٢٨هـ، وتقع فى ٤٥ صفحة .

٢ ـ المردفات من قريش للمدائنى المتوفى عام ٢٢٥هـ فى ٢٠ صفحة .

٣ ـ من نسب إلى أمه عن الشعراء صنعة محمد بن حبيب المتوفى عام ٢٤٥ فى ١٣ صفحة .

٤ ـ تحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه للفيروز بادى المتوفى عام ٨١٧ هـ فى ١١ صفحة .

وتتفاوت هذه المجموعة الأولى فى عدد صفحاتها بين خمسة وأربعون، وإحدى عشرة صفحة، ومنها رسالة واحدة فى موضوع يجمع بين التاريخ والاجتماع والأدب وهى الرسالة الأولى لأمية بن أبى الصلت، وبقية الرسائل الثلاثة تتناول التاريخ والأنساب والتراجم .

وأهمها وأطرفها الأولى «الرسالة المصرية» لأمية. ذلك أنها تعرض لموضوع يتحدث عن مصر فى القرن السادس الهجرى إبان العصر الفاطمى. وهى حقبة غامضة مليئة بالأحداث والمؤامرات والوقائع داخل مصر وخارجها، تتشابك فيها الصراعات بين المصريين والفاطميين والصنهاجيين فى تونس، والمصريين والصليبيين فى الشام والعباسيين والسلاجفة والزنكيين فى الشام وشمال العراق .

وصاحب الرسالة ضالع ومشارك فى بعض تلك الأحداث وليس مجرد مشاهد شاهد على العصر .

وأمية شاعر أديب، اتصل بالسياسة، وتعرف على الرجال الذين صنعوا الأحداث، جاء إلى مصر فى النصف الثانى من القرن الخامس وحل بالاسكندرية بعد رحلة

بحرية لاقى فيها المشاق، من بلد الأندلس حيث أقام بالثغر زمنا تعرف على جماعة من العلماء والأدباء، وفى مقدمتهم الشاعر السكندرى ظافر الحداد ربطت بينهما صداقة وطيدة حيث تلازما بالاسكندرية، وسافرا معاً إلى القاهرة فالفسطاط واتصلا بالوزير الأفضل بن بدر الجمالى فمدحاه ومدحا الخليفة آنذاك. لكن أمية لم ينل. الحظوة التى نالها صديقه عند الأفضل، وغضب عليه الأفضل لأمور، فحسبه مرتين بالاسكندرية والقاهرة، مما أوغر صدره. وخرج من مصر مغرباً نحو المهدية بتونس ليلتقى بصاحبها يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، وكان على غير وفاق مع خلفاء المصريين فوجد فى الأديب أبى الصلت ضالته للتشفى من مصر والمصريين. إذ طلب إليه أن يكتب هذه الرسالة ليقف على ما شاهده فى رحلته إلى مصر وإقامته بها .

والرسالة على ما بها من معلومات ومعارف هامة عن مصر والمصريين آنذاك إلا أنها تحفل بتلميحات وغمزات وتعريضات تصدر عن صدر مسجور ينفث حقداً وغضبا على ما لقى من السجن والتكيل بشخصه .

بدأ رسالته بوصف الرحلة حتى بلغ الاسكندرية بحراً قائلاً : «وكم بر خرقت مخارمه وفجاجه، وبحر شققت غواربه وأمواجه، وليس لى غير مصر مقصد، ولا وراءها مذهب، ولا دونها للغنى مطلب :

وكم فى الأرض من بلد ولكن — عليك لشقوتى وقع اختيارى. »

ويمضى ويقول : «ولم تطل مدة اللبث حتى تبينت بما شاهدته أنى فيها منحوس البضاعة، موكوس الصناعة، مخصوص بالإهانة والإضاعة ،وأن عيشها الرغد مقصور على الوغد، وعطاءها المر موقوف على الحر، فلو تقدم فعلمت ذلك لخف عنه مركبى، وصرفت إلى سواها وجه مطلبى..» حتى يقول.. بل نشطت حتى تورطت، وحتى عوملت بما يعامل به ذوو الجرائر والذنوب، وجرعت من الذلة بأوفى نصيب. هذا مع ما حبرته من المدح التى اشتهرت شهرة الصباح وهبت هبوب الرياح ولهج

بها الحادى والملاح .

فسار بها من لا يسير مشمراً   وغنى بها من لا يغنى مغرداً».

فالرجل جاء إلى مصر طامعاً طامحاً، لكنه اتخذ سبيله إلى غايته بوسائل خارج علمه وطاقته، مدعياً ما لا يتقن حتى اكتشف أمره، فكان جزاؤه ما كان، وما كان ذلك ذنب المصريين، بل إن الذنب يقع عليه وعلى جرأته وادعائه مالا يحسن، وتقربه بالزلفى أحياناً بما نظم من القصائد قصداً إلى ما يريد، متوقعاً من سامعه الغفلة وتصديق ما يدعى، فلما انكشف أمره لقى جزاء ما فعل والذنب ذنبه .

ولتتم فصول وصوليته، وطموحه لجأ إلى من رأى عندهم مأوى يأويه، وعطفاً يبديه، وهو أبو طاهر يحيى صاحب المهدية لما بينه وبين المصريين من إحن ومحن منذ عهد المتنصر بالله ، فقدم القول فى الرسالة المصرية بخيبة الأمل فى مصر التى ظنها جنة المأوى، فخاب سعيه، وتقرب إلى أعدائها لعله يبلغ عند من نزح إليهم مغنماً افتقده، وإنه لبالغه بما تقرب إليهم به من مديح يبدو واضحاً بعد ذمه فيمن ترك بمصر إذ يقول :

«إلا أن الله جلت آلاؤه، وقدست أسماؤه، تدارك برحمته، فأزال تلك المنحة بالمحنة، ونسخ تلك النقمة بالنعمة، وختم بالوصول إلى حضرة الملك الأجل أبى طاهر يحيى بى تميم ابن المعز بن باديس الذى لم تزل حضرته معاذ الجناة، ومراد العفاة ومجتمع الفضائل، ومنتجع الأفاضل، ومشرع الجود ومشعر الوفود .. إلى آخر هذه الزلفى الواضحة التى تكشف حقيقة دوافع أمية وراء تأليف هذه الرسالة، وتنم بوضوح عما بين سطورها من هوى وقول لا يصدر عن منصف لبلد استضافه زمنا يطول إلى ما يقرب من عشرين عاماً، ينهم بنعمه، ويلقى من أهله كل ترحاب، وكان يمكنه أن يظل كذلك مستظلا بظله لو أحسن العمل وصدر عن صدق فيما أمل ورغب.

ويصف ما جاء برسالته من موضوعات فيقول :

«وأنا أبتدئ بذكر هذه البلاد وموقعها فى المعمورة، ومجرى النيل منها، وغنائه فيها، وأشفع ذلك بنبذ من ذكر أحوال أهلها فى أخلاقهم وسيرهم، وعاداتهم، وما يتصل بذلك وينجز معه، ويجئ بسببه، ويدخل فى تضاعيفه .

ولا يقدر فى مجال الحديث على نكران فضائل مصر وأهلها، لكنه يأبى من حين إلى حين إلا أن يغمز ويلمز، ويمزج طيب ما هو الحق بباطل ما يضمر من نفثات الهوى والحقد.

فمن طيب ما لم يستطيع إنكاره طبيعة مصر بنيلها وبساتينها وما قيل فيها من الشعر وأنشده هو فيها إعجاباً، لكنه لم يصرح بأنه القائل بل قال : فقال فى ذلك بعضنا – لو لم يكن هذا البعض سواه – لأنه خشى التصريح حتى لا يقال إنه معجب بما ترك، وإن كان الإعجاب يغلبه على الإنكار، لكن الزلفى إلى السيد الجديد تحجبه .

ومما غمز فيه ولمز بغير حق اتهامه المصرين فى عصره بخلو علومهم من الحكمة التى كانت لقدمائهم. يقول بعد ذكر جماعة من حكمائها الأولين : « .. فهؤلاء هم المشددون من أهل الحكمة بمصر فى ذلك الزمان، وأما زماننا هذا فقد دثر منها كل علم، وامحى رسمه، وجهل اسمه، ولم يبق إلا رعاع وغثاء، وجهلة دهماء، وعامة عمياء، وجلهم أهل زعارة، ولهم خبرة بالكيد والمكر» .

هذا الغمز واللمز والسب والصريح الذى يصدر من عالم أديب مثله أعماه الهوى عن أن يرى ما فى مصر من علماء وحكماء درسوا بدار الحكمة وتخرجوا فيها، ومنهم الحسن بن الهيثم وغيره من أطباء كابن رضوان .

ولا نود أن نعدد ما جاء بالرسالة من هذا اللون الذى انطوت عليه من هجاء أعاد به إلى الأذهان هجاء من جاء قبله إلى مصر من الشعراء والأدباء، ولم يحققوا ما جاءوا من أجله، فانقلبوا حاقدين يسبون ويشتمون كأبى نواس والمتنبى. وإن كانت شتائم المتنبى سارت بسيرورة شعره، وبكثرة ما قال فى مصر وأهلها فى سياق

حجاته لكافور؛ فالرسالة بعد هذا كله هامة لأنها تتحدث عن كثير من شئون مصر وبعض رجالها وشعرائها وتحفل بنصوص ومعارف كثيرة تضيف إلى معارفنا بالعصر وتزيدنا به علما .

وقد اعتمد الأستاذ هارون فى تحقيق هذه الرسالة على النسخة الوحيدة فى العالم والموجودة بالتيمورية. ونقلت بعضاً منها مصادر أخرى أفاد منها فى قراءة النص إلا أن بعض القراءات التى وردت فى النص المطبوع لا توافق السياق، وليس هذا مجال الحديث عنها .

وهذا بالضرورة مما يقع للمحقق نتيجة الاعتماد على نسخة مفردة .

وأما عن بقية رسائل هذه المجموعة فهى أقل أهمية من هذه الرسالة لاتصالها ببعض أسماء الأعلام وتراجمهم مما لا يقع فى دائرة اهتمام جماعة القراء من غير الباحثين فى التراث .

والمجموعة الثانية تشمل :

١ – كتاب خطبة واصل بن عطاء المعتزلى المتوفى عام ١٤١ هـ

٢ – كتاب أبيات الاستشهاد لأحمد بن فارس المتوفى عام ٣٩٥ هـ

٣ – رسالة فى أعجاز أبيات تغنى فى التمثيل عن صدورها لأبى العباس محمد يزيد المبرد المتوفى عام ٢٨٥ هـ

٤ – كتاب العصا لأبى المظفر أسامة بن منقذ المتوفى عام ٥٨٤ هـ

٥ – رسالة التلميذ لعبد القادر بن عمر البغدادى المتوف عام ١٠٩٨ هـ

ومعظم هذه المجموعة غير نادرة فى موضوعها، فهى مبذولة وبعضها متكرر فى كتب قديمة وموسوعات أدبية، وأعنى خطبة واصل بن عطاء المشهورة التى حذفت منها حرف الراء أوردها الجاحظ فى كتاب البيان والتبين وأشاد بها الشاعر بشار بن برد ويصاحبها حيث يقول :

أبا حذيفة قد أوتيت معجـــزة   من خطبـــة بدهت من غير تقدير

ويقول مرة أخرى عن واصل ممتدحاً :

فقـــام مرتجلاً تغلى بداهتــه   كمرجـل القين لمـا حف باللهب
وجانب الراء لم يشعر به أحد   قبل التصفح والإغراق فى الطلب

وأما الرسالتان الثانية والثالثة فيما يستشهد به من أبيات شعرية وأعجاز أبيات تجرى مجرى الأمثال، وجُلها أو معظمها مما تضمنته كتب الأمثال المعروفة أو بعض الكتب الأدبية الجامعة، فموضوعها ليس جديداً ولا نادراً، وربما كانت ندرتها فى تقدير المحقق لعدم شهرتها ولمكانة صاحبيهما أعنى أحمد بن فارس والمبرد، وهما من نعرف من تقدمهما فى اللغة والأدب .

وأما الرسالة الرابعة «كتاب العصا» لأسامة بن منقذ فهى وإن كانت غير نادرة الموضوع، فقد سبق إليه الجاحظ فى كتاب البيان والتبين الجزء الثالث، وإنما جرى ابن منقذ على أعقابه، ونقل عنه، وإن لم يقف على مؤلف الجاحظ كما حدثنا المحقق فى تقديمه إذ يقول : «وليس هذا العنوان من ابتداع أسامة ... ويدور فى خلدى أن ذلك الكتاب عن «العصا» الذى ظل أسامة يبحث منه دهراً - كما ذكر - إنما هو كتاب «العصا» للجاحظ، وهو من مشتملات كتاب البيان والتبين».

ومحور الحديث فى كتاب العصا للجاحظ، وكما هو عند أسامة هو الدفاع عن العرب ضد مزاعم الشعوبيين الذين ذكروا بين مثالب العرب أنهم يعتمدون فى خطبهم على العصا ويتكئون على القوس وليس بين الكلام والعصا سبب.

وينبرى الجاحظ لبيان فضائل العصا، وشرح أسباب إمساك العرب بها فى حلهم وترحالهم، وبالضرورة فى خطبهم فى المحافل والمنافرات.

وكان الجاحظ يتصدى للدفاع عن العرب والإسلام ضد هجمات الشعوبيين من الفرس وغيرهم . وربما استدعى رغبة أسامة فى إعادة الحديث عن العصا باعتبارها رمزاً للعروبة وموطن معجزة موسى عليه السلام كما حدث القرآن الكريم بسبب تعرض العرب فى عصر أسامة لهجمات الفرنج ومحاولة التقليل من شأنهم فى

حربهم الدعائية التى قدموها بين أيدى حروبهم الصليبية .

ولم يزد كتاب ابن منقذ فيما أورده من حجج على ما ذكره الجاحظ بل ربما كان كتاب الجاحظ أوفى وأشمل، وأكثر براعة فى الجدل والبرهان .

وإنما أضاف ابن منقذ إلى كتابه بعض ما عرض له فى حياته من أحداث، وما تلقاه من أخبار «ولا سيما أخبار الصالحين والزهاد» مع بعض أخبار الفرنجة وإبداء رأيه فى أخلاقهم وسياستهم فضلاً عما أورده فى ثنايا ذلك من شعره . فالكتاب مفيد من هذا الجانب .

وقد اعتمد فى تحقيقه لهذا المخطوط على نسخة من ثلاث نسخ قال إن الدكتور أحمد أمين أرسلها إليه، وأشار إلى أن يقوم بتحقيقها .

والرسالة الخامسة والأخيرة فى هذه المجموعة وهى «زبالة التلميذ» فريدة فى اسمها وتقتضينا الوقوف عندها للتعرف عليها واستيضاح مضمونها .

يبدأ عبد القادر البغدادى فى مقدمته بالتعريف بكلمة التلميذ ومن يرى أنها غير عربية الأصل «فإنى لم أجد هذه الكلمة مذكورة فى كتب اللغة المتداولة .. كالجهرة لابن دريد، والصحاح للجوهرى، والمحكم لابن سيده، والعباب للصاغانى والقاموس لمجد الدين الفيروزبادى وغيرها إلا فى لسان العرب لابن مكرم؛ فإنه أورده فى مادة تلمذ وقال التلاميذ الخدم والأتباع، واحدهم تلميذ».

وهكذا يتضح من فحوى الرسالة أنه يحاول البرهان على صحة أصل الكلمة فى العربية متخذا لذلك مختلف سبل البرهان وأدلته . ويبدو أن المحقق يرى مع غالبية علماء اللغة ضعف صلة الكلمة بالعربية وأنها ربما كانت فى الأصل سريانية معربة. فهو يخالف بذلك مؤلف الرسالة عبد القادر البغدادى .

ويعتمد الأستاذ هارون على ثلاثة نسخ مخطوطة بدار الكتب المصرية .

وأما المجموعة الثالثة فتشمل على رسالة ابن غرسية فى الشعوبية وأربع رسائل فى الرد عليها .

وقضية الشعوبية قديمة فى التاريخ العربى الإسلامى، ولها تداعيات وآثار كثيرة فى الحياة والمجتمع، وفى الفكر والأدب منذ القرن الأول للهجرة، وكان من أسباب اشتغالها ما اتجه إليه الأمويون من عصبية للعرب ومعاملة الموالى من الأصول غير العربية معاملة غير كريمة أحيانا مما أثار حفيظتهم، وكان معظم هؤلاء من الفرس الذين عز عليهم هذا الوضع وهم أصحاب الحضارة والسلطان أيام أن كان العرب رعاة شاة وإبل. وكان من بين من عرفوا بالشعوبية من كبار العلماء فى القرنين الثانى والثالث بشار بن برد الشاعر وأبو عبيدة الأخبارى اللغوى الذى ألف الكتب فى مثالب العرب، كما اتهم الكاتب سهل بى هارون بذلك .

وتحدث الجاحظ عن الشعوبية، ورد عليهم فى كثير من كتبه .

ورسالة ابن غرسية من ذيول تداعيات هذه القضية فى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى عصر ملوك الطوائف. وصاحبها من الموالى من أصل غير عربى. وكان من الكتاب البلغاء تشهد على ذلك هذه الرسالة .

ويشارك ابن غرسية شعوبية المشرق فى بعض آرائهم، لكنه ينفرد عنهم فى جوانب، أهمها أن الرسالة شخصية، وجهها إلى زميل له من الكتاب وكان أكثر حذرا فى موقفه من الإسلام، وأكثر تركيزا على العرب وبداوتهم وقلة حظهم من الحضارة قبل الإسلام، ووازن بين الصفات الطبيعية والخصال الخلقية عند العرب وغيرهم من العجم وأصحاب الحضارات القديمة. فمن حيث الصفات الخلقية فضل بياض العجم «الإفرنج» على سمرة العرب، وقارن بين حياة العرب البدائية وحياة الحضر والعيش الرضى الذى تنعم به العجم . .

كما رمى العرب بحبهم للشهوات .. إلى غير ذلك مما نجده مبثولا فى الكتب التى تعرضت للموضوع .

ويعرض لفخر العرب بالإسلام والنبى محمد صلى الله عليه وسلم، فيرد عليهم غرسية أنه لا فخر فى ذلك للعرب «فإن التبر من الترب، والمسك بعض دم الغزال» .

وقد رد جماعة من علماء الأندلس والمغرب وغيرهم على ما قال في الرسائل الأربع التي جاءت في هذه المجموعة .

يبقى المجموعة الرابعة والأخيرة فى هذا المجلد وتضم رسالتين هما :

- رسالة فى شرى الرقيق، وتقليب العبيد لابن بطلان

- وهداية المريد فى شراء العبيد لمحمد الغزالى

وصاحب الرسالة الأولى ابن بطلان من نصارى العراق فى القرن الخامس الهجرى. عرف بالطب والحكمة، وعمل بالطب فى العراق زمنا، رحل بعده إلى حلب وبعض مدن الشام، وجاء إلى مصر فدخل الفسطاط سنة ٤٤١ هـ فى عصر الفاطميين، وأقام بها زمنا ثم خرج منها إلى الشام واستقر بأحد أديرة أنطاكية حتى وفاته .

ويعرض فى رسالته لتجارة الرقيق فيرى أنها كغيرها من التجارات يحاول أصحابها أن يدلسوا على المشترين أحياناً ليروجوا تجارتهم، وكانوا يلجأون إلى مختلف الحيل من ذلك مما أوجب أن يؤلف ابن بطلان رسالته ليبصر المشترين ببعض ما يلجأ إليه أولئك النخاسون لإخفاء العيوب فى أجساد وأوجه من يجلبون من الإماء والعبيد. وباعتباره طبيباً خبيراً فقد دل الناس على ما ينبغى التنبه إليه عند الشراء، حتى لا يقع المحظور وتكتشف الخدعة بعد ضياع المال فى بضاعة فاسدة كعبد السوء الذى يجلب لصاحبه الندم والحسرة، أو الأمة التى يتستر قبحها تحت قناع مصنوع فتصبح علة لشاريها بعد أن أمل فيها متعة وخيراً .

والرسالة الثانية تدور فى الموضوع نفسه إلا أن صاحبه رجل مغمور ليس فى شهرة صاحب الرسالة الأولى متأخرة الزمن من العصر العثمانى، ليس له خبرة ولا علم صاحب الرسالة الأولى الأمر الذى انعكس على رسالته شكلاً وموضوعاً .

وهكذا نرى أن موضوع الرسالتين مما لا يوافق العصر الذى نعيشه فى القرن الواحد والعشرين، وقد قضى على الرق منذ القرن التاسع عشر. وربما واجه المحقق

الأستاذ عبد السلام هارون بعض الحرج فى إقدامه على نشر الرسالتين لمنافاتهما لروح العصر وإن كانتا قد آلفتا فى زمن شرع فيه الرق. لهذا رأى من المناسب أن يقدم للرسالتين بحديث يرفع عنه الحرج بنشر الرسالتين إذ يعرض بقدم هذا النظام، وتأصله فى المجتمعات والحضارات القديمة منذ أقدم العصور عند المصريين القدماء والفرس والإغريق والرومان، وهو عند اليهود والعرب من قديم. فهو من ركائز الأنظمة والحضارات الإنسانية المعرقة، أخذ به العرب، وسمح به الإسلام ولم يواجهه التشريع مواجهة حاسمة كما واجه بعض العقائد والعبادات فحرمها تحريما تاماً ووقف من بعضها موقفاً متدرجاً، خاصة فيما لا يتصل بلب عقيدة «التوحيد»، وحول بعض الطقوس العربية القديمة كالحج إلى طقس إسلامى بعد أن كان طقساً وثنيا، ووقف من عادة شرب الخمر وهى قديمة منتشرة فى المجتمعات الإنسانية منذ القدم، وتساهلت معها بعض الديانات فوقف الإسلام من الخمر وتحريمها، موقفا متدرجاً، وكذلك فعل مع الرقيق، وإن كان الإسلام قد انتهى إلى تحريم الخمر، ولم يقض بتحريم الرقيق بل دعى إلى التخفيف منه، وشجع على القضاء عليه أو الامتناع عنه بوسائل شتى وإن لم يحرمه بنص قاطع كما فعل مع الخمر ومن هنا ظل الرق فى المجتمعات الإسلامية معمولاً به طوال ثلاثة عشر قرناً حتى انتهى باتفاق العالم على تجريمه .

وعلى ما فى الرق من جوانب سلبية إلا أن الرقيق من الجوارى والموالى كانت لهم آثار إيجابية فى الطرب والغناء والموسيقى وإشاعة روح الجمال وتربية الذوق بغرس حب الفنون ونقل ما توارثوه من مجتمعاتهم المتحضرة، أو احتراف بعض تلك الفنون بما تحرج العرب من ممارستها فسلموا بها للموالى والإماء .

وبعد فإن هذه المجموعات الأربع من الرسائل على اختلاف عصورها وتنوع موضوعاتها تحيى جوانب من التراث وتلقى الضوء على بعض جوانبه يجل نفعها، وتصل ماضينا بحاضرنا .

نوادر المخطوطات

المجموعة الأولى

١ ـ الرسالة المصرية، لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي المتوفي سنة ٥٢٨

٢ ـ كتاب المردفات من قريش، لأبي الحسن علي بن محمد المدائني المتوفي سنة ٢٢٥

٣ ـ كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء، صنعة محمد بن حبيب المتوفي سنة ٢٤٥

٤ ـ تحفة الأبيه، فيمن نسب إلى غير أبيه، لمجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الفيروز ابادي المتوفي سنة ٨١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هـذه المكتبة العربية التي كانت منار الثقافة الإنسانية دهراً طويلا ، ولا تزال تشع من نورها وضيائها على جنبات الدنيا ، وتتغلغل تغلغلا عميقاً فى زوايا الحضارات على شتى أصولها . هـذه المكتبة لم تلق بعد ما تستوجب من عناية ، ولا ما تستحق من خدمة واجبة . وكنت ولا أزال أتحدث بجهد إخواننا فى العلم المستشرقين ، الذين بادروا إلى إنقاذ الكنز فكان لهم بذلك فضل التنبيه .

وكان مما صنع الله لهذه الكنوز أن قيّض لإثارتها ، ونفض غبارها، طائفةً ممن نصبوا أنفسهم لهذا العمل الجهد الشاق ، يبغون بذلك الإسهامَ فى نشر العلم ، وفى بيان أمجاد الغابرين من الأجداد ، وتوطيد الصلة بين علمهم الأصيل ومعارفنا المستحدثة . وأذكر فى طليعة هؤلاء الناشرين الرجل العبقرى المرحوم « السيد محمد أمين الخانجى » ، الذى أمد المكتبة العربية بعدد هائل من المطبوعات العربية التى لو لم تمتد يده إليها لبقيت إلى الآن مطمورة فى النسيان . وأذكر معه العلامة المحقق الجليل المغفور له «أحمد زكى باشا» ، وهو أول عربى أشاعَ أساليب النشر الحديثة ونظم الطبع الجديدة فى كتبنا هذه العربية ؛ فلهما من الله الرحمة والجزاء لقاء ماقدما من فضل عظيم .

وإنه لما يثلج الصدر أن تتجه جامعاتنا المصرية اتجاهاً جديداً إزاء طلابها المتقدمين للإجازات العلمية الفائقة ، إذ توجههم إلى أن يقدموا مع رسالاتهم العلمية تحقيقاً لمخطوط يمت بصلة إلى موضوع الرسالة ، وعسى أن يأتى اليوم الذى يكون فيه هذا الأمر ضريبة علمية لابد من أدائها .

وكان مما صنع لىَ الله أن ألفيت نفسى فى أطراف ميدان النشر العلمى أكافح فيه والسلاح ضعيف ، فما أزال أجمع سلاحًا إلى سلاح ، وأقتحم الصعاب إثر

الصعاب ، وإنا فيما بين ذلك أستلهم الله العون والتوفيق ، فيمدني بسَيْب منه وفيض كريم ، وكلما ظننت أنى قد رويت غلة النفس زاد مابى من ظمأ إلى مزاولة هذا الجهاد الصادق .

وقد رأيت أن همة الناشرين المحققين تتجه فى أغلب ماتتجه إلى المخطوطات ذات الشهرة الظاهرة ، وإلى ما جلَّ مقداره من كتب السلف ، مُغْفِلين فى أكثر الأمر هذه الرسائل الصغيرة . وقديماً كان الناس كذلك ، إنما يروقهم مايملأ أبصارهم، ومايروعهم بجسامته وعِظَمه ، ورب أسد مَزِير فى أثواب رجل نحيف!

فصحَّ منى العزم على أن أكشف عن طائفة من هذه الكتب الصغيرة غطاءها ، وأقدم منها إلى جمهرة الباحثين مادة نادرة . وأن أجعل هذا فى مجموعات متتالية متسلسلة الأرقام والصفحات . وسيتكون من كل أربع مجموعات مجلد يقع فى نحو خمسمائة صفحة ، تنتهى بفهرس عام لما فيها من الرسائل .

هذا . وليس يفوتنى أن أذكر أن هذا العمل قد لقى منذ اللحظة الأولى فى التفكير فيه ، ترحيباً بالغاً من رجال العلم ، ووجدت فاتحةَ معاونةٍ جميلة من الأصدقاء الغُيُر ، إذ تكرم الأخ العلامة الشيخ سليمان بن عبد الرحمن الصنيع المكّى فبادر بإرسال مخطوط نادر نفيس نسخه بقلمه مقابلا على أصله ، هو « كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار ، وما فيها من المياه » لعرام بن الأصبغ السُّلَمىّ . وسيظهر إن شاء الله فى المجموعة الثانية من نوادر المخطوطات .

وإنى إذ أسجل لهذا الصديق شكراً عظيما على ما أسدى — لمرتقب إن أجد لهذا العمل التعاونى صدًى عند من تضم مكتباتهم أمثال هذه الكتب الصغيرة النادرة .

والله أسأل العونَ ، ولزام الصواب ، وصالحَ التوفيق ؟

القاهرة فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٠ عبد السلام محمد هارون

الرسالة المصرية

لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي

٤٧٠ ـ ٥٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نزح كثيرون من رجال الأندلس إلى الشرق طلباً للعلم أو المال أو الجاه ، أو رغبةً فى أداء فريضة الحج ، وكان من أولئك النازحين إلى مصر رجلٌ جَمَع إلى الأدب الحكمة ؛ وإلى الطب التنجيمَ والموسيقى والرياضةَ والبراعة فى علم الحيَل . هذا الرجل هو أبو الصَّلت أُمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت ، المولود فى مدينة دانية ، من بلاد الأندلس سنة ٤٧٠ هـ .

قدِمَ أبو الصلت إلى الإسكندرية ومعه أُمُّه — فيما يروى ابن خَلِّكان — سنة ٤٨٩ ، أى فى أيام الخليفة الفاطمى المستنصر بالله أبى تميم معدّ بن الظاهر بالله علىّ بن الحاكم بأمر الله ؛ ووزيرُه إذ ذاك والقائمُ بأمر دولته الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالى الأرمَنى .

وكان يأمُل أبو الصلت من وراء رحلته هذه بسطة فى العيش ، وثَراءً من المال ، كما أشار إلى ذلك فى صدر رسالته . ويبدو أنه ظل دهراً خاملا يتحيَّن الفرص ، إلى أن أتيح له أن يتَّصل بأحد المقرَّبين إلى الوزير الأفضل[1] ، فى أيام الخليفة الآمر[2] ، وذلك الرجل هو تاج المعالى مختار[3] ، فخدمه بصناعتَيِ الطبّ

---

(١) بدأت وزارة الأفضل للمستنصر الفاطمى سنة ٤٨٧ بعد وفاة أبيه بدر الجمالى ، ثم وزر للمستعلى بالله أحمد سنة ٤٨٨ ، ثم للآمر بأحكام الله سنة ٤٩٦ . وقد استبد بهؤلاء الخلفاء جميعاً إلى أن تمكن منه الآمر ودبر مقتله ، فقتل سنة ٥١٥ . النجوم الزاهرة (٥ : ٢٢٢) .

(٢) هو الآمر بأحكام الله منصور بن المستعلى بالله أحمد بن المستنصر بالله . ولد فى سنة ٤٩٠ واستخلف وله خمس سنين ، وقتل سنة ٥٢٤ . انظر النجوم الزاهرة (٥ : ١٧) والخطط المقريزية عند ذكر « الجامع الأقمر » .

(٣) معجم الأدباء (٧ : ٥٤) .

والتنجيم ، فأعجب به ، ووصفه بحضرة الأفضل وأثنى عليه ، وكان كاتبُ الأفضل ينفَس عليه ذلك ، ويخشى بأس تاج المعالى ، وحدث أن تتابعت من تاج المعالى السقطات فأدى ذلك إلى أن يقبض عليه الأفضل ويعتقله ، فيجد كاتب الأفضل الفرصة سانحة للقضاء على أبى الصلت ، فيختلق له ما يدفع الأفضل إلى أن يلقى به فى سجن المعونة[١] بمصر ، مدة ثلاث سنين وشهر[٢] ، بعد الذى دبج فيه من المدائح والشعر[٣] .

ويروى ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء ، أن دخول أبى الصلت إلى مصر كان فى حدود سنة ٥١٠ هـ ، وأنه حبس فى الإسكندرية فى خلافة الآمر بأحكام الله ووزارة الأفضل[٤] . فإن صحت هذه الرواية كانت سنداً فى أن أبا الصلت ورد مرة أخرى بعد وفاة ولى نعمته أبى الطاهر يحيى بن تميم بن المعز ابن باديس[٥] المتوفى سنة ٥٠٩ ، وهى سنة خروجه من مصر .

---

(١) ذكر المقريزى هذا السجن عند ذكر الدار المأمونية المنسوبة إلى المأمون البطائحى . قال : « وكان بجوار الدار المأمونية حبس المعونة » . ثم قال : « ولم يزل هذا الوضع سجناً مدة الدولة الفاطمية ، ومدة دولة بنى أيوب ، إلى أن عمره الملك منصور قلاوون قيسارية أسكن فيها العنبرانيين فى سنة ٦٨٠ » . وقال : « وكان حبس المعونة هذا يحبس فيه أرباب الجرائم ... وأما الأمراء والأعيان فيسجنون بخزانة البنود » . والدار المأمونية هى المعروفة بالمدرسة السيوفية .

(٢) وقد روى المقرى فى نفح الطيب (١ : ٥٣٠ ليدن) رواية عجيبة : أن عمر أبى الصلت ٦٠ سنة ، منها ٢٠ فى أشبيلية ، و ٢٠ فى أفريقية عند ملوكها الصنهاجيين ، و ٢٠ فى مصر محبوساً فى خزانة الكتب .

(٣) انظر بعضها عند ابن أبى أصيبعة (٢ : ٥٣ ، ٥٦) .

(٤) ذكر ابن أبى أصيبعة سبب حبسه فى الإسكندرية : أن الأفضل طلب إليه أن يعمل الحيلة فى رفع مركب غارق فى البحر ، فاجتهد أبو الصلت ، ولكنه حينما قارب النجاح خانه جده ، فهبط المركب إلى قعر البحر ، بعد ما تكبد الدولة خسائر فادحة ، فحبسه الأفضل لذلك .

(٥) ملك أبو الطاهر يحيى بن تميم ، المغرب سنة ٥٠١ واستقر فى ملكه إلى أن توفى سنة ٥٠٩ . انظر تاريخ طرابلس الغرب لابن غلبون (ص ٣٩ — ٤٠) .

ضاق أبو الصلت ذرعا بمصر ، وما لقى فيها من الخيبة والعنت . قال القفطى[1] :

« ودخل مصر فى أيام أفضلها فلم ينل منه إفضالا ، وقصده للنّيل فلم يجد لديه نوالا » . فحينئذ شد رحاله إلى المغرب فى سنة ٥٠٦ ، واستعاد صلته بحضرة أبى الطاهر يحيى بن تميم بن باديس ، الذى وضع له هـذه « الرسالة المصرية » يصف له فيها ما عاينه فى مصر وما عاناه ، وتناول فى هذه الرسالة القيمة :

١ — الوصف البلدانى للديار المصرية ونيلها .

٢ — ثم أخذ فى تصوير جمال ربوعها ومغانيها تارة بالشعر وأخرى بالنثر .

٣ — وعقّب على ذلك بالـكلام فى سكانها وأجناسهم ومذاهبهم وأخلاقهم وعقائدهم ، منذ عهد الفراعنة إلى ظهور الإسلام .

٤ — وتحدث بعد ذلك فيما تحتويه من الآثار العجيبة ، كالهرمين والبرابى .

٥ — وذكر عواصم مصر فى القديم والحديث .

٦ — وقدامى العلماء من اليونان والروم ، مستطرداً بذلك إلى ندرة من لقيه بمصر من المشتغلين بالعلم والحـكمة والطب .

٧ — وعجب من جهل من لقى بها من الأطباء ، ونوه بفضل بعض الأطباء البارعين .

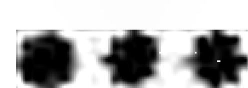
٨ — وتحدث فى ولوع المصريين بأحكام النجوم وكثرة استعمالهم لهـا ، وأورد فى ذلك نوادر وطرائف .

٩ — ثم عرّج على ذكر من لقيه بها من الأدباء والظرفاء .

فهذه الرسالة تضرب بأسباب إلى علوم وفنون شـتى ، وتعدّ اليوم كما عدت

(١) انظر إخبار العلماء القفطى (ص ٥٧) طبع السعادة .

بالأمس ، وثيقة يرجع إليها البلدانى ، والمؤرخ ، وباحث الآثار ، والاجتماعى ، والحكيم ، والطبيب ، والمنجم ، والأديب .



هذه الرسالة الصغيرةُ الحجمِ العظيمة القدر كانت متعارَفة متداوَلةً بين كبار العلماء والمؤرِّخين ، ثم أضحت نادرةً مجهولة ، إلى أن تمكَّن المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا — طيب الله ثراه — من اقتنائها فى مكتبته الخاصة ، وهى برقم ٦٠١ أدب . وعلى هذه النسخة الوحيدة فى العالم — كما يتَّضح من مراجعة فهارس بروكلمان (١) — أعتمِدُ فى نشر هذه الرسالة الفريدة ، التى أورد طرفاً منها ياقوت فى « إرشاد الأريب » ، والعماد فى « الخريدة » ، والقفطى فى « إخبار العلماء » ، وابن أبى أُصيبعة فى « عيون الأنباء » والأسعد بن مماتى فى « قوانين الدولة » ، والمقَّرى فى « نَفح الطيب » ، والمِقريزى فى « الخطط » ، والأدفوى فى « الطالع السعيد » ، والسّيوطى فى « حسن المحاضرة » ، كما سيتضح لك عند تحقيق نصوصها .

ولأبى الصلت غير الرسالة المصرية « كتاب الحديقة » على أسلوب « يتيمة الدهر » للثعالبى ، وقد نقل منه العماد فى « الخريدة » . وله أيضاً « الأدوية المفردة » وهو محفوظ فى مكتبة بودليان ، و « رسالة فى العمل بالأسطرلاب » فى برلين وليدن و بودليان ، و « تقويم الذهن » فى المنطق ، بمكتبة الإسكريال ، و « أوراق من كتاب فى الفلك » بالإسكريال ، و « كتاب فى المعانى المختلفة للفظة نقطة » فى مكتبة ليدن ، « قصيدة » بمكتبة برلين .

---

(١) انظر بروكلمان (١ : ٤٨٦ — ٤٨٧) وملحقه الأول (ص ٨٨٩) . على أننى عثرت فيما بعد على قطعة من الرسالة المصرية فى دار الكتب المصرية برقم ٣٥٤ تاريخ ، سأنبه على موضع بدئها ونهايتها فى الحواشى .

وقد صنف معظم هذه الـكتب وهو فى اعتقال الأفضل بمصر ، كما نص ابن خلـكان .

***

انتهت أيام أبى الصلت فى المهدية ، وقد اختلف المؤرخون فى سنة وفاته ، فقيل سنة ٥٢٠ وقيل سنة ٥٢٨[١] .

وإليك الرسالة :

(١) انظر ترجمته عند ياقوت (٧ : ٥٢) وابن خلـكان (١ : ٨٠) والقفطى (٥٧) والمقرى (١ : ٥٢٠) وابن أبى أصيبعة (٢ : ٥٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت رحمه الله تعالى :

كنت إبانَ عصرُ الشباب مونقٌ ، وغصن الصِّبا مورق .

إذْ لِمَّتِي مســودةٌ ولمـاء وجهي رونق[١]

ممن سامحه الدهرُ بغَفْلة من غفلاته ، وتجافى له عن غفوةٍ من غفواته ، فعاش آمِنَ السِّرْب ، سائغَ الشِّرب ، لا يتفرَّغ من أدبٍ يرود رياضه ، ويرِدُ حِياضَه ، إلا إلى طربٍ يعمُر مَيدانَه ، ويسحب ذيولَه وأردانه . ثم تلوَّن فقلب لى ظهر مِجَنِّه ، وسقانى دُرْدِيَّ دنِّه ، فتدارك ما أغفلَه ، واستردَّ ما بذلَه ، واضطُرِرْتُ إلى مفارقة الوطن ، والخروج عن العطن ، فتماسكت إشفاقا من مفارقة أولِ أرضٍ مسَّ جلدى ترابُها ، وشُدَّتْ علىَّ التمـائم بها[٢] . وجاءت أمورٌ لا تطاقُ كِبار . فلمـا لم يمكن القرار ، ولم يبقَ إلا الفِرار ، قلت : ليس لى إلا أن أرمىَ بنفسي كلَّ مرمًى ، وأطرحَها كلَّ مَطرَح .

لأُبلِـغ عُذراً أو أنالَ رغيبةً ومُبلغُ نفسٍ عذرَها مثلُ مُنجِحِ[٣]

وسكنت إلى البيت المشهور :

---

(١) اقتبسه من قول أبى الطيب المتنبي وتصرف فيه :

ولقد بكيت على الشـباب ولمتى مسودة ولمـاء وجهى رونق

(٢) اقتباس من قول رقاع بن قيس الأسدى :

بلاد بهـا نيطت علىَّ تمـائمى وأول أرض مس جلدى ترابهـا

اللسان (نوط) وأمالى القالى (١ : ٨٣) .

(٣) اقتبسه كذلك من قول عروة بن الورد ، ورواه أبو تمام فى الحماسة (١ : ١٨٨) :

ومن يك مثلى ذا عيـال ومقتراً من المـال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عـــذراً أو يصيب رغيبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

تلقَى بكلّ بلادٍ إن حللتَ بها أهلاً بأهلٍ وأوطاناً بأوطان[١]

وإن كان يقول العامّة ليس بين بلد وبلد نسب ، فخير البلاد ما حملك .

فجعلت أستقرِى البلادَ لأتيمّمَ أوفقَها للمُقام ، وأعونَها على مقارَعة الأيام ، فكانت مصرُ مما وقع عليه اختياري ، وصدَّقتْ حسنَ ظني قبل اختباري ، وسرتُ قاصداً إليها أعتسِف المجاهل والتنائف ، وأخوضُ المهالكَ والمتَالف ، فطوراً أمتطي كلَّ حالكة الإهاب[٢] ، مسودّة الجِلباب ، ثابتةٍ كصِبغة الشباب ، قد فُسِح ميدانُها ، ووُضع براحة الرِّيح عنانُها ، فجرت جرىَ الطِّرف الجموح ، وفاتت مدى الطَّرف الطموح ؛ وطوراً كلَّ نقِبِ الأياطل ، كالهياطل[٣] ، سَبِط المشافر جعد الأشعار ، احتذى العقيقَ ، أو الصِّنو الشقيق ، إن علا قلتَ ظليمٌ خاضب ، وإنْ هوَى قلت شهابٌ ثاقب ، يصل الذَّميل بالوِخاد[٤] ، ويلتهم التهائم والنِّجاد . فكم جِزْعِ وادٍ جزَعتُه ، وجلبابِ ليل ادَّرعته ، وكم برٍّ خرقت مَخارمه وفجاجَه ، وبحرٍ شققت غواربَه وأمواجه ، وليس لى غيرَ مصر مقصدٌ ، ولا وراءها مذهَب ، ولا دونها للغنى متطلَّب .

وكم فى الأرض من بلدٍ ولكن عليك لشقوتى وَقَع اختيارى

فلما تغمَّرتْ رِكابى من النيل ، واستذْرَت بظلِّ المقطم ، ألقيتُ عصا التَّسيار ، واستقرَّت بىَ النَّوى ، وخفَّفت ظهورهن من الرِّحال ، وأرحتُهنَّ من الحِلِّ والتَّرحال ، وقلت : ضالّتي المنشودة ، وبُغيتي المقصودة ، ها هنا ألبثُ وأقيم ، فلا

---

(١) البيت من أبيات الحماسة (١ : ٩٨) . وقبله :

لا يمنعنك خفض العيش فى دعة نزوع نفس الى أهل وأوطان

(٢) يعنى السفينة .

(٣) إنما نقبت أياطله من إدمان السير . والنقب ، هنا : تنفط الجلد . والهياطل : جمع هيطل ، وهو الذئب ، يشبه به الفرس فى شدة العدو . وفى الأصل : « نقب الأياطيل كهياطيل » .

(٤) المسموع فى مصدر وخد هو الوخد والوخدان .

أبرح ولا أريم ، « بلدة طيّبة وربٌّ غفور » . وحيث التفت فروضة وغدير ، وخورنق وسدير ، وظِلّ ظليل ، ونسيم عليل .

وكم تمنّيت أن ألقى بها أحداً ... يُسلِي من الهم أو يُعدِي على النُّوَب (١)

فما وجدتُ سوى قوم إذا صدقوا ... كانت مواعيدهم كالآل في الكذب (٢)

وكان لي سببٌ قد كنت أحسَبني ... أحظَى به فإذا دائي من السَّبب

فما مقلِّمُ أظفاري سوى قلمي ... ولا كتائبُ أعدائي سوى كتبي (٣)

ولم تطُلْ مدة اللُّبث حتى تبيّنْتُ بما شاهدتُه أني فيها مبخوسُ البضاعة ، موكوس الصناعة ، مخصوص بالإهانة والإضاعة ؛ وأنّ عيشَها الرغدَ ، مقصور على الوغد ، وعقابَها المرّ ، موقوف على الحُرّ ، فلو تقدّمت فعلمت ذلك لخفّ عنها مركَبي (٤) وصرفت إلى سواها وجهَ مطلبي ، ولكان لي في الأرض مرمًى شاسع ، ومُنتابٌ واسع ، بل تثبّطت ، حتى تورّطت ، حتى عوملت بما يُعامَل به ذوو الجرائر والذنوب ، وجرَعت من المذلة بأوفى ذَنوب . هذا مع ما حبّرته من المِدَح التي اشتهرت شهرةَ الصَّباح ، وهبَّت هبوبَ الرياح ، ولهِج بها الحادى والملاّح (٥) .

فسار بها من لا يسير مشمِّراً ... وغنَّى بها من لا يغنِّي مغرداً

إلاّ أنّ الله جلت آلاؤه ، وقُدّست أسماؤه ، تدارك برحمته فأزال تلك المحنة بالمِنْحة ، ونسخ تلك النقمة بالنعمة ، وختم بالوصول إلى حضرة الملك الأجلِّ أبي الطاهر يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ، الذي لم تزل حضرته مَصَاد

(١) في الأصل : « من التوب » صوابه في ياقوت (٧ : ٨٠) والقفطى (٥٧) وابن أبي أصيبعة (٢ : ٦٠) . وقد اقتبس هذه الأبيات من شعر له قديم ، كما يفهم من رواية ابن أبي أصيبعة .

(٢) في الأصل : « كالألف » ، صوابه في ياقوت والقفطى وابن أبي أصيبعة

(٣) في الأصل : « كتائب أعواني » ، والصواب من المراجع المتقدمة .

(٤) في الأصل : « لخف » .

(٥) انظر مديحه للأفضل في ابن أبي أصيبعة (٢ : ٥٦) .

العُناة[١] ، ومَراد العُفاة ، ومجتمَع الفضائل ، ومنتجَع الأفاضــل ، ومشرعَ الجود ، ومشعَر الوفود . فلما استترت بجناحه ، واستظهرت باستماحه ، أعذب لى بسماحة الدهر جناه ، واعتذر لى مما جناه ، فكفّ دونى كفّه ، وصرف عنى صَرفه .

كريم رفضت الناس لما بلغته كأنهم ماخفّ من زاد قادم

فكنت فيما مضيت عليه ، وآلت حالى إليه ، من إشراقها بعد الأفول ، وإيراقها بعد الذبول ، كنصل أهمَلَ أمرَه ، من جهل قدره ، ولما وقع إلى الخبير به صان صفحتَه وحدَّه ، وحلّى حمائله وغِمدَه ، ثم ادَّخره فيما يدَّخر وأعدَّه ، فإن انتضاه ، يوماً ارتضاه ، وإن جرَّده ، أحمَدَه ، وإن هزّه ، سرّه فى الضريبة حزّه . ولكن أبى الله أن يكون الفضل إلا لمن نشأ فى مغارسه ، ونجم فى منابته ، ورَبِىَ فى حجره ، وغُذِى بدَرّه .

فلم أستسِغْ إلاَّ نَداه فلم يكن ليعدِلَ عندى ذا الجنابَ جنابُ
فما كلُّ إنعام يخفُّ احتمالُه وإن هَطلت منه علىَّ رباب[٢]
ولكن أجلُّ الصنع ما جلّ ربُّه ولم يأتِ بابٌ دونه وحِجاب
وما شئت إلا أن أدُلَّ عواذلى على أنَّ رأيى فى هواكَ صواب[٣]
وأُعلِمَ قوماً خالفونى فشرَّقوا وغرّبتُ أنى قد ظفرت وخابوا

والأَولى أن أضربَ عمّا سلف ، وأتركَ مافرَط ، وآخذَ فيما أجريت إليه وقصدتُه ، ونحوتُه واعتمدته ، ممّا آثرت به الحضرة السامية[٤] — أدام الله

(١) المصاد : موضع الصيد . والعناة : جمع عان ، وهو الأسير .
(٢) الرباب : سحاب يركب بعضه بعضاً ، الواحدة ربابة . وفى الأصل : « لدى ولامنه على » صوابه من ياقوت (٧ : ٥٩) ، وقافيته فيه « سحاب » .
(٣) البيت وتاليه للمتنبي فى ديوانه (١ : ١٢٧) برواية العكبرى .
(٤) فى الأصل : « الشامية » .

سموّها — من وصف ما عاينتُه من أرض مصر وعاينته ، والاقتصارِ على الذى رأيته دون ماورويته ، فليس من يقول : علمتُ هـذا من طريق العلم والسماع ، كمن يقول : تحققتُه بالمشاهدة والاطلاع ؛ فإنّ ذا اللب الأمينَ لا ينخدع بمحال ، ولا يرضى بانتحال .

* * *

وأنا أبتدئُ بذكر هذه البلاد وموقعها فى المعمورة ومجرى النيل منها ، وغَنائه فيها ، وأشفع ذلك بنبذ من ذكر أحوال أهلها فى أخلاقهم ، وسيَرهم وعاداتهم ، وما يتصل بذلك وينْجرُّ معه ، ويجىء بسببه ، ويدخـل فى تضاعيفه . وهأنذا آخذ فى ذلك ، وبالله أستعين ، وعليه التوكل .

* * *

[(١)]أرض مصر بأسرها واقعةٌ من المعمورة فى قسمى الإقليم الثانى والإقليم الثالث ، ومعظمهما فى الثالث .

وحكى المعتنون بأخبارها وتواريخها أن حدها فى الطول[(٢)] من مدينة برقة التى فى جنوب البحر الرومى ، إلى أيلة من ساحل الخليج الخارج من بحر الحبشة والزنج والهند والصين . ومسافة ذلك قريبٌ من أربعين يوما .

قالوا : وحدُّها فى العرض من مدينة أسوان وما سامتها من الصعيد الأعلى المتاخم لأرض النوبة ، إلى رشيد[(٣)] وما حاذاها من مساقط النيل فى البحر الرومى ، ومسافة ذلك قريب من ثلاثين يوماً . ويكتنفها من مبدئها فى العرض إلى منتهاها جبلان [أحدهما فى الضفة الشرقية من النيل ، وهو المقطم ، والآخر فى الضـفة الغربية منه . والنيل منْسرب فيما بينهما . وهما[(٤)]] أجردان غير شامخين ، يتقاربان

(١) الـكلام من هنا إلى كلمة « الاستقامة » نقله المقريزى فى (١ : ١٥ — ١٦) .
(٢) هذا تسجيل تاريخى بلدانى لما كانت عليه حدود مصر فى عهده .
(٣) فى الأصل : « لأرض الشام ورشيد » صوابه من الخطط .
(٤) التكملة من الخطط .

جدًا فى وضعيهما ، من لدنْ مدينة أسوان إلى أن ينتهى إلى الفسطاط ، فثَمّ تتسع مسافةُ ماينهما وتنفرج قليلا ، ويأخذ المقطم منهما مشرقًا والآخر مغربا على وِراب فى أخذيهما[١] وتفريج[٢] فى مسلكيهما ، فتتسع أرض مصر من الفسطاط إلى ساحل البحر الرومى الذى عليه الفرماء[٣] وتنيس ودمياط ورشيد والإسكندرية ، وهناك تنقطع فى عرضها الذى هو مسافة [مابين] أوغلها فى الجنوب و [أوغلها[٤]] فى الغرب والشمال . وإذا مامُسحت بالطريق البرهانية فى طريق هذه المسافة [من الأميال] لم تبلغ ثلاثين ميلا[٥] ، بل تنقص عنها نقصاً ماله قدر ، وذلك لأن فضل مابين عرض أسوان التى هى أوغلها فى الجنوب وعرض مدينة تنيس التى هى أوغلها فى الشمال ، تسعة أجزاء ونحو سدس جزء من الأجزاء التى بها تحيط الدائرة العظمى ، [وهى[٦]] ثلثمائة وستون جزءا . وليس بين طوليهما فضلٌ يقع بسببه فى هذا الحساب مالَه قدرٌ يعتدّ به . فإذا ضاعفنا هذا العدد بمايخصُّ الدرجةَ الواحدة من محاذاة ذلك من الأميال ، وذلك ستة وخمسون ميلا وثلثا ميل على مادل عليه البرهان ، كان ذلك[٧] نحو خمسمائة وعشرين ميلا بالتقريب ، وذلك مسافة سير عشرين يومًا أو قريب من ذلك[٨] . وفى هذه المدة من الزمان يقطع السُّفَّار أبداً ما بين هذين البلدين بالسير المعتدل فى أكثَرَ من ذلك قليلا ، لما فى الطريق من التعريج وعدم الاستقامة[٩] .

---

(١) فى الخطط : « مأخذيهما » .
(٢) فى الأصل : « وتعريج » صوابه فى الخطط .
(٣) فى الأصل : « الهرمان » وتصحيحه من الخطط .
(٤) هذه التكملة والتى قبلها من الخطط .
(٥) فى الأصل : « يوماً » ووجهه ما أثبت من الخطط .
(٦) ليست فى الأصل .
(٧) فى الأصل : « من ذلك » .
(٨) نقل عنه فى النجوم الزاهرة (١ : ٣٦) أنها ثلاثون يوماً .
(٩) إلى هنا ينتهى نقل المقريزى .

وليس تشتمل أرضُ مصر بعد الفسطاط الذى هو مقرُّ الملك وكرسيُّ الدولة، على مدائنَ لها قدرٌ فى كثرتها ولا فخامتها، لكن أجلُّ مدائنها وأفخرها أما فى الجهة الشمالية من الفسطاط فالإسكندرية وتنيس ودمياط، وأما فى الجهة الجنوبية إلى أقصى الصعيد فقوص وقفط. فهذه صفة أرض مصر على الجملة.

* * *

(١) وأما النيل فينبوعه من وراء خط الاستواء، من جبل هناك يعرف بجبل القمَر، فإنه يبتدئُ بالتزيُّد فى شهر أبيب (٢)، الذى هو بالرومية يولية (٣). والمصريون يقولون: «إذا دخل أبيب، كان للماء دبيب». وعند ابتدائه فى التزيد (٤) تتغير جميعُ كيفياته وتفسُد، والسبب الموجب لذلك مُرورُه بنقائع مياهٍ آجنة (٥) يخالطها فيجتلبها، ويستخرجها معه ويستصحبها، إلى غير ذلك مما يحتمل (٦). فتصير مثل الحال التى وصفه بها الأمير تميم بن المعز لدين الله:

أما ترى الرعدَ بكى فاشتكى والبرقَ قد أومض فاستضحكا (٧)

فاشربْ على غيمٍ كصِبْغ الدُّجى أضحكَ وجهَ الأرضِ لمّا بكى (٨)

[وقد حكى العودُ أنينَ الهوى لكنّه جوّدَ فيما حكى] (٩)

---

(١) من هنا يبتدئ نقل آخر للمقريزى فى (١ : ٥٩).

(٢) فى الخطط: «فى التزايد». والتزيد والتزايد بمعنى.

(٣) ما بعد «أبيب» ليس فى الخطط. وفى الأصل: «قوليه».

(٤) فى الخطط: «التزايد».

(٥) فى الأصل: «بنقاء مع مياه آجنة»، والصواب فى الخطط.

(٦) الكلام والشعر بعد هذا لم يورده المقريزى.

(٧) فى لأصل: «الجو من إظلامه قد اشتكى»، ولا يستقيم به الوزن، إذ هو من السريع. وأثبت ما فى ديوان تميم الورقة (١٢٠) من مصورة دار الكتب ذات الرقم (١٦٠٢٥ ز)، وهذه الرواية هى التى ذكرها الثعالبى فى يتيمة الدهر (١ : ٣٤٩) الطبعة الأولى.

(٨) فى الأصل: «يشبه التحقيق كصبح» تحريف، وأثبت ما فى الديوان ويتيمة الدهر.

(٩) إثبات هذا البيت من ديوان تميم.

وانظرْ لماء النيـل فى مدِّه ... كأنما صُـندلٍ أو مسَّكا

أو كما قال غيره من أهل العصر ، من قصيدةٍ يصف فيها أرض مصر :

ولله مجرى النيل منها إذا الصَّبا ... أرتنا به فى مرِّها عسكراً مَجْراً[١]

فشَطٌّ يهزُّ السمهريَّةَ ذُبَّلا ... وموجٌ يهزُّ البيضَ هنديَّةً تِبرا

إذا مَدَّها كى الورد غَضًّا وإن صفا ... حكى ماءه لونا ولم يَعدُه نشرا[٢]

وهذا نظير ما أنشدنيه عبد الله بن سريّة لنفسه :

راقنى النهرُ صـفاء ... بعـد شوق لصفائه

كانَ مثل الورد غَضًّا ... ثم قد صـار كمائه

ولأبى بكر الصَّنَوبرى[٣] فى مثل هذا المعنى :

ولقـد طربتُ إلى الفرا ... تِ بكلِّ ذى كرمٍ ومجدِ

والشمسُ عنـد غروبها ... صـفراء مذهبةُ الفِرندِ

والمـاء حاشيتاه خضـراوانِ من آسٍ ورَند[٤]

تحبـوه أيدى الريح إن ... هبّت على قربٍ وبُعـدِ

بطرائفٍ من فضـة ... وطرائفٍ من لازَوَرد

والسـفن كالطير انبرت ... فى الجوّ من مَثْنَى وفرد

حـتّى إذا جزَرَ الفرا ... تُ مضى وأعقبه بمدّ[٥]

---

(١) يقال للجيش العظيم : مجر ، لثقله وضخمه .

(٢) حكى ماءه ، أى أشبه ماء الورد فى لونه . وفى الأصل : «حكى ماؤه نا فلم» تحريف.

(٣) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسن بن المرار ، المعروف بالصنوبرى الحلبى . قال السمعانى فى الورقة (٣٥٥) : نسبة إلى الصنوبر . وانظر تعليلا آخر فى مختصر تاريخ دمشق (١ : ٤٥٦) . ووفاته سنة ٣٣٤ هـ . كما فى شذرات الذهب . وانظر فوات الوفيات (١ : ٧٧) .

(٤) الرند: شجر من أشجار البادية طيب الرائحة ، ويقال للآس « رند » . وفى الأصل « وورد » ولا وجه له .

(٥) فى الأصل : « بورد » ووجهه ما أثبت .

أبصـــرتَه وكأنه ملقًى عليـــه رداء وردِ
متملـــلًا كالصبّ أو ذِنَ من أحبّته بصَـــدّ
وكأنّما بحَشـــاه ما بحشايَ من قلقٍ ووَجـــد

وقال تميم بن المعز، وأحسن التشبيه[1] :

يوم لنا بالنيـــل مختصَرُ وبكلّ يومِ مسرةٍ قِصَرُ
والسُّفُنُ تصعدُ كالخيول بنا فيه وجيشُ المـاء ينحدرُ
فكأنّما أمواجُه غُرف وكأنمـا داراته سُرر

وقال محمد بن الحسن :

النهر مكسوٌّ من الأزهار برداً أنيقاً مثل ثوب . . .
. . . . يجرى بمسك أو بذوب نضار[2]
وإذا استقام رأيت صفحة مُنْصُل وإذا استدارَ رأيت عَطف سِوار

وقال أبو الحسن محمد بن الوزير، فى تدرُّج زيادة المـاء إصبعاً إصبعاً، ومنفعةِ ذلك التدرُّج :

أرى أبداً كثيراً مِن قليل وبدراً فى الحقيقة مِن هِلال
فلا تعجبْ فكلُّ قليلِ ماء بمصرَ مسبِّب لخليج مالِ
زيادةُ إصبعٍ فى كلّ يوم زيادةُ أذرع فى حُسن حال

فإذا كان فى الخامسَ عشرَ ذراعاً وزاد من السادسَ عشر إصبعاً واحدة كُسِر الخليج[3] .

ولكسره يوم معدود، ومَقام مشهود، ومُجتمَع غاصٌّ، يحضُره العامّ والخاص. وإذا كُسِر فتحت التُّرع — وهى فوّهات الخُلجان — ففاض المـاء

(١) الأبيات التالية لم أجدها فى ديوان تميم .
(٢) فى الأصل : « يجرى لنك ذوب نضار » .
(٣) فى الأصل : « تفتث تقتاً غظيا » ؛ وأثبت ما عند المقريزى فى (١ : ٥٩) .

وساح ، وعم الغيطانَ والبطاح[١] ، وانضمّ الناسُ إلى أعلى مساكنهم من الضّياع والمنازل ، وهى على آكام وربًى لا ينتهى إليها الماء ، ولا يتسلط السيل عليها ، فتعود عند ذلك أرض مصر بأسرها بحراً غامراً لما بين جبليها المكتنفين لها . وتثبت على هذه الحالِ ريثما يبلغ الحدَّ المحدود ، فى مشيئة الرب المعبود . وأكثر ذلك يحوم حول ثمانيةَ عشرَ ذراعاً ، ثم يأخذ غائداً فى منصبه ، إلى مجرى النيل [ومسربه ، فينضب أولا عما كان[٢]] من الأرض مشرفاً عالياً ، ويصير فيما كان منها متطامناً[٣] ، فيترك كلَّ قرارة كالدرهم ، ويغادر كلَّ تلعة كالبُرد المسهَّم . وفى هذا الوقت من السنة تكون أرض مصر أحسن شىء منظراً ، ولاسيما متنزَّهاتها المشهورة ، ودياراتها المطروقة ، كالجزيرة ، وبركة الحبَش[٤] وماجرى مجراها من المواضع التى يطرقها أهل الخلاعة ، وينتابها ذوو الأدب والطرب.

واتّفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمانِ إلى بركة الحبَش ، فافترشْنا من زهرها أحسنَ بساط ، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق ، وطلعت علينا من زُجاجات الأقداح شموسٌ فى خِلَع البدور ، ونجومٌ[٥] بالصفاء تنور ، إلى أن جرى ذهبُ الأصيل على لجين الماء ، ونشِبت نار الشفق بفحمة الظلماء ، فقال فى ذلك بعضُنا[٦] :

(١) فى الخطط : « وغمر القيعان والبطاح » .

(٢) مكان هذه التكملة التى أثبتها من الخطط بياض فى الأصل .

(٣) بدل هذه الجملة فى الأصل « ... متحفظ ... نسطاميا » وإكماله وصوابه من الخطط.

(٤) كانت فى ظاهر مدينة الفسطاط من قبليها فيما بين النيل والجبل . وسميت بركة الحبش نسبة الى قتادة بن قيس بن حبشى الصدفى ، ممن شهد فتح مصر ، وكانت له حدائق بجوار هذه البركة تعرف بالحبش فنسبت البركة إليها . وهــذه البركة موقعها اليوم منطقة الأراضى الزراعية التابعة لزمام قرية دير الطين وجزء عظيم من الأراضى الزراعية التابعة لقرية البساتين . انظر الخطط (٢ : ١٥٢) والنجوم الزاهرة (٥ : ١٤) .

(٥) فى الأصل : « وجوم » .

(٦) يعنى نفسه . وجاء فى الخطط (٢ : ١٥٥) : « وقال ابن سعيد فى كتاب المغرب: « وخرجت مرة حيث بركة الحبش التى يقول فيها أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى عفا الله عنه » . وأنشد الأبيات التالية . وجاء فى (٢ : ١٦٠) : « بئر أبى سلامة وتعرف ببئر النعم ، وهى من قبلى النوبية ، وموضعها أحسن موضع فى البركة ، وهى التى عنى أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بقوله » وأنشد الأبيات ، ورواها ياقوت فى ترجمة أمية منسوبة إليه .

لله يومى ببركة الحَبَشِ والأفْق بين الضياء والغَبَشِ
والنيلُ تحت الرياح مضطربٌ كصارم فى يمين مرتعشِ
قد نسجتها يدُ الغمام لنا فنحن من نَسجها على فُرُش
ونحن فى روضة مفوّفة دُبِّج بالنَّور عِطفُها ووُشى (١)
فعاطِنى الراحَ ، إنَّ تاركها من سورة الهم غير منتعش
وسقِّنى بالكبارِ مترعةً فهنَّ أروى لشدّة العطش (٢)
فأثقلُ الناس كلُّهم رجلٌ دعاه داعى الصبا فلم يَطِش (٣)

وقال أيضاً :

علِّلْ فؤادَك باللذات والطَّربِ وباكِرِ الرَّاحَ بالنايات والنُّخَب
أما ترى البِركة الغنّاء لابسةً وشْيًا من النَّور حاكته يد السُّحُب
وأصبحَتْ من جديد النَّبت فى حُلَل قد أبرز القَطرُ منها كلَّ محتجِب
من سَوسنٍ شرِقٍ بالطَّلِّ محجرُه وأقحوانٍ شهىِّ الظَّلْم والشنبِ
وانظر إلى الورد يحكى خدَّ محتشمٍ من نَرجس ظلَّ يُبدى لحظَ مرتقِب
والياسمينَ وقد أربَى على درر والراح من دُرَر تطفو على ذهب
كم مرّة قد شفينا فيه غُلّتنا بجاحمٍ من فم الإبريق ملتهِب (٤)
شمسٌ من الراح حيَّانا بها قمرٌ موفٍ على غصُن يهتزّ فى كُثُب
أرخى ذوائبَه ، وانهزَّ منعطفاً كصَعدة الرمح ، فى مسودَّة العَذَب
فاطربْ ودونكها فاشربْ فقد نغبت علىَ التصابى دواعى اللهو والطرب

ومما يتعلّق بوصف النيل من أبياتٍ له كتبها إلى الأفضل ليلة المِهرجان :

---

(١) فى الأصل : «ذبح بالقطر» ، صوابه من الخطط ومعجم الأدباء .
(٢) فى الأصل : « لعل أروى» . وفى معجم الأدباء : « فهن أشفى » .
(٣) فى الأصل : « يدعوه داعى الصبا » وأثبت ما فى الخطط ومعجم البلدان .
(٤) فى الأصل : « علتنا » بالمهملة .

أبدعتَ للنـاس منظراً عجبًا لا زاليتَ تجنى السرورَ والطربا
ألّفتَ بين الضدّين مقتدراً فمن رأى الماءَ خالطَ اللهبا
كأنّما النيـل والشموعُ به أفقُ سمـاءٍ تألّقت شهبا
قد كانَ من فضّةٍ فصار سنًا وتحسبُ النـارَ فوقه ذهبا

وقد تعاور الشعراء ...... شعاع على صبح . ومن مليح ما قيل فى ذلك قول بعض أهل العصر ، وهو أبو الحسن على بن أبى البشر الـكاتب :

شربْنا معْ غروبِ الشمس شمساً مشعشعةً إلى وقت الطلوع
وضوء الشمع فوق النيل باد كأطراف الأسنة فى الدّروع

وأنشد أبو منصور الثعالبى (فى يتيمة الدهر) لمنصور بن كيغلغ[١] :

قام الغلامُ يديرها فى كفه فحسبتُ بدر التّمّ يحمل كوكبا
والبـدر يجنح للأفول كأنه قد سلّ فوق الشطّ سيفاً مذهبا[٢]

وأنشد فيه[٣] للقاضى أبى القاسم على بن إبراهيم بن أبى الفهم التنوخى :

أحسِنْ بدجلةَ والدُّجى متصوّبُ والبـدر فى أفق السماء مغرّبُ
فكأنها فيـه بساطٌ أزرقٌ وكأنه فيها طراز مذهبُ[٤]

وقال ابن وكيع التِّنِّيسى :

غـدير يدرِّج أمواجَـه هبوبُ الشمال ومَرّ الصَّـبا
إذا الشمسُ من فوقِه أشرقتْ توهّمتَه جَوشـناً مُذهَبـا

---

(١) فى الجزء الأول من يتيمة الدهر (ص ٦٥) . وقبل البيتين :
عاد الزمان عن هويت فأعتبا يا صاحبي فسقيانى واشربا
كم ليـلة ساهرت فيه بدرها من فوق دجلة قبل أن يتغيبا

(٢) فى الأصل : « فوق الحيط » وفى اليتيمة : « فوق الماء » . وانظر ما سيأتى فى شعر ابن التمار الواسطى .

(٣) أي فى هذا المعنى ، أو فى كتاب يتيمة الدهر . انظر اليتيمة (١ : ٦٥) .

(٤) فى الأصل : « وكأنه فيه طراز » والوجه ما أثبت من اليتيمة .

وقال بعض أهل العصر من قصيدة :

باطى نهر كأن الر وهو اللجين به ذوبا(١)
إذا حمشته الصبا رأيته كأنه زرداً مذهبا

وقال أبو عُبادة البحتريّ يصف بِركة :

إذا علتها الصبا أبدت بها حُبُكاً مثلَ الجواشن مصقولاً حواشيها(٢)
إذا النّجُوم تراءت فى جوانبها ليلاً حسبتَ سماء رُكِّبت فيها

وقد أحسن عبدُ الله بن المعتز فى قوله :

وتبدَّى لهن بالنّجف المُقفِر ماءٌ صافى الجمام غرِىٌّ(٣)
فإذا قابلَتْه دُرَّةُ شمس خلتَه كُسِّرت عليه الحلىٌّ(٤)

وقال ابن التَّمّار الواسطى يصف ضوءَ القمر على دجلة :

قفْ فانتصف من صُروف الدهر والنُّوَبِ واجمعْ بكأسك شملَ اللّهوِ والطَّربِ
أمَا تَرَى الليلَ قد ولّتْ عساكرُه مهزومةً وجيوشُ اللّهو فى الطلب
والبدرُ فى الأفق الغربىِّ تحسبه قد مدَّ جسراً على الشَّطَّين من ذهب

وقال محمد بن عبد الله السّلامى :

ونهرٍ تمرح الأمواجُ فيه مِراحَ الخيل فى رَهَج الغبار
إذا اصفرَّت عليه الشمس خِلْنا نميرَ الماء يُمزج بالعُقار

***

وأمّا سكّان أرضِ مصرَ فأخلاطٌ من الناس مختلفةُ الأصناف(٥) : من قِبط وروم وعَرب وبربر وأكرادٍ ودَيلم وحُبشان وأرمن(٦) ، وغيرِ ذلك من

(١) كذا ورد البيتان على ما بهما من تحريف .
(٢) البيتان من قصيدة له يمدح فيها المتوكل ويصف بركته . الديوان ٣١٩ .
(٣) الغرى : البارد ، يقال غرى الغدير : برد ماؤه .
(٤) فى ديوان ابن المعتز ٦١ : « فإذا ضاحكته » .
(٥) فى الخطط (١ : ٤٨) : « مختلفو الأصناف » .
(٦) هذه الكلمة ليست فى الخطط .

الأصناف والأجناس على حسب اختلافاتهم ، وقالوا : إن السبب فى اختلافهم ، والموجب لاختلاطهم ، اختلاطُ المالكين لها ، والمتغلّبين عليها ، من العمالقة واليونانيين والروم والعرب وغيرهم ، فلهذا اختلطت أنسابهم فاقتصروا من التعريف بأنفسهم على الانتساب إلى مواضعهم[١] ، والانتماء إلى مساقطهم ومواقعهم .

وحكى جماعةٌ من المؤرّخين أنهم كانوا فى الزمن السالف عُبّادَ أصنام ، ومدبرى هياكل ، إلى أن ظهر دينُ النَّصرانية وغَلب على أرض مصر فتنصَّروا ، و بقُوا على ذلك إلى أن فتحها المسلمون فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأسلم بعضُهم و بقى بعضٌ على دين النصرانية ، ومذهبهم مذهب اليعاقبة .

وأما أخلاقهم فالغالب عليهم اتّباع الشهوات ، والانهماكُ فى اللذات ، والاشتغال بالتُّرَّهات ، والتصديقُ بالمحالات ، وضعفُ المرائر والعزَمات ، إلى غير ذلك مما حكاه أبو الحسين على بن رضوان فى ذلك واقتصّه ، وأورده من الأمور الطبيعية وموجبه[٢] ، وكفى به حَكَماً منصفاً ، وشاهداً عدلاً .

وحكى الوصيفيُّ فى كتابه الذى ألّفه فى أخبار مصر أنَّ أهلَها فى الزمن السابق كانوا يعتقدون أنَّ هذا العالم ، الذى هو عالمُ الكون والفساد أقام برهةً من الدهر خالياً من نوع الإنسان ، عامراً بأنواع أُخَر غير الإنسان ، وأن تلك الأنواعَ مختلفةٌ على خِلق فاذّة[٣] ، وهيئات شاذّة ، ثم حدث نوعُ الإنسان فنازَعَ تلك الأنواعَ فغلبها واستولى عليها ، وأفنى أكثرَها قتلاً ، وشرّد ما بقى منها إلى القفار ، وأن تلك المشرّدة هى الغيلان والسعالى وغير ذلك ، مما حكاه من اعتقاداتهم المستحيلة ، وتصوُّراتهم الفاسدة ، وتوهُّماتهم النافرة . إلا أنّه يظهر من

---

(١) فى الخطط : « على الإشارة إلى مواضعهم » .
(٢) كذا وردت هذه الكلمة .
(٣) الفاذة : المنفردة . وفى الحديث : « هذه الآية الفاذة » ، أى المنفردة فى معناها .

أمرهم أنَّه كان فيهم طائفةٌ من ذوى للمعارف والعلوم ، خصوصاً بعلم الهندسة والنجوم(١) . ويدلُّ على ذلك ما خلفوه من الأشغال(٢) البديعة المعجزة ، كالأهرام والبرابى ، فإنها من الآثار التى حيَّرت الأذهان(٣) [الثاقبة ، واستعجزت الأفكار الراجحة] ، وتركت لها شغلاً بالتعجُّب منها ، والتفكُّر فيها . وفى مثلها يقول أبو العلاء أحمد بن سليمان المعرى فى قصيدته التى يرثى بها أباه(٤) :

تضلُّ العقول الهِبْرزيَّاتُ رشدها ولا يسلمُ الرأى القويم من الأَفْنِ
وقد كان أربابُ الفصاحة كلَّما رأوا حَسَناً عدُّوه من صَنعة الجنّ

وأىُّ شىء أعجبُ وأغرب بعد مقدورات الله ومصنوعاته ، من القدرة على بناء جسم [جَسيم(٥)] من أعظم الحجارة ، مربع القاعدة مخروط الشكل ، ارتفاع عموده ثلثمائة ذراع ونحو سبعةَ عشر ذراعاً(٦) يحيط به أربعة سطوح مثلثات متساويات الأضلاع ، طول كلٍّ ضلع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعا(٧) وهو مع هذا العظم(٨) ، من إحكام الصَّنعة وإتقانها(٩) ، فى غايةٍ من حسن التقدير بحيث لم يتأثَّر(١٠) إلى هلمّ جرًّا(١١) بعصف الرياح وهَطْل السحاب ،

---

(١) فى الخطط (١ : ١١٨) : « وخصوصاً علم الهندسة والنجوم » .
(٢) فى الخطط : « من الصنائع » .
(٣) فى الأصل : « الآثار البعيدة من الأذهان » صوابه من الخطط .
(٤) فى سقط الزند (١ : ١٩٦) بشرح التنوير .
(٥) هذه من الخطط .
(٦) فى الخطط : « تسعة عشر ذراعا » . والذراع يذكر ويؤنث .
(٧) فى النجوم الزاهرة (١ : ٩٨) نقلا عن أبى الصلت : « وسبعون ذراعاً » .
(٨) فى الأصل : « مع هذا الطول منه » وكتب إزاءه : « فى العظم » بدلا من « الطول منه » وأثبت ما فى الخطط .
(٩) بدله فى الخطط : « وإتقان المتدام » .
(١٠) فى الأصل : « وهو لا يتأثر » ، وأثبت ما فى الخطط .
(١١) كذا ورد فى الأصل والخطط . ولعلها : « إلى اليوم وهلمّ جرا » .

وزعزعة الزلازل . وهذه صفة كلٍّ واحد الهرمين المحاذيين للفسطاط من الجانب الغربي ، على ما شاهدناه منهما[١] .

وقال بعضهم وقد ذكر عجائب مصر : « وما على وجه الأرض بَنِيَّة إلا وأنا أرثي لها من الليل والنهار ، إلا الهرمين فإني أرثي لليل والنهار منهما » . وهذان الهرمان[٢] لهما إشرافٌ على أرض مصر وإطلالٌ [على] بطائحها ، وإصعادٌ على ذُراها . وهما اللذان أراد أبو الطيب المتنبي بقوله :

أين الذى الهرمانِ من بُنيانه ما قومُه ، ما يومُه ، ما المصرع[٣]
كنا نظنُّ ديارَه مملوءةً ذهباً فمات وكلُّ دار بلقعُ[٤]
تتخلَّف الآثارُ عن أربابها حيناً ويُدركها الخراب فتَتبع[٥]

واتفق أن خرجنا يوماً إليهما ، فلما أطفنا بهما واستدرنا حولهما كثُر تعجبنا منهما ، فتعاطينا القولَ فيهما ، فقال بعضنا[٦] :

بعيشك هل أبصرتَ أعجبَ منظرا على طُول ما أبصرتَ من هرمَيْ مصر[٧]
[أناقا عِنَاناً للسماء وأشرفَا على الجوِّ إشرافَ السِّماك أو النَّسر[٨]

(١) في الأصل : « منها » ، والصواب في الخطط .
(٢) في الأصل : « أرثي لليل والنهار منها على وهذان الهرمان من أعظمها » وأثبت الصواب من الخطط .
(٣) من قصيدة له في ديوانه (١ : ٤٠٥) بشرح العكبري ، يرثي بها أبا شجاع فاتكا .
(٤) هذا البيت لم يورده المقريزي ، وهو هنا في غير وضعه الطبيعي . وموضعه في الديوان بعد بيت يتلو الثالث هنا ؛ لأن ضمير « دياره » عائد إلى أبي شجاع في البيت المشار إليه ، وهو :

لم يرض قلب أبي شجاع مبلغ قبل الممات ولم يسعه موضع

(٥) في الخطط : « عن سكانها » . وفي الديوان : « عن أصحابها » .
(٦) في بدائع البدائه ١٣٦ أن الذى قال الشعر هو أبو الصلت نفسه .
(٧) بعد هذا في الأصل بياض بقدر صفحتين ، وقد وفقت لسد هذا الفراغ مما نقله المقريزي في الخطط (١ : ١١٨ — ١١٩) : ووضعت هذا الساقط بين معقفي التكملة : [.
(٨) في بدائع البدائه : « أناقا بأكناف السماء » .

وقد وافيَا نشزاً من الأرض عالياً ... كأنهما نَهْدانِ قاما على صدر[١]

وزعم قومٌ أن الأهرام قبورُ ملوكٍ عظام ، آثروا أن يتميَّزوا بها على سائر الملوك بعد مماتهم ، كما تميَّزوا بها على سائر الملوك بعد مماتهم ، كما تميزوا عنهم فى حياتهم ، وتوخَّوا أن يبقى ذِكرُهم بسببها على تطاول الدهور وتراخى العُصور .

ولما وصل الخليفة المأمونُ إلى مصرَ أمر بنقبها ، فنُقِب أحدُ الهرمين المحاذيين للفسطاط بعد جُهد شديد ، وعناء طويل ، فوجدوا داخله مهاوِيَ ومراقِيَ يهولُ أمرُها ، ويعسُر السلوك فيها ، ووجدوا فى أعلاها بيتاً مكعباً ، طول كل من أضلاعه نحوٌ من ثمانية أذرع ، وفى وسطه حَوْض رَخام مطبَق ، فلما كشف غطاؤه لم يجدوا فيه غيرَ رِمّة بالية ، قد أتت عليها العصور الخالية ، فعند ذلك أمر المأمون بالكفِّ عن نقب ما سواه . ويقال إن النفقة على نقبه كانت عظيمة ، والمؤونةَ شديدة .

ومن الناس مَن زعم أن هرمس الأوّل ، المدعو بالمثلّث بالنبوة والملك والحكمة ، وهو الذى يسميه العبرانيون خنوخ بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شِيث بن آدم عليه السلام — وهو إدريس عليه السلام — استدلَّ من أحوال الكواكب على كَون الطُّوفان يعمُّ الأرض ، فأ كثَرَ من بُنيان الأهرام ، وإيداعِها الأموالَ وصحائف العلوم ، وما يُشفِقُ عليه من الذَّهاب والدُّروس ، حفظًا لها ، واحتياطًا عليها . ويقال : إنّ الذى بناها ملك اسمه سوريد ابن سهلوق بن سرياق . وقال آخرون : إن الذى بنى الهرمين المحاذيين للفسطاط شدّاد بن عاد ، لرؤيا رآها . والقِبط تنكر دخولَ العمالقة بلد مصر ، وتحقّق أن

---

(١) بعده فى بدائع البدائه : « وصنع أبو منصور ظافر الحداد :

تأمل هيئة الهرمين وانظر ... وبينهما أبو الهول العجيب
كعماريتين على رحيل ... بمحبوبين بينهما رقيب
وفيض البحر بينهما دموع ... وصوت الريح بينهما نحيب
وظاهر سجن يوسف مثل صب ... تخلف فهو محزون كئيب »

بانيهما سوريد[١] ، لرؤيا رآها ، وهى أنّ آفة تنزل من السماء ، وهى الطوفان.
وقالوا إنه بناهما فى مدة ستة أشهر ، وغشّاها بالديباج الملون ، وكتب عليهما :
« قد بنيناها فى ستة أشهر ، قل لمن يأتى من بعدنا يهدمهما فى ستمائة سنة ، فالهدم أيسر من البنيان ، وكسوناهما الديباج الملون فليكسُهُما حصراً ، فالُحصر أهون من الديباج » .

ورأينا سطوحَ كلٍّ واحد من هذين الهرمين مخطوطةً من أعلاها إلى أسفلها بسطورٍ متضايقة متوازية ، مِن كتابةِ بانيها ، لا تُعرف اليومَ أحرفُها ، ولا تُفهَم معانيها . وبالجملة الأمر فيها عجيب ، حتى إنّ غاية الوصف لها والإغراق فى العبارة عن حقيقة الموصوف منها ، بخلاف ما قاله على[٢]] بن العباس الرومى ، وإن تباعد الموصوفان ، وتباين المقصودان ، إذ يقول :

إذا ما وصفتَ امرأً لا مرىءٍ فلا تغــلُ فى وصفه واقصِدِ
فإنك إن تغــلُ تغلُ الظنو نُ فيــه إلى الغَرض الأبعدِ
فيصغر من حيث عــظَّمته لفضــل المَغيب على المشهد

وكذلك أمر البرابى ، كبربا إخميم ، وبربا سمنود[٣] ، وبربا دندرا[٤] ، فإن فيها من الإحكام وجَودة الشكل وحسن التصوير ، ما يدلُّ على أن عُمّارها

(١) فى النجوم الزاهرة : « سوريد وقيل سويد » .
(٢) إلى هنا ينتهى السقط الذى نبهنا عليه فى الحاشية ٧ من صفحة ٢٦ .
(٣) فى الأصل : « سمندو » صوابه من المقريزى عنـد ذكر البرابى ، وقال ياقوت : « كورة السمنودية كان فيها بربا وكانت إحدى العجائب . قال القضاعى : ذكر عن أبى عمرو الكندى أنه قال : رأيته وقد خزن فيه بعض عمالها قرظاً ، فرأيت الجمل إذا دنا من بابه وأراد أن يدخله سقط كل دبيب فى القرظ ، ولم يدخل منه شىء إلى البربا . ثم خرب عنـد الخمسين وثلثمائة » .
(٤) فى الأصل : «ديدرا » وإنما هى « دندرا » أو « دندرة » أو « أندرا » كما فى معجم البلدان . وفى بربا دندرة يقول المقريزى : « وهو بربا عجيب ، فيه ثمانون ومائة كوة تدخل الشمس كل يوم من كوة منها ، ثم الثانية حتى تنتهى إلى آخرها ، ثم تكر راجعة ، إلى موضع بدئها» . وأنشد ياقوت فى مطلع أبيات :

إن قاس بدندرا قال بيتين سطرا

ذوو عقول راجحة ، وأنه قد كانت لهم بالحكمة عناية بالغة ، لا سيما بصناعتى الهندسة والنجوم .

وقال بعضُ أهلِ العناية بأخبار الأمم وتواريخهم : كان بمصرَ بعد الطُّوفان علماء بضروب الحكمة ، من العلوم الرياضيّة والطبيعية والإلهيّة ، ومتحقّقون بعلم المَرَايا المحرِقة ، وبالطِّلسمات والنِّيرنجيات وغير ذلك .

والمُلك بمصرَ من قديم الزمان بمدينة منف ، وهى فى غربى النيل ، على مسافة اثنى عشر ميلا من الفسطاط . ولما بنى الإسكندرُ مدينةَ (الإسكندرية) منذ نحو ألفِ سنة وأربعمائة سنة وأربعين سنة ، رَغِبَ الناسُ فى عمارتها[1] ، وكانت دارَ العلم ، وَمقرَّ الحكمة ، إلى أن تغَلَّب عليها المسلمون فى خلافة عمر بنِ الخطاب ، رضوان الله عليه ، واختط عمرو بن العاص مدينته المعروفة (بالفسطاط) فانسرب أهلُ مصرَ وغيرُهم من العرب والعجم إلى سكناها ، فصارت قاعدةَ ديارِ مصر ومركزَها إلى وقتنا هذا .

فيقال إنّ من قدماء أهل العلم بها هرمس الثالث[2] ، وكان فيلسوفاً جوّالا فى البلاد ، طوافاً فى المدائن ، عالماً بنُصبتها[3] ، وطوالعها وطبائع أهلها ، وله تصانيف جليلة مفيدة فى فنون من الحكمة .

ومنهم ديوفنطس[4] صاحب المقالات الموضوعة فى علم العدد وخواصه على طريق الجبر والمقابلة .

---

(١) فى الأصل : « وأعجب فى عمارتها » صوابه من المقريزى (١ : ١٣٥) .

(٢) فى الأصل : « هرمس الثانى » والصواب ما أثبت من عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة (١ : ١٧) حيث ذكر الهرامسة الثلاثة ، وقال فى هرمس هذا : « وأما هرمس الثالث فإنه سكن مدينة مصر ، وكان بعد الطوفان » . وأما هرمس الثانى فهو كلدانى من أهل بابل . وهرمس الأول مصرى كان قبل الطوفان ، وهو عند العرب إدريس عليه السلام .

(٣) فى الأصل : « بنصبها » ، وفى عيون الأنباء : « عالماً بنصبة المدائن وطبائعها » .

(٤) ذكره ابن أبى أصيبعة فى (١ : ٢٤٥) فى أثناء ترجمة « قسطا بن لوقا » ، قال : « كتاب فى ترجمة ديوفنطس فى الجبر والمقابلة » . وذكره أيضاً عرضاً فى ترجمة ابن الهيثم (٢ : ٩٨) .

ومنهم الإسكندرانى[1] صنف كتاب الأفلاك ، وكتاب القانون فى تقويم الكواكب .

ومنهم روسم[2] صاحب التصانيف فى الكيميا .

ومنهم أنقلاوس الإسكندرى[3] وأصحابه ، الذين اختصروا كتب جالينوس فى صناعة الطب ، وألّفوها على طريق المسألة والجواب ، يدلُّ حسن اختصارِهم لها على وفور علمهم ، وفَضل معرفتهم .

ومنهم واليس[4] صاحب الكتاب المعروف بالبريدج الرومى ، المصنّف فى فى المواليد وما يتقدمها من المدخل إلى علم أحكام النجوم . ويقال إنه الذى استخرج بطول التحرِّى[5] ومواصلة العَناء ، جدودَ المصريين .

فهؤلاء هم المشهورون من أهل الحكمة بمصر فى ذلك الزمان . وأما زماننا هذا فقد دثر منها كلُّ علم وانّمحى رسمُه ، وجُهل إسمه ، ولم يبق إلّا رَعاع وغُثاء وجَهَلة دهماء ، وعامّة عمياء ، وجُلُّهم أهلُ رعانة[6] ولهم خبرةٌ بالكيد والمكر ، وفيهم

---

(١) لعله « أقطيمن الإسكندرانى » . قال القفطى فى أخبار الحكماء (٥٠) : « كان عالماً بالرياضة محققاً للأرصاد خبيراً بعمل آلاتها » . اجتمع هو وميطن على الرصد بمدينة الإسكندرية من الديار المصرية ، ورصدا وأثبتا ما تحققاه ، وتداوله العلماء بعدهم إلى زمن بطليموس القلوذى الراصد بالإسكندرية . وكان زمنهما قبل زمانه بخمسمائة وإحدى وسبعين سنة » .

(٢) ذكره القفطى فى ص ١٢٧ ، بلفظ « روشم » قال : « روشم المصرى ، هذا الرجل كان بمصر قبل الإسلام ، وهو قيم بعلوم الكيمياء وأصولها وتفصيلها وأحكام أمر تركيبها ... وله فى ذلك كتب جليلة مشهورة عند علماء هذا النوع يتنافسون فى تحصيلها والظفر بها » .

(٣) ترجم له القفطى فى (٥١ — ٥٢) وابن أبى أصيبعة فى (١ : ١٠٣ — ١٠٤)

(٤) ذكره القفطى فى (١٧٢) قال : « فاليس المصرى ، وربما قيل واليس الرومى ، كان حكيما فاضلا فى الزمن الأول بعلوم الرياضة وأحكام النجوم . وله فى ذلك المؤلفات الجليلة المشتملة من هذا النوع على المقاصد الجليلة . وهو مؤلف الكتاب المشهور بين أهل هذه الصناعة ، المسمى بالبريدج الرومى » .

(٥) فى الأصل : « التجربة » .

(٦) المعروف فى هذا المصدر : الرعن ، والرعونة .

بالفطرة قوةٌ عليه وتلطُّف فيه وهدايةٌ إليه ، لِمَا فى أخلاقهم من الملَق والسياسة[1] التى أربَوا فيها على كلّ مَن تقدّم وتأخّر ، وخُصُّوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم ، حتّى صار أمرهم فى ذلك مشهوراً ، والمثَلُ بهم مضروبا .

وفى خبثهم ومكرهم يقول أبو نواس[2] :

مَحَضتكمُ يا أهل مصرَ نصيحتى	ألَا فخُذُوا من ناصحٍ بنصيب[3]
رَماكم أميرُ المؤمنين بحيّـةٍ	أكولٍ لحيّات البلاد شَروب
[ولا تثِبوا وثبَ السَّفاة فتركبوا	على حدِّ] حامى الظهر غيرِ ركوب[4]
فإن يك باقٍ إفك فرعون فيـكم	فإن عصا موسى بكفّ خصيب

* * *

وأما حالُ المنتسبين إلى العلم منهم فأنا ذاكر منها ماوقفت عليه ، وكشفت بالمحنة عنه . كنت فى أول جلوسى بها شديدَ العناية بكتب جالينوس وبقراط ، باحثًا عن مُشكلها ، فاحصاً عن مستغلِقها ، حَرَصت كلَّ الحرص ، وجهدت كلَّ الجهد على أن أجدَ من أهل هذه الصناعة مَن استفيد منه وأستزيد بمذاكرته ، وأقدح خاطرى بمفاوضته ، فلم أجدْ غيرَ قومٍ طبع الله على قلوبهم وأعمى أبصارَهم ، وطمس أفهامَهم ، وحال بين الحكمة وبينهم ، فكانوا وإيّاىَ ، كما قال الشاعر :

قومٌ إذا جالستُهمْ	صدئتْ بقربهم العقولْ
لا يُفهمـونى قولَهم	ويدقُّ عنهم ما أقول
فهمُ كثـيرٌ بى كما	أنّى بجمعهم قليـل

---

(١) فى الخطط (١ : ٤٩) : « الملق والبضاعة » .

(٢) الأبيات الأربعة فى ديوانه (١٠٣ — ١٠٤) يمدح بها الخصيب أمير مصر .

(٣) فى الديوان : « منحتكم يا أهل مصر » .

(٤) التكملة من الديوان (١٠٣) ، وموضعها بياض فى الأصل . حامى الظهر : هو البعير الذى حمى ظهره فيترك فلا ينتفع منه بشىء ولا يمنع من ماء ولا مرعى . وفى الأصل : « حانى الظهر » صوابه من الديوان . والبيت لم يرد الخطط .

وقد تخلّقوا بكثرة الخلاف، وقلة الإنصاف، ولزموا البُهْتَ والمعاندة، والشَّغَب والمكابرة، وجهلَهم بصناعة الكتب وخلوهم من أدواتها، وعدمَهم لعددها وآلاتها، وإهمالَهم لشرائطها، وإغفالَهم للوازمها، وقصورَ أذهانهم عن إدراك دقائقها، وبُعدَ عقولهم عن تصوُّر حقائقها، ولم يعلموا أنَّ الطبيبَ محتاج إلى أشياء تعينُه فى صناعته وتفتح له مغالقَها، وتوضّح مُشكلها، وتشرح مشتبِهها، وتبيِّن له مستعجِمَها، وتذيقه بردَ اليقين[1]، وتجلو عن عين بصيرته ظُلَم الشُّكوك والظُّنون، وهى العلوم الطبيعية التى تعرِّفه مبادِئَها وأوائلها، وتعطيه استُقُصَّاتها وعناصرَها[2]، والقوانينُ القياسية التى تسدِّد ذهنَه نحوَ الصواب فيما يلتمس علمَه، ويتطلَّب فهمَه، وتعرِّفه كيف يُحيل[3] مطلوباتها إليها، ويبنى قياساتِه عليها، وكيف يتطرَّق من جليِّها إلى خفيِّها، ويستدلّ بظاهرها على غائبها، ويأمن الزَّلَل، ووقوعَ الخطل والخلل، ويحقِّق الأسبابَ والعلل.

ولا بدَّ لمن أراد أن يكون طبيبا كاملا، وحكيما فاضلا، من النظر فى العلوم الرياضية، ولا سيما النجوميّة منها والموسيقاويّة. وأولى الناس بأن يكون على هذه الصِّفة أطباء الملِك التُّبَّعى الأملَّى، الذى إنما يستعمل الطبيب والمنجِّمَ على جهة الاستظهار، لا على جهة الافتقار والاضطرار. وكيف ونظرُه الأعلى، وقِدحُه المعلَّى، وسهمُه الأسدُّ، وباعه الأمدّ. ومن كان مثلَه — ولا مثلَ له فى تطبيق المفاصل، وإصابة الشواكل — فخليقٌ به أن يَختار، ولا يُختار، ويستبدّ، ولا يستمدّ.

---

(١) فى الأصل: «برد النفس» والوجه ما أثبت.

(٢) الأستقس، ويقال الأسطقس، هو الشىء البسيط الذى منه يتركب المركب، كالحجارة والقراميد والجذوع التى يتركب منها القصر، وكالحروف التى منها يتركب الكلام، وكالواحد الذى يتركب منه العدد. والاسطقسات الأربعة هى النار والهواء والماء والأرض، انظر مفاتيح العلوم للخوارزمى (٨٢).

(٣) فى الأصل: «يحلل».

هيهاتَ أن يأتِيَ الزمانُ بمثله   إنَّ الزمانَ بمثله لبخيلُ

فلمّا [لم] يأخذوا نفوسَهم بالإتقان لما قد سَلَفَ تعديدُه ، بل استطالوه ، واستبعدوا الأمدَ إليه ، ورأوا أنَّ غرضَهم من صناعة الطب الذى هو عندهم وبحسب رأيِهم ، التكسُّبُ بما يتمُّ لهم بأقربَ مّما شرَطه الأوائل متناوَلاً ، وأسهلَ مراما ، لم يحفظوا[1] غيرَ أسماءِ أدويةٍ قليلةِ العدد يصرِّفونها فى مداواة كلِّ مرض دونَ إعمالِ فكرِهم فى حقيقة نوعه وسببه ، ومقتضيه وموجِبِه .

وقد ذمَّ جالينوسُ من فِرَقِ الطبّ الثلاثِ الفرقةَ الحِيَليَّة[2] ، لحذفِها جميعَ لوازم الصناعة الطبية ، واقتصارِها فى المداواة على النَّظر فى المرض ، هل من جنس الاستفراغ فيقابل بالإمساك ، أو من جنس الإمساك فيقابل بالاستفراغ ، دون الفحص عن أمرِ المِزاج والسنّ والسجيّة ، والبلد والعادة والماهيّة . فما ظنك بجالينوسَ لو شاهدَ هؤلاءِ الذين لا يثبُتون على نِحلة ، ولا ينتسبون إلى فرقة ، فإن برئ على أيديهم عليلٌ فبُرؤُه على جهة الاتفاق ، وإن هلَكَ فبالواجب والاستحقاق ، وهم كما قال الشاعر فى مثلهم :

وطبيبٍ مجرِّبٍ ما له بالـ   ـنُّجح فى كلِّ ما يجرب عادهْ
مرَّ يومًا على عليلٍ فقلنا   قَرَّ عيناً فقد رُزِقْتَ الشَّهاده

أو كما قال الآخر فى بعض حكمائنا المشهورين عند العوامّ بالحذق والتقدم :

قل للوَبَا أنت وابنُ زُهرٍ   قد جزتُما الحدَّ والنهايهْ
ترفَّقا بالورى قليـــلا   فى واحدٍ منكما كفايه

أو كما قال بعضُ أهل العصر أيضاً فيهم :

وطبيبٍ مُشَــعبِذٍ   يمزُجُ الطبَّ بالرُّقَى

(١) فى الأصل : « فلم يحفظوا » .
(٢) فى الأصل : « الفرق الجبلية » .

ما رأيناه قط طبٌّ عليلاً فوُقِّقا
بل عَدِم الصِّحَّةَ فى الجِسم والقلب والبقا
ذو صفاتٍ تُغادِر الجسمَ مما به لَقِى
عادمًا للحَراك والحسِّ والخِفّة والنقا[١]
قد سقاه بها الحِمَا مَ ولم يَدرِ ما سَقى

وقال آخر :

ما خَطَرَ النبضُ على باله يومًا ولا يَعرف ما الماء[٢]
بل ظنَّ أن الطبَّ دُرّاعةٌ ولحيةٌ كالقطن بيضاء[٣]

* * *

ومن ظَريف ما سمعتُه أنَّه كان بمصرَ منذُ عهدٍ قريب رجلٌ ملازمٌ للمارَستان يُستدعَى للمرضى كما تستدعَى الأطبّاء ، فيدخلُ على المريض فيحكى له حكايات مضحكة ، وخُرافاتٍ مسلِّية ، ويُخرج له وجوهاً مضحكة ، وكان مع ذلك لطيفاً فى إضحاكه وبه خبيراً ، وعليه قديراً ؛ فإذا انشرح صدرُ المريض وعادت إليه قوّتُه تَرَكه وانصرف ، فإن احتاجَ إلى معاودة المريض عاده إلى أن يبرأ ، أو يكون منه ما شاء الله .

فليت أطبّاء عصرنا هذا بأسرِهم قدَروا على مثل هذا العلاج الذى لا مضَرّة فيه ولا غائلةَ له ، بل أمرُه على العليل هيِّن ، ونفعُه ظاهر بيِّن ؛ كيف لا وهو ينشِّط النفس ويبسط الحرارةَ الغريزية ، ويقوِّى القوى الطبيعية ، ويقوِّى البدن على دفع الأخلاط الردِّية المؤذية والفضول ، مع الاستظهار بحفظ الأصول .

وأكثر أطبائها المبرزين[٤] نصارى ويهود ، وفى ذلك يقول بعضهم :

---

(١) موضع هذه الكلمة بياض فى الأصل .
(٢) يعنى اختبار ماء المريض ، وهو بوله .
(٣) الدراعة : كرمانة : جبة مشقوقة المقدم .
(٤) فى الأصل : « المزبرقين » .

أقول للمسلمين طـــرًّا تبغُون فى طبِّنا[١] اشتهارا
هيهـــاتَ حاولتمُ محالا كونوا إذاً هوداً أو نصارى

[٢] وأشبَهُ مَن رأيتُه منهم وأدخلُه فى عِداد الأطباء ، رجلٌ من اليهود يدعى أبا الخير سلامةَ بن رَحمون ، فإنّه لقى أبا الوفاء[٣] المبشِّر بن فاتك[٤] ، فأخذ عنه شيئاً من صناعة المنطق تخصَّص به وتميَّزَ عن أضرابه ، وأدرك أبا كثير بن الزفان[٥] تلميذ أبى الحسن على بن رِضوان[٦] ، وقرأ عليه بعضَ كتبِ جالينوس ، ثم نصبَ نفسَه لتدريس جميعِ كتب المنطق ، وجميعِ كتب الفلسفة الطبيعية والإلهية ، وشرح بزعمه وفسَّر ولخص ، ولم يكن بذاك[٧] فى تحصيله وتحقيقه ، واستقصائه عن لطيف العلم ودقيقه ، بل كان يَكثُرُ[٨] كلامُه فيضلّ ، ويُسرع جوابُه فيزِلّ . ولقد سألتُه فى أول لقائى واجتماعى به ، عن مسائلَ استفتحت مباحثته[٩] بها مما يمكن أن يفهمها مَن لم يمتدَّ بعد فى العلم باعُه ، ولم يكثر تبحُّره واتساعُه ، فأجاب عنها بمـا أبانَ عن تقصيره ونطق بعجزه ، وأعربَ عن سوء

---

(١) فى الأصل : « طبها » .

(٢) النص التالى نقله القفطى فى إخبار العلماء (١٤٢ — ١٤٣) ، وكذلك ابن أبى أصيبعة (٢ : ١٠٦) .

(٣) بعد هذه تبتدئ القطعة المحفوظة بدار الكتب رقم ٣٥٤ تاريخ من الرسالة المصرية وسأشير إليها فى التعليقات برمز «ق» .

(٤) ترجم له القفطى (١٧٦ — ١٧٧) وقال : « هـذا رجل أصله من دمشق وموطنه مصر ، وهو من الحكماء الأماثل فى علم الأوائل ... وكانت له ابنة عمرت بعده وروت بالإسكندرية به أحاديث نبوية . وكان فى آخر المائة الخامسة للهجرة » .

(٥) عند القفطى : « الكثير البرقانى » تحريف . وأبو كثير كنية له ، واسمه أفرائيم ابن الزفان ، قال ابن أبى أصيبعة فى (٢ : ١٠٥) : « إسرائيلى المذهب ، وهو من الأطباء المشهورين بديار مصر » . وقد اشترى منه الأفضل بن أمير الجيوش عشرة آلاف مجلد من كتبه ، كان قد ساوم عليها بعض العراقيين .

(٦) انظر ترجمته عند ابن أبى أصيبعة (٢ : ٩٩) .

(٧) ق وابن أبى أصيبعة : « ولم يكن هناك » . وعند القفطى : « ولم يكن هنالك » .

(٨) فى الأصل : « تراه يكثر » ، وأثبت ما فى سائر المصادر .

(٩) فى الأصل : استفتحت مباحثه بها » ، صوابه فى سائر المصادر .

تصوّره وفهمه . وكانَ مثَله فى عِظَم دعاويه ، وقصورِه عن أيسر ما هو متعاطيه[١] كقول الشاعر :

يشمِّر لِلُّجِّ عن ســـاقه ويغمره الموجُ فى السَّاحلِ

أو كما قال آخر :

تمنيتمُ مائتىْ فارس فردَّكمُ فارسٌ واحدُ[٢]

وكان[٣] بمصر طبيب من أهل أنطاكية يسمى « جرجس » ، ويلقب بالفيلسوف ، على نحو ما قيل فى الغراب : أبو البيضاء ، وفى اللديغ : سليم ، وقد تفرغ للتولُّع [بأبى الخير سلامة بن رحمون اليهودى الطبيب المصرى[٤]] والإزراء عليه ، وكان يزوِّر فصولا طبِّية وفلسفية يُبرزها فى مَعارض ألفاظ القوم ، وهى مُحالٌ لا معنى لها ، وفارغة لا فائدة فيها ، ثم يُنفِذها[٥] إلى مَن يسأله عن معانيها ، ويستوضحُه أغراضَها ، فيتكلّم عليها ويشرحها بزعمه دون تيقُّظ[٦] و[لا[٧]] تحفظ ، بل باسترسالٍ واستعجال ، وقلّةِ اكتراثٍ وسوء اهتبال ، فيُؤخذ منه[٨] ما يُضحِك منه ويشرح الصّدر .

[وأنشِدت[٩]] لجرجسَ هذا فيه ، وهو من أحسنِ ما سمعته فى هجو طبيب مشؤوم[١٠] ، وأنا متّهم له فيه :

---

(١) فى الأصل : « نشر ما هو متعاطيه » صوابه فى سائر المصادر .
(٢) إلى هنا ينتهى نقل القفطى فى ١٤٢ — ١٤٣ . وانظر البيان (١ : ٢٤٩) .
(٣) النص التالى نقله القفطى فى ١٠٩ وابن أبى أصيبعة فى (٢ : ١٠٦ — ١٠٧) .
(٤) التكملة من القفطى . وبدلها عند ابن أبى أصيبعة : « بابن رحون » .
(٥) ق فقط . « ثم ينفذ بها » .
(٦) ق فقط : « تيقن » .
(٧) هذه من القفطى وابن أبى أصيبعة .
(٧) القفطى وابن أبى أصيبعة : « فيوجد فيها عنه » .
(٩) هذه من ق والقفطى وابن أبى أصيبعة .
(١٠) كلمة « مشؤوم » وما بعدها ساقط من ق . وفى نسخة الأصل : « ومن أحسن ما قيل فى ذم الطبيب الجاهل » .

إنّ أبا الخير على جهله يخفّ في كِفّته الفاضلُ
عليلُه المسكينُ من شُومه في بَحرِ هُلْكٍ ما له ساحلُ
ثلاثةٌ تدخل في دفعــــة طلعتُه والنعشُ والغاسلُ

ولبعضهم :

لأبي الخير في العِـــلا ج يدٌ ما تقصَّرُ
كلُّ من يســـتطبُّه بعد يومين يُقــــبرَ
والذى غاب عنكمُ وشـــهدناهُ أكثر(١)

ومما قيل فيه :

جنونُ أبي الخير الجُنونُ بعينه وكلُّ جنونٍ عندَه غايةُ العقلِ
خُذوه فغُلُّوهُ وشُـــدُّوا وَثاقَه فما عاقلٌ من يستهين بمختلِّ
وقد كان يؤذى الناسَ بالقول وحدَهُ فقد صار يؤذى الناسَ بالقول والفعل

وأما المنجِّمون الآن بمصر فهم وأطباؤهم كما قُدَّ الشِّراكُ من الجلد ، بل كما حُذِيت النّعلُ بالنعل ، لا يتعلَّق أمثلُهم من علم النجوم بأكثرَ من زايجة يرسُمها(٢) ومراكِزَ يقوِّمها . فإما الإمعان والتبحُّر في معرفة الأسباب والعلل(٣) ، والمبادى

(١) في نسخة الأصل : « وسمعنا بوصفه » . وأثبت ما في ق وابن أبي أصيبعة . ولم يرو القفطي هذه الأبيات .

(٢) جاء في « مفاتيح العلوم » للخوارزمى ١٢٧ : « الزايجة هى صورة مربعة أو مدورة تعمل لمواضع الكواكب في الفلك لينظر فيها عند الحكم لمولد أو غيره . واشتقاقه بالفارسية من زائش ، أى المولد ، ثم أعربت الكلمة فاستعملت في المولد وغيره » . وجاء في معجم استينجاس (٦٠٨) : « زايجة astronomical tables » أى الجداول الفلكية . وفي نسخة الأصل : « زايرجة » وأثبت ما في ق . والزايرجة ، هى — كما ذكر ابن خلدون في المقدمة — فرع من فروع علم السيميا ، يمكن بها استخراج الأجوبة من الأسئلة بارتباط بين الكلمات . فن الزايرجة المنظومة يستطاع معرفة الأجوبة بطرق خاصة ، وحساب معين يدخل فيه الجمع والطرح والضرب . وهناك كلمة أخرى مماثلة ، وهى الزيج ، وتجمع على أزياج . والزيج : صناعة حسابية بقوانين عددية يمكن بها معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية والمستقبلة ، وهو الدستور لما يسمى عند الفلكيين بالتقويم .

(٣) هذا ما في ق . وفي نسخة الأصل : « ومعرفة الأسباب والعلل » .

الأوَل ، فليس منهم مَن يرقَى إلى هذه الدرجة ، ويسمُو إلى هذه المرتَبة ، ولا يحلِّق فى هذا الجوّ ، ويستضىء بهذا الضوء[١] إلا أبو الحسن على بن النضر[٢] المعروف بالأديب ، رضى الله عنه ، من أهل صعيدِ مصرَ الأعلى ، فإنه كان من الأفاضل [الأعيان[٣]] ، المعدودين من حسنات هذا الزَّمان[٤] . وسنذكره فيما نستأنفه إن شاء الله تعالى .

* * *

وأما الطائفة المقلِّدة التى حظُّها من المعارف القُشور دون اللبوب[٥] ، والظواهر دون البواطن ، والأشباح دون الأرواح ، فأمْثَلُ مَن بها منهم الآنَ رجلٌ يعرف برزقِ الله النحاس[٦] ، فإنّ له فى فروع هذه الصناعة بعضَ دُرْبة وتجربة ، وبتجريباتها[٧] بعض خبرة ، وهو أكبر المنجِّمين بها وكبيرهم الذى علمهم ، وأميرهم الذى يلوذون به[٨] ، فجميعُهم إليه منسوب ، وفى جريدته مكتوب ، وبفضله معترِف ، ومن بحره[٩] مغترِف ، وهو شيخ مطبوع يتطايب ويتخالع[١٠] .

ومن حكاياته الظريفة عن نفسه قال : سألتنى امرأةٌ مِصريّة أن أنظرَ لها فى مسألة جُمَّليّة تخصُّها ، فأخذتُ ارتفاعَ الشمس للوقت ، وحقّقت درجة الطالع والبيوتَ الاثنى عشر ومركزَ الكواكب ، ورسمتُ ذلك كلَّه بين يدىَّ فى

---

(١) فى الأصل : « ولا يحلق » و « لا يستضىء » وأثبت ما فى ق .
(٢) فى الأصل : « ابن النصر » بالصاد المهملة . وأثبت ما فى ق .
(٣) هذه من ق .
(٤) ق : « من حسنات الزمان » .
(٥) فى اللسان : « ولب الجوز واللوز ونحوهما : ما فى جوفه ، والجمع اللبوب » . ق : « اللباب » ، وما أثبت من الأصل أوفق .
(٦) فى الأصل : « بن النحاس » وصوابه فى ق والقفطى ١٢٧ .
(٧) فى الأصل : «وبجزئياتها» وأثبت ما فى ق . وعند القفطى : «وبتجرباتها» .
(٨) ق : «التى نوه بهم وقدمهم» وعند القفطى : «وكبيرهم الذى علمهم السحر» فقط .
(٩) فى الأصل : « ومن علمه » وأثبت ما فى ق .
(١٠) يتخالع : يظهر الخلاعة . وفى الأصل : « يتخالق » صوابه فى ق .

تَخت الحساب[١] ، وجعلت أتكلَّم على بيتٍ بيت منها على العادة ، وأنا فى خلالِ ذلك أتحسَّس أمرَها[٢] وهى ساكتةٌ لا تَنبِس ، فوجِمْتُ لذلك وأدركتنى فترةٌ عظيمة ، وألقتْ إلىَّ درهما[٣] . قال : فعاودتُ الـكلام وقلت : أرى عليك قَطْعًا فى بيت مالِك[٤] فاحتفِظى واحترزى ! فقالت : الآن أصبتَ وصدقت ، قد كان والله ما ذكرت . قلت : وهل ضاع لك شىء ؟ قالت : نعم ، الدرهمُ الذى ألقيتُه إليك ! وتركَتْنى وانصرفَت .

***

والمصريُّون أكثرُ الناسِ استعمالاً لأحكام النجوم وتصديقاً لها وتعويلا عليها ، وشغفاً بها وسكوناً إليها ، حتى إنه قد بلغَ من زيادة أمرهم فى ذلك إلى أن لا يتحرّكَ واحدٌ منهم حركةً من الحركات الجزئية التى لا تُحصَر فنونُها ولا تحصَّل أجزاؤها وأنحاؤها ، ولا تُضبط جهاتها ، ولا تقيَّد غاياتها[٥] ، ولا تعدُّ ضروبها إلا فى طوالعَ يختارونها ، [ونُصب يعتمدونها[٦]] .

ولقد شهدتُ يوما رجلاً من الوقَّادين فى أتُّون الحمّام[٧] ، يسأل رزق الله المذكور عن ساعةٍ حميدة لقصِّ أظفاره ، فتعجَّبت من سموّ همته على خساسة قدره[٨] ، ووضاعة مِهنته .

ومن الحكايات العجيبة فى فرط استعمالهم لأحكام النجوم وعنـايتهم بها ،

---

(١) هذا ما فى ق ، وفى الأصل : « فى التخت » .
(٢) ق : « أتحسس لها » .
(٣) القفطى : « وكانت قد ألقت إلى درهما » .
(٤) هذا ما فى ق والقفطى ، وفى الأصل : « ضياع بيت مالك » .
(٥) ق : « ولا تقدر أساليبها » .
(٦) هذه من ق .
(٧) ق : « أتون حمام » .
(٨) ق : « مع خساسة قدره » .

ما شهدتُ بالصعيد الأعلى . وذلك أنَّ بعضَ الولاة حبس رجلاً من [بعض[1]]
أهل تلك الناحية كان ينظرُ فى علم النجوم ، وشَفَع[2] إليه فيه مَن يكرُم عليه ،
فشفّعه فيه ، وأمر بإطلاقه وكان من الحبس فى عذاب واصب ، وجَهـد ناصب ،
فلما أتوْه وقالوا له : انطلِقْ لشأنك[3] ، أخرَجَ من كُمّه أصطرِلاباً فنظر فيه ثم
أخذ طالعَ الوقت فنظر فيه ، فوجده مذموماً ، فسألهم أن يتركوه مكانَه[4] إلى
أن يتّفِق وقتٌ يصلح للخروج من السجن ، فعادوا إلى الوالى فأخبروه بخبره[5] ،
فضحِك منه وتعجّب من جهله ، وفساد عقله ، وأجابه إلى سؤاله ، وترَكه على
حاله ، وأطال مدّة اعتقاله .

وفيما أوردْته من أخبار الأطباء والمنجمين الآن بمصرَ كفايةٌ و بلاغ ، إلى
أن انتصبَ له انتصاباً ثانياً ، فأقول فيه قولا شافياً .

* * *

وأما الآن فإنى ذا كرٌ على الشرط من لقيتُه من أدبائها وظرفائها ، وفضلائها
فى الأدب وعلمائها .

وأولاهم بالتقديم ، وأحقهم بالحظ الأوفر من التعظيم « القاضى أبو الحسن على
ابن النضر[6] » المعروف بالأديب ، ذو الأدب الجم والعلم الواسـع ، والفضل
البارع . وله فى سائر أجزاء الحـكمة اليد الطولى ، والرتبة الأولَى . وقد كان ورد
الفسطاط يلتمس من وزيرها الملقب بالأفضل تصرفاً وخدمة فخاب فيه أمله ، وضاع

---

(١) هذه من ق .
(٢) ق : « فشفع » .
(٣) ق : « لسبيلك » .
(٤) فى الأصل : « أن يصبروا عليه » ، وأثبت ما فى ق .
(٥) فى الأصل : « خبره » ، وأثبت ما فى ق .
(٦) فى الأصل : « النصر » بالمهملة ، تحريف صوابه فى ق والخريدة (٢ : ١٩٥) من مخطوطة دار الـكتب رقم (٩٨-١٠٠ ز) والطالع السعيد للأدفوى . حيث ذكر أنه كان أحد عمال الديار المصرية فى زمن الأفضل شاهنشاه .

رجاؤه ، وأخفق سعيُه ، فقال من قصيدةٍ يعاتب فيها الزمان ، ويشكو الخيبة والحِرمان :

بين التعزُّزِ والتذلُّلِ مسلكٌ ... بادى المَنار لعينِ كلِّ موفَّقِ
فاسلُكه فى كلِّ المواطن واجتنبْ ... كِبر الأبىّ وذِلّةَ المتملِّق
ولقد جلبت من البضائع خيرَها ... لأجَلِّ مختارٍ وأكرم مُتَّقٍ(١)
ورجوتُ خَفضَ العيش تحت رِواقه ... لا بدّ إن نفقَت وإن لم تنفُق(٢)
ظنًّا شبيهاً باليقين ولم أخَلْ ... أنَّ الزمان بما سقانى مُشرِق
ولِعاتِبى بالحرص قول بيِّن ... لو كنت شِمتَ سحابةً لم تطرق(٣)
ما ارتَدْتُ إلاّ خيرَ مرتادٍ ولم ... أصِلِ الرجاء بحبل غير الأوثَق(٤)
وإذا أبَى الرزقَ القضاء على امرئٍ ... لم تُغنِ فيه حيلةُ المسترزق
ولَعَمرُ عاديةِ الخطوب وإنْ رمت ... شملى بسهم تشتُّتٍ وتفرُّق(٥)
لأقارعنّ الدّهرَ دون مروءتى ... وحُرِمتُ عزَّ النصرِ إن لم أصدُق(٦)

وله فى سَفرته هذه(٧) وقد قوى يأسُه من بلوغ أمله ونيل بُغيته ، وعَزَم على الصَّدَر(٨) عن الفُسطاط إلى مستقرِّه ، يحضُّ على الزَّهادة ، ويحرِّض على القَناعة

---

(١) فى الأصل :
ولقد جلبت من البضائع جلها ... من كل مختار وأكرم ما انتقى
وأثبت ما فى ق والخريدة والطالع السعيد . بيد أن الكلمة الأخيرة فى الطالع السعيد : « موثق » .

(٢) ق : « ووجدت » . وكلمة « رواقه » هى فى الأصل : « ظلاله » وأثبت ما فى ق والخريدة . وفى الطالع السعيد : « تحت ردائه » تحريف .

(٣) فى الأصل : « ولعاتنى » صوابه فى ق . وفى الخريدة : « ولعاتبى » .

(٤) ق : « بغير حبل الأوثق » وفى الخريدة : « بحبل غير موثق » .

(٥) فى الأصل : « رمت جفلى » صوابه فى ق والخريدة .

(٦) فى الأصل : « لأصبرن اليأس » صوابه فى ق والخريدة .

(٧) فى الأصل : « وله من قصيدة غير هذه » وأثبت ما فى ق والخريدة .

(٨) ق : « الصدور » وهما صحيحان ، يقال صدر يصدر صدراً وصدوراً .

ويذمّ الضراعة ، ويتأسّف على إذالة خدّه ، وإراقة ماء وجهه :

لَهفى لملك قنـــاعةٍ لو أنّنى ... متُعت فيـــه بعزّة المتملّكِ
ولِـكنزِ يأسٍ كنتُ قد أحرزتُه ... لو لم تعِثْ فيـه الخطوبُ وتَفتِكِ
آليتُ أجعلُ ماء وجهى بعده ... كدم يُهِلّ به الحجيجُ بمَنْسِك
وأخٍ من الصبر الجميل قطعتُه ... فى طاعة الأمَل الذى لم يُدرَك
يا قاتَلَ الله الضرورة حالةً ... أىّ المسالكِ بالفتى لم تَسلكِ(١)
كم بات مشكوٌّ إليه [تحيفت ... حلقاته قرعا] براحةِ ممسك(٢)
وفمٍ على قدم رمت ، ونواظر ... كُحِلت محاجرُها بعوطى سُنْبُك(٣)
ومُسربَلٍ بالصبر والتقوى دعت ... فأجابها فى معرَض المتنسِّك(٤)
ظلّت تصرِّفه كتصريف العصا ... رأسَ البعير لمبرك عن مَبرك

وله إلى رئيس كان يكلّفه زيارته ويقعد عن ذلك تعاظما وتكبراً :

أكبرتَ نفسَك أن تسعى مصادقةً ... وسُمتَنيه لقد كلّفتنى شَططا(٥)
لا تكذبنَّ فما كنّا لنُوجِب مِن ... حقٍّ وأنت تراه عنك قد سقطا
لو بعتُك النفس بيعاً كنت تملكها ... به لـكان عليك العَدل مشترَطا(٦)
فهل سبيلٌ إلى أن لا تواصلنى ... ولا تكلِّف مثلى هذه الخططا(٧)
عسى صحيفةُ ما بينى و بينك أن ... تُطوَى وما ضمِّنتْ غيرَ الذى فرطا(٨)

---

(١) هذا ما فى ق والخريدة ، وفى الأصل :

يا قاتل الله الضرورة إنهـا ... سلـكت مهالك بالفتى لم تسلك

(٢) فى الأصل : « لم يأت » ، وصواب البيت وتكملته من ق والخريدة .

(٣) هذا البيت ساقط من الأصل .

(٤) فى الأصل : « ومسربل بالنصر » صوابه فى ق والخريدة .

(٥) فى الأصل والخريدة : « مصارفة » بالراء ، وأثبت ما فى ق .

(٦) ق والخريدة : « به على لـكان العدل » .

(٧) فى الأصل : « ولا تكلف مثلى الطرق والخططا » صوابه فى ق والخريدة .

(٨) فى الأصل : « وما قد من أمرنا فرطاً » صوابه فى ق والخريدة .

وله[1] فى صدر رسالة :

أتى كتابُك عن سُخط فآنَسَنى ... بما تضمَّن أُنس العين بالوسنِ[2]

قرأتُه فجرت فى كلِّ جارحة ... منّى معانيه جرىَ الماء فى الغُصُن[3]

فما أقول بعثتَ الروح فيه إلى ... قلبى ولـكنْ بعثتَ الروح فى بدنى

وله فى شدّةٍ أصابته :

يا مستجيبَ دعاءِ المستجير به ... ويا مفرِّج ليلِ الـكُربة الداجى

قد أُرتِجت دوننا الأبوابُ وامتنعت ... وجَلَّ بابُك عن منعٍ وإرتاج

نخافُ عدلَك أن يجرى القضاء به ... ونرتجيك فـكنْ للخائف الراجى[4]

ومن شعرائها المشهورين أبو الطاهر بن إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكنسة[5] ، وهو شاعر كثير التصرُّف ، قليل التكلُّف ، مفتَنٌّ فى وشْىِ[6] جِدِّ القريض وهزله ، وضارب بسهم فى رقيقه وجزله . وكان فى رَيعان شبيبته ، وعُنفوان حداثته ، يعشق غلاماً من أبناء عسكريّة المصريين ، يدعى عز الدولة فائق ، وهو الآن بمصر من رجال دولتها المعدودين وأكابرها المقدمين . ولم يزلْ مقيما على عِشقه له ، وغرامه به إلى أن محا محاسنه الشَّعر ، وغيّرَ معالمَه الدّهر . ولم يزل مُعزُّ الدولة[7] هذا متعهِّداً له محسناً إليه ، مشتملا عليه ، إلى أن فرّق الدهر بينهما . وكان فى أيام أمير الجيوش بدر الجمالى منقطعاً إلى عاملٍ من النصارى يعرف بأبى مليح ،

---

(١) بعد هذه الـكلمة فى الأصل بياض بقدر صفحتين من الأصل ، وقد أمكننى سد هذه الثلمة من ق والخريدة . والقدر المشترك بين ق والخريدة ينتهى إلى كلمة « الراجى » ختام الأبيات الجيمية التالية ، ثم تنفرد « ق » بإتمام النقص الذى سأنبه على نهايته .

(٢) فى الخريدة : « فأبأسنى » ، تحريف صوابه فى ق والطالع السعيد . وصدره فى الطالع السعيد (٢٢٢) : « وافى كتابك » .

(٣) فى الطالع السعيد : « تفخت الروح » .

(٤) إلى هنا ينتهى القـدر المشترك من التكملة بين ق والخريدة ، ثم تنفرد « ق » .

(٥) ترجم له ابن شاكر فى الفوات (١ : ٢٦) وقال « توفى فى حـدود الخمسمائة » .

(٦) فى الأصل : « وعى » .

(٧) سبق قريباً بلفظ « عز الدولة فائق » وهكذا وردا بالأصل .

وأكثرُ أشعاره فيه ، فلما انتقل الأمر إلى الأفضل تعرَّض لامتداحه ، فلم يقبله ولم يقبل عليه ، وكان سبب حرمانه ما سبق لأبى مليح ومراثيه ميتاً ، لا سيما قوله :

طُوِيت سماء المكرما ... تِ وكُوِّرت شمسُ المديحِ

ما كان بالنِّكس الدنىِّ من الرجال ولا الشحيح

كَفَر النصارى بعد ما ... عَقَدوا به دينَ المسيح

وكَفَله عزُّ الدولة بن فائق ، وقام بحاله إلى أن مات .

ولم يُقبل الأفضلُ على أحدٍ من الشعراء كإقباله على رجل من أهلِ مَعرَّة النعمان[1] يدعى أبا الحسن على بن جعفر بن النون[2] فإنه أفاض عليه سحائبَ إحسانه ، وأدرَّ له حلوبةَ إنعامه ، ولقّبه بأمين [الملك[3]] وأدناه واستخلصه ، ولم يكن شعرُه هناك[4] بل كان متكلِّفاً متعسِّفاً ، ولست أعرف أحداً من أهل تلك البلاد يَروِى له بيتاً واحداً فما فوقَه ، لمنافرة الطِّباع كلامَه ، ونُبوِّ الأسماع عن طريقته . وقد كان أمرَه الأفضلُ يوما أن يصِف مجلسا عُبِّيَت فيه فوا كهُ ورياحين ، فقال من مزدوجته[5] يصف الأترجَّ المصبَّع :

كأنَّما أترُجُّه المصبَّعُ ... أيدى جُناةٍ من زُنودٍ تقطَعُ

فغلِط ولم يفطَن ، وأساء أدبَه ولم يشعر ؛ لأنه قصد مدحَ الأترجّ فقزَّز نفس الملك منه ، وصرفَها عنه ، ولو قصد ذمَّه لما زاد على ما وَصَف به ، من الأيدى المقطوعة من زنودها .

والبليغ الحاذقُ من إذا وصَفَ شيئا أعطاه حقَّه ، ووفَّاه شرطَه ، ووصفه بما

(١) إلى هنا ينتهى السقط الذى نبهت عليه فى أول الصفحة السابقة .
(٢) ق : « النوين » .
(٣) هذه من ق .
(٤) فى الأصل : «هناك بالجيد» صوابه فى ق ، وكلمة « بالجيد » مقحمة .
(٥) فى الأصل : « مزدوجات » صوابه فى ق .

يناسبه فى حالتىْ مدحه وذمّه ، ووضع كلَّ شىء فى مكانه فى نثره ونظمه[(١)] .

فأين هذا الشاعر فى أدبه وحذقه بالصناعة[(٢)] وفطنته ، من أبى على الحسن ابن رشيق ، وقد أمره المعزّ بن باديس أن يصف أترجّة [مصبّعة[(٣)]] كانت بين يديه[(٤)] ، فقال مرتجلاً على البديهة :

أترجّة سَبطة الأطرافِ ناعمةٌ ... تَلقى العيونَ بحُسنٍ غير مبخوسِ[(٥)]
كأنّها بَسطت كفًّا لخالقها ... تدعو بطول بقاء لابن باديس

ولو أنَّ ابن الرومىِّ قصد مَدح الوَرد بقوله :

يا مادحَ الوردِ ماينفك من غَلَطِه[(٦)] ... أما تأمّلَته فى كفِّ ملتقطِه
كأنّه سُرم بغلٍ حين يُبرِزُه ... عند الخِراء وباقى الرّوث فى وسطه

لكان غالطا أو جاهلا أو غافلا ، بل قال ذلك حين قصد ذمَّه وأراد تخسيسه . فانظر هذا التشبيهَ الذى لم يُسمع أعجبُ منه . فلعن الله شيطانه[(٧)] .

وكذلك عبد الله بن المعتز فى قوله يصف القمرَ من أبيات :

وباتَ كما سرَّ حُسّادَه ... إذا رام قُرباً من النوم شذّ[(٨)]
تفزّزهُ سروات البَعوضِ ... فى قمر مثل ظهر الجرذْ[(٩)]

وقول ابن المعتز فى القمر من أبيات :

ياسارقَ الأنوارِ من شمس الضحى ... يامُثكلى طيبَ الكرى ومُنَغِّصى

(١) ق : « من نثره ونظمه » .
(٢) ق : « ومعرفته بالصناعة » .
(٣) هذه من ق .
(٤) فى الأصل : « كانت فى يده » وأثبت ما فى ق .
(٥) مبخوس : منقوص . وفى الأصل « منحوس » ، صوابه فى ق .
(٦) هذا ما فى ق وفى الأصل : « من غلط » .
(٧) هذا ما فى ق . وفى الأصل : « فلعن الله ذلك » .
(٨) فى ديوان ابن المعتز (٢:١١٦) : « كما سر أعداءه » .
(٩) فى الأصل : « فنى قمر » صوابه من الديوان .

أمّا ضياء الشمس فيك فناقصٌ وأرى حرارة نارها لم تنقُص
لم يظفر التشبيهُ فيــــك بطائل متسلّخاً بَهَقاً كجلد الأبرص[١]

وهذا بابٌ لو استقصيناه لطال واتسع[٢] ، فلنتركْه ولنصلْ من حبلنا ما انقطع[٣] .

وقال إسماعيل بن مكنسة[٤] من قصيدة :

أعاذلُ ما هبّت رياحُ ملامــةٍ بنـــار هوًى إلا وزادت تضرُّما
فكِلْني إلى عينٍ إذا جفّ ماؤها رأتْ من حقوق الحبِّ أن تذرف الدّما
فكم عَبرةٍ أعطت غرامى زِمامَها عشيّةَ أعمانَ المطىَّ المزمَّما
وَعَينٍ حماها أنْ يُلِمَّ بها الكرى أحاديثُ أيام تقضَّين بالحمى
ولله قلبٌ قارعتْه همومُــــه فلم يبق حَدٌّ منه إلا تثلما[٥]

وله من أخرى :

دقّت مَعاقد خصرِه فكأنّها مشتقّة من عهده وتجلُّدى[٦]
وتجعّدَتْ أصداغُه فكأنّها مسروقة من خَلقه المتجعِّد[٧]

[ومنها[٨]] :

---

(١) فى الديوان : « منك بطائل » . وفى الأصل : « بمسلخ » صوابه فى ق وفى الديوان : « متسلخ » .
(٢) هذا ما فى ق . وفى الأصل : « لو استقصيته لاتسع » .
(٣) هذا ما فى ق . وفى الأصل : « من غرضنا ما انقطع » .
(٤) ق : « أبو الطاهر بن مكنسة » ، وكلاهما صحيح .
(٥) فى الأصل : « مثلما » وأثبت ما فى ق والخريدة (٢ : ٣٠١) .
(٦) فى الأصل : « من قده » صوابه فى ق . وفى الخريدة (٢ : ٢٩٩) « من تيهه » ، وليست بشىء .
(٧) فى الأصل : « من شعره » وأثبت ما فى ق والخريدة .
(٨) هذه من ق .

ما باله يجفو وقد زعم الورى أنّ الندى يختصُّ بالوجه الندِى[١]
لا يخدعنَّك وجنـةٌ محمرّة رقّت ففى الياقوت طبع الجلمدِ

وله من قصيدة :

وعَسكرىٍّ أبداً حيثما تلقاه يلقاكَ بكلِّ السّلاحْ
حاجبُـه قوس وأجفانُه نَبلٌ وعِطفاه تثنِّى الرّماح
[راح وفعلُ الراح فيه كما يفعل بالغصنِ نسيمُ الرياح[٢]]

أغار فى هذا البيت الأخير على خالدٍ الـكاتب فى قوله :

رأتْ منه عينى منظرينِ كما رأت من الشّمس والبدرِ المنيرِ على الأرضِ[٣]
عشيّةَ حَيّـــــانى بوردٍ كأنه خدودٌ أُضيفَت بعضُهن إلى بعض[٤]
[وناولنى كأساً كأنّ مزاجها دموعىَ لما صدَّ عن مقلتى الغمض[٥]]

***

وراحَ وفعـلُ الرّاح فى حركاته كفعل نسيم الرِّيح فى الغصن الغضِّ

وأما البيت الذى قبله[٦] فقد تداولَه الشعراء . ومن مليح ما وقع فيـه قولُ بعضِ أهل العصر :

بى مِن بنى الأصفر ريمٌ رمى قلبى بسهم الحَوَر الصائب
سهمٌ من اللحظ رمتنى به من كَثَب قوسٌ من الحاجب
كأنما مقلته فى الحشى سيفُ علىّ بن أبى طالب

وله فى ورق كاغد أهدى إليه :

---

(١) كلمة « يجفو » ساقطة من الأصل . وإثباتها من ق والخريدة .
(٢) البيت ساقط من الأصل ، وإثباته من ق والخريدة (٢ : ٣٠١) .
(٣) فى الأصل : « كأنما هو الشمس » ، وأثبت ما فى ق والخريدة .
(٤) فى الأصل : «على بعض» ، وأثبت ما فى ق .
(٥) هذا من الخريدة فقط .
(٦) يعنى قوله :
حاجبه قوس وأجفـــانه نبل وعطفاه تثنى الرماح

أهدى لنا ورقاً أرَقَّ من الشراب المستحيلِ
خَلَقاً تمزقه الخطوط كأنه عِرضُ البخيل
لا بالصَّبيغ ولا الصَّقيل ولا العريض ولا الطويل
إلاَّ بياضاً خلتُه وضَحاً على جسم نحيل(1)

وقد استوفى بعضُ أهل العصر هذا المعنى ، فقال يذكر رِزْمة كاغد أخرجت إليه من خِزانة السلطان ، تستعمل فى ديوان الإنشاء ، وكان بعض كتاب الديوان يسرق الكاغد ، فسلِمت تلك الرِّزْمةُ منه لدمامتها وخِسّة ثمنها :

وكاغدٍ يشبه حالاتِنا فى كلِّ معنى ويحاكيها
جُنِّس للخطِّ به صورة لا شىء فى القبح يدانيها(2)
ينفُذ فى صفحته كلُّ ما ترُشّهُ أقلامُنا فيها
نُودِعهُ مكنونَ أسرارِنا وهو إلى الألحاظ يُفشيها
مختلفُ الأجزاء مستخشَنٌ تلمسهُ الكفُّ فيُدميها
كجِلدة الأبرصِ فى لونه وصفاً على الحق وتشبيها
لو كان خُلقاً كان مستبشَعاً أو كان خَلقاً كان تشويها
يعثِّر الأقلامَ حتّى تُرى مفلولةً فيه مواضيها(3)
يتركها تشبهُ أعجازُها فى عدم البَرْى هَواديها(4)
من بعد ما ضاهَى بأطرافها أطرافَ سُمر الخطِّ باريها(5)

---

(1) هذا البيت ساقط من ق .
(2) فى الأصل : « فيها ما يدانيها » صوابه من ق
(3) يقال أعثره إعثاراً وعثره تعثيراً . وفى الأصل : « يغير الأقلام » والمثبت ما فى ق .
(4) الكلمة الأولى ساقطة من الأصل ، كما سقطت كلمة « البرى » والمصف الكلمة التى بعدها ، وإتمامه من ق . وفى ق : « فى قدم البرى » ، ووجهه ما أثبت من الأصل . وهواديها بمعنى أوائلها ، أى رءوسها .
(5) ورد البيت فى الأصل مبتوراً ، منتهياً بكلمة « أطراف » وإتمامه من ق .

وتفعل الأنملُ فى جريها ... كالـــبرق .... يها[1]
وكم غدا يسلُبها جاهداً ... مَن كان بالنفس يفدِّيها
يقول مَن يبصر أطباقَه ... شَلَّت يدٌ باتت تعبِّيها
قد عَبِث السوسُ بأوساطِها ... وقَرّض الفأرُ حواشيها[2]
لو عُرِضت رِزمتُهُ لم تجد ... مشتريًا فى الخَلْق يشريها
لو بَذَل الفَلسَ بها غالطًا ... أوسِعَ تضييعًا وتسفيها[3]
لا يرزأ السارقُ منها ولا ... يغتالها من حيلة فيها[4]
تُحصِى الحصى مستوفيًا عدَّه ... من قبل أن تُحصِى مساويها[5]
من ذمّ ذا نقصٍ وذا خسّةٍ ... فهو بذاك الذمّ يعنيها[6]

وقال أبو الطاهر[7] :

قلتُ إذ عقربَ الدلا ... لُ على خده الشَّعَرْ
هــذه آيةٌ بها ... ظهر الحسنُ وانتشر
ما رُئِى قبلَ صُدغه ... عقربٌ حلّت القمر[8]

هذا معنًى مليح ولـكنّه سرقه من بيتين أنشدَنيهما بمصر رجل يسمى أبا محمد التكريتىّ من تلاميذ أبى حامد الغزالى لأبى حامد ، ولم أسمعهما من غيره :

---

(١) كذا جاء البيت فى الأصل ، وهو ساقط من ق .
(٢) فى الأصل : « بأطرافها » ، والوجه ما أثبت من ق .
(٣) تضييعا ، كذا وردت .
(٤) فى الأصل : « تعبا لها » صوابه فى ق . و « من حيلة » هى فى الأصل و ق : « فى حيلة » .
(٥) مستوفياً عده ، مكانها بياض فى الأصل ، وإثباتها من ق .
(٦) كلمة « وذا خسة » موضعها أبيض فى الأصل ، وإثباتها من ق .
(٧) هو أبو الطاهر إسماعيل بن محمد ، المعروف بابن مكنسة ، وقد سبق التنبيه على اسمه فى ص ٤٣ .
(٨) فى الخريدة (٢ : ٢٠٣) : « ما رئى قط قبل ذا » .

حَلّت عقاربُ صُدغه فى خدّه قمراً فجلّ بها عن التشبيه[١]
ولقد عهـــدناه يحلُّ ببُرجها فمن العجائب كيف حلّت فيه

وقال أبو الطاهر أيضا من قصيدة وقد عزم عليه بعضُ الأمراء فى الخروج[٢] معه إلى الشام لقتال الغُزّ[٣]، أولها :

غير عاصٍ عليكِ تقويمُ عُودى فانقُصى من ملامتى أو فزيدى[٤]
قل لمولاى إذ دعانى لأمرٍ قمتُ فيـــه له مَقامَ العبيد
ضعفَتْ حيلتى وقلَّ غنَـــائى ودنت غايتى وَرَثَّ جديدى[٥]
أنا مالى وللشـــآم وإنى لأرى نار حربها فى وَقود
بلدٌ جِنَّـــهُ عفاريةُ الغُزِّ وأرضٌ وحوشُها من أُسود[٦]
والجِفــار التى تقول إذا ما قيل هَلاّ امتلأتِ : هل من مزيد[٧]
وكأنْ بى على بعـيرٍ ترانى آخرَ الناس فى لفيف الْحشود[٨]
أسودَ الوجــه ناظراً فى أمور معضِلاتٍ من الحوادث سُودِ

---

(١) وكذا روى فى وفيات الأعيان ، فى ترجمة أبى حامد الغزالى . وفى الخريدة وق : « يجل به عن التشبيه » . قال ابن خلكان : « ورأيت هذين البيتين فى موضع آخر لغيره » .
(٢) ق : « فى السير » .
(٣) فى اللسان والقاموس أن « الغز » جنس من الترك .
(٤) فى الأصل : « غير عاش » صوابه من الخريدة (٢ : ٣٠٨) . وفى ق : « عاس » يقال عسا إذا اشتد .
(٥) الغناء ، بالفتح : النفع . وفى الأصل : « عنائى » صوابه فى ق والخريدة (٢ : ٣٠٨) .
(٦) فى الأصل : « حنة » صوابها فى ق والخريدة . والعفارية بياء قبل الآخر : جمع عفرية ، وهو العفريت . وفى الأصل : « عفاربه » وفى ق والخريدة : « عفارتة » صوابهما ما أثبت . انظر اللسان (عفر ٢٦٣) .
(٧) الجفار : جمع جفرة بالضم ، وهى الحفرة الواسعة المستديرة . وفى الأصل و ق : « الذى يقول » صوابه فى الخريدة . وفى الخريدة : « قيل امتلأت هل مزيد » وفى ق : « قيل هل امتلأت » ولا يستقيم الوزن بأحدهما . والوجه ما أثبت .
(٨) فى الأصل : « وكأنى على » وأثبت ما فى ق والخريدة .

وإذا قيــل فى غدٍ يلتقى النا   سُ فلا تنسَ فهو بيتُ القصيد
حيثُ لا ناظرى تراه حديداً   حينَ يبــدو له بريقُ الحديد
حيثُ لا يُتَّقى لسانى ولا يَثـ   ـنى عنانَ المغير عنّى نشيدى (١)
إنّ رأيى إذا يُســدَّدُ نحوى   سهمُ رامٍ لغير رأىٍ سديد (٢)
فإذا ما قُتِلتُ كنت خليقــاً   بدخولى جهنمًا وخــلودى
فأقلنى عثــارَها وابقَ للمجـ   ـد وكبتِ العدى وغيظِ الحسود (٣)

وقال من قصيدة فى طريقة أبى الشَّمَقْمق (٤) :

أنا الذى حَدَّثــكم   عنــه أبو الشَّمقمقِ
وقال عنّى إننى   كنتُ نديمُ المتّقى
وكنت كنت كنت كنـ   ـتُ مِن رماة البُنـدق
حتّى متى ألقَى كذا   تيساً طــويلَ العنق (٥)
بلحيةٍ ســــابلة   وشــارب محلَّق (٦)
[يا ليتَهــا قد خُلِقت   من وجه شيخٍ حَلَقى (٧)]

وقال (٨) مِن أخرى :

عشتُ خمسين بل تزيـ   ـدُ رقيباً كما ترى

(١) ق : « رأس البعير عنى » ، وفى الخريدة : « زمام البعير » .
(٢) ق والخريدة : « إذا تسدد نحوى » ، يقال سدده فتسدد .
(٣) ق والخريدة : « وابق للحمد » .
(٤) ق : « أبو الرقعمق » وهو شاعر آخر وليس مراداً . أما أبو الشمقمق فهو مروان بن محمد وكان معاصراً لبشار وأبى نواس . وترجمته فى « تاريخ بغداد » ٧١٢٨ وابن خلكان فى تضاعيف ترجمة يزيد بن مزيد . ولم يفرد له ترجمة . وأما أبو الرقعمق فهو أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكى ، وترجم له الثعالبى فى اليتيمة (١ : ٢٣٨) وابن خلكان فى الوفيات (١ : ٤١) .
(٥) ق والخريدة : « حتى متى أبقى » .
(٦) فى اللسان : « يقال سبل سابل » . وفى الخريدة : « بلحية مسبلة » .
(٧) البيت من ق والخريدة . والحلق : المأبون ، وجاءت فى أصلها : «حلق » محرفة .
(٨) فى الأصل: « وقوله » ، صوابه فى ق .

أحسبُ المُقْـل بنـدقاً وكذا المِلحَ سكَّرا[1]
وأظنُّ الطويل من كل شيء مدوّرا
قد كبِرْ بِرِ بِبِرْ بِبِرِ تُ وعقلى إلى ورا
عجباً كيفَ كلُّ شي ء أراه تغيَّرا
لا أرى البَيض صار يؤ كل إلاّ مقشَّرا
وإذا دقّ بالحجا ر زجاجٌ تكسرا
وإذا مات ميّت لا يشمَّنَ عنبرا[2]

* * *

ومن شعراء المصريين فى زماننا هذا من يقول — وهو أبو مشرف الدجرجاوى[3] ، وهو منسوب إلى دجرجا ، وهى ضيعة[4] بالصعيد الأعلى :

قاضٍ إذا انفصل الخصمان ردَّهما إلى الخِصام بحكمٍ غيرِ منفصلِ
يبدِى الزّهادةَ فى الدنيا وزُخرفِها جَهراً ويقبل سراً بَعرةَ الجمل

ومنهم من يقول ، وهو أبو الحسن علىّ بن البرق ، من أهل قُوص :

رمانى الدهرُ منه بكلِّ سهمٍ وفاجأنى ببينٍ بعدَ بين[5]
وجمَّع فى فؤادى كلَّ حزنٍ وفرَّق بين أحبابى و بينى
ففى قلبى حرارةُ كلِّ قلب وفى عينى مدامعُ كلِّ عين

وله من أبيات :

ولى سَنَةٌ لم أدر ما سِنَةُ الكرى كأنَّ جفونى مسمعى والكرى العذلُ[6]

(١) المقل : ثمر الدوم . وفى الأصل : « البقل » ، وفى ق والخريدة : « المصل » والوجه ما أثبت . وفى الأصل : « سكرا . وأحسب الملح سكرا » ، صوابه فى ق والخريدة .
(٢) البيت ساقط من ق والخريدة . وفى الأصل : « لا يسمن » تحريف .
(٣) قال ياقوت ، عند الكلام على دجرجا : «قد خرج منها شاعر متأخر يعرفه المصريون يقال له (أبو) المشرف . وله شعر جيد» وفى الأصل : «الدجرجراى» صوابه فى ق والخريدة .
(٤) فى الأصل : « إلى ضيعته دجرجرا وهى » صوابه فى ق .
(٥) فى ق ركب صدر هذا البيت على عجز تاليه فصارا بيتاً واحداً . وكذا جاء فى الطالع السعيد للأدفوى ٢١٩ .
(٦) فى الأصل : « وبين جفوتى » صوابه فى ق والخريدة والطالع السعيد . والكلمة الأخيرة من البيت ساقطة من الأصل وإثباتها من النسخ الثلاث .

ومنهم من يقول ، وهو أبو محمد عبد الله بن الطباخ الكاتب ، يهجو رجلاً أوقَصَ . أنشدَتيهما لأبي الحسن [على بن[١]] الصوفى الحنبلى[٢] :

قَصُرت أخادعُه وغاض قذالُه   فكأنه متوقِّعٌ أن يُصفَعا[٣]

وكأنه قد ذاق أوّل دِرّة   وأحسّ ثانية لها فتجمّعا

ومنهم من يقول ، وهو أبو عبد الله محمد بن مسلم الكاتب :

تعسّفها الحادى وقد هَجَر الفلا   ومرّ عليها الخِمسُ يتبعه العِشْر[٤]

وأنحلها لفحُ الهجير كأنّه   هوًى وهو قلبٌ قد أضرّ به الهجر

ومنهم من يقول ، ولا أتحقّق اسمه ، فى رجلٍ يلقب بالرشيد[٥] :

شتّان ما بين الرشيـ   ـدِ وبين هارونَ الرشيد

هـذا يعزَّر بالجلو   د وذا يعزِّز بالجنود[٦]

ومنهم من يقول ، وهو محمود بن ناصر الإسكندرى[٧] كاتب القاضى ابن حديد ، فى طبيبٍ أعلَمَ مشوّه الخلق :

صديقنا المستطِبُّ نادرةٌ   قد أخذت منه أعينُ الناس[٨]

أنيابُ غول ومِشفرا جملٍ   ورأسُ بغل وذَقن نِسناس

ومنهم من يقول ، وهو أبو نصر ظافر بن قاسم المعروف بالحداد[٩] من أهل الإسكندرية ، وكتب إلىّ بها فى رسالة :

---

(١) هذه من ق .   (٢) ق : « الجبلى » .

(٣) فى الأصل : « وغاب قذاله » ، وأثبت ما فى ق .

(٤) فى الأصل : تشقها » ، صوابه ما فى ق .

(٥) فى الأصل : « يسمى هارون الرشيد » وأثبت ما فى ق .

(٦) التعزير : ضرب التأديب دون الحد . وهـذا هو الوضع الصحيح للبيت كما فى الأصل . وجاء على العكس فى ق وليس بشىء :

هـذا يعزز بالجنو   د وذا يعزر بالجلود

(٧) ق : « الإسكندرانى » .

(٨) فى الأصل : « قد أخذتها من أعين الناس » صوابه فى ق والخريدة .

(٩) ترجم له ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » وياقوت فى « إرشاد الأريب » وذكرا أنه توفى سنة ٥٢٩ .

وما طائرٌ قصَّ الزمانُ جَناحَه فأعدمَه وَكراً وأفقَـــــدَه إلفا
تذَكَّر زُغباً بين أفنانِ أيكةٍ خوافى الخوافى ما يَطِرن بها ضعفا
إذا التحف الظّلماء ناجى همومَه بترجيع لحنٍ كاد من رِقّة يخفى[1]
بأشوقَ منى إذْ أطاعتْ بكَ النوى هوائيةٌ مائية تسبِق الطرفا
تولّت وفيها منك ما لو أقيسُه بما هى فيه كان فى فضله أوفى[2]

وقال أيضاً :

رَحَلوا فَــــــلولا أنّنى أرجو اللّقا لقضَيتُ نحبى[3]
والله ما فارقتُــــكم لــكنّنى فارقتُ قلبى[4]

ومنهم من يقول ، وهو أبو القاسم بن رشد[5] المصرى :

وكم قائلٍ لىَ سافِرْ إلى بلادِ العراق تقَعْ فى الرّخاء[6]
لعمرى لقد صدقوا قد وقعـ ـتُ وسط الرخاء بتقديم خاء

ومنهم من يقول — وهو الناجى المصرى — يهجو حمّاما :

إنَّ حمامَنا الذى نحنُ فيه هو فى حاجةٍ إلى حَمّامِ
قد دَخلنا ونحن أولاد سامٍ وخرجنا ونحن أولاد حامِ

وقال بعضُ أهل العصر فى هذا المعنى :

حَمامنا هذا أشدُّ ضرورةً ممن يحلُّ به إلى حَمّامِ
تبيضُّ ألوان الورى فى غيرِه ويُعيرها هذا ثيابَ سُخامِ
قد كنتُ من سام فحين دخلته لشقاء جَدّى ردَّنى من حامِ[7]

ومنهم من يقول ، وهو أبو الحسن مروان بن عثمان :

تمكّنَ منى السُّقم حتّى كأننى توهُّم معنًى فى خفىٍّ ســؤالِ

(١) ق : « من دقة » . (٢) ق : « كان فى وصفه وفى » .
(٣) ق : «أرجو الإياب قضيت نحبى» . (٤) ق : « والله ما فارقتهم » .
(٥) فى الأصل : « بن زبيد » وأثبت ما فى ق .
(٦) ق : « الرخا » بالقصر ، وكذا « خا » بالقصر فى البيت التالى .
(٧) فى الأصل « دخلتها » صوابه فى ق والخريدة (٢ : ٣٠٥) .

[ولو سامحت عيناه عينىَّ فى الكرى لأشكَلَ من طيف الخيال خيالى(١)]
سمحتُ بروحى وهى عندى عزيزةٌ وجُدت بقلبى وهو عندىَ غالى
وقد خفتُ أن تقضى علىَّ منيَّتى ولم أقضِ أوطارى بيوم وصال(٢)
وهوَّنَ ما ألقى من الوَجد أنه صدودُ دلالٍ لا صدودُ مَلال
فلو كان ذاكَ الصدُّ منه ملالةً شددت عن الدنيا مطىَّ رحالى(٣)

هذا من قول العباس بن الأحنف :

لو كنتِ عاتبةً لسكَّنَ لوعتى أملى رضاكِ وزرتُ غير(٤) [مراقب
لـكن صددتِ فلم تكنْ لىَ حيلة صدُّ الملول خلاف صَدِّ العاتب

ولمروان :

ما بالِ قلبك يستكينْ أبهِ غرام أم جنونْ(٥)
بَرَحَ الخفاء بما تُجِنُّ ، فأذهب الشكَّ اليقين
حتَّى متى بين الجوانح والضلوع هوًى دفين
وإلى متى قلبُ المتيم فى يد البلوى رهين
يا ماطـلى بديونِ قلبى آنَ أن تُقضَى الديون
شخَصَت له فيك العيونُ وقسِّمت فيك الظنون
وسلبتَ ألبابَ الورى بلواحظٍ فيها فتُون
وقَوامِ أغصـان الرياض وأين تدركُك الغصون
الحسنُ فى الأغصان فـنٌّ وهو فى هـذا فنون

---

(١) البيت من الخريدة (٢ : ٢٠٣) .
(٢) فى الأصل : « منية » وأثبت ما فى ق والخريدة .
(٣) هذا البيت ساقط من ق .
(٤) بعد هـذا بياض فى الأصل بقدر نحو صفحتين ، وقد أكملته من ق والخريدة (٢ : ٢٠٤) ، والقدر المشترك بينهما فى التكملة هو السطر الأخير فقط مما وضع بين معكفين ، وأما سائر التكملة فهو من الخريدة فقط . (٥) يجوز فى رويه الإسكان والتحريك .

من أين للأغصان ذا لكَ الغُنْجُ والسحر المبين
أم ذلك الورد الجنِىّ بخدّه والياسَمين

ومنهم من يقول ، وهو أبو إسحق إبرهيم بن الأشعث] :

إذا حلّ محمودٌ بأرضٍ فإنه يفجّرِ فيها من نَدَى كفِّه عينا[١]
فتُنبت نوراً مشبهًا لهباته يُرى وَرَقًا بعضٍ و بعض يُرَى عينا[٢]

وله فى غلامٍ مليح أسمر :

ياذا الذى يُنفق أموالَه فى حبِّ هـذا الرشأ الفائق[٣]
ما الذهب الصامتُ مستكثراً إذهابُه فى الذَّهب الناطق[٤]

ومنهم من يقول فى معشوقٍ له تمتام ، وهو محمود بن إسماعيل بن حميد الدِّمياطى :

تمتمةٌ تمّ غرامى بها وعارضٌ عرّضنى للسّقام
ووَفرةٌ همِّى بها وافر وحاجبٌ حجّب عنِّى المنام[١]

وله من أبيات يصف الخمر :

و بتُّ ليلِي أرى النار التى سجدت لها المجوسُ من الإبريق تسجد لى

هذا — أطال الله بقاء الحضرة السامية — ما أملاه الخَلَد، على اليد ، فى فى مدة متقاربة الطرفين ، ضيقة ما بين الحاشيتين . فإن تراخت المدة استدركت الفائت[٢] واستلحقت الناقص ، إن شاء الله تعالى .

نجزت يوم الثلاثاء تاسع عشر ذى القعدة عام ١٠٩١ بأدرنة .

---

(١) فى الأصل : « غيثاً » صوابه فى ق والخريدة . والعين فى هذا : الينبوع الجارى .
(٢) فى الأصل : «غيثاً » صوابه فى ق والخريدة . والورق : الفضة ، تقال بفتح الراء وكسرها ، وفتح الراء هنا أوفق للصناعة . والعين فى هذا البيت بمعنى الذهب . وفى ق والخريدة : « يرى ورقا بعضاً وبعضاً يرى » وتقرأ : « يرى » بهذه الرواية على أنها مضارع أرى .
(٣) ق : « الأسمر الفائق » .
(٤) فى الخريدة : « مستنكراً » ، وفى الأصل : «ذهابه» وأثبت ما فى ق والخريدة : (٢ : ٢٠٥) .
(٥) فى الأصل : «اللام» صوابه فى ق . (٦) فى الأصل : «الفائق» صوابه فى ق .

كتاب المُرْدِفات من قريش

لأبي الحسن علي بن محمد المدائني

١٣٥ ـ ٢٢٥

رواية أبي الحسن علي بن محمد بن عبيد الكوفي، عن أبي القاسم عبدالله بن محمد، عن أبي جعفر أحمد بن الحارث، عن المدائني

مقـــدمـة

هذه الرسالة القيِّمة الطريفة فى موضوعها — وهو موضوعٌ حيوى اجتماعى فيه الإفصاح عن كثير من غوامض الحياة الاجتماعية فى الصدر الأول من الإسلام — صنعها راويةٌ جليل من رواة الأخبار ، يعدُّ فى الصدر من رجالات التأليف فى العصر العباسى ، هو أبو الحسن المدائنى على بن محمد بنْ عبد الله بن أبى سيف .

وأبو الحسن هذا بصرى سكن المدائن ، ثم انتقل عنها إلى بغداد فلم يزل بها حتى وافاه الأجل . وكان مولًى لعبد الرحمن بن سَمُرة القرشى ، وهذا يكشف لنا القناع عن سرِّ تأليفه لهذه الرسالة يتناول فيها أخبارَ النساء المردِفات من قريش .

وكان أبو الحسن ميّالا إلى التأليف فى أخبار العرب وأنسابهم وأيامهم ، عالمًا بالفتوح والمغازى ، وكان لما أنعم الله به عليه من عمر مديدٍ جاوز التسعين ، أثرٌ عظيم فى ضخامة مكتبته التى أخرجها للناس ، وتناولها ابنُ النديم فى الفهرست بالسرد ، فأربت على (مائتين وأربعين مصنفاً) يلمح القارئ فى عنواناتها جلالَ علم هذا الرجل ، واتساعَ معارفه ، وتبحُّرَه فى فنون التأليف والرواية .

ولد أبو الحسن سنة ١٣٥ وترعرع فى كنف مولاه عبد الرحمن بن سمرة القرشى ، وعندما انتقل إلى بغداد وصَلَ حبلَه بإسحاق بن إبراهيم الموصلى فكان لا يفارق منزلَه . ومما هو جدير بالذكر أن أبا الحسن أغمض إغماضته الأخيرة فى منزل صاحبه إسحاق الموصلى فى سنة ٢٢٥ ، وكان إسحاق يبر أبا الحسن براً ظاهراً ، ويروى أن يحيى بن معين سأله مرة وقد جاز عليه وهو على حمار فاره : إلى أين يا أبا الحسن ؟ فقال : إلى هذا الكريم الذى يملأ كمى من أعلاه إلى أسفله دنانير ودراهمَ . يعنى إسحاق الموصلى .

هذه المكتبة المدائنية التى ابتلعتها أحداث التاريخ فيما طوت من كنوز

الثقافة العربية ، يقف الباحثُ من بعدها موقف الحسرة والأسى ، وهو إنما يستروح بشيء من العزاء حينما يلمح بعض هذه الآثار فى مقتبسات المؤلفين الذين رووا من تلك الكتب أطرافاً ، وفى طليعتهم أبو الفرج الأصبهانى صاحب كتاب الأغانى . واليوم نظفر بعزاء جديد حين ننشر على هذا الملأ من المتأدبين والعلماء قطرة من نبع آثار المدائنى ، هى تلك الرسالة التى تزدان بها المكتبة التيمورية التى حفظ فيها المغفور له العلاّمة أحمد تيمور باشا كثيراً من نفائس الإنتاج العربى ، وهى فى صحبة مجموعة تشتمل على ١١ رسالة رقمها ٨٠ مجاميع ، وعليها خط المغفور له الشيخ طاهر الجزائرى . وقد جعل عنوان هذه الرسالة : « رسالة المتزوجات من قريش » .

وهذا العنوان موضع نظر ، فإن «المتزوجات» من قريش لا يحصيهنّ العدّ ، وليس يخطر ببال مصنف أن يضع فى ذلك كتابا ، فإن الزواج أمر عام جدًّا ليس له طابَع من الغرابة يسترعى النظر والاهتمام ، فهذه الكلمة محرفة لا ريب . وحين ننظر إلى موضوع الكتاب نجد أنه يتناول النساء القرشيات اللاتى أردفن زوجا بعد زوج ولم يكتفين بزوج واحد ، لظروف متباينة ساقتهن إلى ذلك أو ساقت ذلك إليهن .

ثم نعود بعد ذلك إلى ثبَت كتب المدائنى فنجد بين كتب مناكح الأشراف وأخبار النساء « كتاب المردفات من قريش » ، فكلمة « المردفات » التى يراد بها اللائى أردفن زوجا بعد زوج ، هى الكلمة التى تصحح كلمة « المتزوجات » وهى الكلمة التى تنطبق على موضوع الكتاب أتمَّ الانطباق .

وتبدأ سلسلة رواية هذه النسخة بأبى الحسن على بن محمد بن عبيد الكوفى صاحب ثعلب المولود سنة ٢٥٤ والمتوفى سنة ٣٤٨ ، وتنتهى بتلميذ المدائنى وراويته أحمد بن الحارث بن المبارك الخزاز المتوفى سنة ٢٥٧ . وهذه هى الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم

حدثنا أبو القاسم عبد الله بن محمد قال : أنبأنا أبو جعفر أحمد بن الحارث الخزاز ، قال أنبأنا أبو الحسن المدائنى علىُّ بن محمد ، قال :

١ — تزوّج أمَّ كلثوم بنت على بن أبى طالب عليهما السلام ، عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه ، وقُتِل عنها فخطبها سعيدُ بن العاص فقالت : إن مثلى لا تزوّج نفسى ، فائت أهلى . فأتى الحسنَ بن علىٍ عليهما السلام فخطبها فقاربه . فبعث إليها سعيدٌ بمائة ألف ، وكلم الحسنُ الحسينَ فأبى . وقد كان الحسن وعد سعيداً وعداً ، فأتاه سعيدٌ وحده فقال : أين أبو عبد الله ؟ قال الحسن : لم يحضرْ ولن يخالفنى إذا فعلت . فقال سعيد : إنى أكره أن أدخل بينكم بشىء تكرهونه . فرجع ولم يرجع فى المال ولم يطلبه . ثم تزوّجها عونُ بن جعفر ، ثم تزوّجها محمد بن جعفر . وقد ولدت لعمرَ زيداً ورقيّة ، فتزوج رقيّة إبرهيم بن نعيم النَّحَّام[1] ، وماتت هى وابنها زيد فى يوم واحد .

٢ — حدثنا أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال :

أمُّ كلثوم بنت عقبة بن أبى مُعيط تزوّجها زيد بن حارثة ، ثم خَلَف عليها الزبير بن العوّام فحملت . وكان الزبير شديداً على النساء ، فأقام عندها سبعة أيام فولدت له ابنة ، وقالت له حين ضربها المَخَاض : طيِّبْ نفسى بتطليقة . فطلّقها وخرج إلى الصلاة ، فلحقه رجلٌ فقال : قد ولدت أمُّ كلثوم . فقال : خدعَتْنى خدَعها الله ! ولم يكن له عليها رَجعة . وخطبها فأبت أن تزوّجه . ويقال : أتى النبى عليه الصلاة والسلام فأخبره فقال : قد مضى فيه القرآن ، ولكن إن شئت خطبتها إلى نفسها . قال : لا ترجع إلىّ أبداً .

وابنتها من الزبير زينب . ثم تزوّجها عبد الرحمن بن عوف بعد زيد ثم

(١) انظر خبر زواج إبراهيم بن نعيم النحام فى الأغانى (٤ : ١٤٦) والمعارف ص ٨٠ .

الزبير. فولدت لعبد الرحمن محمداً وإبراهيم وحميداً وإسماعيل، ثم تزوّجها عمرو ابن العاص فأخرجها معه إلى مصر. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجَها معه فى بعض مغازيه تُداوى الجرحى وضَرَب لها بسهم، فقالت يوما لخبّاز عمرو[1] : لاتهيّئْ له اليوم طعاما فإنى قد هيأت له غَداءه. ودعا عمرو بالغداء، فقال الخبّاز : أرسلت إلىّ أمّ كلثوم : لا تَكلَّفْ شيئا فقد هيأت له غداءه. قال : فغدِّنا. فتغدَّى، فلما فرغوا وخرج مَن حضر قال لأم كلثوم : لا تعودى فإنى لم أتزوّجك لتطعمينى، وإنما تزَوّجتُك لأُطعمك. فماتت عنده.

٣ — أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : كانت هندُ بنت عتبةَ بن ربيعة أمُّ معاوية، عند الفاكه بن المغيرة، فقتل عنها بالغُمَيصاء[2] فى الجاهلية، ثم خَلَف عليها حفصُ بن المغيرة، فمات عنها، فتزوجها أبو سفيان بن حرب.

٤ — عاتكة ابنة زيد بن عمرو بن نُفيل، أنبأنا أبو الحسن عن جويريةَ ابن أسماء وعامر بن حفص قالا :

عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفيل، أمها ميمونة بنت الحضرمى بن الصعبة[3] كانت عند عبدالله بن أبى بكر بن أبى قحافة فأحبها، فكان ربّما ترك الصلاة جماعة، فأمره أبو بكر رضى الله عنه بطلاقها وقال : قد فتَنَتك عن دينك، وشغَلَتْك عن معيشتك. فطلّقها. فطلّقها، وقال :

ولم أر مِثلى طلّقَ اليومَ مثلَها ... ولا مثلَها فى غير جُرْمٍ تُطلَّقُ
لها خُلقٌ سمحٌ ورأىٌ ومَنصِبٌ ... وخَلقٌ سَوِىٌّ فى الحياءِ ومَصْدَقُ[4]

(١) يطلق الخباز على من كان يشرف على إعداد الطعام وطهيه. انظر التحقيق فى حواشى الحيوان (٥ : ٤٥٧).

(٢) الغميصاء : موضع فى البادية بالقرب من مكة.

(٣) فى الإصابة ٦٩٥ من قسم النساء، أن أمها أم كريز بنت عبد الله بن عمار بن مالك الحضرمية.

(٤) المصدق : الصدق. وفى الأصل : « فى الحياة »، وفى الأغانى (١٦ : ١٢٨) « فى حياء ».

أعاتكُ لا أنساكِ ما هبّت الصَّبا   وما ناح قُمْرِيُّ الحمامِ المطوّقُ
أعاتكَ لا أنساكِ ما حجّ راكبٌ   وما لاح نجمٌ فى السماء محلِّقُ
أعاتكُ قلبى كلَّ يومٍ وليلةٍ   إليكِ بما تُخفى النفوسُ معلَّقُ
ولولا اتقّاء اللهِ فى حقِّ والدٍ   وطاعَتُه ما كان منّا التفرّقُ

فبلغ أبا بكر شعرُه فأمره فراجعها ، وكانت عنده حتى مات شهيداً ، أصابه سهم فى حصار الطائف فانتقض به جُرحه فمات ، فقال لعاتكة حين احتُضِر : لك حديقة من مالى ولا تزوّجى . ففعلت ذلك . وقال حين راجعها :

أعاتكُ قد طُلِّقت عنى بغُصّةٍ   وراجَعْت للأمرِ الذى هو كائنُ[(١)]
كذلكِ أمرُ الله غادٍ ورائحٌ   على النّاس فيه أُلفةٌ وتباينُ
وقد كان قلبى للتفرُّق طائراً   وقلبى لما قد قرّب اللهُ ساكنُ
أعاتكُ إنّى لا أرى فيك سَقْطةً   وإنك قد حلّت عليك المحاسنُ[(٢)]
وإنّك ممن زيّن اللهُ أمْرَهُ   وليس لما قد زيّن اللهُ شائنُ[(٣)]

فمات عبد الله وترك سبعة دنانير ، فقال أبو بكر : إنا لله ، كيف يصبرُ ابنى على سبع كَيّاتٍ[(٤)] . فلما مات عبد الله قالت عاتكة :

فُجعتُ بخيرِ النّاس بعد نبيِّهم   وبعد أبى بكرٍ وما كان قَصَّرا
فآليتُ لا تنفكُّ عينى سخينةً   عليكَ ولا ينفكُّ جلدِىَ أغبرَا
مَدَى الدهرِ ما غنّت حمامةُ أيكةٍ   وما طرَدَ الليلُ الصَّباحَ المنوِّرا
فلله عينا مَن رأى مثلَه فتًى   أكرَّ وأحْمَى فى الجهاد وأصبرا
إذا شَرَعتْ فيه الأسنّةُ خاضَها   إلى الموت حتّى يترك الرُّمحَ أحمرا

---

(١) فى الأغانى : « فى غير ريبة * وروجعت » .
(٢) فى الأغانى : « سخطة * وإنك قد تمت » .
(٣) فى الأغانى : « وجهه * وليس لوجه زانه الله » .
(٤) يعنى بذلك جزاءه على ما اكتنز من الدنانير . (يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم) .

فخطبها عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه فقالت : إنّى قد جعلت على نفسى مالا أقدر [معه] على التزويج . فقال : استفتى ابن أبى طالب رضى الله عنه . فاستفتته فقال : ردّى عليهم ما أخذتِه منهم وتزوّجى . فردّت الحديقة ، فتزوّجها عمر رضى الله عنه ، فلما دخل بها أولَم ، فدنا على رضى الله عنه من خِدرها وقال :

فآليتُ لا تنفكُّ عينى سخينةً عليكَ ولا ينفكُّ جلدِىَ أغبرا !

فبكت ، فقال عمر : ما أردتَ إلا أن تفسِد علينا أهلنا[1] . ويقال قال هذه المقالةَ لها عبد الرحمن بن أبى بكر . فلما قتل عمر قالت :

فجّعنى فيروزُ لا درَّ درُّهُ بأبيضَ تالٍ للقُـرآنِ مُنيبِ
رؤوفٍ على الأدنى غليظٍ على العدى أخى ثقـةٍ فى النّائباتِ نجيبِ
متى ما يقلْ لا يُكذِب القولَ فِعْلُه سريعٍ إلى الخيرات غيرِ قطوبِ

وقالت :

عينُ جُودِى بعـبرةٍ ونحيبِ لا تملّى على الإمام النّجيب
فجعتْنى المنونُ بالفارس المُقْـ ـدِمِ يومَ الهيـاج والتذييب[2]
عِصمةِ النّاس والمعين على الدّهـ ـرِ وغيثِ المنتـاب والمحروبِ
قل لأهل الضرّاء والبأس مُوتُوا قد سقتْه المنونُ كأسَ شَعُوبِ

فخطبها طلحة بن عُبيد الله ، فمشى فى أمرها هبّار بن الأسود فأفسد عليه ، فتزوجها الزبير بن العوام ، فنهاها عن الخروج إلى المسجد فقالت : أتنهانى عن الخروج إلى الصلاة وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا تمنعوا إماء الله من مساجد الله » . فأعرض عن ذلك أياماً ثم قعد لها فى طريقها ليلاً ، فلما مرّت به ضرب عجيزتَها بيده — وكانت عظيمةَ العجيزة جميلة — فرجعتْ إلى بيتها واسترجعت وقالت : سوأة ، إنا لله . وتركت الخروج ، فقال لها الزبير : مالكِ تركت

(١) فى الأصل : « أهلها » .
(٢) التذييب : إكثار الذب والدفع . وفى الأغانى . « التلبيب » .

الصلاة فى المسجد ؟ قالت : قد فسد الناسُ أبا عبد الله ! فقتل عنها فقالت :

غدرَ ابنُ جُرموزٍ بفارس بُهْمَةٍ يوم اللّقاء وكان غير معرِّدِ
يا عمرُو لو نبّهتَه لو جـــدْتَه لا طائشاً رَعِشَ الجَنان ولا اليدِ
شلّتْ يمينُك إن قتلت لمسلماً حلّت عليك عقوبةُ المتعمِّدِ[1]
كم غمرةٍ قد خاضَها لم ينهه عنها طرادُك يا ابن فَقْع القَرْدَدِ

ثم خطبها على بن أبى طالب رضى عنه فقالت : إنّى أشفق عليك من القتل ، لم أتزوَّج رجلا إلا قتل . فتزوّجها محمد بن أبى بكر فخرجت معه إلى مصر فقُتل ومُثِل به ، فقالت :

إن تقتـــلوا أو تَمثُلوا بمحمّد فما كان من شأنِ النِّساء ولا الخمرِ[2]

فتزوجها عمرو بن العاص .

أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن ، عن أبى مقرر ، عن محمد بن عمرو ، أن ابن أمية بن خلف[3] رأى رؤيا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافة أبى بكر فقصها فقال : رأيت أن هذا الرجل قد هلك ، وأنت مكانه ، فبعثْتَ إلى هذه المرأة فتزوجتها — يعنى عاتكة بنت زيد — فدخلتُ عليك وأنت عروس وعلى باب بيتك ستر . فقال عمر : بل يبقى الله خليفة رسول الله . فلما توفى أبو بكر أرسلَ إليها فخطبها .

٥ — سكينة ابنة الحسين عليه السلام ، أمها الرباب بنت امرئ القيس الكلبية[4] تزوجها عبد الله بن الحسن وهو أبو عُذرتها ، فمات — ويقال قتل مع الحسين — فتزوَّجَها مصعب بن الزبير فولدت له ابنةً ، فأرسل إليها : سمِّيها زَبراء

(١) انظر خزانة الأدب (٤ : ٣٤٨ — ٣٥٢) فى الكلام على هذا البيت .
(٢) يقال مثل به يمثل مثلا ، مثل قتل يقتل قتلا : ومثل به تمثيلا ، إذا نكل به .
(٣) هو ربيعة بن أمية بن خلف ، كما فى طبقات ابن سعد ٨ : ١٩٤ . وانظر خبر ربيعة هذا فى الأغانى ١٣ : ١٠٧ .
(٤) انظر خبر تزويج الرباب للحسين بن على فى الإصابة ٤٨٤ ، قسم النساء .

قالت : أسمِّيها باسم إحدى أمهاتى . فسمَّتها خديجة أو فاطمة . فماتت ابنتها من مصعب وهى صغيرة ، فحملها مُصعبٌ إلى العراق فقتل عنها .

وقال ابن قيس الرقيّات حين تزوَّج مصعبٌ سكينة — ويقال قالها الحارث ابن خالد المخزومى حين خرج مصعب بعائشة بنت طلحة :

رحل الأميرُ بأحسن الخلق وغدا بلبِّكَ مطلعَ الشَّرْقِ[1]
وبدَتْ لنا من تحت كِلَّتها كالشَّمس أو كغمامة البَرْقِ
وتَنُو فتُثْقلها عجيزتُها مَشْىَ النَّزيف ينوء بالوَسْقِ[2]
فظلِلْت كالمقمورِ خُلعتَه هذا الجنونُ وليسَ بالعِشْقِ[3]
ما صبّحتْ زوجاً بغُرّتها إلا غدَا بكواكب الطَّلْقِ

وتروى هذه الأبيات لرجل من ثقيف قالها فى امرأةٍ من ثقيف .

وخطب سُكينةَ عبد الملك بن مرْوان فقالت أمها : والله لا أزوجها منه أبداً وقد قتل ابنَ أختى — تعنى مصعباً[4] — فتزوجها عبد الله بن عثمان بن عبد الله ابن حكيم بن حزام — وأم عبد الله بن عثمان رملةُ ابنة الزبير بن العوّام — فولدت له سكينةُ ابناً يقال له قُرَين ، وحكيما ، وابنة ويقال ابنتين . فمات عنها فتزوّجها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، فأصدقها صداقا كثيراً ، فقال

---

(١) فى الأصل : « بليل » صوابه من ديوان ابن قيس الرقيات ١٠١ . وفى الأغانى (٣ : ١٠٣) : « وغدوا بلبك » .

(٢) الديوان ١٠٣ : « نهض الضعيف » . الوسق ، ستون صاعا ، أو حمل بعير .

(٣) الخلعة ، بضم الخاء وكسرها : خيار المال ، لأنه يخلع قلب الناظر إليه . وفى الأغانى « مهجته » .

(٤) هو مصعب بن الزبير ، وكان عبد الملك قد سار إلى العراق ، فالتقى مع مصعب بمسكن ، من أرض العراق ، فقتل مصعب سنة ٧٢ . وفى ذلك يقول عبيد الله بن قيس الرقيات :

إن الرزية يوم مسـ ـكن والمصيبة والفجيعه
بابن الحوارى الذى لم يعده يوم الوقيعه

عبد الملك : إنا تزوجنا أحسابنا فلِمَ نعرِقُ فى الصداق ، طلِّقها . فطلقها ، فقال أيمن بن خُرَيم :

نكحت سُكينةُ فى الحساب ثلاثةً ... فإذا دخلتَ بها فأنتَ الرابعُ
إنَّ البَقيعَ إذا تتابعَ زرعُه ... خابَ البَقيعُ وخابَ فيه الزارعُ[1]

فتزوّجها زيد بن عمرو بن عثمان — وأمه أم ولد — فأصدقها صداقًا كثيراً ، واشترطتْ عليه أن لا يعصى لها أمراً ولا يُغِيرَها ، ولا يمنعها شيئاً تريده ، ولا يمنع أحداً يدخل عليها ، وأن يقيمها حيث خلَّتْها أمُّ منظور[2] . فتزوَّجها على هذه الشروط ، فقال له سليمان بن عبد الملك : يا زيدَ بنَ عمرو ، إنك شرطت لسكينة أن لا تطأ جارية ، وعندك أمثالُها وأنا أعلم أنك لا تصبر وأنك قد وطئت بعضهن ، وشرطت لها شروطاً لا تستطيع أن تفىَ بها ، وقد حرمتْ عليك سكينة . فطلَّقها زيد فتزوّجها إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، فأبى أهلها أن يرضَوا ، فخاصموه وتحاكموا إلى إبراهيم بن هشام ، فقال له : انطلقْ فادخل على أهلك ، فإن حالَ بينك وبينها أحد فامنعه . وكان إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف شرساً كثير الشرّ ، فجاء فى رجال من بنى زُهرة ، فأعانه قوم من قريش ، وجاء بنو هاشم وبنو أميّة ، وأرسل عبد الله بن عمرو بن عثمان مواليَه وغلمانه فى السلاح ، فقيل للوالى : إن لم تمنعهم تقاتلوا . فأرسل فردّ الفريقين ، وكتب إلى هشام فكتب إليه هشام : خيِّروها ، فإن اختارته فاحملها إليه . فاختارت نفسها ، وأتى الخبرُ إبراهيمَ فأتاها فقال : أنا خيرُ الناس لكِ . قالت : ما تقول ، يا بأبى ؟! فعلم أنها تهزأ به ، فانصرف فخيروها فاختارت نفسها ، فجاء علىُّ بن حسين بن حسين عليهم السلام فحملها .

وكانت سكينة تقول لزوجها زيد بن عمرو بن عثمان : اخرج إلى مكة وأخرج

---

(١) البقيع : الأرض الواسعة ، ولا تسمى بقيعاً إلا وفيها شجر .
(٢) فى الأصل : «وأن يقفها حيث جلتها أم منظور» ، صوابه من الأغانى (١٤ : ١٦٣) .

معك أشعب . فيُخرجه ويخرجُ من أرادت ، فإذا قضوا حجهم ورجعوا فكانوا في نصف الطريق قالت : يا ابنَ عثمان ، ارجع إلى مكة . فيقول : نعم . فإذا صرفوا الإبل إلى مكة قال لها : يا سكينة ما أستطيع أن أخالفك وقد انصرف الناس ، فإن رأيتِ أن تمضي معهم . فتقول : نعم . فتمضي معهم يومهم ذلك ، ثم تقول : يا ابن عثمان ، ارجعْ ! فيقول : نعم . فتفعل ذلك مراراً ، ومع هذا مواتاةٌ منها وقرّةُ عينٍ وشفقةٌ ونصيحة ، وإنما كان ذلك كله منها مزاحاً لتسرّه ثم ترجع إلى ما يريد . فعتب عليها يوما في بعض الأمر فصارمها وخرج إلى قصر له في ماله . قال أشعبُ : فدعتني ليلة بعد العِشاء فقالت : ويلك ، هل لك أن تأتيَ ابن عثمان فتعلم لي علمَهُ أيّةً خرج وأخذ . قلتُ : لا أستطيع أن أذهب هذه الساعة . قالت : فإني أعطيك ثلاثين ديناراً . قلت : ادفعيها إليّ . فأعطتني ثم مضيتُ فانتهيتُ إلى القصر بعد ما هزيعٍ من الليل ، وليس على باب القصر أحد ، فدخلت الدار فإذا هو بين يديه مصباح ، قد نزل عن فُرُشه وهو ينكتُ في الأرض ، فسمع حِسّي أو رأى خيالي فقال : إن في الدار إنساناً فانظروا من هو . فجاؤوني فرأوْني فقالوا : شعيب[1] . فدعا بي فقال : ويلك يا شعيب ما قصتُك ؟ قلت : أرسلتني سُكينة . قال : ولم ؟ قلت : ذكرتْ منك ما ذكرتَ منها فأرسلتني أعلمُ لها علمك . قال : ويحك غنني فإن جئتني بما في نفسي فلك حلتي الطبريّة[2] فقد أخذتها بثلثمائة[3] . فغنّيته :

عُلِّقَ القلبُ بعضَ ما قد شجاه ... من حبيبٍ أمسى هوانًا هَواهُ

---

(١) يعنون أشعب ، وهو ترخيم ، كما قالوا في أحمد حميد ، لغير نداء .

(٢) الطبرية : نسبة إلى طبرستان ، وفي الأصل : « الصبرية » بالصاد ، تحريف . وجاء في كتاب (التبصر بالتجارة) للجاحظ ٢٢ بتحقيق العلامة حسن حسني عبد الوهاب باشا « وخير الطيالسة الرويانية الطبرية » . وفي الحيوان (٣ : ٢٧) : « قلت لأحمد بن رياح : اشتريت كساء أبيض طبرياً بأربعمائة درهم » .

(٣) أي ثلاثمائة درهم . أنظر ما سبق .

ما ضِرارى نفسى بهِجرانِ من لَيْـــسَ مسيئاً ولا بعيـــداً نَوَاه

قال : ما عدوتَ ما فى نفسى . وأعطانى حلته ، فرجعت إلى سُـكينة وهى جالسة تنتظر رجوعى فأخبرتها عنـه وعن حاله التى رأيت عليها وما قلت وما صنع . قالت : فأين الحُلة ؟ قلت : معى . قالت : أفتريد يا شعيب أن تلبس حُلة قد لبسها ابن عثمان وتسلبه إياها ، لا ولا كرامة . قلت : والله لألبسنها . قالت : فأنا أشتريها منك . فاشترتها بمائة دينار ، ويقال بثلاثين ديناراً .

وكان تزويجُ إبراهيم بن عبد الرحمن بها أنها مكثت حيناً بعد زيدٍ لا تخطب ، فقالت لها مولاة لها : جعلت فداك ، لا أرى أهل المدينة يذكروننا . قالت : أما والله لأجعلنَّ لهم حديثاً . فأرسلت إلى إبراهيم بن عبـد الرحمن بن عوف ، وكان شرساً كثير الشر ، فقالت له : كيف أنت إن تزوّجتك ؟ قال : تجدينى خير الناس .

وكانت ظريفة فقيل لها : يا سُـكينة أختك ناسكة وأنت مزّاحة . قالت : إنكم سميتموها باسم جـدّتها المؤمنة ، وسميتمونى باسم جـدّتى التى لم تدرك الإسلام[1] .

ويقال إنها لمـا زُفت إلى زيد فحُملت ، قالت لمولى لها كان يمشى مع دابتها يقال له بخة : ويلك ما لَك . وقالت لرجل : قوّم هذا الأديم .

وذكرَ الفرزدق سكينة وشبَّب بها وعمرُ بن عبد العزيز على المدينة ، فأخرجه منها ونفاه . فقال جرير فى ذلك :

نفاكَ الأغرُّ ابنُ عبـــد العزيز بحقِّك تُنفَى من المسجدِ[2]

(١) أختها فاطمة بنت الحسين بن على ، سميت باسم جدتها فاطمة بنت الرسول زوج على ابن أبى طالب . ومما هو جدير بالذكر أن اسم سكينة بنت الحسين ، هو آمنة ، وأما سكينة فلقب لها ، وسميت آمنة باسم جدتها آمنة بنت وهب أم الرسول صلوات الله عليه . انظر الأغانى (١٤ : ١٥٨) .

(٢) وكذا رواية النقائض ٧٩٨ . وفى الأغانى (١٩ : ٥٢) : « ومثلك ينفى » .

وطافت سكينة بنت حسينٍ رضي الله عنه ، فلما انتهت إلى الركن اليمانى أعيتْ فى أول طواف ، ونظر إليها العرْجيّ فقال :

يقعُدنَ فى التَّطوافِ آونةً ويطُفْنَ أحياناً على فَتْرِ
حتى استلَمْنَ الركنَ فى أُنُفٍ من ليلهنَّ يطأْنَ فى الأُزْرِ
ففرَغْنَ فى سبعٍ وقد جُهِدَتْ أحشاؤهن مَوَائلَ الْخُمُرِ

فسمعت شعرهُ امرأةٌ ووصفته لها ، لحفظت الشعر فأخبرتها ، قالت : « لو أن الجمال طُفْن سبعاً لجهدت أحشاؤهن » .

وقال أبو دَهْبَل يمدح عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام — وهو زوج سكينة ، ولدت منه قُريناً ، وحكيما ، وابنة . وأمُّ عبدالله بن عثمان بن عبدالله ابن حكيم رملة ابنة الزبير — فقال :

أكرم بنسلٍ منكَ بين محمدٍ وبين عَلِيٍّ فاسمعنَّ كلامى
وبين حكيم والزُّبير فلا أرى لهم شبهًا فى مُنْجِدٍ وَتِهَامِ
تَعطَّتْ به بيضاء فرعُ نجيبةٍ حَصَانٌ وبعض الوالدِينَ عُرام[1]

٦ — أخبرنا أحمــد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : أمُّ إسحاق بن طلحة بن عبيد الله كانت عند الحسن بن عليّ بن أبى طالب رضى الله عنــه ، فولدت له طلحة ، فلما حضرته الوفاة أمر أخاه الحسين بن عليّ أن يتزوّجها ، فتزوّجها فولدت له فاطمة بنت الحسين . فقُتل الحسين فتزوّجها محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ، فولدت له آمنة .

٧ — أحمد قال أنبأنا أبو الحسن قال : ميمونة ابنة عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبى بكر ، كانت عند عبــد العزيز بن الوليد ، فولدت له عبد الملك ، وعتيقاً ، ثم خلف عليها محمد بن الوليد ، ثم خلف عليها هشام بن عبدالملك .

---

(١) العرام . الأذى ، وفى البيت إقواء .

٨ — عائشة ابنة طلحة . أنبأنا أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن عن سحيم بن حفص قال : تزوّج عائشة ابنة طلحة عبدُ الرحمن بن أبى بكر ، وهو أبو عُذْرتها ، فولدت له أولاداً ، فابنها طلحة الذى يقول له الشاعر :

يا طَلْحَ إن كنتَ أعطيتنى ... جُماليّةً تستخفُّ الضَّفارا[1]
فما كان نفعُك لى مرّةً ... ولا مرّتين ولكنْ مِرارا
أبوك الذى بايعَ المصطفى ... وسارَ مع المهتدِى حيثُ سارا

قال أبو الحسن : عن سحيم ، صارمت عائشة زوجَها ، وكان فى خُلُقها زَعارة ، فخرجت وهى مصارِمةٌ له فى مِلحفة ، فمرّت فى المسجد حتى دخلت حُجرة عائشة ، فرآها أبو هريرة رضى الله عنه فسبَّح وقال : كأنها من الحور . فمكثت عند عائشة قريباً من أربعة أشهر ، فأرسلت عائشة إلى ابن أخيها : إنى أخاف عليك الإيلاء إن تمّت أربعة أشهر ، فضُمَّها إليك . وكان يلقى منها البلاء ، فقيل له طلقها ، فقال :

يقولون طلِّقْها ، وأصبِحَ ثاويا ... مقيما عليك الهمُّ ، أحلامُ نائمِ
وإنّ فراقى أهلَ بيتٍ أودُّهم ... لهم زُلفةٌ عندى لإحدى العظائمِ
فكيف بِصَفو العيشِ من بعد بَينِهم ... وسُخْطُهُمُ يوما على الأنف خاطِمى

وخطبها مصعب بن الزبير فقالت : إن تزوّجته فهو علىَّ كظهر أمى . ثم سألت أهل المدينة فقالوا : أعتِقى رقبة وتزوّجيه . فتزوّجها فأصدقها خمسمائة ألف ، وأهدى لها خمسمائة ألف . فقال أنس بن أبى أنس بن زُنيم :

بُضْعُ الفتاةِ بألفِ ألفٍ كاملٍ ... وتبيتُ ساداتُ الجنود جياعا
لوْ لأبى حفصٍ أقولُ مقالتى ... وأبثّه ما قد رأى لارتاعا[2]

(١) الضفار ، بالفتح : ما يشد به البعير من شعر مضفور .
(٢) فى الأصل : « لولا أبو حفص » ، تحريف

فبلغ الشعرُ عبد الله بن الزبير فقال : إنّ مصعباً قدّم خيره ، وأخّر أيره . و بلغ الكلامُ عبد الملك بن مروان فقال : لكن عبد الله قدّم أيره وأخّر خيره .

أحمد قال : قال أبو الحسن : قال الشعبي : كان يجالسنا أيام الفتنة رجل فقلت : من أنت ؟ قال : مولى عائشة بنت طلحة ، خطبها مصعب بن الزبير وتزوّجها فأحبها ، وكانت خطبة جميلة من امرأة فى أذنها عِظَم ، وفى ساقها حموشة[١] وقال قوم : فى قدمها عِظَمٌ . فأغارها مصعب يوماً فسمّته .

أنبأنا أحمد قال : قال أبو الحسن : عن علىّ بن مجاهد عن الشعبي قال : قال الشّعبي : أخذ بيدى مصعب فمضى وأنا معه حتى دخل منزله و يده فى يدى فرفع ستراً فإذا عائشة ، فإذا أحسن الناس وجهاً ، فأعرضت وخلاّنى ودخل ، فرجعت ثم رحت إليه بالعشىّ وهو جالس فأشار إلىّ بيده فقال : رأيت ذاك الإنسان ؟ قلت : نعم . فقال : أفرأيت مثله ؟ فقلت : لا . قال : تلك ليلى التى يقول فيها الشاعر :

وما زلتُ من ليلَى لَدُنْ طَرّ شاربى ... إلى اليوم أُخفِى حبّها فأُباينُ[٢]
وأحملُ فى ليلَى لقلبى ضَغينةً ... وتُحمَلُ فى ليلى علىّ الضغائنُ

يا شعبىُّ رأيت عائشة وما بدٌّ لك إذ رأيتها من صلة . ثم قال لابن أبى فروة : أعط الشعبىّ عشرة آلاف درهم وعشرين ثوباً . فقتل عنها مصعب فخطبها بشر ابن مروان . وقدِم عمرُ بن عبيد الله بن مَعْمر من الشام فنزل إلى الكوفة ، فبلغه أن بشراً خطب عائشة فأرسل إليها : « أنا خير لك من هذا المبسور[٣] ، وأنا ابن عمّك وأحق بك ، و إن تزوّجت بك ملأت بيتك خيراً ، وملأت حِرَكِ أيرا » . فبنى بها بالحيرة فمهدت له فرُشاً سعة عرضها أربع أذرع ، فأصبح ليلة بنائها عن

(١) الحموشة : الدقة . وفى الأصل : « جوسة » محرفة .
(٢) البيتان لكثير عزة كما فى الأغانى (٢ : ١٣٣) . وروايته : « وأداجن » .
(٣) المبسور : من به الباسور .

تسعة[١] . وكان عمر غليظاً أحمر يحتجم كل سبعة أيام ، فأخرجها معه إلى فديك[٢] .

ولها يقول الشاعر :

انعَمْ بعَيْشَةَ عيشاً غير ذى رَنَقِ　　وانبِذْ برَمْلَةَ نبذَ الجوربِ الخَلَقِ

وقال آخر :

من يجعَل الدِّيباجَ عِدْلاً للزِّيقْ

أراد الريح ، وهو ريح الخيس[٣] .

بينَ الحَوارِىِّ وَبين الصِّدِّيقْ

فمات عنها فبكته ، فعلموا أنها لا تزَوّج .

أنبأنا أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن ، عن سحيم بن حفص قال : قالت رملة بنت طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعى لمولاة عائشة : أريني عائشة متجردة ، ولك ألفا درهم . فقالت لمولاتها : إنَّ رملة جعلت لى ألفى درهم إن رأتك متجردة . قالت : فإنى أتجرد لها فأعلميها . وتجردت وجعلت تغتسل مدبرة ومقبلة ، ورملة تنظر إليها ، ثم لبست ثيابها فأعطت رملةُ مولاتَها ألفى درهم ثم قالت : وددت أنى أعطيتك أربعة آلاف ولم أرَها .

قال أبو الحسن : عن أبى عمرٍو طارق بن المبارك قال : قال عمر بن أبى ربيعة لعائشة بنت طلحة يشبّب بها :

أصبح القلبُ فى الحبال رهيناً　　مُقْصَداً يوم فارق الظّاعنينا

لم يرُعنى إلا الفتاةُ وإلا　　دمعُها فى الرّداء سَحًّا سَنينا[٤]

عجّلت حُمّةُ الفراق علينا　　برحيلٍ ولم تخف أن تبينا

أنتِ أهْوَى العِبادِ قُرْباً وَوُدًّا　　لو تُواتِينَ عاشقاً محزُونا

---

(١) الذراع يذكر ويؤنث .

(٢) فديك ، بالتصغير : موضع ، ولم يعينه ياقوت ولا صاحب القاموس .

(٣) كذا وردت هذه العبارة محرفة . والخيس : ضرب من ضروب اليمن .

(٤) السنين ، بفتح السين : المسنون المصبوب .

قادهُ الطرف يوم مرّ إلى الحيـ ن جهاراً ولم يخف أن يحينا
وجلا بُردُ بِرْكَةٍ جَنَـــدىٌّ ضوء وجهٍ يُضىء للنّاظرينا(١)
فإذا ظبيـــــةٌ تراعِى نعاجاً ومَهاً بُهِّجَ المناظرِ عِينـــا
قلت : من أنتمُ فصدّتْ وقالت : أمُبِدٌّ سؤالك العالمينـــا(٢)
قلتُ : بالله ذى الجلالة لَمَّا إذ تبلتِ الفؤاد أنْ تصدُقينا(٣)
أىُّ مَنْ تجمعُ المواسمُ أنتمْ فأبينى لنا ولا تَكْذِبينـــا
نحن من ساكنى العراق وكُنَّا قبلها قاطنين مَكّةَ حِينـــا
قد صدقناكِ إنْ سألتِ فمن أنـ تِ ، عسى أن يجُرَّ شأنٌ شؤونا(٤)
قد نرى أننـا عرفناكِ بالنّعـ ت بظَنٍّ وما قَتَلْنا يقينا(٥)
بسواد الثَّنِيّتين ونغـــرٍ قد نَراهُ لنـــاظرٍ مُستَبينا

فكانت عائشة تقول : والله ما قلت له هذا وما كلمته قط .

أنبأنا أحمد قال أنبأنا أبو الحسن عبد الله بن فائد قال : دخلت عائشة بنت طلحة بمكة على الوليد بن عبد الملك فحدثته وقالت : يا أمير المؤمنين ، مُرلى بأعوانٍ . فصيَّرَ إليها قوماً يكونون معها ، فحجت ومعها ستون بغلاً عليها الهوادج والرحائل ، فقال عروة بن الزبير :

عائشُ يا ذاتَ البِغال السِّتِّينْ أكلَّ عامٍ هكذا تحجِّينْ

٩ — ابنة محمد بن عروة بن الزبير . أنبأنا أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال :

---

(١) البركة ، بالكسر : ضرب من برود اليمن . والجندى : نسبة إلى الجند بالتحريك ، وهو موضع باليمن . والبيت لم يرو فى ديوان عمر . انظر ص ٦٩ .
(٢) لما ، هنا بمعنى إلا .
(٣) قال ابن الأعرابى : يبدهم : يفرق القول فيهم . وأنشد :
بلغ بنى عجب وبلغ مأربا قولا يبدهم وقولا يجمع
انظر اللسان (٤ : ٤٥) . وفى الأصل : «مبذ» وهو على الصواب فى الديوان .
(٤) فى الأصل : « قد سألناك إذ سألت » ، والوجه ما أثبت من الديوان .
(٥) هو من قول الله : «وما قتلوه يقينا» . وفى الأصل والديوان : «وما قبلنا يقينا» .

ابنة محمد بن عروة بن الزبير كانت عند الحكم بن يحيى بن عروة ، وعند أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، فتزوجها محمد بن عمران بن طلحة ، ثم راجعها الحكم ابن يحيى بن عروة ، ثم طلقها — وكان قاضياً على المدينة — واشترطت عليه أن عطاءه ما عاشت وغلة أرضه وبُضع بناته إليها ، تزوجهنّ من شاءت ، ولا يغير عليها ، فإن فعل فأمرها بيدها .

١٠ — أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن : أم سلمة ابنة عبد الرحمن بن سهيل ابن عمرو ، كانت عند الحجاج بن يوسف ، فطلقها فتزوجها الوليد بن عبد الملك ، فأعجلها سليمان وعليها درع فأدخله من وراء الثوب ، ثم طلقها فتزوجها هشام ابن عبد الملك .

١١ — أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : ربيحة بنت محمد بن على بن عبدالله ابن جعفر ، تزوجها يزيد بن عبد الملك ، ثم تزوجها أبو بكر بن عبد الملك ، فقتله عبد الله بن على وتزوجها صالح بن على ، فطلقها فتزوجها إسحاق بن إبراهيم بن حسن بن حسن بن على عليهم السلام . وقوم يذكرون تزويج يزيد بن عبد الملك ربيحة .

١٢ — أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : سحيقة[١] ابنة محمد بن عبدالله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، تزوّجها إسماعيل بن إبراهيم ابن محمد بن طلحة بن عبد الله ، فولدت له ابنة ، ففارقها فتزوجها إسماعيل بن إبراهيم ابن عبد الله بن جعفر ، فتوفى عنها ، فراجعها إسماعيل بن إبراهيم بن محمد بن طلحة ، ثم طلقها فتزوجها عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

١٣ — أحمد قال : أنبأنا أبوالحسن قال : أم إسحاق بنت طلحة بن عبدالله كانت عند الحسن بن علىّ ، فولدت له طلحة بن الحسن ، فمات عنها وأوصى الحسين بتزوجها ، فتزوجها الحسين ، فولدت له فاطمة بنت حسين ، فقُتل عنها ،

(١) اشتقاق اسمها من السحيقة ، وهى المطرة العظيمة .

فتزوجها ابن أبي عتيق — وهو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر — فولدت له آمنة . ويقال تزوجها قبل ابن أبي عتيق تمام بن العباس بن عبد المطلب فهلك عنها فتزوجها ابن أبي عتيق .

١٤ — أنبأنا أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : ميمونة بنت عبد الرحمن ابن عبيد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، كانت عند عبد العزيز بن الوليد ابن عبد الملك ، فولدت له عبد الملك وعتيقاً . وكان عبد الملك من رجالهم ، فمات فرثاه بعض الشعراء من كلب ، فقال :

إنّي رأيتُ بَنِي أُمِّ البنينَ لهُمْ مجدٌ طويلٌ وفى أعمارهم قِصَرُ[1]
ماتَ الهمامُ أبو مَرْوانَ فاختشعَتْ كَلْبٌ لذاكَ وذلَّتْ بعدَهُ مُضَرُ

ولعتيق يقول الشاعر :

ذهبَ الجودُ غيرَ جودِ عتيـقِ ابن عبد العزيز مِن ميمونه
بنتِ قَرْمٍ قد مُهِّدتْ من قريشٍ وأَبَى اللهُ أن تكونَ هجينَهْ

ثم تزوجها محمد بن الوليد ، ثم تزوجها سليمان بن عبد الملك ، ثم تزوجها هشام ابن عبد الملك . ويقال : لم يتزوجها سليمان .

١٥ — أنبأنا أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : حفصة بنت عمران بن إبراهيم ابن محمد بن طلحة بن عبيد الله ، تزوجها القاسم بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، وهو أبو عُذْرِها ، ثم خلف عليها هشام بن عبد الملك ، وكان القاسم شديد الغيرة ، فسمع يوماً كلامها ، أو رآها مشرفة ، فدخل عليها فضربها ، فأثر السوط بها ،

---

(١) أم البنين هذه هي بنت عبد العزيز بن مروان ، وهي كذلك زوجة الوليد بن عبد الملك . انظر الأغاني (٤ : ١٥٦ ساسى) . وأشهر من سمى بهذا الاسم من نساء العرب أم البنين زوج مالك بن جعفر بن كلاب . وفيها يقول لبيد :

* نحن بنو أم البنين الأربعه *

انظر المعارف ٤٠ مصر . ومنهن أم البنين زوج على بن أبي طالب ، ولدت العباس وجعفراً . وعبد الله . انظر المعارف ٣٩ .

فطلقها فتزوجها هشام ، فقالت له أم حكيم[1] : قل لها تريك ظهرها . فقال لها فأبت وقالت : ما تريد من ظهرى ، كنت عند رجل كريم غيور خير منك أمًّا وأباً و بيتاً ، غار فضربنى ضربة فصار فى ظهرى أثر . فطلقها فتزوجها محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ، ثم تزوجها عثمان بن عُروة بن الزبير .

١٦ — أنبأنا أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : أم كلثوم ابنة عبد الله بن جعفر ، تزوجها القاسم بن محمد بن جعفر بن أبى طالب ، فولدت له فاطمة ، ثم تزوجها الجرّاح أو الحجاج[2] ، فولدت له ابنة ، فطلقها ، فتزوجها أبان بن عثمان ابن عفان .

١٧ — أنبأنا أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : أم القاسم ابنة الحسن بن الحسن بن علىّ ، تزوجها مروان بن عثمان بن عفان ، فولدت له محمداً ، ثم خلف عليها على بن حسين بن حسن بن على ، ثم تزوجها الحسن بن عبد الله بن عبيد الله ابن العباس .

١٨ — أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : رملة ابنة محمد بن جعفر بن أبى طالب تزوجها سليمان بن هشام ، فطلقها فتزوجها أبو القاسم بن الوليد بن عتبة ابن أبى سفيان ، فقتله عبد الله بن على فتزوجها إسماعيل بن على أو صالح .

١٩ — أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : قريبةُ بنت أبى أمية بن المغيرة[3] . كانت عند عمر بن الخطاب ، فرجعت إلى الكفار ، فلما أسلمت تزوّجها معاوية

(١) هى أم حكيم بنت يحيى بن الحكم بن العاصى بن أمية . وهى زوج عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك . الأغانى (١٥ : ٤٦ — ٤٧) . وسيفرد لها المدائنى حديثاً فى رقم ٢٥ .

(٢) ذكر أبو الفرج فى (١٠ : ١٠٥) خبر خطبة الحجاج بن يوسف لها . وأما الجراح فلعله الجراح بن حصين والى وادى القرى من قبل عبد الله بن الزبير ، وكان قد أنهب تمر الوادى ، فجعل عبد الله يخفقه بالدرة ويقول : «أكلت تمرى وعصيت أمرى» . انظر الاشتقاق ٢٤٣ .

(٣) قريبة ، بفتح أوله ويقال بالتصغير . وهى أخت أم سلمة زوج الرسول الكريم . واسم أبيها حذيفة وقيل سهيل ، وكان يلقب «زاد الركب» : كان إذا سافر لا يتزود معه أحد لجوده وكرمه . انظر الإصابة ٨٨٧ ، ١٣٠٢ من قسم النساء .

ابن أبي سفيان ، فقال له أبوه : أتزوّج ظعينة أمير المؤمنين ؟ انزل عن ثَقَله[1] . فطلقها فتزوجها عبد الرحمن بن أبي بكر ، فولدت له محمداً . فكانت عائشة عمته ، وأم حبيبة خالته ، فكان يدخل عليهما .

٢٠ — أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : أسماء بنت عميس ، كانت عند جعفر بن أبي طالب[2] ، فولدت له عبد الله ، ومحمداً ، وعونا ، فتزوجها أبو بكر ، فولدت له محمداً ، فتزوجها عليّ عليه السلام ، فولدت له يحيى[3] ، فقال لها علي : احكمي بين بنيك . فقالت : أما بنو جعفر فبنو الطيار في الجنة[4] ، وأما ابن أبي بكر فابن الصديق ، و إنّ ثلاثة أنت أخسُّها لخيارٌ . فقال علي لابنه : يا بُنيَّ قد فَسْكَلَتْ أباكَ[5] .

٢١ — قال : وكانت عائشة بنت طلحة عند عمر بن عبد الله بن عبد الله ابن معمر ثماني سنين ، ومات سنة اثنتين وثمانين ، فبكته قائمةً . أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن ، عن سحيم بن حفص ، قال : أتاها مصعب وهي نائمة متصبحة[6] ، ومعه ثمان حبات لؤلؤ قيمتها عشرون ألف دينار ، ونثر اللؤلؤ في حجرها ، فقالت : «نومتي كانت أحب إليّ من هذا اللؤلؤ ! » . وولدت عائشة لعبد الله بن عبد الرحمن أولاداً وجمع مصعب بينها و بين سكينة ، ومات مصعب عن سكينة وعائشة وأم حبيب بنت عبد الله بن عامر[7] .

---

(١) العرب تقول لكل شيء نفيس خطير مصون : ثقل . والثقل أيضاً : المتاع والحشم .

(٢) وقد هاجرت معه إلى الحبشة ، فولدت له هناك أولاده ، وقد تزوجت أبا بكر بعد ما قتل عنها جعفر . الإصابة ٥١ من قسم النساء .

(٣) في الإصابة أنها ولدت له عوناً ويحيى .

(٤) الطيار لقب جعفر . انظر تعليل هذا اللقب في الإصابة ١١٦٢ والحيوان (٣ : ٢٣٣) :

(٥) فسكلته ، بفتح الفاء والكاف وسكون السين : أي أخرته وجعلته كالفسكل ، بالكسر ، وهو الفرس الذي يجيء في آخر خيل السباق .

(٦) المتصبحة : التي تنام الصبحة ، وهي نومة الغداة .

(٧) هذه الفقرة من أولها إلى هنا ، هي في الأصل بعد الفقرة رقم ٢٤ وقد أعدتها إلى موضعها .

أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن عن أبي إسحاق بن ربيعة قال : قال سَلم بن قتيبة : رأيت عائشة بنت طلحة بمكة في المسجد ، فسلمتُ عليها وانتسبت لها ، فبكت وقالت : يرحم الله المصعب . فأرادت النهوض فأخذت امرأتان بيديها — وعندها نسوة — فاعتمدت على المرأتين ، فما كادت أن تستقل [حتى] خذلها وركاها ، فقالت احدى المرأتين : إنا بك لمتعبات . وكانت مديدة الجسم كثيرة اللحم .

٢٢ — أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : ابنة طلحة بن عمر بن عبيد الله كانت عند الحسن بن الحسن بن علي ، فكان يقول له : إنها[1] حملت وولدت وهي ما تكلمني وإنها لمصارِمة لي .

٢٣ — امرأة [من] آل أبي بكر : أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : تزوج موسى بن عبد الله بن الحسن امرأة من ولد أبي بكر فغضبت يوماً فأمرت جواري فأمسكنه وضربنه ، فأفلت وخرج ، فلقيه أخوه إبراهيم فقال : مالك ؟ قال : ضربتني ابنة أبي بكر . قال : خذ السوط فوالله لئن لم تضربها لا كلمتك . فدخل وقام إبراهيم على الباب وقال للجواري : يافواسق ، والله لئن منعته واحدة منكن لأدخلن عليكن . وقال لموسى : اضرب وأوجعها . فقال موسى لامرأته :

إنِّي زعيم أن أجيءَ بضرةٍ مقابَلَةِ الأجداد ، طيِّبةِ النَّشْرِ[2]

إذا انتسبت في آل شيبان في الذُّرى وتَغلِبَ لم تُقرِرْ بفَضلِ أبي بكرِ

تحكَّمُ أحياناً علينـــا وتارةً تَبدَّى كقَرْنِ الشمس أو صورةِ البَدْرِ[3]

(١) في الأصل : « بما حلت » . ولم تذكر النسخة شيئاً عن تزوجها بغير الحسن كما ترى .
(٢) المقابل : الكريم النسب من قبل أبويه جميعاً .
(٣) قرن الشمس : أولها عند الطلوع . وفي الأصل : « لقرن الشمس » .

٢٤ — امرأة من تيم . أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : وكانت عند يحيى بن عبد الله بن الحسن امرأة من بنى تيم ، فخاصمته إلى جعفر بن سليمان بالمدينة ، فقضى عليها وقال : اذهب بها حيث شئت .

٢٥ — قال : وكانت أم حكيم ابنة يحيى بن الحكم عند سليمان بن عبد الملك ، ثم يزيد بن عبد الملك ، ثم هشام بن عبد الملك[١] .

٢٦ — قال : وتزوّج عبد العزيز بن الوليد أم خالد بنت عبد الله بن أسيد ، فغلبته على أمره كله ، وكان يقال : عبد العزيز بن الوليد سيد الناس ، إلا أن أم خالد قد غلبته على أمره . فأمره الوليد فطلقها .

٢٧ — أم عمرو ابنة عبد الله بن خالد . قال : أم عمرو بنت عبد الله بن خالد بن أسيد ، كانت عند سليمان بن عبد الملك ، فقدم خالد وعبد الله ، فوصل خالداً وفضله على عبد الله ، فقالت أم عمرو : عبد الله أكرم من خالد وفضلته عليه ! فقال : ويحك ، إنى أعرف أن عبد الله أسنهما ولكن خالداً كان خاصتى ، وكان له عندى يد وأنا صعلوك ، فإنما فضلته لذلك .

٢٨ — قال : أنبأنا أبو الحسن قال : كانت دجاجة ابنة أسماء بن الصلت السلمى عند عامر بن كريز بن حبيب بن عبد شمس ، فولدت له عبد الله بن عامر[٢] . ثم تزوّجها عمير الليثى فولدت عبيد بن عمير الفقيه المحدث[٣] ، ثم تزوّجها الأسود فولدت له عبد الله بن الأسود . فكان يقال لها أم العبادلة[٤] .

* * *

(١) وقد تزوجت أيضاً عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك ، كما فى الأغانى (١٥ : ٤٧) .

(٢) فى الإصابة ٣٩٢ من قسم النساء « أن النبي صلى الله عليه وسلم وجد عند عمير خمس نسوة ، فطلق منهن دجاجة بنت أسماء ، فخلف عليها عامر بن كريز ، فولدت له عبد الله ابن عامر » .

(٣) فى الأصل : « عبيد الله بن عمير » والصواب « عبيد » كما أثبت . انظر الإصابة ٦٢٣٨ وتهذيب التهذيب ، والمعارف ٣١ ، ١٩٢ . وأبوه عمير بن قتادة الليثى . كان عبيد قاضى أهل مكة ، وتوفى سنة ٦٨ .

(٤) هذا على التغليب ، وإلا فإن ولد عمير الليثى هو عبيد بن عمير كما مضى فى التنبيه السابق . والفقرة التالية صلة للفقرة ٣١ .

أنبأنا أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن عن سحيم بن حفص[١] قال : كان مصعب ابن الزبير لا يصل إلى عائشة إلا بشدة ، ولا يقدر عليها إلا ببلاء حتى يخرق ثيابها ويضربها ، فشكا ذلك إلى عبد الله بن أبي فروة كاتبه ، فقال له : أفتأذن لي في الحيلة ؟ قال : نعم ، اصنع ما شئت فإنها أفضل ما نلت من الدنيا . فأتاها ليلا فاستأذن عليها ، فقالت له : هذه الساعة ! قال : نعم ، ففزعت — ومعه أسودان — فقالت له مولاة لها : ما شأنك ؟ قال : شؤم مولاتك ، قالت : وما لها ؟ قال : أمرني هذا الفاسق الفاجر ، أسفكُ مَن خلق الله لدم ٍحرام وأقتَلُه للناس ، أن أحتفر بئراً وأدفنها فيه حية . وقد والله حرَصت أن يُعفيني من هذا ، فأمر بقتلي . قالت : فأنظرني أذهب إليه . قال : لا سبيل إلى ذلك ، وقال للأسودين : احفرا . فبكت عائشة ورأت الجد ، وقالت : يا ابن أبي فروة ، إنك لتقتلني ! قال : ما منه بد ، وإني لأعلم أن الله سيخزيه ، ولكنه قد غضب وهو كافر الغضب . قالت : فأي شيء أغضبه ؟ قال : في امتناعك عليه ، وقد ظن أنك تبغضينه وأنك تطلَّعين إلى غيره ، فقد جن . فقالت : أذكِّرك الله إلا عاودته . قال : أخاف أن يقتلني . فبكت وجواريها فقال : قد رققت وأنا أغرر بنفسي فما أقول ؟ قالت : اضمن عني أني لا أعود أبداً[٢] . قال : فاعطيني مواثيق . فأعطته ، فقال للأسودين : مكانكما . وأتى مصعباً فأخبره ، فقال : استوثق منها بالأيمان . فأتاها فقال : هذا الفاسق قد سكن بعض السكون وسكن شيطانه ، فاحلفي لي أن لا تخالفيه ، فوثقت له ، وصلحت لمصعب .

نجز الكتاب والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) هو أبو اليقظان عامر بن حفص ، وسحيم لقبه ، وبلقبه هذا يذكره الجاحظ في مواضع كثيرة من البيان ، والمدائني في كتبه يذكره بثمانية ألقاب وأسماء . انظر الفهرست ٩٤ ليبسك و ١٤٨ مصر . قال ابن النديم : كان عالما بالأخبار والأنساب والمآثر والمثالب ، ثقة فيما يرويه . وتوفي سنة ١٩٠ . وانظر الحيوان (٢ : ١٥٥ س ٩) .

(٢) أي لا تعود إلى ما كان منها من التأبي والنشوز .

كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء

صنعة محمد بن حبيب

٠٠٠ ـ ٢٤٥

يضم هذا الـكتاب النفيس طائفة من شـعراء العرب الذين عرفوا بنسبتهم إلى أمهاتهم ، وهو ضرب من التأليف طريف ، يعالجه إمام من أئمة الأخبـار والأنساب ورواية الشعر ، وهو محمد بن حبيب بن جعفر . قال ياقوت : من علماء بغداد باللغة والشعر والأخبار والأنساب ، ثقة مؤدِّب ، ولا يعرف أبوه ، وحبيب أمه . روى كتب الـكلبي وقطرب ، وكانت أمه مولاة لمحمد بن العباس الهاشمي . وقال ابن النديم مرة : أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو . ثم روى عن عبـد العزيز الهاشمي قال : كان محمد بن حبيب مولى لنا — يعني لبني العباس بن محمد . وكانت أمه حبيب مولاة لنا . روى عن ابن الأعرابي وأبي عبيـدة وأبي اليقظان ، وله مصنفات أشهرها نقائض جرير والفرزدق ، توفي بسامرا سنة ٢٤٥ . انظر ابن النديم ١٥٥ و بغية الوعاة . ومن نسبه تدرك سر اهتمامه بهذا البحث .

ومن هذا الـكتاب نسختان في دار الـكتب المصرية : إحداهما برقم ٦ مجاميع ش ، رمزت إليها بحرف (ا) ، والثانية برقم ٧٥ ش أدب ، وهي نسخة (ب) .

وقد قمت بنشر هذا الـكتاب من قبل في مجلة المقتطف (مايو سنة ١٩٤٥) ونشره من قبلي المستشرق الـكبير الأسـتاذ (ج . ليفي دِلاَّڤيدا) الأستاذ بجامعة بنسلڤانيا ، في مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية بالعدد ٦٢ ص ١٥٦—١٧١ سـنة ١٩٤٢ ، ولم أكن قد علمت بأنه سبقني في النشر ، وتكرّم ، حفظه الله ، فأرسل إليّ في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٥٠ مستخرجا من نسخته مع خطاب رقيق ينوّه فيه في تواضع العالم بأن نسختي تعدّ ممتازة من كافة النواحي ، حتى إنه ليشعر بأن عـمله غير متـكافئ مع عملي في نسختي التي أخرجتها (Votre édition du Mannusiba ... est excellent sous tous les rapports, et rend la mienne à peu prés inutile.)

وإني لأسـجل مجاملته هذه تذكاراً لتواضعه ، وإجـلالاً لخُلقه العلمي الرصين .

كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء

صنعة محمد بن حبيب وتصنيفه ، من رواية عثمان بن جني رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين

قرأت على أخي محمد قال : سمعته يُقرأ على أبي عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة[١] قال : قرأت على ثعلب[٢] قال : قال أبو جعفر محمد بن حبيب :

ذكر من نسب إلى أمه من الشعراء :

١ — (ابن شَعُوب) أمه شَعُوب من بني خزاعة ، واسمه عمرو بن سُمَيّ ابن كعب بن عبد شمس بن مالك بن جَعْوَنة بن عُويرة بن شِجْع بن عامر بن ليث بن بكر بن كنانة . وهو الذي يقول :

ماذا بالقليب قليب بدرٍ من القينات والشَّرْب الكرامِ
وماذا بالقليب قليب بدرٍ من الشِّيزى تكلَّلُ بالسَّنامِ
تحيِّي بالسلامة أمُّ بكرٍ وما لي بعد قومي من سَلامِ
يخبّرنا النبيُّ بأنْ سنحيا وكيف حياة أصداء وهامِ

(١) هو إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليم بن المغيرة بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة العتكي الأزدي الواسطي ، أبو عبد الله الملقب نفطويه . كان عالما بالعربية واللغة والحديث ، أخذ عن ثعلب والمبرد ، وكان فقيها على مذهب داود الظاهري رأساً فيه . وكان بينه وبين ابن دريد منافرة ، وهو القائل فيه :

ابن دريد بقره وفيه عي وشره

وله من التصانيف : إعراب القرآن . المقنع في النحو . الأمثال . المصادر . أمثال القرآن وغيرها . ولد سنة ٢٤٤ وتوفي سنة ٣٢٣ . انظر إرشاد الأريب ، وبغية الوعاة ، وابن النديم ٧٨ .

(٢) هو أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني البغدادي ، أبو العباس ثعلب ، أمام الكوفيين في النحو واللغة . لازم ابن الأعرابي بضع عشرة سنة ، وسمع من محمد بن سلام الجمحي ، وسلمة بن عاصم ، وخلف ، وروى عنه اليزيدي ، والأخفش الأصغر ، ونفطويه ، وأبو عمر الزاهد . وكان بينه وبين المبرد منافرات . وأشهر تصانيفه كتاب الفصيح . ولد سنة ٢٠٠ وتوفي سنة ٢٩١ . انظر بغية الوعاة ، وابن النديم ١١٠ — ١١١ .

وله شعر كثير ، قاله وهو كافر ، ثم أسلم بعد .

٢ — و (ابن أمِّ حَولىّ) من بنى الحارث بن همّام ، شاعر أغار على بنى يربوع ، فلحقه منهم قوم ، فقاتلهم حتى أحرز غنيمته ، وقال :

نحن بنى الحارث قد آلينا لا يُؤخذُ النهبُ الذى حوينا
أبالصِّياح عوّلوا علينا إنا إذا صيح بنا أبَيْنا
لا نجعلُ الطَّعْنَ بِنَقْدٍ دَيْنا

٣ — و (عَطّاف بن بَشّة[١] الشيبانى) ، قال لخاله عدىّ بن ضبّ :

عدىَّ بن ضبٍّ من تكن أنتَ خالَهُ أخا أمّه تُدلجْ بلُومٍ ركائبُه

وقال :

وطالبِ وترٍ قد أتى الليلُ دونَه وماسَبْقُ وترٍ أدركَ اليومَ أو غدَا

وقال :

أنا ابن الذى لم يُخْزِنى فى حياته ولم يُخْــــزِه عند الوفاة بلائيا

٤ — و (ابن طوعة) الشيبانى ، واسمه ناصر بن عاصم[٢] وأمه « طوعة » ، أمَة أو أخيذة من آل ذى الجدّين ، قال[٣] :

تعطفَ اللُّوم على عَطّافِ بين بنى الحارثِ والأحلافِ

٥ — و (ربيعة بن غزالة) السكندى[٤] شاعرٌ حليف بنى شيبان ، وأمه غزالة ، قال :

---

(١) فى معجم المرزبانى ٢٩٩ : « نشة » بالنون .

(٢) فى المؤتلف ١٤٨ أن ابن طوعة الشيبانى من آل ذى الجدين . وفصل بينه وبين ابن طوعة الفزارى ، ونسب هذا الفزارى نصر بن عاصم بن عقبة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى . وقد جعلهما ابن حبيب هنا واحداً . وانظر ألقاب الشعراء لابن حبيب ص ١٢٣ .

(٣) يهجو عطاف بن نشة الشيبانى كما فى المؤتلف ١٤٨ .

(٤) اسمه ربيعة بن عبد الله بن ربيعة بن سلمة بن الحارث بن سوم بن عدى بن أشرس بن شهيب بن السكون ، شاعر جاهلى أدرك الإسلام فأسلم . وينسب أيضاً « السكونى » بفتح السين ، نسبة إلى السكون بن أشرس بن ثور بن كندة . انظر الاشتقاق ٢١١ والمؤتلف ١٢٥ والإصابة ٢٧٢٧ وألقاب الشعراء لابن حبيب ص ١٤٠ .

كأنى إذ وضعت الرحل فيهم بمكة حيث حَلَّ بها هشامُ[1]

٦ — و (ابن حَجلة الأسدى) وهى أمه ، واسمه عبد بن مُعَرّض ، أحد بنى ثعلبة بن سعد بن دُودان من بنى أسد ، شاعر ، وهو الذى يقول :

مَنَ أُخطتهُ ولادتنا فإنا ولدنا سيِّد الناس الوليدا[2]

٧ — و (السَّندرىّ بن عَيساء[3] الجعفرى) ، وهى أمه ، أَمَة لشريح بن الأحوص بن جعفر[4] ، وهو الذى يقول :

هل فيكم يوم كيوم جبله يوم أتتنا أسدٌ وحنظله
والمِلـكان والقطينُ أزفلهَ[5] نعلوهم بقُضُبٍ منتخَله
لم تعْدُ أن أفرشَ عنها الصَّقله[6]

وقال :

أنا لمن يسأل عنى السَّندَرى أنا الغلام الأحوصىُّ الجعفرى

٨ — و (حبيب بن خُدرة الهلالى) خارجى[7] ، كان مع شبيب ، وذُكر أنه أدرك الحكمين ، و بقى حتى أدرك الضحاك الذى أُخذ بالكوفة . وقال :

نهيتُ بنى فِهر غداة لقيتهمْ وحَىَّ نُصيب والظنون تطاعُ

---

(١) ا : « بها شآم » تحريف .

(٢) أخطته ، هى أخطأته ، سهل همزتها ثم عاملها معاملة المعتل لحذف الألف للجازم . ب : « أخطأته » تحريف ، صوابه فى ا . وانظر ص ٧٩ س ٧ .

(٣) عيساء ، مؤنث الأعيس ، وأصله فى الإبل الأبيض يخالط بياضه شقرة ، وبه سميت المرأة ، وفى ا : « عبساء » بالموحدة ، تحريف ، وقد جاء على الصواب الذى أثبت فى كتاب ألقاب الشعراء الملحق بكتاب أسماء المغتالين من الأشراف لمحمد بن حبيب ، المحفوظ فى دار الـكتب المصرية برقم ٢٦٠٦ . انظر منه ص ١٣٤ وكذا الأغانى (١٥ : ٥٣) .

(٤) فى المؤتلف ١٢٥ : أنه السندرى بن يزيد بن شريح بن الأحوص بن جعفر بن كلاب . وهو ينسب أيضاً « الـكلابى » . وفى الأغانى أن « عيساء » اسم جدته .

(٥) الأزفلة : الجماعة من الناس .

(٦) أى لم تجاوز أن أقلع عنها الصقلة . والرجز منسوب فى اللسان (٨ : ٢٢١) إلى يزيد بن عمرو بن الصعق ، وفى معجم البلدان إلى رجل من بنى عامر .

(٧) فى القاموس : « حبيب بن خدرة تابعى » .

فقلت لهم إن الجريبَ وراكساً بها نعمٌ يرعى المُرارَ رتاعُ[١]
ولكن فيه السم إن ريعَ أهله وإن يأته قومٌ هناك يراعُ

وقال :

تفرقتم أن تذكوا الحيّ بيضة فظلّ لكم يومٌ إلى الليل أشنع[٢]

وقال :

أصاح ترى بُرَيقاً هبّ وهنا يؤرّقنى وأصحابى هجودُ

٩ — و (ابن عَيزارة الهذَلى) وهو قيس بن خويلد[٣] ، شاعر . قال :

لعمرك أنسى روعتى يوم أقتُدٍ وهل تتركَنْ نفسَ الأسير الروائعُ

وقال :

يا حار إنى يا ابن أمّ عميدُ كمدٌ كأنى فى الفؤاد لهيدُ

١٠ — و (قُطبة بن الزّبَعرى) ، وهى أمُه . وهو قطبة بن زيد بن سعد ابن امرئ القيس بن ثعلبة بن كنانة بن [القين بن] جسر ، شاعر . قال :

حميتُ القوم قد علمت معدٌّ ومَن للقوم ِ من مولًى وجارِ
حبوتُ بها قضاعة إنّ مثلى حقيقٌ أن يذبّ عن الذمارِ
ولستُ كمن يغمّز جانباه كغمز التّين تجنيه الجوارى

وكان قطبة سيّد قضاعة فى الجاهلية وأوّل الإسلام .

١١ — و (قيس بن الحُدَادية[٤]) وهى أُمه ، من محارب ، حضرمية ، وله

---

(١) الجريب : واد كانت به وقعة لبنى سعد بن ثعلبة . وفى الأصل : « الحريب » بالحاء تحريف ، وقد أنشد هذا البيت ياقوت ونسبه إلى عمرو بن شأس الكندى . وعجزه عنده : « به إبل ترعى المرار » .

(٢) صدر البيت محرف ، وموضع كلة : « تذكوا » بياض فى ب .

(٣) هو قيس بن خويلد بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة ، أخذته فهم وأخذ تأبط شرا سلاحه ، ثم أفلت قيس ، وأنشد أبياتاً رواها المرزبانى فى المعجم ٣٢٦ وأولها هذا البيت الذى رواه ابن حبيب .

(٤) هو شاعر جاهلى فاتك صعلوك خليع ، خلعته خزاعة بسوق عكاظ وأشهدت على نفسها بخلعها إياه ، فلا تحتمل جريرة له ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه . وهو قيس =

شعر . قال ابن الأعرابى : حُداد من كنانة . وهو الذى يقول[1] :

أنا الذى أطرَدَه مواليهْ وكلُّهم بعد الصَّفاء قاليهْ

١٢ — و (عمرو بن الصماء الخزاعى) له شـعر ، قال فى حرب بينهم وبين كنانة :

إلاّ تعاجلْنى المنية أسـتقد مقاد جيادى من عُميرٍ ومعبد

ولو أدركتْ خيلى عُميراً ومعبدا ونُعمان ما آبوا بناقلةٍ بعـدى

لكانوا لأطراف القنا أو لنازعوا إلى الحىّ أعناق المطىّ المعضَّدِ[2]

١٣ — و (عياض بن أم شهمة[3] الخزاعى) إسلامى ، قال :

هاجتـك أطلالٌ ومُبترَكٌ قفرُ خلا منذ أجلى أهلُها حِججٌ عشرُ[4]

١٤ — و (العريان بن أم سهلة النبهانى) وهو من طيِّئٍ . قال :

لمن الديار غشيتها برماح فعمايتَين فجانب السِّرداحِ

فجنوب فيحان كأن رسومها حُللٌ يمـانيةٌ على ألواحِ

١٥ — و (ابن السَّجراء) من حُرقة جهينة . قال : وحُرقة هم بنو خميس ابن عامر بن مودوعة من جهينة ، كانوا حلفاء للحُصين بن الُحمام السهمىّ من بنى سهم بن مرة ، وبَشامة بن الغـدير السهمى . قال ابن سجراء يوم دارة موضوع :

= بن منقذ بن عمرو بن عبيد بن ضاطر بن صالح بن حبشية بن سلول . انظر الأغانى (١٣ : ٢ — ٨) . وبنو حداد بضم الحاء وتخفيف الدال . انظر الاشتقاق ٢٧٧ ، وقد نسبه « قيس بن عمرو بن منقذ » . وفى ألقاب الشعراء لابن حبيب أن أمه من محارب بن خصفة . انظر ص ١٣٩ .

(١) قاله فى الوقعة التى قتل فيها ، وهو يشير إلى ما كان من خلع قومه إياه .

(٢) ب : « كأطراف القنا » . وقد اختلفت ضروب الأبيات فأتى أوسطها صحيحاً بين ضربين مقبوضين .

(٣) فى معجم المرزبانى ٢٦٩ : « عياش بن أم سهمة » بالسين المهملة .

(٤) فى الأصل : « حاجتك » محرف . وفى المرزبانى : « ومنزلة قفر » .

لما أتانا جمعُ قيس وواجهت كتائب خرس بينهن زفيفُ
فلما علَت دعوى خميس بن عامر وقد كلَّ مولانا وكاد يحيفُ
هممنا به ثم ارعوينا حفيظة فذلَّ بنا غاشٍ وعزَّ حليفُ

١٦ — و (حميد بن طاعة السَّكونى[(١)]) قال :

ولما استقلَّ الحىّ فى رونق الضحى قبضنَ الوصايا والحديث المجمجما
وكان لموحٌ من خصاص ورِقبةٌ مخافةَ أعداء وطرفاً مقسَّما
ولما لحقنا لم يقل ذو لُبانةٍ لهمٍ ولا ذو حاجــة ما تيمما
من البيض مِكسال إذا ما تلبَّست بعقل امرئٍ لم ينجُ منها مسلَّما

وقال لعمر بن الخطاب :

إنك مسترعًى وإنا رعيَّــةٌ وإنك مدعوٌّ بسيماك يا عمرْ
لدى يوم شرٍّ شرُّه لشراره وخيرٌ لمن كانت معائشه الخِيَرْ[(٢)]

وقال :

ما إن رأينا مثلك ابن الخطابْ أبرَّ بالدين وبالأحســابْ
بعد النبى صاحب الكتاب

١٧ — و (ابن الدُّمَينة الخثعمى) واسمه عبد الله ، وله شعر كثير[(٣)] .

١٨ — و (يزيد بن ضَبَّة) أمه ضَبَّة[(٤)] ، وأبوه مِقْسَم ، وهو كثير الشعر ، وهو مولى لثقيف ، وهو الذى يقول :

---

(١) جعله الآمدى فى ص ١٤٩ : « الشكوى » ، نسبة إلى « شكو » بفتح الشين وسكون الكاف ، وهو أبو بطن .

(٢) ا : « معائيشه » معائيش : جمع معيشة ، وفيها شذوذان ، همز الياء الأولى ، وإلحاق الياء الثانية ، وإلحاقها مذهب الكوفيين يجيزونه . وأثبت ما فى ب .

(٣) ديوانه مطبوع . وانظر الأغانى (١٥ : ١٤٤ — ١٥٠) .

(٤) فى ا : « ضنة » بالنون وفى ب : « ضنة » لكن أصلحت فى النسخة فجعلت : « ضبة » بالباء .

مشْيُ البريّ مع المقارف تهمة ويُرَى البريّ مع السقيم فيُلطخُ

وهو الذى يقول :

صبا قلبي إلى هند وهنـد مثلها يصبي

١٩ — و (ابن الطَّثْرية[١]) وهو ابن عبيد بن عمرو بن الحارث بن كعب ابن سعد بن زيد مناة بن تميم[٢] ، وهو الذى يقول :

ألا عتبت عليّ وصرَّمَتْنى وأعجبها ذوو اللمم الطوالِ

فإنى يا أُبنةَ السعديِّ أُربِي على فعل الوَضِيِّ من الرجالِ

٢٠ — و (ابن فسوة) وهو عُتيبة بن مرداس الـكعبي[٣] . وإنما قيل له ابن فسوة لأنه نزل بهم رجل من عبد القيس يقال له ابن فَسوة ، فـكان يعيَّر به ، فقال له مرداس : أنا أشترى منك هذا الاسم بكبش ، فاشـتراه ، فقال [أخو[٤]] عتيبة :

حوّل مولانا علينـا اسم أمه ألا رُبَّ مولًى ناقص غير زائدِ

٢١ — و (ابن الهيجُمانة العبسى) لم نعرفه ، وذُكر أن الهيجمانة بنت العنبر بن عمرو بن تميم .

٢٢ — ومن شعراء ربيعة (ابن أم الحزنة العبـدى) ، وأم حزنة أمه ، وهو ثعلبة بن حزن بن زيد مناة بن الحـارث بن ثعلبة بن سُليمة بن مالك بن عامر

---

(١) الطثرية : أمه ، من بنى الطثر ، بالفتح ، وثم حى من اليمن ، قال ابن خلـكان : « الطثرية بفتح الطاء المهملة وسكون الثاء المثلثة » . وضبطها صاحب القاموس بالتحريك ، والوجه الإسكان كما جاءت مضبوطة به فى نسخة ليدن من الشعراء . انظر شرح الحيوان (٦ : ١٣٧) .

(٢) كذا ورد فى النسختين ، وهذا النسب يخالف ما فى كتب التراجم ، فلعل فى الـكلام سقطاً .

(٣) فى الأغانى (١٩ : ١٤٣) وكذلك ألقاب الشعراء لابن حبيب ص ١٢٨ — ١٢٩ « عيينة » . ويدل على صواب ما هنا قول ابن قتيبة فى الشعراء : « هو عتيبة ويقال عتبة » .

(٤) التكملة من كنى الشعراء لابن حبيب ص ١٢٩ .

ابن الحارث بن أنمار بن عمرو بن وديعة بن لُكيز بن أفصى بن عبد القيس. وله شعر كثير.

٢٣ — و (عمرو بن مبردة) ، عبدى[1] .

٢٤ — و (ابن الذيبة) وهى أمه ، امرأة من فهم ، واسمه ربيعة بن عبد ياليل ، واسم الذيبة قِلابة ، فلقبت الذيبة ، وهو الذى يقول :

إنى لمن أنكرنى ابن الذيبهْ كريمة عفيفة منسوبه

٢٥ — و (شبيب بن البرصاء[2]) ، وهى أمه . وهو شبيب بن يزيد ابن جمرة[3] بن عوف بن أبى حارثة ، وأمه القِرضابة بنت الحارث بن عوف ابن أبى حارثة ، وأختها عمرة بنت الحارث أم عقيل بن علّفة[4] . وهوا لذى يقول :

قامت وأعلَى خلقها فى ثيابها قضيبٌ وما تحت الإزار كثيبُ

وقال :

لا خير فى العيدان إلاّ صلابها ولا ناهضات الطير إلاّ صقورُها

تبيَّنُ أدبارُ الأمور إذا انقضت وتقبل أشباهاً عليك صدورُها

٢٦ — و بعض (بنى أم قرفة) . وأم قرفة اسمها فاطمة بنت ربيعة بن بدر الفزارى ، وأبوهم مالك بن حذيفة بن بدر تزوج ابنة عمه .

---

(١) ذكره المرزبانى فى المعجم ٢٤٠ وقال : « هو أحد بنى محارب بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس ... وهو إسلامى ، أنشد عبد الملك بن مروان لما استبق بنوه فسبق مسلمة — وكان ابن أمة — :

نهيتكم أن تحملوا هجناءكم على خيلكم يوم الرهان فتدركوا »

(٢) قال ابن دريد : « كان النبي صلى الله عليه وسلم خطب البرصاء إلى أبيها ، فقال : إن بها سوءاً — وهو كاذب — فرجع فوجد بها برصاً » . وسماها ابن حبيب فى ألقاب الشعراء ١٣٢ « أمامة بنت الحارث بن عوف » .

(٣) ويقال : « حزة » ويقال : « خمرة » . انظر حواشى الاشتقاق ١٧٦ ، وفى ألقاب الشعراء ١٣٢ : « حيوة » .

(٤) فى الأصل : « علقمة » ، وهو تحريف . انظر حواشى الاشتقاق .

٢٧ — و (ابن ميادة المرى) من بنى غيظ بن مرة ، واسمه الرماح بن الأبرد ابن ثَريان[١] . كثير الشعر . وهو الذى يقول :

اعرنزمِى ميَّـــاد للقوافى واستسمِعيهنَّ ولا تخـــافى[٢]

وقال :

ألا ليت شعرى هل أبيتنّ ليلة بحرَّة ليلَى حيثُ ربَّتَنى أهـلى

وهل أسمعنَّ الدهر أصوات هَجمةٍ تطالع من هَجل قريب إلى هجل[٣]

يقال ربَبْت الصبي أربه ربا فأنا رابٌّ وهو مربوب ، وربّيته أربّيه تربية فأنا مربٍّ وهو مربًّى ، وربَّتُّه أربّته تربيتاً فأنا مربّت وهو مربَّت . ويقال رَبِيت فى بنى فلان ، وربوت فيهم ، وتربيت ، وتربّت ، كله فصيح مقبول .

٢٨ — و (بَشَامة بن الغدير) وهى أمه ، وهو بشامة بن عمرو بن هلال[٤] ابن واثلة بن سهم بن مرة ، كثير الشعر . وهو الذى يقول :

فإنكم وعطــــايا الرها ن إذ جرَّت الحرب جُلاًّ جليلا

كثوب ابن بيض وقاهم به فسد على السالكين السبيلا[٥]

٢٩ — وأخوه (أسعد بن الغدير) شاعر ، وهو خال أبى سلمى[٦] زهير ابن أبى سلمى الشاعر .

---

(١) فى الأغانى « أبرد بن ثوبان » وفى المؤتلف « أبرد بن ثريان » وفى معجم البلدان « الرماح بن يزيد وقيل ابن الأبرد » وفى ألقاب الشعراء ١٣٢ : « الرماح بن الأبرد ابن مرداس » .

(٢) الاعرنزام : الاجتماع والتقبض . وفى الأصل : « اعزترحى » والصواب فيما أثبت كما صححت بذلك فى ب . وفى ا : « واستسمعهن » محرفة .

(٣) فى معجم البلدان (٣ : ٢٦٠) : « من هجل خصيب » . وروى ياقوت هذين البيتين فى خمسة أبيات قالها ابن ميادة حين استخلف الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، فاستقدمه وأقام عنده دهراً ثم اشتاق إلى وطنه .

(٤) فى الأصل : « ملاك » والصواب ما أثبت . وانظر المؤتلف ٦٦ ، ١٦٣ والمفضليات (١ : ٥٣ طبع المعارف) .

(٥) انظر شرح البيتين فى المفضليات (١ : ٥٨) .

(٦) أبو سلمى كنية زهير بن أبى سلمى ، كما فى كنى الشعراء لابن حبيب ص ١٢٣ من مصورة دار الكتب . وقد زاد الشنقيطى كلمة : «أبى» قبل «زهير» فلم ينتبه إلى ما ذكرت .

٣٠ — و (زُميل بن أم دينار) أبوه أُبَير بن عبد مناف ، من مازن بن فزارة ، وهو قاتل ابن دارة . وابن دارة اسمه سالم بن مسافع بن يربوع . هو دارة القمر ، سمى دارة ، شبه بدارة القمر لحسنه ، وهو من بنى عبد الله بن غطفان . وزميل الذى يقول :

أبلغ فزارة أنى قد شَرَيت لهم مجد الحياة بسيفى بيع ذى الخلقِ

وقال :

أنا زميل قاتل ابن داره وكاشف الخزاة عن فزاره
ثم جعلت عقله البِكاره

٣١ — و (قَعْنَب بن أم صاحب الفزارى[١]) ، وهو الذى يقول :

لو كنت أعجب من شىء لأعجبنى سَعْىُ الفتى وهو مخبوء له القدرُ

وهو الذى هجا الوليد بن عبد الملك فقال :

فقدت الوليـــد وأنفاً له كَثِيلِ البعير أبى أن يبولا

٣٢ — و (ابن أم حزنة[٢]) وأم حزنة أمه ، وهو ثعلبة بن حزن بن زيد مناة ابن الحارث بن ثعلبة بن سُليمة[٣] بن مالك بن عامر بن الحارث بن [أنمار ابن عمرو بن] وديعة بن لكيز بن أفصى . شاعر ، وهو الذى يقول :

نهيتكم أن تحملوا هجناءكم على خيلكم يوم الرهان فتُدرَكوا

٣٣ — و (بشر بن شلوة التغلبى) وشلوة أمه . وهو بشر بن سوادة[٤] . وهو الذى يقول فى يوم ذى قار ، وكان مع الفرس :

---

(١) هو قعنب بن ضمرة ، أخو بنى سحيم بن عمرو بن خديج بن عوف بن ثعلبة بن بهثة ، كما فى ألقاب الشعراء ص ١٣٣ . وقيل : أحد بنى عبد الله بن غطفان ، وكان فى أيام الوليد ابن عبد الملك . انظر شرح التبريزى للحماسة (٤ : ٢٤) .

(٢) هذا تكرار لما سبق فى رقم ٢٢ .

(٣) كذا ضبطت فى الأصل بالضم . وفى الاشتقاق ٢٩٢ بفتح السين .

(٤) انظر المؤتلف ٦٠ . وضبطت « شلوة » فى الأصل هنا بالفتح . وقال ابن حبيب فى ألقاب الشعراء ١٣٦ : « أخو بنى مالك بن بكر بن حبيب » .

لما سمعت نداء مُرَّة قد علا وابنَىْ ربيعة فى الغبار الأقتم

٣٤ — و (ابن الواقفية[1] السدوسى) ينسب إلى أمٍّ من أمهاته ، وهو عبد الله بن عبد العزى كليب[2] بن الحارث بن سدوس ، شاعر . قال :

أتانى عن أبى بكر ألوكٌ يخب بها المبيِّن والنذيرُ

وقال :

ألمَّ خيالُ العامرية موهناً خيال بأعلى حضرموت غريبُ

أري المرء أمسى للحوادث غاية نوائبه تغتاله فتصوبُ

وقال يهجو ابن عَنَمة الضبى[3] :

إن الشاعر الضبىَّ عبد كزائدة النعامة مستعارُ

وقال يمدح الحوفزان[4] :

لمن الديار بجانب الغمر آياتهنَّ كواضح السطرِ

يا حارِ أعطاك الإله كما أثنى عليك أخو بنى جسرِ

فلأنت أكسبهم إذا افتقروا ولأنت أجودهم إذا تثرى

٣٥ — و (ابن دغماء العجلى) أمه دغماء بنت مرة ، أخت جَعْونة بن مرة ، وهو الذى يقول لسويد بن حطان ، وكان سويد الضبعى نزل فى بنى عجل

---

(١) فى الأصل : « الراقفية » تحريف ، وهى بالواو نسبة إلى بنى واقف ، وهم بطن من الأنصار ، وواقف لقب مالك بن امرئ القيس . انظر القاموس (وقف) والاشتقاق ٢٦٦ . وانظر ابن قتيبة فى المعارف ص ٥٠ .

(٢) كذا فى الأصل . ولعله : « من بنى كليب بن الحارث بن سدوس » .

(٣) هو عبد الله بن عنمة بن حرثان بن ذؤيب بن السيد بن مالك بن بكر بن سعد ابن ضبة . « وعنمة » بفتح العين المهملة والنون والميم . وفى ا : « غنمة » محرف . قال البغدادى : « الظاهر أنه من المخضرمين » . الخزانة (٣ : ٥٨) .

(٤) الحوفزان لقب له ، واسمه الحارث بن شريك بن مطر ، قالوا : « وإنما سمى الحوفزان لأن قيس بن عاصم اقتلعه عن سرجه بالرمح . وكلما قلعته من موضعته فقد حفزته » . الاشتقاق ٢١٥ .

فانتسب إلى مرة أبي جعونة[1] فقال : أنا سويد بن حِطّان بن مرة ، فقال ابن دغماء :

لعمرك ما أدرى وإنى لسائل سويد بن حطان يمتّ وما أدرى
سوى أنكم دُرِّبتم فجريتم على دُرْبة والضب يُختَل بالتمرِ[2]
فما أنتم منا ولا نحن منكم دعاوة كذب أنتمُ آخرَ الدهر

فغضب جعونة خال ابن دغماء ، فقال :

إن ابن دغماء الذى حُدِّثته بيض الدجاج لا يحسُّ له أب
إلاّ الرماد فإنها اعتركت به بين الرماد وبين أمك تنسب[3]

٣٦ — و (عبد المسيح بن عَسَلة الشيبانى) ، أمه عسلة بنت عامر بن شراكة من غسان ، إليها ينسبون[4] وهو شاعر ، قال :

يا كعب إنك لو قصرت على حسن النِّدام وقلة الجرمِ
لصحوت والنمرى يحسبها عم السماك وخالة النجمِ[5]

٣٧ — وأخوه (حرملة بن عسلة) ، قال له المنذر بن ماء السماء : اهج الحارث بن أبى شمر . فقال :

ألم تر أنى بلغت المشيـ ـب فى دار قومى عفًّا كسوبا[6]

---

(١) فى الأصل : « مرة بن أبى جعونة » وكلمة « بن » مقحمة .
(٢) رواه الجاحظ فى الحيوان (٦ : ٦٢) : « يحبل بالتمر » وقال : « فجعل صيده بالتمر كصيده بالحبالة » . والضب والعقرب يعجبان بالتمر عجباً شديداً .
(٣) مما يزعم العرب أن بيض الطير يتولد حيناً من التراب ومن الريح . قال الجاحظ فى الحيوان (٣ : ١٧١) . « والبيض الذى يتولد من الريح والتراب أصغر وألطف ، وهو فى الطيب دون الآخر . ويكون بيض الريح من الدجاج والقبج والحمام والطاوس والإوز » .
(٤) أما أبوه فهو حكيم بن عفير بن طارق بن قيس بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل . انظر المؤتلف ١٠٧ وشرح الأنبارى للمفضليات ٥٥٦ وما ورد من التحقيق فى المفضليات (٢ : ٧٨ طبع المعارف) .
(٥) انظر لفهم هذا البيت ما ورد فى جو المفضليات . وفى الأصل : « والنمرى يحسبه * عم السماك وخاله النجم » ، وهو تحريف .
(٦) رواية الخزانة (٤ : ٢٣) : « بلغت المشيبا * وفى دار قومى » .

وإنّ الإله تنصّفته بألاّ أعقّ وألاّ أحوبا
وألاّ أكافر ذا نعمة وألاّ أخيبه مستثيبا
وغسّان حىّ همُ والدى فهل ينسينّهم أن أغيبا
فآثرْ بها بعض من يعتريك فإنّ لها من معدٍّ كليبا

فانبرى عمارة بن العيّف العبدىّ(١) من سُليمة بن عبد القيس ، وهم حلفاء في بنى شيبان فى بنى سعد ، فقال :

لاهُمَّ إنّ الحارث بن جبله عقّ أباه ظالما وقتله
وأىّ فعل سيء لا فعله(٢)

٣٨ — و (عِتبان بن وَصيلة) وهى أمه(٣) . وهو عتبان بن شراحيل بن شريك بن عبد الله بن الحصين بن أبى عمرو بن عوف بن مرة بن ذُهل ابن شيبان .

٣٩ — و (عمرو بن الإطنابة) وهى أمه(٤) ، وهو الذى يقول :

---

(١) ينسب الرجز أيضاً إلى « شهاب بن العيف » . وفى نسخة البغدادى من كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء : « عامر بن العيف » . (انظر الخزانة ٤ : ٢٣١) .

(٢) انظر رواية الرجز وتمامه فى الخزانة .

(٣) عتبان ، بكسر العين ، ووصيلة بفتح الواو . انظر الاشتقاق ٢١٦ . وفى معجم المرزبانى ٢٦٦ : «عتبان بن أصيلة ، ويقال وصيلة ، الشيبانى . وأصيلة أمه ، وهى من بنى محلم» . وأورد من شعره قوله لعبد الملك بن مروان :

فبلغ أمير المؤمنين رسالة وذو النصح لو يرعى إليه قريب
يا نك إلا ترض بكر بن وائل يكن لك يوم بالعراق عصيب
فإن يك منكم كان مروان وابنه وعمرو ومنكم هاشم وحبيب
فنا سويد والبطين وقعنب ومنا أمير المؤمنين شبيب

وللبيت الأخير قصة يتداولها الرواة .

(٤) عمرو بن الإطنابة شاعر جاهلى . وأمه الإطنابة بنت شهاب بن زبان ، من بنى القين ابن جسر ، وأبوه عامر بن زيد مناة بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج . انظر المرزبانى ٢٠٣ والكنى والألقاب لابن حبيب ١٣٩ . وأصل الإطنابة سير يشد فى وتر القوس العربية لتحزق به . الاشتقاق ٢٦٨ .

قرت أحسابُنا كرمًا فأبدت لنا الضراء عن أُدُمٍ صحاحِ
ولم يُظهر لنا عُقراتِ سَوء جودُ القطر أو بكْء اللقاحِ

فى ختام نسخة (ا) تجز الكتاب والحمد لله رب العالمين . نقلت جميعه من نسخة نقلت جميعها من خط أبى الفتح عثمان بن جنى ، وصححها رضى الدين الشاطبى رحمهما الله .

وفى نسخة (ب) : « قال فى أصل هذا : تجز الكتاب ... الخ » ، وزاد : وتجزت هذه النسخة فى يوم الاثنين المبارك ١٤ صفر الخير سنة ١٣٠٠ بالمدينة المنورة . رحم الله كاتبها ومستنسخها والمسلمين أجمعين .

تحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه

لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزاباذي

٧٢٩ - ٨١٧

مقـــدمـــة

هذا الكتاب يشبه فى موضوعه الكتاب السابق لهذا ، و يمتاز بأنه لم يختص بذكر الشعراء فحسب ، بل هو عام فى ذلك . ومؤلفه فى غنًى عن التعريف ، فهو صاحب أكثر المعجمات العربية تداولا ، وهو القاموس المحيط ، وهو أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزابادى ، نسبة إلى فيروزاباذ ، قرية بفارس [١] ، منها والده وجده . وأما هو فقد ولد بكازرين من بلاد فارس سنة ٧٢٩ ، ثم أخذ عن مشايخ العلم بالعراق ومصر والشام والروم والهند ، ثم دخل زبيد سنة ٧٩٦ فتلقاه سلطان اليمن الأشرف إسماعيل ، وولاه قضاء اليمن كله ، واستمر بزبيد عشرين سنة ، وتوفى بها سنة ٨١٧ . وانظر ترجمته فى (الشقائق النعمانية ١ : ٩٢ و بغية الوعاة ١١٧ وروضات الجنات ٤ : ٢٠٧ ومفتاح السعادة ١ : ١٠٣) .

وأصل هذه النسخة التى ننشرها نسخة الشنقيطى التى كتبها بقلمه سنة ١٣٠٤ محفوظة بدار الكتب المصرية برقم (٣٨ أدب ش) . ومن الكتاب نسخة أخرى بمكتبة الجزائر برقم ٤٦ .

ويقارب هذا الكتاب فى تسميته وموضوعه كتاب آخر محفوظ بالخزانة التيمورية برقم ١٤٠٧ تاريخ تيمور ، وهو (تذكرة الطالب النبيه بمن نسب إلى أمه دون أبيه) لأحمد بن خليل اللبودى ، وهو تهذيب كتاب آخر ، لجلال الدين ابن خطيب داريا . وتقع هذه التذكرة فى ٨٩ صفحة ، وقد وجدت معظم ما به من الأسماء قد تكفل به ابن حبيب ومجد الدين الفيروزابادى .

---

(١) هى بكسر الفاء وآخرها ذال معجمة ، كما فى معجم البلدان ، قال البشارى : « ومعنى فيروزاباذ أتم دو » .

الحمد لله عددَ خلقِه وزِنَةَ عرشِه ورضى نفسِه ومداد كلماته ، والصّلاة والسّلام على أشرف مخلوقاته ، ملءَ أرضه وملءَ سماواته ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأزواجه وذُرّياته .

و بعدُ يقول محمد بن يعقوب بن محمد الفِيروزاباذىّ نَعَشَه الله من عَثَراته ، وحجز بحفظِه وكلاءته بينه و بين زَلاّته : هذا كتابٌ وضعتُه فى ذكر من نُسِب إلى اثنين من آبائه وأمّهاته ، أو إلى غير أبيه ثم إلى جدّاته ، [أو] أجنبىّ ممن رباه أو تبنّاه أو غير ذلك من حالاته ، وذلك لمّا رأيت قراء الحديث تَزِلُّ مفاصلهم[١] فيلحنون فى ذلك وأخواتِه ، فأفردته فى جزء راجياً أن يكون لوجه الله تعالى بَحْتًا لرَوْمِ مَرْضاتِه[٢] ، وأسميته « تحفة الأَبِيه[٣] فيمن نُسِب إلى غير أبيه » ، ورتبته على الهجاء المشرقىّ لصَفَاءِ أضَاتِه[٤] ، وقدّمتُ ذكرَ سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم محمدٍ عليه أفضلُ صلواتِ الله وأشرفُ تسليماته ، تشريفاً للتأليف ، ولئلاّ يندرجَ اسمُه الشريفُ بين الكتاب حيث يقتضيه ترتيبُ كلماتِه :

سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم ، خاتم النبيِّين وأشرف المخلوقين ، ورسولُ ربّ العالمين ، صلى الله تعالى عليه وسلم أبد الآبدين . قيل نَزَع فى الشَّبَه إلى أبى كبشة أحد أجداده ، فقالوا له ابن أبى كبشة . فى صحيح البخارى ، فى حديث هرقل : « فقال أبو سفيانَ بنُ حرب لمّا قرأ هِرَقْلُ كتابَ النبى صلى

(١) المفاصل : جمع مفصل ، كمنبر ، وهو اللسان .
(٢) البحت : الخالص . والروم : الطلب .
(٣) الأبيه : وصف ، من أبه للشىء وبالشىء من باب منع وفرح ، أى فطن له . ولم يذكر المصنف فى قاموسه ولا صاحب اللسان أيضاً هذا الوصف .
(٤) الأضاة : المستنقع من سيل أو غيره .

الله تعالى عليه وسلم : لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبى كَبْشة[1] ، إنه يخافه مَلكُ بنى الأصفر » . واختلف العلماء فى ذلك فقيل أبو كبشة كُنْيَةُ زوجِ حليمةَ السعدية التى أرضعت النبىَّ صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو أبوه من الرّضاعة ، واسمه الحارث بن رِفاعة السعدىّ ، قاله أبو الحسن علىّ بن خلَف بن بطّال . وقيل هو كنية وهب بن عبد مناف جدِّ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من قِبَل أمّه آمنة بنت وهب بن عبد مناف جدّ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه كان نَزَع إليه فى الشبه . وقال ابن الكلبىّ فى جمهرة النسب : أمُّ وهبٍ جدِّ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قَيلة بنت أبى قَيلة ، وهو وَجْز بن غالب بن الحارث بن عمرو بن حُوَىّ ابن مِلْكان بن أفْصَى بن حارثةَ بن خُزاعة . تقول خُزاعة : أبو كبشة هو أبو قَيلة . وقيل أبو كبشة : رجلٌ من خُزاعة خالفَ قريشاً فى عبادة الأوثان وعَبَدَ الشِّعْرَى العَبُور ، فشبَّهوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم به ، ومعناه أنه خالفهم كما خالفهم أبو كبشة . وقيل : كان أبو كبشة عمَّ ولدِ حليمةَ السعديّة . قال الزُّبير بن بَكّار : ليس مرادُهم عَيْبَ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وإنما مرادُهم مجرّد التشبيه . وقال غيره : هذا منهم إيذاء للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأقبح ما كانوا يدْعونه به من الكُنَى والأسماء .

ونسبَ بعضُ المُحْدَثين المولَّدين النبىَّ صلى الله تعالى عليه وسلم إلى أمّه آمنة ، فقال :

صلَّى الإله على ابن آمنةَ التى جاءت به سَبْطَ البَنان كريما
قُل للّذين رجَوْا شفاعةَ أحمدٍ صلُّوا عليه وسلِّموا تسليما

حرف الألف

١ — إبراهيم بن عُلَيَّة ، سيأتى ذكره عند ذكر أبيه إسماعيل بن علية .

(١) أمر ، كفرح : كثر ، وقوى .

٢ — إبراهيم بن هَرَاسة ، بفتح الهاء والراء المخففة والسين المفتوحة ، وهى أمُّه . والهَرَاسة فى الأصل : واحدة الهَرَاس كسحاب ، وهو شجر ذو شوك . وقال أبو عمرو : يقال له ثمر مثل ثمر النَّبق ، وفيه شوك . قال النابغة الجعدى رضى الله عنه :

وخيـــلٍ يطابِقْنَ بالدارِعِينَ طِبَاقَ الكلاب يطأْن الهَرَاسا

الواحدة هَرَاسة . وبه سمِّيت المرأة هَرَاسة . وهو أبو إسحاق إبراهيم بن سَلَمة الكوفىّ ، متروك الحديث تكلَّم فيه أبو عُبيدٍ وغيره . فإذا كتبتَ إبراهيم بن سلمة ، ابن هَرَاسة أعربتَ الابن الثانى إعرابَ إبراهيم وكتبته بالألف ، وكذا فى جميع ما أتلوه عليك من هذا النحو .

٣ — أحمد بن تَيمِيَّة ، هى أمّ أحدِ أجداده الأبعــدين ، وهو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبى القاسم بن محمد بن تيميّة الحرانىّ ، الحافظ المشهور ، الذى لم يلحق شأْوَه فى الحفظ أحدٌ من المتأخِّرين .

٤ — أحمد بن الخاضِبَة[1] .

٥ — إسحاق بن راهَوَيْه بفتح الهاء والواو ثم ياء مثناة تحتية ، ويقال بضم الهاء وسكون الواو وفتح الياء ، وهــذه قليلة ، وهما لغتان فى كل اسم خُتم بوَيْه كسيبوَيْه وعَمْرويْه ونَحرويْه وغيرها ، ويجوز فيه البناء والإعراب : هذا راهَوَيْهِ ورأيت راهويهِ ومررت براهويْهِ . وهذا راهويْهٌ ورأيت راهويْهًا ومررت براهوَيْهٍ . ولك أن نعربه غير منصرف فتقول : هذا راهويْهُ ورأيت راهويْهَ ومررت براهَوَيْهَ . وهــذا عن الجرمى ، ونقله ابنِ مالكٍ عن المتأخِّرين . ولم يذكر سيبويه إلا البناء . وعلى قول من يعربه تجوز تثنيتُه وجمعه ، فتقول هٰذان راهويهان وهؤلاء راهويهون . وعلى قول الجمهور تقول : هــذان ذوَا راهويهِ وهؤلاء ذَوُو راهويه . وراهويه لقب أبيه إبراهيم لأنه وُجد فى الطريق . وأصله

(١) فى الأصل : « الخاصة » ، صوابه من تذكرة الطالب ، مخطوط التيمورية . وهو والد أبى بكر محمد بن أحمد بن عبد الباقى بن منصور الدقاق ، الحافظ البغدادى . انظر تذكرة الحفاظ ٤ : ٢٢

راهَوِىّ أى طريقىّ . ورَاهْ بالعَجَمىّ : الطريق . وهو أبو يعقوب إسحاق بن مخلد ابن مسكين بن إبراهيم بن مطَر الحنظلىّ المروَزىّ النيسابورىّ ، أحـد الأئمة الحفاظ . قال أبو داود : تغيَّر قبل أن يموت بخمسة أشهر ، وتوفى سنة ثمـان وثلاثين ومائتين ، وهو ابن سبع وسبعين سنة .

٦ — إسمـاعيل بن عُلَيّة بضم العين المهملة وفتح اللام والياء المثناة التحتية المشددة : وهى أمه وقيل جدته أمّ أمّه . وهو أبو بِشْر إسماعيل بن إبراهيم بن مِقْسم — كمنبر — الأسدىّ ، أسدِ خُزَيمة ، مولاهم البصرىّ . وأصـله من الـكوفة ، وهو أحد أئمة الحديث والفقه ومن كبار الصالحين[1] . وأما ابن عُلَيّة الذى يعزو إليه كثيرٌ من الفقهاء فهو ابن ابنه .

٧ — أيوب بن القِرِّيَّة ، بكسر القاف والراء المشددة والمثناة التحتية آخره هاء ، وهو لقب أمّه واسمها جُمّاعة مثل رُمَّانة ، بنت جُشَم بن ربيعـة بن زيد مَنَاةَ ، وهو أيوب بن يزيد بن قيس بن زُرارة بن سَلَمة بن جُشَم بن مالك بن عمرو بن عامر بن زيد مناةَ ، بن القِرِّيَّة . وهو أحد الفصحاء المشهورين بالحفظ ، صحب بنى مروان والحجاجَ بن يوسف . والقِرِّيَّة : حوصلة الطائر . ونقل أيوبُ الـكتبَ القديمةَ إلى العربية ، وقتلَهُ الحجَّاج .

حرف الباء

٨ — بُدَيْل بن أمِّ أصْرَم ، بضم الباء على زنة زُبَير ، واسم أبيه سلَمة . وبُديل ابن سلمة بن أم أصرم صحابىٌّ كان بمصر ، روى عنه علىّ بن رياح . وقيل : هو بديل بن ميسرة ، بدل سلمة .

٩ — بشير بن الخَصاصِيَة ، بفتح الخاء وتخفيف الياء المثناة من تحت ، على زنة كَرَاهِيَةٍ وطَواعية . و بعض المحدّثين شدَّدها ، وهو لحن لأنه ليس فى كلام العرب فعاليّة بالتشديد ، و إنما هى بالتخفيف قاطبة ، كـكراهِيَة وطَواعية وعَلانية ورفاهيَة

(١) ترجم له بإسهاب فى تهذيب التهذيب .

وأخواتها . والخصَاصِيةُ هى أمّ بشير ، واسم أبيه معبد . وكان اسم بشير زحم بن مَعبَد بن شراحيل السّدوسيّ ، فغيّره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وسمّاه بشيراً . وأمّه الخصاصيَةُ من الأزد . وكان بشير يعرف بها ، وروى بشيرٌ أحاديث .

١٠ — بشير بن عقْربَةَ . عقربةُ أمّه . والعقربة فى كلام العرب : المرأة العاقلة الخدوم . و بشير صحابىّ ، ولم أقف على اسم أبيه . وكنيتُه أبو اليمان ، نزل الشّامَ ، روى حديثاً واحدا ، وهو « من قامَ بخطبة لا يلتمس بها إلا رياء وسُمعة وقّفَه الله عزّ وجلّ يومَ القيامة موقفَ رياء وسُمعة » . روى عنه عبدُ الملك بن مروان وعبد الله بن عوفٍ الكنانى .

١١ — بِلال بن حمامة ، مؤذّن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحمامة بالفتح والتخفيف : اسم أمّه . واسمُ أبيه رَباح ، بفتح الراء والباء الموحّدة وبحاء مهملة . ويكنى أبا عبد الله ، وقيل أبا عمر ، وقيل أبا عبد الرحمن . مولى أبى بكرٍ الصّدّيق رضى الله تعالى عنه ، ومن مولّدى السراة[1] ، وشهد بدراً . وكان تِربَ أبى بكر رضى الله تعالى عنه . مات بدمشق ودفن بالباب الصغير . قال ابن زبر : مات بداريّا[2] وحُمِل على الرّقاب ، فدفن بمقبرة باب كيسان . وقيل مات بحلَب ودُفِن بباب الأربعين .

حرف الجيم

١٢ — جُبَيْر بن بُحينة ، صحابى . وبُحَينة بضم الباء وفتح الحاء المهملة ثم مثناة تحتية ساكنة ونون مفتوحة وهاء ، وهى لقبُها ، واسمها عبدة . وكذلك أخواه عبد الله ومالك . وأبوهُم مالك بن القِشْب بكسر القاف . وسيعاد كلٌّ واحدٍ فى بابه إنْ شاء الله تعالى .

١٣ — جعفر بن عُقاب . شاعر ، وعُقابُ أمّه . وهو جعفر بن عبيد الله ابن قَبيصة .

(١) السراة : بالفتح : جبال وأرض حاجزة بين تهامة واليمن .

(٢) داريا : قرية من قرى دمشق ، ينسب إليها الدارانى .

١٤ — الحارث بن مالك بن البَرْصاء ، صحابى . والبَرْصاء اسم أمِّ أبيه ، وهى لقبها ، واسمها عَبَدة ، واسم أبيه مالك بن قيس اللَّيثىّ . روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يومَ فتح مكة : « لا تُغزَى مكةُ سوى اليوم[1] » . وفى رواية « بعد اليوم » . والحديث الآخر « إنه ليس أحدٌ يلقى اللهَ وقد اقتطع مالَ امرئ مسلم بيمينه إلا ... » ، قال إسحاق بن إبراهيم أحدُ رواة هذا الحديث : إنّ سفيان كَنَى عنه[2] ، إنّما هو النار .

حرف الخاء

١٥ — خُفَاف ، بضم الخاء وفتح الفاء على زنة غُراب ، بن نَدْبة بفتح النون وسكون الدال المهملة وفتح الباء الموحدة ، وهى أمُّه ، واسم أبيه عُمَير بن الحارث ابن الشَّريد . وكنيةُ خُفافٍ أبو خُراشة بضم الخاء ، صحابىّ .

حرف الذال

١٦ — ذُو الخِرَق بن شُعَاث الشاعر ، بكسر الخاء المعجمة وفتح الراء بعدها قاف . وشُعاث بالشين المعجمة المضمومة وعين مهملة بعدها ألف وثاء مثلثة ، واسم أبيه نُبَاتة .

حرف الراء

١٧ — رافع بن غُنجُدة ، بضم الغين المعجمة والجيم بينهما نون ، وقيل عَنْجَرة بالعين المهملة المفتوحة والجيم والراء ، وقيل عنترة ، والأول أصح . وغُنْجُدة أمُّه أو جدّتُه واسم أبيه عبد الحارث .

١٨ — الرمّاح بن ميّادة بفتح الميم والمثناة التحتية المشدّدة ، وهى اسم أمِّه ، وكانت أمةً سوداء راعية . وهو الرمّاح بن أَبْرَد بن ثَوْبان بن سُراقة بن حَرْملة

---

(١) فى الإصابة ١٤٧٤ : « لا تغزى مكة بعد اليوم الى يوم القيامة » .

(٢) أى عن ما بعد « إلا » .

ابن سَلْمَى بن ظالم بن جَذِيمة بن يربوع بن غَيْظ بن مُرّة بن عوف بن سعد ابن ذُبْيان ، وكنيته أبو شرحبيل ، وهو شاعر مشهور .

حرف الزاى

١٩ — زياد بن هِنْدايةَ ، بكسر الهاء وسكون النون بعدها ألف وياء مثناة تحتية مفتوحة ، وهى أمُّه ، وكانت سوداء . واسمه زيادُ بن حارثة بن عوف بن قَتِيرة بن حارثة بن عبد شمس بن معاوية بن جعفر بن أُسامة بن سَعد بن شَبيب ابن السَّكون . وكان فارساً مشهوراً . قال ابنُ الأعرابيّ : وقال ابن الكلبيّ هو زياد بن عوف بن حارثة ، وهو الذى أَسَرَ الُحصَينَ ذا الغُصّة . وكان يقول : « لو أرسلتُ فَرَسِى أزاهيقَ عُرْياً لأسَرَ ذا الغُصّة » . وأزاهيق : اسمُ فرسِه .

حرف السين

٢٠ — سعد بن حَبْتَةَ ، بفتح الحاء المهملة وسكون الباء الموحدة وفتح المثناة الفوقية ، وهى أمُّه . وهى حَبْتَةُ بنت مالك رضى الله تعالى عنها . وهو سعد بن بَحِير بفتح الباء الموحدة وكسر الحاء المهملة . هذا هو الصَّحيح المشهور ، وقيل فيه بُجَيْر بالجيم مصغرا . وهو صحابيّ . وأبو يوسفَ بن إبراهيم القاضى من ذُرِّيَة سعد بن عوف[1] بن بُجَير بالجيم ، والأول أصح .

٢١ — سَعْد بن الحنظلية وهى أمُّ جَدّه ، وهو سعد بن عُقَيب بالقاف مثل زُبَير ، وقيل عُميت بالميم والمثناة آخره مثال حُميد ، وقيل سعد بن الرَّبيع بن عمرو بن عدىّ . ويكنى أبا الحارث الحارثىّ الصحابىّ .

٢٢ — سعد بن خَوْلَةَ . خَوْلة أمُّه ، وهو سعد بن خَوْلىّ . و بعضهم يجعل ابن خَوْلة غير ابن خَوْلىّ . ولم يعرف اسم أبيه ، وهذا هو الأصح .

٢٣ — سُلَيْك بن سِنان بن سُلَكة ، كهُمَزة . وسُلَكة أمّه ، وهو من

---

(١) كذا وردت فى الأصل ، وإنما هو سعد بن بجير . الإصابة ٣١٣٤ وتاريخ بغداد ٧٥٥٨ .

الشُّعراء والعَدَّائين ، ومن اللُّصوص الفُتاك ، وكان يُعرَف بسُلَيك المَقانب .

٢٤ — سُوَيْد بن كُرَاعَ . وكُرَاعُ أمّه ، وهى غير مصروفة . وهو سويد ابن عمرو بن كُرَاع ، وهو شاعرٌ معروف .

٢٥ — سَهْلُ بن الحنظلية الحارثىّ . والحنظلية هى أمُّ أبيه ، وهو سَهل بن عمرو بن عدىّ بن زيد بن جُشَم بن حارثة ، صحابى .

٢٦ — سَهل بن البيضاء . البيضاء لقبُ أمّه ، واسمها دَعْدُ بنت جَحْدم ، بفتح الجيم وسكون الحاء المهملة وفتح الدال اليابسة . وهو سهل بن وهب بن ربيعة ، صحابى .

٢٧ — سُهَيْل بن البيضاء ، أخو سَهل .

حرف الشين

٢٨ — شُرَحْبيل بن حَسَنَة . وهو شُرَحبيل بن عبد الله بن المُطَاع أخو عبدالله وعبد الرحمن . وحَسَنَةُ أمُّه ، وهى عَدَوْلية : نسبةٌ إلى عَدَوْلَى قرية بالبحرين . وهى مولاةُ مَعْمَر بن حبيب . وشُرحبيل من الصَّحابة .

٢٩ — شَرِيك بن السَّحْماء ، بفتح الشين المعجمة وسكون الحاء المهملة : وهو شَريك بن عَبْدَة بالتحريك ، ابن مغيث ، أخو البرَاء بن مالك لأمّه . وهو أوّلُ مَن لاعَنَ فى الإسلام . و بعضُهم يجعل شَرِيكَ بن السَّحماء غيرَ شريك بن عَبَدة ، والأوّلُ أصحّ .

حرف الصاد

٣٠ — صَفْوان بن البيضاء ، والبيضاء لقبُ أمّه ، واسمها دَعْد . وهو أخو سَهل وسُهَيل . وهو صفوان بن وهب ، وقد تقدَّم .

حرف العين

٣١ — عاصم بن بَهْدَلة ، أبو بكر الأسدىّ ، من القرّاء ، و بَهْدلة أمُّه . وهو عاصم بن أبى النَّجُود . والبَهْدَلة : الإسراع والخِفة فى المشى . والبَهدل : جِرو الضَّبُع[1] .

(١) فى الأصل : « خرو الضبع » ، تحريف .

٣٢ — عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول المُنافق . سَلول أمّه .

٣٣ — عبد الرحمن بن حَسَنَة ، أخو عبد الله وشُرَحبيل ، وهو عبد الرحمن ابن عبد الله بن المُطَاع . وحَسَنَةُ مولاةُ مَعْمَر بن حبيب ، عَدَوْلية .

٣٤ — عبدُ الله بن أمّ حرام . وهو عبدالله بن عَمرو بن قيس . وفيه اختلاف .

٣٥ — عبد الله بن بُحَينة ، وهو عبدُ الله بن مالك الأزديّ . وقد تقدَّم ذكر بُحَينة عند ذكر أخيه جُبَير . واسمها عَبَدة بنت الحارث بن عبد المطلب ، وهى أمُّ أبيه

٣٦ — عبد الله بن حَسَنة ، أخو عبد الرحمن وشُرَحبيل ، وهو عبد الله بن المُطَاع .

٣٧ — عُمَر بن اللُّتبِيَّة . وقيل ابن الأُتْبِيَّة(١) . قيل الأوّل الصحيح والأوّلُ قول ابن دريد ، والثانى قولُ ابن الكلبيّ والمعوّل على قوله أكثر .

٣٨ — عمرو بن الفَغْواء أخو علقمة ، صحابيان .

٣٩ — علقمة بن الفَغْواء ، صحابيّ ، وقيل ابن أبي الفغواء ، وهو عَلْقمةُ بن عُبيدٍ الخزاعيّ . والفغواء ، بالفاء والغين المعجمة : لقب أمّه . والفغا : مَيَل فى الفم .

٤٠ — عمرو بن شَعْواء اليافعيّ صحابى . شعواء أمّه ؛ ولم أقفْ على اسم أبيه . والشَّعواء بالشين المعجمة والعين المهملة : المنتشرة الشعر ، ومنه شجرةٌ شَعْوَاء : منتشرةُ الأغصان . وغارةٌ شَعْواء : متفرِّقة .

٤١ — عوف بن عَفراء ، وهو عوف بن الحارث بن رِفاعة النجّارى . وهى

(١) فى الأصل : « ابن اللبنية وقيل ابن الأبية » . صوابه من تذكرة الطالب ، قال : « عده الصغانى فى نقعة الصديان فى الصحابة الذين نسبوا إلى أمهاتهم » . وذكره فى الإصابة ١٩٣١ باسم « عبد الله » . وفى القاموس (لتب) : « وبنو لتب ، بالضم : حى ، منهم عبد الله بن اللتبية » .

عفراء بنت عُبيد بن ثَعلبة. وقيل فيه عَوْذٌ، وعَوْفٌ أكثر.

حرف اللام

٤٢ — لوط بن هاران بن تَارَح، ابنُ أخى إبراهيم[١]. هاران هو أخو إبراهيم.

حرف الميم

٤٣ — مالك بن بُحَيْنة، و بُحينة لقبُها واسمها عَبَدة. وهو مالك بن القِشْب، بكسر القاف.

٤٤ — مالك بن نُمَيلة، نُمَيلة أمُّه. وهو مالك بن ثابتٍ المُزَنىّ الصحابى.

٤٥ — محمد بن الحنفيَّة، هو محمد بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما. والحنفيّة أمُّه[٢].

٤٦ — محمد بن حَبيب الأديب. حبيبُ اسم أمِّه، ولم أقف على اسم أبيه.

٤٧ — محمد بن عائشة، وهو محمَّد بن حَفْص.

٤٨ — محمد بن عثمان، وهو محمد بن خالد.

٤٩ — محمد بن شَرَفَ القَيْرَوانىّ. شرفُ اسم أمّه، ولم أقف على اسم أبيه.

٥٠ — محمد بن القُوطِيّـة، بضم القاف وكسر الطاء وفتح المثناة التحتية المشددة، وهى أمُّه، نُسِبت إلى قُوط بن حام بن نوح. وهو أبو السُّودانِ والهند والسِّند. وهو محمد بن عُمَر بن عبـد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مُزاحِم الأندلسىّ الإشبيلى الأصل، القُرطُبى المولد. كان من أعلم أهل زمانه، ماهراً باللغة

(١) لعله يريد أنه يقال لوط ابن أخى إبراهيم، فينسب إلى غير أبيه.

(٢) هى خولة بنتِ قيس بن مسلمة بن عبد الله بن ثعلبة، أو بنت قيس بن جعفر بن قيس، أو خولة بنت إياس بن جعفر، ونسبتها إلى بنى حنيفة باليمامة، وقيل كانت أمة لبنى حنيفة سندية سوداء. انظر اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء، بتحقيق الدكتور الشيال، والإصابة ٣٥٥ من قسم النساء والمعارف ٩١.

والعربية ، حافظا للحديث والفقه والشّعر ، لا يُلحَق شأْوُه . وكان متنسِّكا متعبِّداً .

حكى أبو بكر يحيى بن هُذيلٍ التميميّ ، أنه توجَّهَ يومًا إلى ضيعة له بسفح جبلِ قُرطبة ، وهو من بِقاع الأرض الطيِّبة المونِقة ، وصادفَ ابنَ القوطيّةِ صادراً عنها . قال : فلما رآنى عرّج علىّ واستبشّ بلقائى ، فقلت له على البديهة مداعباً :

من أين أقبلت يا مَن لا شبيهَ له ومَن هو الشّمسُ والدُّنيا له فَلَكُ

فتبسَّم وأجاب بسرعة :

مِن مَنزلٍ يُعجِبُ النُّسَّاكَ خَلْوَتُه وفيه سِتْرٌ عن الفُتَّاكِ إن فَتَكوا

قال : فما تمالكت أن قبّلت يدَه . مات فى سنة سبع وستين وثلاثمائة .

٥١ — محمد بن ماجهْ[١] ، ماجه اسم أمه وهو محمد بن يزيد بن ماجه ، وترجمته مشهورة . الإمام أبو عبد الله الحافظ القزوينيّ أحد أصحاب الكتب الستّة ودواوينِ الإسلام .

٥٢ — مسعود بن العجماء ، العجماء اسم أمّه . وهو مسعود بن الأسود ابن حارثة صحابىّ .

٥٣ — مُعَاذ بن عَفراء ، عفراء أمُّه ، وهو مُعاذ بن الحارث بن رفاعة النّجّارى صحابىّ .

٥٤ — معوِّذ بن عَفْراء ، أخو معاذ . وعفراء هى بنت عُبيد بن ثعلبة صحابىّ .

٥٥ — مَعقِل بن أم مَعقِل ، وهو معقل بن أبى الهيثم ، ويقال له مَعقِل بن أبى مَعقِل الأسدىّ .

٥٦ — المِقْداد بن الأسود ، هو الأسود بن عَبد يغوث ، وهو رجل زُهرىٌّ

(١) جرى القدماء على نطق أمثال هذه الأسماء بالهاء الساكنة ، ونحوها « سيده » و « منده » ، ولست أرى مبرراً لهذا الالتزام ما دامت تدخل فى نطاق التعريب .

ربَّى المقدادَ وتبنَّاه فنَسِب إليه . وهو المقــداد بن عَمْرو بن ثعلبة بن مالك الــكنديّ .

حرف الواو

٥٧ — ورقة بن نوفل بن عبــد العُزّى ، ابنُ عمِّ خديجة رضى الله تعالى عنها . نوْفَلٌ هو عمُّ خديجة رضى الله تعالى عنها .

حرف اليـاء

٥٨ — يحيى بن الحنظليّة . الحنظليّة أمُّه ، ولم أقف على اسم أبيــه ، وهو ممَّن بايع تحت الشجرة .

٥٩ — يَعْلَى بن سَيَابة ، وهى اسم أمّه ، وهو يعلى بن مُرّة الثّقفى[1] .

٦٠ — يعلَى بن مُنْيَة[2] وهى أمُّه ، وقيل جدّته أمُّ أبيه ، وهو يعلى بن أُمَيّة بن عبدة[3] التميمىّ المكى حليف قريش ، ومن مُسْلِمةِ الفتح ، وقُتل فى صفّين ، رضى الله تعالى عنه .

٦١ — يُونس بن حبيبَ الأديب الشاعر ، حبيبُ أمُّه ، ولم أقف على اسم أبيه ؛ وفيه ستُّ لغات مشهورات : تثليث النون مع الهمز وتركه .

والحمد لله رب العالمين ، والصــلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين ، محمد حبيبه رب العالمين ، وعلى آله وصحابته والتابعين .
كتبه لنفسه محمد محمود ، ابن التلاميد التركزى ، لطف به آمين .

---

(١) فى الإصابة ٩٣٦٢ : « قال ابن حبان : من قال فى يعلى بن مرة يعلى بن سيابة . فقد وهم . ثم قال : يعلى بن سيابة يقال إن له صحبة » .

(٢) فى الإصابة ٩٣٦٠ : « يعلى بن منية ، بضم الميم وسكون النون ، وهى أمه وقيل أم أبيه ، جزم بذلك الدارقطنى . وقال : هى منية بنت الحارث بن جابر » .

(٣) فى الإصابة : « ابن أبى عبيدة » .

فهرس المجموعة الأولى

صفحة

المجموعة الثانية

٥ ـ كتاب خطبة واصل بن عطاء المعتزلي المتوفي سنة ١٤١ .
٦ ـ كتاب أبيات الاستشهاد لأحمد بن فارس المتوفي سنة ٣٩٥.
٧ ـ رسالة في أعجاز أبيات تغني في التمثيل عن صدورها، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد المتوفي سنة ٢٨٥ .
٨ ـ كتاب العصا لأبي المظفر أسامة بن منقذ المتوفي سنة ٥٨٤.
٩ ـ رسالة التلميذ لعبد القادر بن عمر البغدادي المتوفي سنة ١٠٩٣ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذه هى المجموعة الثانية من (نوادر المخطوطات) التى ألتمس من الله الأيد والعون على أن أمضى فى إخراجها ، مغتبطا بما ظفرت به وما أرجو أن أظفر به ، من تقدير العلماء والأدباء لهذه الفكرة التى تحاول ملء فراغ كان يتخلل المكتبة العربية المنشورة .

وتلقيت رسائل من أطراف العالم العربى والإسلامى ، فيها ثناء وفيها رغبات عاجلة ، واقتراحات لنشر كتب ورسائل معينة ، وسأتخذ من هذه الرغبات وهذه الإرشادات نبراساً لى فيما أنا آخذ بسبيله .

وتفضل زميلنا وصديقنا الأستاذ الناقد المحقق (الدكتور شوقى ضيف) فكتب فى مجلة الثقافة (بالعدد ٦٣٤) مقالا نفيسا عرّف فيه تعريفا صادقا بـ (نوادر المخطوطات) و برسائل المجموعة الأولى . وروى نصا نادرا عن ابن سعيد (فى المغرب) فى شأن أبى الصلت ، أنه « كان قد خرج من إشبيلية ، فصحب بالمهدية ملوكها الصنهاجيين وتوجه فى رسالة إلى مصر فسجن بالقاهرة فى خزانة البنود ، وكان فيها خزائن من أصناف الكتب ، فأقام بها نحو عشرين سنة ، فخرج منها وقد برع فى علوم كثيرة من حديثة وقديمة . . . وإنما حبسه المصريون لأن صاحبه الذى أرسله وهو يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ـ كان قد قطع هو وأبوه اسم الخليفة الفاطمى من الخطبة واستقلا عن مصر . فلم يكرم المصريون رسوله ، بل حبسوه إهانة له و إزراء عليه » .

وعقد كذلك موازنة بين ما ورد فى كتاب «المردفات من قريش» وما ورد فى كتاب « المحبر » لابن حبيب فيما يشبه هذا الموضوع .

وتمكن — حفظه الله — من تكملة عبارة وردت ناقصة فى الأصل فى ص ٢٢ : « وقد تعاور الشعراء . . . الشعاع على صبح . . . » ، إذ وجدها فى الخريدة : « وقد تعاور الشعراء وصف وقوع الشعاع على صفحات الماء » .

وورد فى ص ٢٣ بيتان أشرت إلى أنهما محرفان فوجد صوابهما فى الخريدة :

بشاطئ نهر كأن الزجاج وصفو اللجين به ذوبا

إذا جمشته الصبا بالضحى توهمته زردا مذهبا

فإلى الصديق (الدكتور شوقى ضيف) أزجى صادق الشكر وعظيم التقدير.

وكنت قد اعتزمت أن أنشر فى هذه المجموعة (كتاب عرام بن الأصبغ فى أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى) ، ولكنى علمت أن العلامة (عبد العزيز الميمنى الراجكوتى) قد قام بنشر هذا الكتاب من قبل ، فآثرت أن أؤجل صنعه إلى أن أطَّلِع عَلَى نسخته .

وفى النية أن تشتمل المجموعة الثالثة من (نوادر المخطوطات) على (رسالة ابن غرسية فى الشعوبية) والردود عليها .

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ؟

القاهرة فى ٣٠ رجب سنة ١٣٧٠ عبد السلام محمد هارون

كتاب خطبة واصل بن عطاء

٨٠ ـ ١٣١

واصل بن عطاء ــــ تلقيبه بالغزال ــــ هو والجاحظ ــــ عبقرية واصل ــــ لثغته ــــ الراء من أكثر الحروف دورانا فى العربية ــــ الجاحظ يعقد فصلا للثغة ــــ شهرة لثغة واصل ــــ علة تجنبه للراء ــــ نماذج لمجانبته الراء مما ذكره الجاحظ ــــ نماذج مما ذكره غير الجاحظ ــــ حادث خطبة واصل ــــ تاريخ الخطبة ــــ خطبة واصل فى التاريخ ــــ قيمة هذه الخطبة ــــ شبهها ببعض خطب عصره ــــ ابن زيدون وواصل ابن عطاء ــــ نص الخطبة .

واصل بن عطاء :

ليس أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزال ، مولى بنى ضبة أو بنى مخزوم ، فى حاجة إلى أن نسهب فى التعريف به ، فإنه رأس المعتزلة ، وأول إمام قوى دفع مذهب الاعتزال ، وكوّن الفرقة الأولى من فرق المعتزلة العشرين [1] .

ولم يختلف المؤرخون أنه ولد بمدينة الرسول ، سنة ثمانين للهجرة ، وأنه نزح إلى العراق وأقام بها ، ولزم الحسن البصرى يحضر مجالسه ويقبس من علمه ، إلى أن كان ما كان من قول واصل وصاحبه عمرو بن عبيد بالمنزلة بين المنزلتين ، فكان ذلك سبباً للقطيعة بين الحسن ، وبين واصل وزميله ، وانتقل ميدان الرأى من مجلس العلم إلى الرأى العام ، فكان للاعتزال أنصاره الذين ينضوون تحت لوائه ، وصار مذهباً من المذاهب القائمة .

تلقيبه بالغزال :

وقد اختلف الناس فى تلقيب واصل بالغزال ، فمنهم من زعم أنه كان غزالا ، وأصح القولين أنه إنما لقب بذلك لأنه كان يكثر الجلوس فى سوق الغزالين إلى

(١) هي الواصلية ، والعمرية ، والهذيلية ، والنظامية ، والأسوارية ، والإسكافية ، والجعفرية ، والبشرية ، والمعمرية ، وأصحاب عيسى بن صبيح ، والثمامية ، والهشامية ، والجاحظية ، والخياطية ، والكعبية ، والصالحية ، والخابطية ، والحديثية ، والشحامية ، والبهشمية .

أبي عبد الله مولى قطن الهلالى[١] . ويذكرون أنه كان يلازم الغزالين ليعرف المتعففات من النساء ممن يتردد عليهم ، فيجعل صدقته لهن[٢] . ويذكرون من أمثال ذلك فى النسبة بعض الأعلام كخالدٍ الحذّاء ، قيل إنه سمّى بذلك لأنه تزوج امرأةً فنزل عليها فى الحذّائين فنسب إليها[٣] . وهشام الدستوائى إنما قيل له ذلك لأن الإباضية كانت تبعث إليه من صدقاتها ثياباً دستوائية فكان يكسوها الأعراب الذين يكونون بالجناب[٤] .

هو والجاحظ :

وبدهى أن الجاحظ لم يدرك واصل بن عطاء ، لأن مولد الجاحظ كان فى سنة ١٥٠ ووفاة واصل كانت فى سنة ١٣١[٥] .

لكن الجاحظ قد أدرك رجلا له صلة بواصل بن عطاء ، هو جعفر بن أخت واصل ، عرفه الجاحظ ، وسمع منه إنشاداً لشعر رواه فى كتاب الحيوان[٦] ، كما روى عنه شيئاً من الدُّعابة فى البيان[٧] .

والجاحظ يعجب بواصل وبصحة عقله ، فهو يقول فى كتاب الحيوان[٨] عند الكلام على الجن : « لأنهم لم يسلَّطوا على الصحيح العقل . ولو كان ذلك

---

(١) البيان ١ :٣٣والكامل٥٤٦ ليبسك .

(٢) الكامل وابن خلكان فى ترجمة واصل .

(٣) أى إلى قطيعة الحذائين . البيان ١ : ٣٣ والسمعانى ١٦٠ .

(٤) البيان ١ : ٣٣ .

(٥) لسان الميزان فى ترجمة واصل ، والنجوم الزاهرة ١ :٣١٣ ومسالك الأبصار (القسم الثانى من الجزء الثامن من ٤٩٦ من مصورة دار الكتب رقم ٢٥٦٨ تاريخ) وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبي مخطوطة دار الكتب المصرية فى وفيات ١٣١ ، وكذا شذرات الذهب لابن العماد فى تلك السنة ، وفوات الوفيات فى ترجمته . وفى أصل معجم الأدباء ٧ : ٢٢٥ مرجليوث ، أنه توفى سنة إحدى و (بياض) ومائة . والذى فى وفيات الأعيان أنه توفى سنة ١٨١ . وهو خطأ ظاهر .

(٦) الحيوان ٧ : ٢٠٤ ــ ٢٠٥ .

(٧) البيان ٢ : ٢٣٤ .

(٨) الحيوان ٦ : ١٦٠ .

إليهم لبدءوا بعلى بن أبى طالب ، وحمزة بن عبد المطلب و بأبى بكر وعمر فى زمانهم و بغيلان والحسن فى دهرهما ، و بواصل وعمرو فى أيامهما .

عبقرية واصل :

و يبدو أن واصلا كان على جانب عبقرى من الذكاء وجرأة العقل والقلب . يقول المبرد[1] : « وحدِّثت أن واصل بن عطاء أبا حذيفة أقبل فى رفقة فأحسوا الخوارج ، فقال واصل لأهل الرفقة : إن هذا ليس من شأنكم فاعتزلوا ودعونى و إياهم . وكانوا قد أشرفوا على العطب ، فقالوا : شأنك . فخرج إليهم فقالوا : ما أنت وأصحابك ؟ قال : مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله وليعرفوا حدوده . فقالوا : قد أجرناكم . قال : فعلِّمونا . فجعلوا يعلمونه أحكامهم وجعل يقول : قد قبلت أنا ومن معى . قالوا : فامضُوا مصاحَبين فإنكم إخواننا . قال : ليس ذلك لكم . قال الله تبارك وتعالى : « و إن أحدٌ من المشركين استجارك فأجِرْه حتى يسمعَ كلام اللهِ ثم أبلغه مأمنه » ، فأبلغونا مأمننا . فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا : ذاك لكم . فساروا بأجمعهم حتى بلغوهم المأمن .

وهذا الخبر على ما به من أثر الصنعة يطوى وراءه اعترافاً بعبقرية هذا الرجل وزعامته الفطرية . على أن شيئاً مما ذُكِر ليس يعنينا لذاته ، و إنما ليلقى ضوءاً على حياة هذا الرجل الذى هو رأس من رؤوس المعتزلة الذين قامت دعوتهم على المناظرة والمجادلة الملحة ، والتى اعتمدت فى أكثر ما تعتمد على الخطابة وعلى البيان ، وعلى الجرأة فى مواقف المخاصمة والمنازعة .

لثغة واصل :

ولكلٍّ حسناء ذامُها ، فهذا الخطيب واصل ، مع ما رزقه الله من بيان وحسن تصريفٍ للقول ، كان صاحب عاهة منطقية عُرِف بها وذاعت بين الناس ،

---

(١) الكامل ٥٢٨ ليبسك . وقد روى هذا الخبر موجزا ابن قتيبة فى عيون الأخبار ١ : ١٩٦ .

وهى لثغة شنيعة كانت تقع له فى حرف الراء فتحرجه فى ذلك أيّما إحراج فيتأتَّى لها بمجانبتها إلى سواها من الحروف ، ويحمل على نفسه فى هذا الأمر ويجهدها فيوفَّق توفيقاً بالغاً .

قال أحد معاصريه[(١)] :

ويجعل البر قمحاً فى تصرُّفه … وجانب الراء حتى احتال للشعر[(٢)]

ولم يطق مطراً والقول يعجله … فعاذ بالغيث إشفاقاً من المطر

قال الجاحظ : وسألت عثمان البرى : كيف كان واصل يصنع فى العدد ، وكيف كان يصنع بعشرة وعشرين وأربعين ، وكيف كان يصنع بالمحرم وصفر وربيع الأول وربيع الآخر وجمادى الآخرة ورجب ؟ فقال : مالى فيه إلا ما قال صفوان :

ملقَّن ملهم فيما يحاوله … جمٌّ خواطره جواب آفاق

الراء من أكثر الحروف دورانا :

وقد لحظ الجاحظ ، وهو صادق فيما فَطِن له ، أن الراء من أكثر الحروف دوراناً فى الكلام العربى ، قال[(٣)] : أنشدنى ديسم قال : أنشدنى أبو محمد اليزيدى :

وخلة اللفظ فى الياءات إن ذكرت … كخلة اللفظ فى اللامات والألف

وخصلة الراء فيها غير خافيةٍ … فاعرف مواقعها فى القول والصحف

يزعم أن هذه الحروف أكثر تردداً من غيرها ، والحاجة إليها أشد . ثم قال الجاحظ : « واعتبر ذلك بأن تأخذ عدة رسائل وعدة خطب من جملة خطب الناس ورسائلهم ، فإنك متى حصَّلتَ جميع حروفها وعددت كل شكل على حدة علمت أن هذه الحروفَ الحاجةُ إليها أشدّ » .

---

(١) البيان ١ : ٢١ .

(٢) من أسماء الشعر مما ليس فيه الراء « السبد » بالتحريك ، و« الملب » بالضم ، و« اللمة » : مازاد على الجمة ، و« الخصلة » بالضم : ما اجتمع من الشعر كذلك . انظر المخصص ١ : ٦٢ – ٦٩ .

(٣) البيان ١ : ٢٢ .

وهذه براعة عجيبة للجاحظ : أن يتجه فكره فى عصره إلى مثل هذه الطريقة التى لم تشهر ولم يعرف الاتجاه إليها فى البحوث اللغوية والأدبية إلا منذ عهد قريب .

الجاحظ يعقد فصلا للثغة :

هذه اللثغة الشنيعة التى كانت تقع لواصل ، هى أقوى الدوافع التى دعت الجاحظ — وهو الذى نصب نفسه مدرهًا للمتكلمين والمعتزلة بوجه خاص ، أن يعقد فى كتابه فصلا طويلا فى اللثغة[1] يبين فيه أنها تقع فى أربعة حروف ، وهى القاف والسين واللام والراء ، ولكلٍّ من هذه الحروف ضروب من اللثغ ولا سيما الراء فإن لها ضروباً أربعة ، إذ تقلب ياء كما يقال فى عمر عَمْى ، أو عيناً كما يقال عمغ ، أو ذالا فتقول عمذ ، أو ظاء فتقول عمظ ، ثم يخص ضربا لها خامساً بالذكر لا يصوَّر بالكتابة ، وإنما سبيله المحاكاة والنطق ، وهذا الضرب هو الذى كان يعرض لواصل بن عطاء ، ولسليمان بن يزيد . قال الجاحظ فى تلك اللثغة : « فليس إلى تصويرها سبيل » .

وقد وجدت برهان الدين الوطواط فى كتابه غرر الخصائص[2] يزعم أن لثغة واصل « كانت بالظاء أخت الطاء » ، على حين لم يعيّن الجاحظ نوعها ، وكأنها كانت حرفاً بين حرفين ، أو مزيجاً من حروف . ولو كانت حرفاً واحدا لعينه الجاحظ ، وهو من أقرب الناس به عهداً ، وأخبرهم به علما .

شهرة لثغة واصل :

قلت : إن لثغة واصل كانت أمراً متعالما ، ذكرها كلُّ من ترجم له ، ونطقت بها آثار الشعراء . فهذا أبو محمد الخازن يقول من قصيدة مدح بها الصاحب إسماعيل بن عباد[3] :

---

(١) البيان ١ : ٣٤ — ٣٧ . (٢) غرر الخصائص ص ١١٤ .
(٣) وفيات الأعيان ، ترجمة واصل ، وكذا مسالك الأبصار ، وقد سبقت الإشارة إليه .

نعم ، تجنّب « لا » يوم العطاء كما تجنّب ابن عطاء لفظة الراء

وقال الأرَّجانى :

ذا امتعاضٍ أخفى اختلالى عن الرا ئى كإخفاء واصــل للراء(١)

وقال : فيما رواه له ابن شاكر فى عيون التواريخ ، وليس فى ديوانه :

هجر الراء واصل بن عطاء فى خطاب الورى من الخطباء
وأنا سوف أهجر القاف والرا ء مع الضاد من حروف الهجاء

وقال آخر فى محبوبٍ له ألثغ :

أعدْ لثغةً لو أن واصل حاضر ليسمعها ما أسقط الراء واصل(٢)

وقال آخر :

أجعلت وصلِي الراء لم تنطق به وقَطعتنى حتى كأنك واصلُ

وقال آخر :

فلا تجعلنِّى مثــل همزة واصلٍ فتلحقنى حذفاً ولا راء واصلِ(٣)

علّة تجنّب واصــل للراء :

هذه العيوب اللسانية التى منها اللَّثَغ تعرِض لـكثير من الناس من يوم خَلَق الله الدُّنيا إلى يومنا هذا ، والناسُ متفاوتون فى أقدارها من الشناعة ، ويكادون يتّفقون على الرضا بها مع طول العهد ، وألاّ يحاولِوا تغيير ما صنع الله ، وإن كان العلم الحديث فى وقتنا هــذا يحاول أن يخفّف من حِدّتها ، وأن يأخذ بها إلى غير سبيلها ، ولـكنّا لم نسمع فيما يروى التاريخ من محاولة عنيدة للهرب من هــذا العيب ، كتلك المحاولة التى أرادها وِصل ، وقَسَرَ نفسَه عليها ، وذلك باجتثاث

(١) فى ديوان الأرجانى ١٣ : «عن الرأى» ، وهو تحريف . وأراد بالاختلال الخلة والحاجة .
(٢) كذا عند ابن خلكان . وفي غرر الخصائص ١١٤ : « ولثغته لو أن واصل حاضر » .
(٣) هذه رواية ابن خلــكان ، ولم ينسب البيت . وقد وجدته منسوبا إلى الزمخشرى فى للضنون به على غير أهله ١٢١ طبع ١٩١٥ برواية : « فيستطق وصل » .

الداء من أصله ، وهو التحرُّز من ذلك الحرف الذى يحمل تلك الشناعة ، وهو حرف الراء .

ويوضّح الجاحظ علّة التجاء واصلٍ إلى مجانبة الراء بقوله[1] : « ولما علم واصل بن عطاء أنه ألثغ فاحِش اللثغ ، وأن مخرج ذلك منه شنيع ، وأنه إذ كان داعية مقالةٍ ورئيس نحلة ، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل ، وأنه لا بد له من مقارعة الأبطال ومن الخطب الطوال ، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة وإلى ترتيب ورياضة ، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعَة ، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق ، وتكميل الحروف وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الفخامة والجزالة ، وأن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب وتثنى إليه الأعناق ، وتزيَّن به المعانى ، وعلم واصلٌ أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام واللسان المتمكن والقوة المتصرفة ، كنحو ما أعطى الله تبارك وتعالى نبيه موسى عليه السلام من التوفيق والتسديد . . . . . ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان وإعطاء الحروف حقها من الفصاحة — رام[2] أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه ، وإخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ، ويناضله ويساجله ، ويتأتَّى لستره والراحة من هجنته ، حتى انتظم له ما حاول ، واتَّسق له ما أمَّل . ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلا ، ولطرافته مَعلما ، لما استجزْنا الإقرار به والتوكيد له . ولست أعنى خطبه المحفوظة ، ورسائله المخلدة ، لأن ذلك يحتمل الصنعة ، وإنما عنيت مخاجّة الخصوم ، ومناقلة الأكفاء ، ومفاوضة الإخوان » .

---

(١) البيان ١ : ١٤ — ١٥ .
(٢) هذا جواب «لما» التى فى أول النص .

نماذج لمجانبته الراء مما رواه الجاحظ :

ويذكر نموذجاً من مجانبته الراء إذ يقول[(١)] : وكان واصل بن عطاء قبيح اللثغة شنيعها ، وكان طويل العنق جداً ، ولذلك قال بشار الأعمى :

مالى أشـايع غزّالا له عنق كنِقنقِ الدوِّ إن ولَّى وإن مَثَلا
عنقَ الزرافة ما بالى وبالـكم أتكفرون رجالاً أكفروا رجلا

فلما هجا واصلا وصوّب رأى إبليس فى تقديم النار على الطين ، وقال :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

وجعل واصلاً غزّالا ، وزعم أن جميع المسلمين كفروا بعـد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : وعلى أيضاً ؟ فأنشد :

وما دون الثلاثةِ أمَّ عمرو بصاحبك الذى لا تَصبَحينا

قال واصل عند ذلك : « أما لهذا الأعمى الملحد المشنّف المكنّى بأبى معاذ من يقتله ، أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية ، لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه ، ويقتله فى جوف منزله ، وفى يوم حفله ، ثم كان لا يتولَّى ذلك منه إلاَّ عقيلى أو سدوسى » .

قال إسماعيل بن محمد الأنصارى ، وعبد الـكريم بن روح الغفارى : قال أبو حفص عمر بن أبى عثمان الشمرى : ألا تريان كيف تجنّب الراء فى كلامه هـذا ، وأنتما للذى تريان من سلامته وقلة ظهور التـكلف فيه ، لا تظنان به التكلف مع امتناعه من حرف كثير الدوران فى الـكلام . ألا تريان أنه حين لم يستطع أن يقول بشار وابن برد والمرعث ، جعل المشنف بدلاً من المرعث ، والملحد بدلا من الـكافر ، وقال لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية ، ولم يذكر المنصورية ولا المغيرية لمـكان الراء ، وقال : لبعثت إليه من يبعج بطنه ولم يقل لأرسلت إليه ، وقال : على مضجعه ، ولم يقل على فراشه[(٢)] .

---

(١) البيان ١ : ١٦ ــ ١٧ . (٢) نحو هذا فى كامل المبرد والوفيات نقلا عنه .

نماذج مما ذكره غير الجاحظ :

ويسجل له ابن شاكر فى عيون التواريخ(١) احتيالاً آخر للراء ، فقد ذكر أنه امتُحِن حتى يقرأ سورة براءة ، فقرأ من غير فكر ولا روية : « عهد من الله ونبيه إلى الذين عاهدتم من الفاسقين . فسيحوا فى البسيطة هلالين وهلالين » .

ويذكر ابن العماد الحنبلى(٢) أنه دفعت إليه رقعة مضمونها : « أمر أمير الأمراء الكرام أن تحفر بئر على قارعة الطريق فيشرب منها الصادر والوارد » ، فقرأ على الفور : « حكم حاكم الحكام الفخام ، أن ينبش جُبٌّ على جادّة الممشى فيستقى منه الصادى والغادى » .

وهذه الرواية توحى بأن واصلاً كان يشعر بتلك العاهة شعوراً مستبدا تجعله يتجنبُ الوقوع فى أشراكها ، وتوحى أيضاً بأن القوم كانوا يداعبونه على ضوئها ، ويتحينون الفرص للتندُّر به وبها(٣) .

---

(١) مخطوطة دار الكتب المصرية ، حوادث سنة ١٣١ .
(٢) شذرات الذهب حوادث سنة ١٣١ .
(٣) من طرائف الأدب العربى صور يجرى فيها الشعراء على نهج من يعجبون به من أصحاب اللثغ . روى ابن شاكر وابن خلكان قول أبى نواس :

وشادن سألته عن اسمه ... فقال لى بالثغ عباث
بات يماطلنى سخامية ... وقال لى قد هجم الناث
أما ترى حسن أكاليلنا ... زينها النترين والآث
فحدت من لثغته ألثنا ... فقلت أين الكاث والطاث

وروى ابن شاكر فى عيون التواريخ لمين بصل — وهو شاعر عامى أمي ، ترجم له فى فوات الوفيات ، واسمه إبراهيم بن على — :

يقول وقد داومت تقبيل ثغره . بلثغته حتى أخذت مناقثى
ثكرت بحثو الخندريس وكاثنا ... تحث وثكرى قد أزاد وثاوثى .

وروى ابن خلكان للخبزأرزى :

فى فمه درياق لدغ إذا ... أحرق قلبى شدة اللدغ
إن قلت فى ضمى له أين هو ... تفديك روحى قال لا أدغى

حادث خطبة واصل :

كان ذلك حفلا جامعاً حُشِد له أقدر الخطباء وأبرعهم براعة ، وكان ذلك بالعراق ، إذ اجتمع عِلْيةُ القوم والناسُ ليشهدوا حفلا عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز[1] والى العراق ، تبارى فيه هؤلاء الخطباء ، وهم خالد بن صفوان ، وشبيب بن شيبة ، والفضل بن عيسى ، وواصل بن عطاء ، وتناوبوا القول على المنبر على هذا النظام ، فانتزع خالد وشبيب والفضل قبله إعجاب القوم انتزاعا ، فهم كانوا سادة الخطباء في ذلك الزمان ، وهم كانوا قد أعدُّوا خطبهم من قبل وحبَّروها ونمقوها وما إن فرغ الثلاثة حتى نهض واصل يَهدِر ، و بداهته تغلى ، بخطبة ارتجلها ارتجالا ، واقتضبها اقتضاباً ، وأطال فيها إطالة[2] ، وحرص كل الحرص على أن ينزع الراء منها ، ففاق إعجابُ الناس والوالى بواصل بن عطاء إعجابَهم بالثلاثة قبله ، وأظهر الوالى الصِّلاتِ ، فأجزل صلاتِ الثلاثة قَبله ، ثم ضاعف لواصلٍ الصلة تقديراً لعبقريته الخطابية النادرة .

وقد سجّل شاعران معاصران لواصل هذا الحادث تسجيلا صادقاً ، أحدهما بشار ، يقول فى كلمة له :

---

(١) عبد الله هذا هو صاحب نهر ابن عمر ، حفره بالبصرة . انظر معظم البلدان . وكان واليا ليزيد بن الوليد عبد الملك على العراق ، ولاه إياها بعد عزل منصور بن جهور ، وذلك سنة ١٢٦ . وقد ظل فى ولايته على العراق فى فترة مملوءة بالفتن والأحداث حتى قبض عليه يزيد بن عمر بن هبيرة ، من قبل مروان بن محمد آخر الأمويين ، وذلك فى سنة ١٢٩ . وكانت وفاته فى سنة ١٣٢ كما فى النجوم الزاهرة . وأما يزيد بن الوليد هذا فهو الذى كان يقال له « يزيد الناقص » لنقصه أعطية الجند ، وهو الذى ثار على ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخليفة الماجن ، ودعا الى خلعه ، فاستجابت له اليمن وبايعوه ، وقتلوا الوليد ، وذلك فى جمادى الآخرة من سنة ١٢٦ . وتوفى يزيد فى السنة نفسها فى ذى الحجة . تاريخ الطبرى حوادث ١٢٦ — ١٢٩ . ويذكر الطبرى فى تاريخه ٩ : ٤٦ والمسعودى فى مروج الذهب ٣ : ٢٣٤ أن يزيد بن الوليد كان يذهب الى قول المعتزلة .

(٢) قال الجاحظ : لأنه كان مع ارتجاله الخطبة التى نزع منها الراء كانت مع ذلك أطول من خطبهم .

أبا حذيفة قد أوتيت معجبةً في خطبة بدهتْ من غير تقدير
وإن قولاً يروق الخالدَيْنِ معا لمسكت مخرِسٌ عن كل تحبير(١)

وقال بشار أيضاً :

تكلّفوا القول والأقوام قد حفلوا وحبَّروا خطباً ناهيك من خطب
فقام مرتجـــــلا تغلى بُداهته كمِرجل القين لما حُفَّ باللهب
وجانبَ الراء لم يشعرْ بها أحد قبل التصفح والإغراق فى الطلب

وقال أيضاً :

فهذا بديهٌ لا كتحبير قائل إذا ما أراد القول زوّره شهراً

والشاعر الآخر المعاصر هو صفوان الأنصارى ، يقول فى كلمة له :

فسائلْ بعبد الله فى يوم حفلِهِ وذاك مقام لا يشاهده وغــدُ
أقام شبيباً وابن صفوانــ قبله بقول خطيبٍ لا يجانبُه القصد
وقام ابنُ عيسى ثم قفّاه واصل فأبدع قولاً ما له فى الورى نِدُّ
فما نقصته الراء إذ كان قادراً على تركها واللفظ مطرد سَرْدْ
ففضّل عبد الله خطبةَ واصــلٍ وضوعف فى قَسم الصلات له الشُّكْد
فأقنع كلَّ القوم شكر حبائهم وقلل ذاك الضعف فى عينه الزهدُ

تاريخ الخطبة :

ويمكننا أن نعين تاريخ هذا الحفل الذى خطب فيه واصل أنه كان ما بين جمادى الآخرة من سنة ١٢٦ إلى سنة ١٢٩ كما يتضح من التحقيق الذى أشرت إليه فى الحواشى قريباً ، إذ أنه المدة المقدورة التى قضاها عبد الله بن عمر بن

---

(١) يعنى بالخالدين خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة ، كما فى حواشى أبي ذر الخشنى على البيان والتبيين ، وهذا على ما يسمونه التغليب .

عبد العزيز فى ولاية العراق . والأرجح أنه كان فى الشهور الأولى من هذه الفترة حيث كان المألوف والمتبع أن يجتمع الناس للاحتفاء بالوالى وتكريمه .

خطبة واصل فى التاريخ :

اكتسبت خطبة واصل هذه شهرة تاريخية ، وليس من أديب شادٍ إلا وهو يعرف هذه الشهرة ، ولسنا نجد فى الكتب المطبوعة نصاً كاملا محققا لخطبة واصل ، إلاّ ماورد محرفا منقوصاً فى كتاب مفتاح الأفكار ، للشيخ أحمد مفتاح ، وأدبيات اللغة العربية[1] . والمؤرخون الذين ترجموا لواصل يذكرون فى ثبت كتبه القليلة « كتاب خطبة واصل » . وأقدم من ذكرها ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ فى الفهرست[2] ، ذكرها فى ثبت مرويات أبى الحسن على بن محمد المدائنى . وبدهى أن المؤرخين لم يَعْنُوا بكلمة « كتاب » تلك الصورة التى نعرفها من الضخامة ، وإنما يعنون معناها اللغوى البحت ، وهو المكتوب مهما يكن مقداره .

ولقد قام الأستاذ الكبير «أحمد زكى صفوت» الأستاذ بكلية دار العلوم ، بعمل تأليفى ضخم ، ضمّ به أشتات خطب العرب فى كتابه جمهرة خطب العرب ، ووقع تحت يده الكثير من أمهات كتب الأدب المخطوط منها والمطبوع ، فظفر بنصوص نادرة لخطب المشارقة والمغاربة ، ووقع تحت عينه كثير مما غاب عن أبصار غيره ، ولكنه لم يظفر — حفظه الله — بنص هذه الخطبة إلا فى كتاب مفتاح الأفكار[3] . وعندما قمت بتحقيق كتاب البيان والتبيين حاولت أن أعثر على هذا النص مخطوطاً ، فلم أجد إلا خبراً فى « مخطوطات الموصل » للدكتور داود جلبى ، إذ ورد فى ص ٢٠٨ أن نسخة من هذه الخطبة محفوظة فى مكتبة مدرسة النبى شيث

---

(١) مفتاح الأفكار ٢٧٠ــ٢٧١ طبع ١٣١٤هـ وأدبيات اللغة العربية ٢١٢ــ٢١٤ طبع ١٩٠٦م .
(٢) الفهرست ١٥٢ .
(٣) جمهرة خطب العرب ١ : ٤٨٢ــ٤٨٤ .

بالموصل ، فطلبت إلى أحد العراقيين من طلبتى بكلية الآداب بجامعة فاروق حينما كنت أقوم بالتدريس فيها ، أن يستنسخ لى صورة منها فلم يوفق . وعند ما أوشكت أن أتم طبع نسختى من البيان والتبيين وقفت على شريط منه من مخطوطات تركيا التى اجتلبها معهد المخطوطات بالجامعة العربية ، وهى نسخة مكتبة (فيض الله) ، فحصلت على صورة منه ، ووجدت فى نهاية النسخة ورقة ملحقة ، بها نص كامل لخطبة واصل ، بخط كاتب النسخة ، وهو محمد بن يوسف اللخمى ، كتب النسخة سنة ٥٨٧ وقرأها على الإمام أبى ذر الخشنى ، فكان سرورى بهذا النص النادر أشد من سرورى بتلك النسخة العتيقة من كتاب البيان والتبيين . ولكنى مع ذلك لم أقنع بهذا الظفر ، فجعلت أقلب فى كتاب مسالك الأبصار ، وهو من أكبر الموسوعات الأدبية التاريخية الجديرة بالنشر ، فوجدت نسخة من الخطبة بها قليل من التحريف ، فاعتمدت على هاتين النسختين فى نشر هذه التحفة ، التى يضاعف من سرورى أن أكون أول ناشر لها نشرا علميا مقرونا بدراسة أدبية تاريخية .

قيمة خطبة واصل :

تستمد خطبة واصل قيمتها من الظروف التى أحاطت بها ، وقد سردتها فى تضاعيف ما مضى من الكلام . ولسنا بحاجة إلى أن نعيد القول فى أن خطبة طويلة تقال ارتجالا واقتضابا فى مقام رهيب ، ويقتدر صاحبها على الاستغناء عن حرف هو من أكثر الحروف دورانا فى الكلام[1] على حين أنها خطبة تتسم بطابع دينى ، وتقتبس فيها معانى القرآن وأساليبه ونصوصه ، فلا يفر صاحبها من أن يزوّد خطبته بذلك الزاد ، ولكنه يفرّ فى حذق من ألفاظ معينة إلى مرادف لها — كل أولئك إنما ينبئ عن قدرة فنية لا تتأتى إلا للأفذاذ من الخطباء ، فهو

---

(١) حفظ لنا التاريخ بعض الخطب التى نزعت منها حروف معينة ، كخطبة أحمد بن على بن الزيات المالقى المتوفى سنة ٧٢٨ فقد نزع منها (الألف) أولها : « حمدت ربى جل من كريم محمود ، وشكرته عز من عظيم معبود » ، ولكنها لم تكن مرتجلة كخطبة واصل . انظر الاحاطة ١ : ١٥٤ وجمهرة خطب العرب للأستاذ صفوت ٣ : ٢٢٦ .

حين يريد أن يقول «أعوذ بالله القوى من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم» يقول: أعوذ بالله القوى، من الشيطان الغوىّ، بسم الله الفتاح المنان». وإذا أراد أن يتلوَ سورة كاملة من الكتاب قرأ سورة الإخلاص لخلوها جميعها من الراء. وحين يريد أن يقتبس من القرآن الكريم: «وسع كرسيه السموات والأرض ولايؤوده حفظهما» يقول: «لايحويه زمان ولايحيط به مكان ولا يؤوده حفظ ما خلق». وإذا أراد أن يقول: «لا يعزب عنه مثقال ذرة» قال: «مثقال حبة»، وإذا أحب أن يقتبس من قوله تعالى: «أصبحوا لا تَرَى إلا مسا كِنَهم[1]» قال: «أصبحوا لا تعاين إلا مساكنهم». وإذا طلب أن يقول: «فبلغ رسالة» قال: «فبلغ مألكته».... إلى كثير من أشباه هذا.

والخطبة كذلك تقدم لنا نموذجا من خطب القرن الثانى الهجرى، من الخطب التى تجنبت السياسة والدعوة السياسية، وتجنّبت فتن المذاهب والدعوة المذهبية، فهى نموذج لخطب الوعظ الخالص[2]. ابتدأها بحمد الله والثناء عليه[3]، ثم ثنّى بالشهادتين فى إسهاب طيّب، وعقّب على ذلك بالصلاة على الرسول الكريم مثنياً عليه، ثم حثّ على التقوى والطاعة، ومال بعد ذلك إلى التحذير من مفاتن الدنيا والتهوين من شأن من أطاعتهم الدنيا وأغدقت عليهم ثم صاروا من بعدُ هاماً وأحاديث. ثم دعا لنفسه والناس أن يكونوا ممن ينتفع بالموعظة الحسنة، ثم نوّه بفضل القرآن وتلا ما تيسّر له منه، بعد أن أجرى الاستعاذة والبسملة أيضاً على أسلوبه الذى يجانب الراء.

---

(١) هذه إحدى القراءات فى الآية، وهى الخامسة والعشرون من سورة الأحقاف. انظر كتب القراءات والتفسير فيها.

(٢) كان واصل كما يروون على جانب من الزهد والتقوى، روى له الجاحظ فى البيان ٣ : ١٩٦ قوله: «المؤمن إذا جاع صبر، وإذا شبع شكر». وروى صاحب الأغانى ٣ : ٤٠: «كان واصل بن عطاء يقول: إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها، لحبائل هذا الأعمى الملحد»، يعنى بشاراً وما كان يقول من غزل ومجون فاجر.

(٣) كان هذا أمراً محتما فى كل خطبهم فى ذلك العصر، وكانوا يعدون الخطبة الخالية من هذا أمراً شنيعاً، حتى لقد سمّوا خطبة زياد التى لم يلتزم فيها ذلك خطبة بتراء.

وشىء آخر يلمع لنا من ثنايا الخطبة ، فهذه الخطبة التى هى أشبه ما تكون بخطبة تقال فى يوم الجمعة قد قيلت فى مناسبة رسمية كما يقولون ، وكان من المتوقع فيها أن يثنى القوم على الأمير ويذكروا فضله وآلاءه ، وينوّهوا بيُمن عهده وازدهار أيامه ، ولكن يبدو أن الطابع الدينى كان غلاّباً فى ذلك الزمان ، والرهبة الدينية كانت لا تزال فى قوّتها وسلطانها ، فإن القوم كانوا يتنهزون مختلف الفرص ليقوموا بواجب التذكير والوعظ ، والإرشاد والهداية .

والناظر فى خطب هذه الفترة يجد شبهاً كبيراً بين هذه الخطبة وخطبة عمر ابن عبد العزيز(١) ، وكذا بينها و بين خطبة سليمان بن عبد الملك(٢) ، اجتمع فيها كلها التحذير من مفاتن الدنيا ، وتصوير نهاية الأحياء فى ذل وهوان ، كما اشتملت على التنويه بفضل القرآن والحث على اتباع آيه وهديه ، كما اتفقت فى الأسلوب المبنى على المزاوجة ، وظهور السجع اليسير فى غير ما تعمل .

ابن زيدون وواصل بن عطاء :

هما موقفان تاريخيان ، أما موقف واصل فقد ألقِىَ الضوء عليه ، وأما موقف ابن زيدون فهو ذلك الموقف البيانى الحرج الذى وقفه عند منصرَف الناس عظمائهم وكبرائهم من جنازة ابنته التى واراها التراب ، إذ نهض ونهض معه بيانُه يشكر لهذا بقولٍ غيرِ ما يقوله لذاك ، فيقولون : إنه ما أعاد فى ذلك الوقت عبارةً لأحد . وهو عجيب حقا فى ذلك الظرف الذى يغيض معه البيان ، ويهرُب اللسان .

قال الصفدى : « وهـذا من التوسع فى العبارة ، والقدرة على التفنن فى أساليب الكلام(٣) » ، وهو أمر صعب إلى الغاية ، وأرى أنّه أشقّ مما يحكى عن واصل بن عطاء ، أنه ما سُمِعت منه كلمة فيها راء ، لأنه كان يلثغ بحرف الراء لثغة

(١) عيون الأخبار ٢ : ٢٤٦ .
(٢) عيون الأخبار ٢ : ٢٧٤ .
(٣) نفح الطيب ٢ : ٢٨٣ طبع ليدن . وقد نص المقرى أنه نقل كلام الصفدى ملخصاً .

قبيحة. والسبب فى تهوين هذا الأمر وتهويله أن واصل بن عطاء كان يَعدِل إلى ما يرادف تلك الكلمة مما ليس فيه راء، وهذا كثير فى كلام العرب، فإذا أراد العدول عن لفظ فرسٍ مثلا قال: جواد أو سابح أو صافن؛ أو العدول عن رمح قال: قناة أو صعدة أو يَزَنِيّ أو غير ذلك، أو العدول عن لفظ صارم قال: حسام أو لهذم أو غير ذلك. وأما ابن زيدون فأقول فى حقه: أقل ما كان فى تلك الجنازة وهو وزير ألفُ رائسٍ ممن يتعيّن عليه أن يتشكّر له ويُضطرّ إلى ذلك، فيحتاج فى هذا المقام إلى ألف عبارةٍ مضمونها التشكّر. وهذا كثير إلى الغاية من محزونٍ فَقَدَ قطعةً من كبده».

والناقد يقف فى الموازنة بين الموقفين فى شىء من الحيرة، ثم يجزم بأن المقايسة بينهما مقايسة مع الفارق كما يقولون، فإن موقف واصل واضح، ظروفه معينة ونصوصه حاضرة، ولا كذلك موقف ابن زيدون فقد يكون تطرقت إليه المبالغة فى الرواية. ولم يذكر الرواة لنا شيئاً من تلك الأقوال التى غايَرَ بينها، ولم يذكروا لنا عددها، وقد تكون قليلة العدد ولكنها المهارةُ التى أديرت بها تخيل للسامع أنها مئات العبارات، فإن السامع لا يكاد يعى وعيا تاما ما سمعه منذ لحظات إلا إن وقف موقف التسجيل والانتباه المتفرغ. على أن احتمال الإعداد والتهيئة فيها قريب، وليس كذلك خطبة واصل التى اتفق الرواةُ وسجّل الشعر أنها كانت وليدة ارتجالٍ وبداهة.

ومهما يكن فإن غايتنا من هذا التقديم المسهب أن نُظفِر الأدباء الذين لبثوا دهرا فى لهفةٍ دائبة إلى قراءة خطبة واصل محققة، بنصها الكامل فيما يلى:

هذه خطبة واصل بن عطاء

التي جانب فيها الراء

الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقي بلا نهاية ، الذى علا فى دنوّه ، ودنا فى علُوّه ، فلا يحويه زمان ، ولا يحيط به مكان ، ولا يؤوده حفظ ما خَلَق ، ولم يخلقه على مثالٍ سبق ، بل أنشأه ابتداعا ، وعدّله اصطناعا ، فأحسن كلَّ شيء خلْقه وتمم مشيئته ، وأوضح حكمته ، فدلَّ على ألوهيَّته ، فسبحانه لا معقّب لحكمه ، ولا دافع لقضائه تواضع كلُّ شيء لعظمته ، وذلَّ كلُّ شيء لسلطانه ، ووسِعَ كلَّ شيء فضلُه ؛ لا يعزُب عنه مثقال حبّةٍ وهو السميع العليم . وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا مثيل له[1] ، إلٰها تقدست أسماؤه ، وعظمت آلاؤه ، علا عن صفات كلِّ مخلوق ، وتنزّه عن شبه كل مصنوع ، فلا تبلغه الأوهام ، ولا تحيط به العقول ولا الأفهام ، يُعصَى فيحلُم ، ويُدعَى فيَسمع ، ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون . وأشهد شهادةَ حقٍّ ، وقولَ صدق ، بإخلاص نية ، وصِدق طويّة[2] ، أنَّ محمد بن عبد الله عبده ونبيه ، وخالصتُهُ وصفيّه ، ابتعثه إلى خلقه بالبيِّنات[3] والهدى ودين الحقّ ، فبلَّغ مألُكَتَه[4] ، ونصح لأمّته ، وجاهد فى سبيله ، لا تأخذه فى الله لومةُ لائم ، ولا يصدُّه عنه زعم زاعم ، ماضياً على سنّته ، موفياً على قَصْده ، حتى أتاه اليقين . فصلَّى الله على محمد وعلى آل محمد أفضل وأزكى ، وأتم وأنمَى ، وأجل وأعلى صلاةٍ صلاّها على صفوة أنبيائه ، وخالصة ملائكته ، وأضعافَ ذلك ، إنه حميد مجيد .

أوصيكم عبادَ الله مع نفسى بتقوى الله والعمل بطاعته ، والمجانبة لمعصيته ،

---

(١) لامثيل له ، ساقطة من مفتاح الأفكار والأدبيات والجمهرة . وفى مسالك الأبصار : « لاشريك له » ، تحريف . (٢) فى مسالك الأبصار وجميع المطبوعات : « وصحة طوية » . (٣) فى المفتاح والأدبيات وجمهرة خطب العرب : « بالبينة » . (٤) المألكة : الرسالة .

فأحضّكم[1] على ما يدنيكم منه ، ويُزْلفكم لديه ، فإن تقوى الله أفضل زاد ، وأحسن عاقبةٍ فى معاد . ولا تلهينَّكم الحياة الدنيا بزينتها وخُدَعها ، وفواتن لذّاتها ، وشهوات آمالها ، فإنها متاعٌ قليل ، ومدة إلى حين ، وكلُّ شيء منها يزول . فكم عاينتم من أعاجيبها ، وكم نصبَتْ لكم من حبائلها ، وأهلكت ممن جَنَح إليها واعتمد عليها ، أذاقتهم حُلوا ، ومزجت لهم سمّا . أين الملوك الذين بنَوا المدائن ، وشيدوا المصانع ، وأوثقَوا الأبواب ، وكاثفوا الحجاب ، وأعدّوا الجياد ، وملكوا البلاد ، واستخدموا التلاد ، قبضتهم بمِخْلبها[2] ، وطحنتهم بكلكلها ، وعضّتهم بأنيابها ، وعاضَتهم من السعةِ ضيقا ، ومن العز ذُلاّ[3] ، ومن الحياة فناءً ، فسكنوا اللُّحود ، وأكلهم الدود ، وأصبحوا لاتُعايَن[4] إلا مساكنهم ، ولا تجد إلا معالمهم ، ولا تُحِسُّ منهم من أحدٍ ولا تسمع لهم نَبْسا . فتزوَّدوا عافاكم الله فإن أفضلَ الزاد التقوى ، واتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تُفلحون . جعَلنا الله وإياكم ممن ينتفع بمواعظه ، ويعمل لحظِّه وسعادته ، وممَّن يستمع[5] القولَ فيتَّبع أحسنَه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب . إن أحسن قَصَص المؤمنين ، وأبلغ مواعظ المتقين كتابُ الله ، الزكية آياته ، الواضحة بيناته ، فإذا تلى عليكم فاستمعوا له[6] وأنصتُوا لعلكم تهتدون[7] .

أعوذ بالله القوى ، من الشيطان الغوِىّ ، إن الله هو السميع العليم . بسم الله الفتاح المنان[8] . قل هو الله أحد[9] ، الله الصمد ، لم يلدْ ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

---

(١) فى المسالك والمطبوعات : «وأحضكم» . (٢) فى جميع المطبوعات : «بمحملها» تحريف .
(٣) فى المسالك : «ومن العزة» .
(٤) فى المسالك والمطبوعات : «لا ترى» تحريف .
(٥) فى المسالك : «يسمع» .
(٦) فى المسالك : «فاسمعوا له» ، وفى المطبوعات : «فأنصتوا له واسمعوا» .
(٧) فى المطبوعات : «لعلكم تفلحون» .
(٨) بسم الله الفتاح المنان ، ساقطة من المسالك ومن جميع المطبوعات .
(٩) ما بعده إلى تمام السورة ساقط من المسالك .

نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم ، وبالآيات والوحى المبين ، وأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم . وأدخلَنا وإياكم جنات النعيم [١] . أقول ما به أعِظُكم ، وأستَعْتِبُ الله لى ولكم .

(١) إلى هنا ينتهى النص فى جميع المطبوعات .

كتاب أبيات الاستشهاد

لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي

٠٠٠ — ٣٩٥

مقـــدمة

أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن حبيب الرازى ، إمام لغوى جليل ، وأديب ذو زعامة أدبية ، وشاعر رقيق الشعر ، ومؤلف صاحب ابتكار وتجديد فى التأليف.

فهو بين اللغويين فى رتبة أصحاب الصحاح من المحدثين ، لا يورد فى كتبه إلا ما صح من لغات العرب ، وهو صاحب «المجمل» ذى الشهرة الذائعة ، وهو صاحب «مقاييس اللغة» الذى يقوم ناشر نوادر المخطوطات بتحقيقه ، وهو المعجم اللغوى الذى لم يؤلف قبله ولا بعده فى موضوعه ، وهو القياس اللغوى . ونظير هذا المعجم الفذ فى ندرته معجم «أساس البلاغة» للزمخشرى ، الذى لم يؤلف قبله ولا بعده فى موضوعه ، وهو مجاز اللغة . وهذان المعجمان مفخرتان من مفاخر التأليف الشرقى الإسلامى .

وهو بين أدباء عصره ، إذ يتنازعه بلاط آل بويه ، وحضرة الصاحب بن عباد ، ويجتذبه آل العميد ، معترف له بالزعامة الأدبية ، يقول فيه الصاحب بن عباد : «شيخنا أبو الحسين ممن رزق حسن التصنيف ، وأمن فيه من التصحيف» . ويروى له الثعالبى فى يتيمة الدهر رسالة قيمة فى النقد (١) كما يروى ياقوت مساجلة أدبية بينه وبين عبد الصمد بن بابك(٢) .

وقد أوردت فى مقدمة مقاييس اللغة طائفة من مختار شعره تنبئ عن رقة وشاعرية ممتازة ، كما أوردت له نحو أربعين مصنفاً تدل عنوانات كثير منها على ابتكاره وتجديده فى التصنيف والتأليف . ولكنى لم أذكر بينها «أبيات الاستشهاد» إذ لم أكن قد عثرت عليها بعد ، ولم يذكرها أحد من مؤلفى التراجم ولا واضعى فهارس المصنفات قديمها وحديثها . وقد يكون هو كتاب «ذخائر الكلمات» الذى ورد فى مقدمة مقاييس اللغة ص ٢٩ .

ومهما يكن فإن موضوع هذا الكتاب واضح ، وهو ذكر الأبيات التى تصلح للتمثل بها فى مضارب مختلفة ، أو هو الأمثال الشعرية مع ذكر مضاربها . وقد ساق ذلك فى أسلوب أدبى . ويبدو أنه كان لابن فارس عناية خاصة بالأمثال ، إذ وضع كتاباً آخر سماه «أمثلة الأسجاع» .

وأصل أبيات الاستشهاد نسخة فذة فى العالم ، مودعة فى الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية برقم ٤٤٥ أدب ، وهى رديئة الخط تقع فى نحو اثنتى عشرة صفحة ، عانيت كثيراً فى قراءتها وفى نسبة أبياتها التى قضى الذوق الأدبى لابن فارس أن يجردها من نسبتها ، فوفقت فى أكثر ذلك وغاب عنى نسبة القليل .

---

(١) يتيمة الدهر ٣ : ٢١٤ – ٢١٨ . (٢) انظر نهاية ترجمته فى معجم الأدباء .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام أبو الحسين أحمد بن فارس النحوى اللغوى :

بلغنا أنّ رجلا من حَمَلة الحجّة ، ذا رأى سديد ، وهمة بعيدة ، وضِرس قاطع[١] ، قد أعدّ للأمور أقرانها[٢] ، بلسانٍ فصيح ، ونَهْج مليح ؛ وكان إذا رأى ذا مَودّةٍ قد حال عما عهده ، أنشده :

ليس الخليلُ على ما كنتَ تعهدُه قد بَدّل الله ذاكَ الخِلّ ألوانا

وإذا رأى محدِّثَه [عابساً] أنشد :

يا عابساً كلّما طالعتُ مجلسَه كأنّ عَبستَه من ذَرق حَمّاء[٣]

وإذا رأى واحداً يُحسِن[٤] عند الإحسان عليه ، ويُسِيء القولَ إذا شُغل عن الإحسان إليه أنشد :

هو كالكلب إذا ما أشبعتَه طاب نفساً وإذا ما جاع هَرّ

وإذا رأى رجلاً راضيا بقليلٍ يصونُ وجهَه عن السؤال أنشد :

وإنّ قليلاً يستر الوجه أن يُرَى إلى الناس مبذولاً لَغيْرُ قليلِ

وإذا حُجِب عن باب دار قد أحسن إليه صاحبُها أنشد :

إنى رأيت بباب دارك جفوةً فيها لِحُسنِ فَعالكم تكدير[٥]

---

(١) ذو ضرس قاطع ، أى ماض فى الأمور نافذ العزيمة .

(٢) الأقران : جمع قرن ، بالتحريك ، وهو الحبل يجمع به البعيران ، أو جمع قرن بالكسر ، وأصله كفء الإنسان فى الشجاعة ، أو الكفء مطلقا .

(٣) الذرق : النجو . والحماء : الاست . وفى الأصل : «ذوق حما» .

(٤) فى الأصل : « يحسن به » .

(٥) لجحظة البرمكى كما فى ديوان المعانى ١ : ١٦٣ برواية : « لكن رأيت »

وإذا رأى بشاشةً فى وجه مُضِيف أنشد :

يُسَرُّ بالضَّيف إذا رآه سُرور صادٍ وَرَدَ الماء

وإذا رأى رجلاً مقِلاً سخيًا أنشد :

وليس الفتى المعطى على اليُسرِ وحدَه
ولكنّه المعطِى على اليسر والعسرِ

وأبلغ منه قوله :

ليس العطاء من الكريم سماحةً حتى يجودَ وما لديه قليلُ(١)

وإذا شم رائحةً كريهة من جليسه أنشد :

لَقوسُ سليمٍ حين يُرسِل سهمَه أشدُّ على الآناف من قَوس حاجبِ(٢)

وإذا رأى أناساً لا خير فيهم أنشد :

لا تَلُمِ الأبناء فى فِعلهمْ لو سادَ آباؤُهُم سادوا

وإذا عارضهُ فى كلامه أحدٌ أنشد :

ويعترض الكَلامَ وليس يدرى أسَعدُ اللهِ أكثرُ أم جُذامُ(٣)

---

(١) للمقنع الكندى . حماسة أبي تمام ٢ : ٣٤٣ والمضنون به على غير أهله ٥٦ . وإنشاده فيهما :

ليس العطاء من الفضول سماحة حتى تجود وما لديك قليل

(٢) قوس حاجب مضرب المثل فى العزة ، وهو حاجب بن زرارة التميمى ، ومن خبر قوسه أنه أتى كسرى فى جدب أصاب قومه بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يأذن له ولقومه فى دخول الريف من بلاده حتى يحيوا ويمتاروا ، فقال لهم كسرى : إنكم معشر العرب قوم غدر ، فإذا أذنت لكم أفسدتم بلادى وأغرتم على رعيتى . فقال حاجب : أنا ضامن للملك ألا يفعلوا . قال : فمن لى بأن تفى ؟ قال : أرهنك قوسى . فضحك من حوله ، فقال كسرى إنه لا يتركها أبدا ، وقبلها منه وأذن له فى دخول الريف . انظر ثمار القلوب للثعالبي ٥٠١ .

(٣) سعد الله ، هم بنو سعد بن بكر الذين استرضع فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظئره حليمة السعدية منهم ؛ وهم مخصوصون من بين قبائل العرب بالفصاحة وحسن البيان ، وفيهم يقول رسول الله : « أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ، ونشأت فى بنى سعد بن بكر ، فأنى يأتينى اللحن » . وجذام قبيلة أخرى : من أمثال العرب : أسعد الله أكثر أم جذام . =

وإذا جالس قوماً ليلةً مجالسةَ أهلِ الأدب ثم جاء الفجر أنشد :

بِتْنَا بأنعم ليـــلة وألذِّها لو لم تُنغَّصْ بالفراق من الغدِ

وإذا وعده رفيقٌ له بالسفر فى غد أنشد :

لا مرحباً بغدٍ ولا أهلا به إن كان تَرحالُ الأحِبَّة فى غدِ(١)

وإذا تألم من عشيرهِ وصديقه أنشد :

ولى صاحب مرُّ المذاق كأنَّما أضمُّ إلى نحرى به حدَّ مُنصُلِ(٢)

وإذا عاتب ذا قرابةٍ له أنشد :

بم استجَزت اطِّراحى والصَّريمةَ لى وأنت لحمى وإن لم تُدْعَ لى ودَمِى(٣)

وإذا عاتب مَن أخلف وعده أنشد :

سألتكَ حاجةً فوعدتَ فيها جميلك ثم نِمت عن الجميلِ

وإذا لم يعجبه إنسان أنشد :

قد رأيناك فما أعجبتنـــا وبلوناك فلم نرضَ الخُبُرْ(٤)

= وبما حيان بينهما فضل لايخفى إلا على جاهل لا يعرف شيئا. وقال أبو عبيد : يروى عن جابر بن عبد العزيز العامرى ، وكان من علماء العرب ، أن هذا المثل قاله حمزة بن الضليل البلوى لروح بن زنباع الجذامى :

لقد أفحمت حتى لست تدرى أسعد الله أكثر أم جذام

الميدانى ٢ : ١٤٧ وثمار القلوب ٣١ . وأنشد فى ثمار القلوب للصاحب إسماعيل بن عباد :

كتبت وقد سبت عقلى المدام وساعدنى على الشرب الندام

وأسرفنا فما ندرى لبكر أسعد الله أكثر أم جذام

(١) البيت للنابغة الذبيانى ، من قصيدته التى مطلعها :

من آل مية رائح أو مغتدى عجلان ذا زاد وغير مزود

والرواية المشهورة : « إن كان تفريق الأحبة » .

(٢) المنصل ، بضم الميم مع ضم الصاد وفتحها : السيف .

(٣) الاستجازة : أن يعد لأمر جائزا مقبولا . وفى الأصل : « استخرت » تحريف . والصريمة : القطيعة .

(٤) الخبر ، بالضم : الاختبار والعلم بالشىء ، وضم الباء للشعر . والبيت فى محاضرات الراغب ١ : ١٣٥ ، ومع نحو قصة فيه ٢ : ٨٩ .

وإذا هجاه أحدٌ أنشد :

وما كُلُّ كلبٍ نابحٍ يستفزُّنى ولا كلَّما طَنَّ الذباب أُراعُ[(١)]

وإذا أحسَّ بتقصيرٍ فى سياسة أمير لرعيته ، نسب الأمرَ لوزيره ، [و]أنشد :

إذا غَفَل الأمير عن الرعايا فإنَّ العتب أولى بالوزيرِ

لأنَّ على الوزير إذا تولَّى أمورَ الناس تذكيرَ الأميرِ

وإذ ذُكِر له كبرُ سنِّه أنشد :

إنَّ الحسام وإنْ رَثَّتْ مضارِبُه إذا ضربتَ به مكروهةً فَصَلا[(٢)]

وإذا أثنى على محسن أنشد :

فعاجُوا فأثنَوا بالذى أنت أهلُه ولو سكتوا أثنَتْ عليك الحقائب[(٣)]

وإذا رأى من والٍ إساءةً عَلَى من وَلِىَ عليه أنشد :

وكنا نستطبُّ إذا مَرِضنا فصار سَقامُنا بيد الطبيبِ[(٤)]

---

(١) البيت فى مجالس ثعلب ٤٠٣ ومحاضرات الراغب ١ : ١٣٥ بدون نسبة أيضا .

(٢) رثت مضاربه : أخلقت وثلمت . مكروهة ، أى ضربة مكروهة شديدة . ويقال للسيف الذى يمضى على الضرائب الشداد لا ينبو عن شئ منها « ذو الكريهة » .

(٣) البيت لنصيب ، كما فى البيان ١ : ٨٣ ومجموعة المعانى ٩٦ والوساطة ١٥٠ والكامل ١٠٤ ليبسك . قال المبرد : « وقد فضل نصيب على الفرزدق : أنشدنى ــ وإنما أراد أن ينشده مدحاً له ــ فأنشده :

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها ترة من جذبها بالعصائب

سروا يخبطون الريح وهى تلفهم إلى شعب الأكوار ذات الحقائب

إذا آنسوا نارا يقولون ليتها وقد خصرت أيديهم نار غالب

فأعرض سليمان كالمغضب ، فقال نصيب : يا أمير المؤمنين ، ألا أنشدك فى رويها مالعله لا يتضع عنها . فقال : هات . فأنشده :

أقول لركب صادرين لقيتهم قفاذات أوشال ومولاك قارب

قفوا خبرونى عن سليمان إننى لمعروفه من أهل ودان طالب

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

وانظر زهر الآداب ٢ : ٤١ ، ٤٣ والعمدة ١ : ٤٤ .

(٤) يستطب : يستوصف الدواء الذى يصلح لدائه .

وإذا حضر أناسٌ على أمرٍ ذى بال أنشد :

أقول لفتيان كرام تروَّحوا على الجُرد فى أفواههن الشكائم (١)
قِفوا وَقعةً مَن يَحْىَ لم يَخْزَ بعدها ومن يُخْتَرَمْ لم تَتَّبعه الملاوم (٢)

وإذا سُرَّ بلُقيا صديقٍ له أنشد :

يا خَلاص الأسير يا فرحة الأو به يا زورةً على غير وعدِ

وإذا أعار أخاً له دفترا قابطاً عليه برده أنشد :

تعجيل ردِّ الكتب مما به يَستكثِرُ العلمَ أخو العلمِ
وحبسُها يمنع مِن بذلها مع الذى فيه من الظُّلمِ

وإذا عاد مريضاً ذا مودّةٍ صادقة أنشده :

نفسى ونفسك إن أبلتَ من سقم أبلتُ منه وإن أضناكَ أضنانى

وإن امرؤ جزِعَ على فائتٍ أنشده :

فلا تكثِرنْ فى إثرِ شىء ندامةً إذا نزعته من يديك النوازع (٣)

وإذا عُوتِب على إهانته للمال وكثرةِ بذلهِ أنشد :

كيف يَسْطِيع حِفظ ما جمعت كفَّاهُ مَن ذاق لذة الإنفاق

---

(١) البيتان من مقطوعة رواها ابن الشجرى فى الحماسة ٤٨ وأبو الفرج فى الأغانى ١٨ : ١٠٩ والقالى فى الأمالى ١ : ٢٥٨ والبكرى فى التنبيه ٨١ . رووا جميعا عن المفضل الضبى أنه قال : كنت مع إبراهيم بن عبد الله بن عبد الله بن الحسن بباخمرى فى اليوم الذى قتل فيه فلما رأى البياض يقل والسواد يكثر قال لى : يامفضل أنشدنى شيئا يهون على بعض ما أنا فيه . فأنشدته ... — وأنشدوا الأبيات — قال : فرأيته يتطالع على سرجه ثم حمل حملة كانت آخر العهد به . تروحوا : ساروا فى الرواح . الجرد : جمع أجرد وجرداء ، وهو الفرس القصير الشعر . والشكائم : جمع شكيمة ، وهى الحديدة المعترضة فى فم الفرس . فى الأصل : « فى أعناقهن » ، صوابه فى الحماسة والأغانى ومجموعة المعانى ٣٩ .

(٢) الوقعة والوقيعة : القتال وصدمة الحرب . ويقال اخترمته المنية من بين أصحابه : أخذته من بينهم .

(٣) البيت للبعيث ، كما فى لباب الآداب ٤٢٤ . وأبيات قصيدته فى أمالى القالى ١ : ١٩٦ وسمط اللآلى ٤٧٠ — ٤٧١ ومعجم البلدان (القفاقم) .

وإذا مشى لأخٍ فى قضاء حاجة ووَفَى بحقّه أنشد :

حقوقٌ لإخوانى أريد قضاءها ... كأنِّىَ ما لم أقضهن مريضُ

وإذا أثنى على إنسان ورأى منه شُروداً(١) ونُفرةً أنشد :

بطىءٌ عنك ما استغنيتَ عنه ... وطلّاعٌ عليك مع الخطوب(٢)

وإذا أراد شيئاً عاناه ليلاً أنشد :

واللَّيل يقظانُ والـكواكب فى الآ ... فاقِ حَيرى كاللؤلؤ البَدَدِ(٣)

وإذا استبطأ صديقاً له وعاتَبه على قعودِه عنه أنشد :

وإنِّى إذَا أدعوكَ عند مُلِمّةٍ ... كداعية بين القُبورِ نَصيرَها(٤)

وإذا ذمّ أخاً له فى إساءته إلى إخوانه أنشد :

أصبح أعداؤه على ثقـةٍ ... منه وإخوانُه على وجلِ

وإذا شكا من جارٍ له هَجْره أنشد :

دَنت بأناس عن تناءٍ زيارة ... وشطّ بيكرٍ عن دنوٍّ مزارُها

وإنّ مقيماتٍ بمنقطَع الثَّرَى ... لأقربُ من ليلَى وهاتيكَ دارُها(٥)

وإذا تذكّر أياما مضت وكان يشكوها وهو اليوم يتمنّاها أنشد :

سَقياً ورَعياً لأيّامٍ مضت سلَفاً ... بَكيتُ منها فصِرتُ اليومَ أبكيها(٦)

كذاك أيامُنا لا شكَّ نندبُهـا ... إذا تقضَّت ونحن اليوم نشكوها

---

(١) فى الأصل : « سرورا » تحريف .

(٢) البيت لإبراهيم بن العباس الصولى ، كما فى الأغانى ٩ : ٢٤ ومجموعة المعانى ٥٦ . وقبله :

ولـكن الجواد أبا هشام ... وفى العهد مأمون المغيب

(٣) البدد : المتفرق .

(٤) البيت لإبراهيم بن العباس الصولى ، كما فى مجموعة المعانى ١٥١ والمحاضرات ١ : ١٣٢ . وقبله :

دعوتك عن بلوى ألمت ضرورة ... فأوقدت من ضغن على سعيرها

(٥) لإبراهيم بن العباس الصولى . الوساطة ١٨٣ ومحاضرات الراغب ٢ : ٣١ .

(٦) البيتان لإبراهيم بن العباس الصولى فى مجموعة المعانى ١٠٢ .

وإذا عاتب أخاً له على هجره أنشد :

تَلَجِّين حَتَّى يذهبَ الهجرُ بالهوى وحَتَّى تكاد النَّفْسُ عنكِ تطيبُ(١)

وإذا عوتب فى خصلةٍ أو بادرةٍ بدرت منه أنشد :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّهُ على شَعَث أيُّ الرجالِ المهذَّبُ(٢)

وإذا قيل له قد أسنَّ فلان وكبر أنشد :

لم ينتقص منى المَشِيبُ قُلامةً الآنَ حين بدا ألَبُّ وأكيَسُ(٣)

وإذا فسدَ(٤) عند أخٍ له صحةُ ودِّه إياه أنشد :

قل ما تشاء لِيُؤتَى وما كرهتَ لِيُكْرَه

فإنَّ ذلك أولى بما تشاء وأشبه(٥)

وإذا ماتَ له ولدٌ أنشد :

كلَّ لسانى عن وَصفِ ما أجدُ وذقت ثكلاً ما ذاقه أحدُ

ما عالج الحزنَ والحرارةَ فى الأحشاء من لم يمت له ولدُ

وإذا حثَّ إنساناً على الإحسان وخوّفه صروفَ الدّهر أنشد :

بيننا حرمةٌ وعهد وثيقُ وعلى بعضنا لبعضٍ حقوقُ

فاغتنمْ لذَّة الحفاظِ فما يد رى مُطيق لها متى لا يطيقُ

---

(١) اللجاجة : التمادى فى الشىء وعدم الانصراف عنه ، أراد تلجين فى الهجر . وفعله من باب فرح وضرب . وفى الأصل : « تلجين » تحريف ، صوابه فى ديوان ابن الدمينة ١٢. وقصيدة البيت فيه طويلة جدا .

(٢) البيت للنابغة الذبيانى فى ديوانه ١٤ . الشعث : الفساد . واللم : الإصلاح . وكان حماد الراوية يقدم النابغة ، فقيل له : بم تقدمه ؟ فقال : باكتفائك بالبيت من شعره ، بل بنصفه ، بل بربعه ، نحو :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

كل نصف يغنيك عن صاحبه . وقوله «أى الرجال المهذب » ، ربع بيت يغنيك عن غيره .

(٣) أى أنا الآن أعظم لبا وأكثر كيسا وفطانة .

(٤) فى الأصل : « فزد » .

(٥) فى الأصل « بنا معا وأشبه » .

وإذا رأى خليلا له قد حَفَّت به أربابُ الحاجات وكان أمرهُ فى الأوّلِ أقرب ، أنشد :

حيّاك مَن لم تكن تُرجَى تحيَّتُه لولا الحوائجُ ما حيّاكَ إنسانُ

وإذا رأى أحداً غَضِب من أمرٍ ولم ينفَعْه غضبُه أنشد :

غضِبَتْ تميمٌ أن تُقَتَّلَ عامرٌ يومَ النِّسار فأُعتِبوا بالصَّيلمِ [(1)]

وإذا رأى السلطانَ عَزَم على الغَزْو ونهض إلى العدوّ أنشد :

يومانِ يومُ مقاماتٍ وأنديةٍ ويومُ سيرٍ إلى الأعْدا وتأويبِ [(2)]

وإذا رأى أمراً مُعضِلاً وصبَر عليه وعُوتب فى ذلك أنشد :

ومِن خيرِ ما فينا من الأمر أننا متى نلقَ يوماً موطنَ الصَّبرِ نصبرِ

وإذا قال له أخ إنّه اشتاقَ له اشتياقاً شديدا أنشد :

فلما توافَقْنا عرفت الذى به كمثل الذى بى حذوكَ النّعلَ بالنَّعلِ [(3)]

---

(١) لبشر بن أبى خازم الأسدى فى المفضليات ٢ : ١٤٦ واللسان (عتب ، صلم) . والنسار : أجبل متجاورة كان عندها ذلك اليوم . وكانت ضبة حالفت بنى أسد على بنى تميم ، وكان معهم فى الحلف طيء وعدى ، وقد تحالفوا على أن يقاتلوا العرب ثلاث سنين ، وأرسلت تميم الى بنى عامر بالنار فخالفوهم ، فقالت بنو أسد لضبة : بادروا بنى عامر بالنسار قبل أن تصير اليهم بنو تميم ، ففعلوا فقتلوا منهم مقتلة عظيمة . انظر النقائض ٢٣٨ ــ ٢٤٥ ، ١٠٦٤ــ١٠٦٧ والعقد وكامل ابن الأثير والعمدة . أعتبوا : عبارة تهكم ، والإعتاب : الإرضاء ، ويروى : « فأعقبوا » أى كانت عاقبتهم الصيلم ، وهى الداهية .

(٢) البيت لسلامة بن جندل السعدى فى ديوانه ص ٨ والمفضليات ١ : ١١٨ . المقامات جمع مقامة ، وهى المجلس ، وبالضم : جمع مقامة بمعنى الإقامة . والأندية : الأفنية ، جمع ندى ، والندى والنادى سواء . يريد بيوم المقامات والأندية مواقف الخطابة والمفاخرة ونحوها . والتأويب : سير يوم إلى الليل ، أو الإمعان فى السير الشديد . وكذا وردت الرواية فى الأصل وفى الديوان والمفضليات : « إلى الأعداء تأويب » .

(٣) البيت من قصيدة هى من عيون شعر جميل فى أمالى القالى ٢ : ٧٤ . والرواية « الذى بها » كما فى الأمالى ومحاضرات الراغب ١ : ٤٥ فقد يكون ابن فارس أبدل الإنشاد ليوافق الاستشهاد ، أو هو تحريف ناسخ .

وإذا مرَّ بأطلالٍ خلت من سُكّانها وعفَت وبقِيَ أثرُها أنشد :

لخولة أطـــلالٌ ببرقة ثَهمدِ تلوح كباقى الوَشْمِ فى ظاهرِ اليدِ (١)

وإذا حضر مجلساً لمناظرة وسُئِل عن حاله فيه بعده أنشد :

ولو شهدت أمُّ القُدَيدِ طعانَنا بمَرْعَش خَيلَ الأرمنىِّ أرنَّتِ (٢)

وإذا قيل له : رأيناكَ أعرضتَ عن فلانٍ إعراض مسالمةٍ أنشد :

ولقد أجمعُ رِجلَيَّ بهـا حذرَ الموتِ وإنِّى لفَرُورُ (٣)

وإذا استُشِير فى أمر ذى لَبْس أيُقدِم عليه أم يُحجم عنه أنشد :

مكانَكِ حتَّى تنظرى عمَّ تنجلى عَمايةُ هــذا العارضِ المتألِّقِ

وإذا أكثرَ من ذكر أخٍ له غائبٍ وقيل له فى ذلك أنشد :

أرِيدُ لأنسى ذكرَها فكأنَّما تُمثَّلُ لى ليلَى بكلِّ سبيلِ (٤)

وإذا قال له صديقٌ تناسيتَنى كأنك لم تعرِفْنى أنشد :

تسلَّتْ عمَاياتُ الرِّجالِ عن الصِّبا وليس فُؤادِى عن هواها بمُنسلِ (٥)

وإذا حضر رئيسٌ من الرؤساء وأراد مدْحَه أنشد :

لو نال حىٌّ من الدُّنيا بمكرمة أفقَ السَّماء لنالت كفُّه الأفقا (٦)

---

(١) البيت هو مطلع معلقة طرفة بن العبد .

(٢) لسيار بن قصير الطائى فى ديوان الحماسة ١ : ٤٥ . أم القديد ، قيل هى امرأته . ومرعش مدينة بين الشام والروم . والأرمنى : منسوب إلى أرمينية . أرنت : أعولت وصاحت .

(٣) لعمرو بن معديكرب فى الحماسة ١ : ٥٢ وأمالى القالى ٣ : ١٤٧ . أجمع رجلى بها ، أى بالفرس ، أضمهما عليها استدراراً للجرى . لفرور ، المعنى أنه يفر إذا كان فى الفرار الحزم . وبعده :

ولقد أعطفها كارهــة حين للنفس من الموت هرير

(٤) لكثير عزة . أمالى القالى ٣ : ١١٩ والوساطة ١٦٠ ، ١٧٠ ومحاضرات الراغب ٢ : ٢٥ وديوان المعانى ١ : ٢٧٤ .

(٥) لامرئ القيس فى معلقته . وفى البيت قلب ، أى تسلت الرجال عن عمايات الصبا وجهالاته وظلماته . ويقال انسلى انسلاء : زال حبه من قلبه ، أو زال حزنه .

(٦) البيت لزهير فى مدح هرم بن سنان . ديوانه ٥٥ .

وإذا عاتب أخاً له على هِجرانه إياه أنشد :

طوى البينُ أسبابَ الوصال وحاولت بكُنْهِك أسبابُ الهوى أن تُجَذَّما(١)

وينشد أيضاً فى مثل ذلك :

وكان يزورنى منه خيالٌ فلما أن جفا منع الخيالا

وإذا رأى رجلاً يُثْنِى على أخيه ويحضر له محضرا جميلا أنشد :

قوم لهم عرفت معدٌّ بفضلِها والحقُّ يعرفه ذوو الألباب(٢)

وإذا قيل له قد أقررتَ لمناظرك أنشد :

أُحِسُّ بالفضل فى غيرى فأنكِرُه ما ينكر الفضلَ إلا كلُّ منقوصِ

وإذا رأى رجلاً ينتقص فاضلاً أنشد :

ما ضرَّ تغلبَ وائلٍ أهجوتها أم بُلتَ حيث تناطَحَ البحرانِ(٣)

وإذا أقصاه رئيسٌ بعد إنانته(٤) أنشد :

يا أفضلَ النّاسِ إنى كنتُ فى نَهَرٍ أصبحت منه كمثل المفرد الصادِى

وإذا كلّفه امرؤٌ شيئاً لم يكن عنده بالمرضىّ أنشد :

لم أكُنْ من جُناتها علم اللّــــهُ وإنى بحرِّها اليومَ صالِى(٥)

---

(١) التجذيم : التقطيع . وفى الأصل : « تجذما » تحريف .

(٢) البيت للبيد بن ربيعة ، وهو آخر ديوانه المطبوع فى فينا سنة ١٨٨٠ . والرواية فيه : « عرفت معد فضلها » .

(٣) البيت من قصيدة للفرزدق فى ديوانه ٨٨٢ يذكر فيها تفضيل الأخطل إياه ، مادحا فى ذلك بنى تغلب ، ويهجو جريراً . وقبل البيت وهو مطلع القصيدة :

يا ابن المراغة ، والهجاء إذا التقت أعناقــه وتماحــك الخصمان

وتغلب ابنة وائل هم قوم الأخطل . تناطح البحران : تقابلا . انظر الحيوان ١ : ١٣ والبيان ٣ : ٢٤٨ والخزانة ٢ : ٥٠١ .

(٤) كذا وردت هذه الكلمة مهملة الحرف الذى بعد الألف الثانية .

(٥) البيت للحارث بن عباد ، قاله فى يوم قضة . انظر العقد والخزانة ١ : ٣٠٢ وأمالى القالى ٣ :٢٦ والأغانى ٤ : ١٤٤ .

وإذا رأى أمراً فظيعاً تقضّى ثم تجدّد مثله أنشد :

إذا لهبٌ من جانب باخَ شرُّه ذكا لهب من جانبٍ فتضرَّما[1]

وإذا حضر مَحفِلاً من محافل النّظَر وكلّمه خصمٌ فدفعه ، وانبرى له خصمٌ آخر أنشد :

إذا ما دفعنا هؤلا جاء هؤلاَ إلينا فكلٌّ بالعداوة مولعُ

وإذا كثُر الصِّياحُ فى المَحفِل أنشد :

يأيُّها الراكبُ المزْجِي مطيّتَه سائلْ بنى أسدٍ ما هذه الصوتُ[2]

وإذا قيل له كثر أخصامك أنشد :

تفور علينا قِدرُهم فنُدِيمُها ونفثؤها عنا إذا حَمْوُها غلا[3]

وإذا بدأه سائلٌ بالسؤال مناظِراً له أنشد :

قرِّبا مَرْبِطَ النَّعامة منِّى لقِحتْ حربُ وائلٍ عن حِيالِ[4]

وإذا نُعِى له حميمٌ أو ذو مودّة أنشد :

ليس عُدمُ الأموال عُدماً ولكنْ فَقْدُ من قد رزئْتُه الإعدامُ[5]

---

(١) باخ : سكن وفتر .

(٢) لرويشد بن كثير الطائى . الحماسة ١ : ٤٧ واللسان (صوت) . المزجى : السائق ، وقد أنث الصوت . وفى اللسان : إنما أنثه لأنه أراد به الضوضاء والجلبة . ويصح أن يراد بالصوت ما يبلغه عنهم .

(٣) البيت للنابغة الجعدى ، كما فى مقاييس اللغة (دوم ، فور ، فثأ) واللسان (فثأ ، دوم). يقال أدام القدر إدامة ، إذا سكن غليانها بالماء . وكذلك فثأها : سكّن من غليانها . والحمو والحمى : شدة الحرارة . ورواية المقاييس واللسان : « حميها » .

(٤) للحارث بن عباد ، كما سبق فى «لم أكن من جناتها» . المربط ، بفتح الباء وكسرها : موضع ربط الدابة . والنعامة : اسم فرسه . عن حيال ، أى بعد حيال . والحيال : ألا تحمل الناقة . عنى أن الحرب هاجت بعد سكون .

(٥) لأبى دواد الإيادى . العمدة ١ : ٦١ والوساطة ٤٧ ، وبه قيل إن أبا دواد أشعر الناس . ويروى : « لا أعد الإقتار عدما » .

وإذا حضر حضرةَ ملكٍ وبالغ فى الثَّناء عليه أنشد :

وأنك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ إذا طلعتْ لم يبدُ منهن كوكبُ[(١)]

وإذا فَخَر بمن تقدّم من العلماء والكبراء أنشد :

ترى الناس ما سِرنا يسيرون خلفنا وإن نحنُ أومأْنا إلى الناس وقَّفوا[(٢)]

وإذا أثنى على رجلٍ مِعطاءٍ أنشد :

ليس يعطيك للرجاء وللخو فِ ولكن يَلَذُّ طعمَ العطاء[(٣)]

وإذا قصد امرأً فى حاجةٍ وكرّر الزيارة له ولم ير ما يحبُّه أنشد :

كفى طلباً لحاجةِ كلِّ حرٍّ مداومةُ الزِّيارةِ والسّلامِ

وإذا أخذ إنسانٌ يتّهم أحداً غيره أنشد :

رأيت الحربَ يجنيها رجالٌ ويصلَى حرَّها قومٌ براء[(٤)]

قلت : وينشد فى ذلك أيضاً قولَ القائل :

لم أكن من جناتها ... (البيت المتقدم)

---

(١) النابغة الذبيانى من قصيدة فى ديوانه ١٢ يعتذر فيها إلى النعمان ويمدحه . ورواية الديوان : « لأنك شمس » . وقبله :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

(٢) الفرزدق فى ديوانه ٥٦٨ وأمالى القالى ٣ : ١١٩ . وفى الأمالى عن طلحة بن عبد الله قال : « لقى الفرزدق كثيراً بقارعة البلاط وأنا معه ، فقال : أنت يا أبا صخر أنسب العرب حيث تقول :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل

فقال له كثير : وأنت يا أبا فراس أفخر العرب حيث تقول :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا »

ثم قال : « وهذان البيتان لجميل ، سرق أحدهما كثير ، والآخر الفرزدق » .

(٣) البيت لبشار بن برد من قصيدة يمدح فيها عقبة بن سلم . ديوانه ١ : ١٠٧ — ١١٣ . وقبله ، كما فى الديوان والأغانى ٣ : ٤٣ :

إنما لذة الجواد ابن سلم فى عطاء ومركب للقاء

(٤) أنشده فى اللسان (برأ) برواية : « يجنيها رجال » . وبراء مثلثة الباء ، فهى بالفتح مصدر سمى به ، وفى التنزيل « إننى براء مما تعبدون » . وبالكسر : جمع برىء ، كظريف وظراف . وبالضم جمع لا واحد له ، نحو تؤام وظؤار .

وينشد فى ذلك أيضاً :

وحمّلتنى ذنبَ امرئٍ وتركتَه ‏ ‏ كذى العُرِّ يكوى غيرُه وهو راتعُ[١]

وإذا عارضه معارضٌ فى عِلّة بلا علم أنشد :

أخو عديٍّ أمسىٰ يُساجِلُنى ‏ ‏ ما لعديٍّ وما لذا العمــلِ

وإذا ذكر قوماً أشحّاء أنشد :

دراهِمهم لا تُستطاع كأنّها ‏ ‏ فريسةُ ليثٍ أحرزتهــا مخالبُه

وإذا قيل له أرَضِيتَ بكذا وأنت أعلى منزلة منه أنشد :

وما كنتُ أخشى أن أرى العَيرَ مركبى ‏ ‏ ولـكنَّ من يمشى سيرضى بما ركبْ

وإذا زار مريضاً أنشد :

ونعود سيِّدَنا وسيِّد غيرِنا ‏ ‏ ليت التشكِّيَ كان بالعُوَّادِ[٢]

وإذا حذّر ناسا عدوًّا غفَلوا عنه أنشد :

بنى أميَّةَ إنى ناصحٌ لـكم ‏ ‏ فــلا يبيتنَّ فيكم آمنًا زفرُ[٣]

---

(١) للنابغة الذبيانى فى ديوانه ٥٤ من قصيدة يمدح فيها النعمان ويعتذر إليه ويهجو مرة ابن ربيعة . العر ، بضم العين : قروح مثل القوباء تخرج بالإبل متفرقة فى مشافرها وقوائمها يسيل منها الماء الأصفر فتكوى الصحاح لئلا تعديها المراض . وأما أبو عبيدة فيقول : إن هــذا لا يكون وإنما هو على جهة المثل . وقال ابن دريد : ومن رواه بالفتح فقد غلط ، لأن الجرب لا يكوى منه .

(٢) لـكثير عزة ، قاله فى عيادته عبد الملك بن مروان . عيون الأخبار ٣ : ٥٠ . وبعده :

لو كان يقبل فدية لفديته ‏ ‏ بالمصطفى من طارفى وتلادى

لـكن فى الشعر والشعراء ٤٩٧ أنه دخل لعيادة عبد العزيز بن مروان . على أن البيت قد روى فى قصيدة لجرير فى ديوانه ١٢٢ يقوله فى عبد العزيز بن الوليد عبد الملك ، وكان الوليد كتب إلى أجناد الشام أن يدعوا لعبد العزيز بن الوليد ، ودعا حوله فى مسجد دمشق فى جماعة الناس ، وكان عليلا .

(٣) للأخطل فى ديوانه ١٠٣ والحيوان ٥ : ١٦٣ . وزفر هنا ، هو ابن الحارث الـكلابى ، كان قد خرج على عبد الملك بن مروان وظل يقاتله تسع سنين ثم رجع إلى الطاعة . الـكامل ٥٣٣ ليبسك والجهشيارى ٣٠ . وكان زفر من التابعين ، سمع عائشة ومعاوية . شرح شواهد المغنى ٣١٥ .

وإذا ذَكَر صديقاً له بنقضه العهدَ أنشد :

أَلَمْ تَرَ ما بيني وبين ابن خالد   من العهد قد بالت عليه الثعالب(١)

وإذا هدّده عدوٌّ أو توعَّده أنشد :

فإن قناتنا يا عَمرُو أعيَتْ   على الأعداء قبلَك أن تلينا(٢)

وإذا شُكِيَ أخٌ له جَنَى عليه أنشد :

بل جناها أخٌ عليَّ كريمٌ   وعلى أهلها بَرَاقِشُ تجني(٣)

وإذا رأى ذا بشاشةٍ وظاهره يبدى خلافه أنشد :

يُبدِى البشاشةَ حين تبصره   وله إليك عقاربٌ تَسرِى

وإذا أساء إليه صديقٌ وحلُم هو عنه أنشد :

فلا تُوبِسوا بيني وبينكم الثَّرى   فإنّ الذى بيني وبينكمُ مُثْرِى(٤)

وإذا ذُكِر رجلٌ ببُعد الغَور أنشد :

ولم يَخْشَوْا مصالته عليهم   وتحت الرّغوة اللبنُ الصريحُ(٥)

---

(١) فى الأصل : « بنى خالد » تحريف .

(٢) لعمرو بن كلثوم فى معلقته . وعمرو فى هذا البيت هو عمرو بن هند . والعرب تستعير للعز اسم القناة .

(٣) لحزة بن بيض فى اللسان (برقش) . وبراقش : اسم كلبة نبحت على جيش مروا ولم يشعروا بالحى الذى فيهم الكلبة ، فلما سمعوا نباحها علموا أن أهلها هناك فعطفوا عليهم فاستباحوهم ، فقيل فى المثل : « على أهلها تجنى براقش » . وقبل هذا البيت :

لم تكن عن جناية لحقتنى   لا يسارى ولا يمينى جنتنى

(٤) لجرير فى ديوانه ٢٧٧ والمقاييس (ثروى) واللسان (ثرا) . قال أبو عبيدة : « من أمثالهم فى تخوف الرجل هجر صاحبه : لا توبس الثرى بينى وبينك » . ويقال : الذى بينى وبين فلان مثر ، أى إنه لم ينقطع .

(٥) من أبيات فى مجالس ثعلب ٨ — ٩ بنسبتها إلى رجل من سليم . ونسب فى البيان ٣ : ٣٣٨ إلى أبى محجن الثقفى ، وليس فى ديوانه . ونسب فى اللسان (فصح) إلى نضلة السلمى . المصالة : مصدر ميمى من صال يصول . والرغوة ، مثلثة الراء . والصريح : الخالص . أى إنما تعرف الأشياء بالتكشيف عن بواطنها . وأنشده فى المقاييس (فصح) : « اللبن الفصيح » ، وهو الذى أخذت عنه الرغوة .

وإذا عزَّى إنساناً وآساه أنشد :

لكلِّ همٍّ من الهموم سَعَةْ والمُسْى والصُّبح لا بقاءَ معَهْ[١]

وإذا كاتَمَ إنساناً وأضمر له ما يعرفه من التلوُّن أنشد :

فإنَّ الله لا يخفَى عليه علانيةٌ تُراد ولا سِرارُ

وإذا رأى إنساناً تغيَّرت عن غِنًى حالُه[٢] أنشد :

إنَّ الفَتى يُقتِرُ بعد الغنى ويَغتنى من بعد ما يَفتقِرْ[٣]

وإذا قيل له مضَى فلانٌ وورث وارثُه مالَه أنشد :

قد يَجمعُ المالَ غيرُ آكِلِه ويأكل المالَ غيرُ من جَمعه[٤]

وإذا رأى رجلاً أثنى على آخَرَ وهو لا يعرفُه أنشد :

لا تحمدنَّ امرأً حتى تجرِّبه ولا تذمنَّه من غير تجريبِ[٥]

وإذا نُعِيَ له رجلٌ عظيم الشأن أنشد :

لما أتى خبرُ الزُّبيرِ تواضعَتْ سُورُ المدينةِ والجبالُ الخُشَّعُ[٦]

---

(١) للأضبط بن قريع ، وهو أحد المعمرين من العرب . كتاب المعمرين للسجستانى ٨ ومجالس ثعلب ٤٨٠ والأمالى ١ : ١٠٧ والأغانى ١٦ : ١٥٤ وحماسة ابن الشجرى ١٣٧ والخزانة ٤ : ٥٨٩ والمثل السائر ١ : ٢٦٠ .

(٢) فى الأصل : « تغيرت عن حاله » .

(٣) البيت لعمرو بن أحمر ، من أبيات له فى اللسان (رنا) وطبقات ابن سلام ١٩١ . أقتر : قل ماله .

(٤) للأضبط بن قريع . انظر الحاشية الأولى .

(٥) لأبى الأسود الدؤلى . حماسة البحترى ٢٧٠ .

(٦) البيت لجرير فى ديوانه ٣٤٥ والخزانة ٢ : ١٦٦ من قصيدة يهجو فيها الفرزدق ورهطه بنى مجاشع الذين منهم عمرو بن جرموز قاتل الزبير بن العوام . وكان ابن جرموز قد قدم على أمير المؤمنين على وهو بالفتح وأخبره بقتله الزبير ، فقال له على : أبشر بالنار ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بشر قاتل ابن صفية بالنار . وفى ذلك يقول ابن جرموز :

أتيت علياً برأس الزبير وقد كنت أحسبها زلفه
فبشر بالنار فى قتله فبئس بشارة ذى التحفه

ثم إن ابن جرموز جاء إلى مصعب بن الزبير وكان واليا على العراق من قبل أخيه عبد الله فقال : اقتلنى بالزبير ! فكتب فى ذلك إلى أخيه ، فكتب إليه عبد الله : أنا لا أقتله بالزبير =

وإذا جَهِل عليه جاهلٌ والجاهل عدوٌّ حاضر لا يجترئ عليه أنشد :

جهلاً علينا وجبنا عن عدوٍّ كُمُ لبئست الخَلّتان الجهلُ والجُبُنُ(١)

وإذا مات له خليلٌ يعزُّ عليه فقده أنشد :

ألا ليمُتْ مَن شاء بعدك إنّما عليك من الأقدار كان حِذاريا(٢)

وإذا قيل له استترلك فلانٌ وخَدعَك أنشد :

وقد كنت مجرور اللّسانِ ومُفْحَمًا فأصبحت أدرى اليوم كيف أقولُ(٣)

وإذا ذكر إخوانَه الذين سلَفوا أنشد :

أولئك إخوانُ الصّفاء رُزِئتُهم وما الكفُّ إلا إصبعٌ ثم إصبعُ(٤)

وإذا نَجُب ابنُ امرئٍ بعد موته أنشد :

لعمركَ ما وارَى الترابُ فَعالَه ولكنّه وارى ثيابًا وأعظُما(٥)

= ولا يشسع نعله ، فلم يقتله . والنحويون يجعلون هذا البيت شاهدا لاكتساب بعض الأسماء التأنيث من بعض ؛ لأن السور هنا بعض المدينة . وذهب أبوعبيدة أن « السور » جمع سورة بالضم ، وهي كل ما علا ، فلاشاهد في البيت . الخشع ، أي التي صارت خاشعة لاطئة بالأرض لموته .

(١) البيت لقعنب بن أم صاحب ، في حماسة أبي تمام ٢ : ١٨٨ والبحترى ٣٩٢ .

(٢) في الأصل : « حذارى » ، صوابه في اللسان (ملا) ومحاضرات الراغب ٢ : ٢٢٩ . وقبله ، وهو في رثاء يزيد بن مزيد الشيباني :

وقد كنت أرجو أن أملاك حقبة فحال قضاء الله دون رجائيا

وانظر العقد ٢ : ٢٨٧ طبع لجنة التأليف .

(٣) البيت للفقيمي ، وهوقاتل غالب أبي الفرزدق . البيان ٣ : ٢١٤ ، ٣٢٦ ومحاضرات الراغب ٢ : ٧٤ . وفي الأصل : « محزوز» صوابه في البيان . وفي المحاضرات : « مجرور » محرفة أيضاً . وأصل المجرور الفصيل يشق لسانه لئلا يرضع ، يقال جر الفصيل وأجره . قال عمرو بن معد يكرب :

فلو أن قومى أنطقتنى رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت

(٤) البيت لأبي حناك البراء بن ربعى الفقعسى ، في الحماسه ١ : ٣٥١ والمضنون به على غير أهله لعز الدين الزنجاني ٣٤٤ طبع ١٣٣١ . وقبله :

أبعد بنى أمى الذين تتابعوا أرجى الحياة أم من الموت أجزع

ثمانية كانوا ذؤابة قومهم بهم كنت أعطى ما أشاء وأمنع

(٥) أنشده أبو تمام في الحماسة ١ : ٣٨٣ ولم ينسبه . وقبله :

إذا ما امرؤ أثنى بآلاء ميت فلا يبعد الله الوليد بن أدهما =

وإذا رأى رجلا يتكلَّف مالا يستطيعه أنشد :

* إذا لم تستطع شيئاً فدعهُ[(١)] *

وإذا استحقره قومٌ وتعرَّضوا لأكبرَ منه أنشد :

* ذبابٌ طار فى لَهَوات ليث *

وإذا تجاهل عليه متجاهلٌ أنشد :

إنا لَتُوزَنُ بالجبال حلومُنا ويَزيد جاهلنا على الجهَّالِ[(٢)]

وإذا نُعِىَ له رئيسٌ من رؤساء مَحَلَّته أو عشيرته أنشد :

إذا شذَّ منا سيِّد قام سيِّدٌ قؤولٌ لما قال الكرام فعول[(٣)]

وأنشد أيضاً :

إذا قمرٌ منا تغوَّرَ أو خبا بدا قمرٌ من جانب الأفق يلمعُ[(٤)]

وإذا مطل إنسانٌ ووَعد بعدُ أنشد :

فإنْ يك صدرُ هذا اليومِ ولَّى فإنَّ غداً لناظره قريبُ[(٥)]

= فما كان مفراحا إذا الخير مسه ولا كان منانا إذا هو أنعما
ونادى المنادى أول الليل باسمه إذا أجحر الليل البخيل المذمما

(١) لعمرو بن معديكرب فى الحيوان ٣ : ١٣٨ وحماسة البحترى ٣٧٥ والأغانى ١٤ : ٣١ ، ٣٦ ، ٣٧ . وعجزه :

* وجاوزه إلى ما تستطيع *

(٢) لحسان بن حنظلة بن أبى رهم الطائى فى الحماسة ٢ : ٣١٧ ومجموعة المعانى ٤٥ ، وهو فى ديوان الفرزدق ٧٣٠ ونسب فى الخزانة ٣ : ١٠٧ والنقائض ٢٨٤ إلى الفرزدق أيضاً . وفى المؤتلف للآمدى ١٢٤ أنه للراهب الطائى ، وهو حنظلة والد حسان المتقدم ، وأن الفرزدق قد سرقه وأدخله فى قصيدته .

(٣) للسموأل بن عاديا ، من أبيات فى الحماسة ١ : ٢٧ — ٣١ والحيوان ٦ : ٤٢٣ والبيان ٤ : ٦٨ والقالى ١ : ٢٦٩ . والرواية فى الحماسة والقالى : « إذا سيد منا خلا قام سيد » .

(٤) البيت لأبى يعقوب الخريمى فى الحيوان ٣ : ٩٤ والوساطة ١٠٩ .

(٥) فى الأصل : « لناظرين » تحريف . والبيت لقراد بن أجدع ، كما فى أمثال الميدانى ١ : ٦٣ . لناظره ، أى لمنتظره .

وإذا رأى قوماً ذوى صُوَر ولا أحلامَ لهم أنشد :

لا بأسَ بالقومِ من طولٍ ومن عظمٍ جِسمُ البغالِ وأحلامُ العصافيرِ[(١)]

وإذا اقتضى صديقاً وعداً أنشد :

قضَى كلُّ ذِى دينٍ فوفّى غريمَه وعزّةُ ممطولٌ معنًّى غريمُها[(٢)]

وإذا شيّع فريقين وأخذَ كلٌّ واحدٍ غيرَ طريقِ الآخر أنشد :

فريقانِ منهم سالكٌ بطنَ نخلةٍ وآخرُ منهم سالك نجد كبكبِ[(٣)]

وإذا لم يزُره أخوه زاره هو وأنشد :

أزورُكمْ لا أكافِيكمْ بجفوتِكم إن المحبَّ إذا لم يُستزَرْ زارا[(٤)]

وأنشد أيضاً فيه :

وما كنت زوّاراً ولكنَّ ذا الهوى إذا لم يُزَرْ لابد أنْ سيزورُ[(٥)]

وإذا وصفَ رجلاً بالعِفّة والإعراض عن الزِّنا أنشد :

والله لو كانت الدنيا وزينتُها فى بطن راحتِهِ يوما لألقاها

وإذا قيل له إن أمثالك قليل أنشد :

وما ضرّنا أنا قليل وجارُنا عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليلُ[(٦)]

---

(١) البيت لحسان بن ثابت فى ديوانه ٢١٤ من قصيدة يهجو بها بنى الحارث بن كعب . وانظر الحيوان ٥ : ٢٢٩ والخزانة ٤ : ٥٣ — ٥٦ وسيبويه ١ : ٢٥٤ . الأحلام : العقول .

(٢) البيت لكثير عزة فى حماسة ابن الشجرى ١٥٤ والأغانى ٨ : ٣٥ ، ٣٦ ومحاضرات الراغب ١ : ٢٢٩ .

(٣) لامرئ القيس فى ديوانه ٧٧ ومعجم البلدان ، رسم (كبكب) .

(٤) البيت للعباس بن الأحنف فى ديوانه ٧٣ وخاص الخاص ٩٣ ومحاضرات الراغب ١ : ٣٠٥ برواية : « تزوركم لانكافيكم » . وفى الأصل هنا : « لأكافيكم » ، تحريف . وبعده فى الديوان :

ستقرب الدار شوقا وهي نازحة من عالج الشوق لم يستبعد الدارا

وفى محاضرات الراغب ٢ : ١٥ : « يقرب الشوق دارا » .

(٥) للأحوص . الكامل ٣٢١ ليبسك . وقبله :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم ما درت حيث أدور

(٦) للسموأل بن عاديا . انظر ماسبق فى ص ١٥٥ .

وإذا وَلِيَ رجلٌ ولاية وأُثنِيَ عليه بها أنشد :

وإذا الدرُّ زان حُسنَ وجوهٍ ... كان للدُّرِّ حُسنُ وجهِكِ زينا[(١)]

وكان يتمثَّل لمناظره ويعرِّض له أنّه لم يُبلُغ المَبلغَ بقول الشاعر :

لا تحسبِ المجدَ تَمراً أنت آكِلُه ... لن تبلغ المجد حتَّى تلعق الصَّبِرا

وإذا ذُكر له رجلٌ مضى فذلّت أتباعُه وبنو عمِّه بعد عِزٍّ أنشد :

فتًى كان مولاه يحلُّ بنَجوةٍ ... فحلَّ الموالى بعــده بمسيلِ[(٢)]

وإذا رأى إنساناً مسور[(٣)] له مطلا ودفاعا أنشد :

لقد جررتِ لنا حبلَ الشَّموسِ فلا ... يأساً مبيناً نرى منكمْ ولا طَمَعا[(٤)]

وإذا رأى رجلاً همُّه نفسُه لا غيره أنشد :

دع المــكارمَ لا ترحَل لبُغيتِها ... واقعُدْ فإنّك أنت الطاعم الــكاسى[(٥)]

---

(١) أنشده الجاحظ فى البيان ١ : ١٩٥ والجرجانى فى الوساطة ٢٠٢ . وقبله أو بعده :

وتريدين أطيب الطيب طيبا ... أن تمسيه أين مثلك أينا

وقال خالد بن عبد الله القسرى لعمر بن عبد العزيز : من كانت الخلافة زانته فإنك قد زنتها ، ومن كانت شرفته فإنك قد شرفتها ، فأنت كما قال القائل :

وإذا الدر زان حسن وجوه ... كان للدر حسن وجهك زينا

فقال عمر : أعطى صاحبكم مقولا ولم يعط معقولا . عيون الأخبار ١ : ٩٣ .

(٢) النجوة : المــكان المرتفع . والمسيل : موضع السيل . والبيت لعقيل بن علفة فى الحماسة ١ : ٤١٠ . وقبله :

لتغد المنايا حيث شاءت فإنها ... محللة بعد الفتى ابن عقيل

(٣) كذا وردت هذه الــكلمة .

(٤) البيت للقيط بن يعمر الإيادى ، من قصيدة له هى أول مختارات ابن الشجرى ، ينذر فيها قومه غزو كسرى إياهم ، وكان لقيط كاتبا فى ديوان كسرى ، فلما رآه مجمعا على غزو إياد كتب إليهم بهذا الشعر فوقع الــكتاب بيد كسرى فقطع لسان لقيط وغزا إيادا . الشموس بفتح أوله : النفور من الدواب الذى لا يستقر لشغبه وحدته .

(٥) البيت للحطيئة فى ديوانه ٥٤ من قصيدة يهجو بها الزبرقان بن بدر . الطاعم الــكاسى : ذو الطعام والــكسوة ، أو هو المطعم المــكسو ، كما فى قول الله : « عيشة راضية » ، أى مرضية ، انظر اللسان (كسا) .

وإذا لاجّه[١] إنسانٌ وطاوَلَه أنشد :

إذا ما تحدّثتُ فى مجلسٍ تناهَى حديثى إلى ما علمت[٢]

وإذا رأى امرأ تأمّل حاشيةَ زائرِه وغاشِيته[٣] أنشد :

وإذا ما جهلتَ ودَّ صديقٍ فاعتبر ما جهلتَ بالغِلمان
إنَّ وجهَ الغلامِ يخبِر عما فى ضمير المولَى من الكِتمان

وإذا رأى رجلاً انتمى إلى قومٍ غير كرام أنشد :

فغضَّ الطّرفَ إنك من نُميرٍ فأصلهم ومَنْبِتُهم لئيمُ[٤]

وإذا سبَرَ حال صديقٍ له فلم يحمَدْه أنشد :

وما كلُّ إخوانِ الفتى طوعَ همِّه ولا كلُّ عودٍ نابت بنُضارِ[٥]

وإذا توعَّده من لا يصدق فى وَعْدِه أنشد :

فانظر إلى كفٍّ وأسرارِها هل أنت إن أوعَدتنى ضائرى[٦]

وإذا نُعِىَ له شخص أنشد :

على صخرٍ وأىُّ فتًى كصخر ليومِ كريهةٍ وسِداد ثَغْرِ[٧]

---

(١) اللاجة : التمادى فى الخصومة . فى الأصل : « اللاحة » ، تحريف

(٢) البيت ليزيد بن الوليد بن عبد الملك ، كما فى عيون الأخبار ٢ : ١٢٥ . وبعده :

ولم أعـد علمى الى غيره وكان إذا ماتناهى قصرت

(٣) غاشية الرجل : من ينتابه من زواره وأصدقائه .

(٤) كذا ورد إنشاده . والمعروف بيت جرير فى ديوانه ٧٥ :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

(٥) النضار : شجر الأثل ، وهو أجود الخشب للآنية والأقداح .

(٦) البيت للأعشى في ديوانه ١٠٧ واللسان (سرر) والمقاييس (سر) . الأسرار : خطوط باطن الراحة ، واحدها سر .

(٧) البيت ملفق من بيتين ، أحدهما للخنساء فى رثاء أخيها صخر ، وهو كما فى الديوان ٢٣ وحماسة البحترى ٤٢٨ :

على صخر وأى فتى كصخر لعان عائـل غلق بوتر

والآخر للعرجى فى نزهة الألباء ١١٣ واللسان (سدد) :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

وقد يقع التلفيق فى استشهادات ابن فارس . انظر المقاييس (شنأ ، علق ، فأو) .

وإذا رأى رجلاً اتهم بدِعوة أنشد :

زَنيمٌ تداعاه الرِّجالُ زيادةً ... كما زيد فى عَرض الأديم الأكارعُ[1]

وإذا رأى عدوًّا مُحاشِنا أنشد :

بنى تماضِرَ إنّى لا أحبكما ... ولا ألومكما إلاّ تُحِبّانى

وإذا قعد عن صديقٍ بعُذْر أنشد :

فلا بأس بالهجر الذى ليس عرقلا ... إذا شَجَرت عهدَ الحبيبِ شواجرُ[2]

وربما وصل حديثَه عن الزمن الأوّل بقوله :

إذِ الناس ناسٌ والزمان بغِرّة ... وإذ أمُّ عمّارٍ صديقٌ مُساعِفُ[3]

وإذا ذُكر رجلٌ بجودٍ وسَماحة أنشد :

يومان يومٌ يفيض نائلُه ... وخير يوم ما يُقيتُ غدا[4]

وإذا خبِّر أنّ ولدَ رجلٍ نجُب أنشد :

وهل يُنبِتُ الخطىَّ إلا وشيجُه ... وتُغرسُ إلاّ فى منابتها النخلُ[5]

وإذا أسعفَه رجلٌ فى أمره أنشد :

أناة امرئٍ يأتى الأمورَ بقدرةٍ ... متى ما يَرِدْ لم يعىَ بالأمر مصدرا

---

(١) البيت للخطيم التميمى ، جاهلى . ويروى لحسان بن ثابت ، كما فى اللسان (زنم) والكامل ٥٦٧ ليبسك . ورواه ابن فارس فى المقاييس (زنم) بدون نسبة . والزنيم : المستلحق فى القول وليس منهم . الأديم : الجلد . وفى الكنايات للجرجانى ١٥ : « ويكنون عن الدعى بأكارع الأديم . قال الفرزدق :

وأنت زنيم فى كليب زيادة ... كما زيد فى عرض الأديم الأكارع »

(٢) فى الأصل : « بالهجران » ولا يستقيم به الوزن ، وباقى الصدر بعدها كذا ورد فى الأصل . ويقال شجر الشىء : صرفه ونحاه .

(٣) يفهم من صنيع اللسان (سعف) أنه لأوس بن حجر ، ولم أجده فى ديوانه .

(٤) أقاته : أعطاه قوته . ولعل الكلام : « وخير يوميه »

(٥) البيت لزهير بن أبى سلمى فى ديوانه ١١٥ . الخطى : الرماح المنسوبة إلى الخط ، وهى جزيرة بالبحرين . والوشيج : القنا الملتف فى منبته ، الواحدة وشيجة . أى لا تنبت القناة إلا القناة ، ولا تغرس النخلة إلا بحيث يكون نباتها وصلاحها .

وإذا مرَّ بدار صديقٍ له أنشد :

ألا حيِّ الدِّيارَ بسعد إنِّى أحبُّ لحبِّ فاطمةَ الدِّيارا(١)

وإذا حضر مجلسَ مناظرةٍ وطُلِب منه الكلامُ جثا على ركبتيه وأنشد :

ولا يُنجِي من الغمراتِ إلاَّ بَرَاكاءُ القتالِ أو الفِرارُ(٢)

وإذا ناظره فتى شابٌّ أنشد :

كيف ترجونَ سِقاطى بعد ما جَلَّل الرأسَ مشيبٌ وصلَع(٣)

وإذا زاحمه خصماؤه وكثرُوا عليه أنشد :

إذا اجتمعوا علىَّ فخلِّ عنهم وعن أسدٍ مخالبه دوَامِ
إذا اجتمعوا على فخلِّ عنهم وخِربانٍ تصيد حُبارَياتِ(٤)

وإذا قيل له إن فلاناً فى فضله فُضِّلَ عليه مَن دونَه أنشد :

كم قد رأينا من أسد بالت على رأسه ثعالب(٥)

وإذا قيل له أيضاً أنشد :

صرتُ كأنِّى ذبالةٌ نُصِبت تُضىء للناس وهى تحترقُ(٦)

وإذا استطال اللَّيل أنشد :

أقولُ وليلتى تزدادُ طولاً أما اللَّيـــل ويحكمُ نهارُ(٧)

---

(١) البيت لجرير فى ديوانه ٢٨٠ ومعجم اللسان (سعد) . وأنشده ابن فارس فى مقاييس اللغة (سعد) مع نسبته .

(٢) لبشر بن أبى خازم فى اللسان ومقاييس اللغة . (برك) وهو ختام قصيدة له فى المفضليات ٢ : ١٤٥ . والبراكاء : الثبات فى الحرب والجد ، وأصله من البروك .

(٣) لسويد بن أبى كاهل اليشكرى فى المفضليات ٢ : ١٩٨ . سقاطى : فترتى وسقطى . ويروى : « لاح فى الرأس » .

(٤) فى الأصل : «وحريان تصيد حباريان» . الخربان بكسر الخاء : جمع خرب بالتحريك ، وهو ذكر الحبارى : ضرب من الطير .

(٥) كذا ورد صدر هذا البيت .

(٦) للعباس بن الأحنف فى ديوانه ١١١ والكامل ٥١٨ ليبسك ومحاضرات الراغب ١ : ٩ وديوان المعانى للعسكرى ١ : ٢٦٣ . الذبالة : الفتيلة التى تسرج فى المصباح . وقبل البيت :

أحرم منكم بما أقول وقد نال به العاشقون من عشقوا

(٧) البيت لبشار ، فى المختار من شعر بشار ص ٧ برواية : « أما لليل بعدهم نهار » .

وإذا مرضَ وعاده عُوّادُه أنشد :

وهل هى إلا علّةٌ بعـد علّةٍ إلى العلة الـكبرى وتلك هى التى

وإذا رأى رجالاً لا حَمِيّة ولا مَنْعَة فيهم أنشد :

إذا ما عُـدّ مثلـكم رجالٌ فما فضْلُ الرّجالِ على النساء

وإذا اشتكى إليه إنسان إقلالاً [أنشد] :

إذا شئتَ أن تحيا غنيًّا فلا تـكن بمنزلة إلا رضيتَ بدونِهـــا

وإذا رأى ذا ضغن صاحَبَ آخر أنشد :

إذا أنت لم تسقَم وصاحبت مُسقِما وكنت له خِدْنًا فأنت سقيمُ

وإذا دخل عليه ثقيل أنشد :

أيا جبلَىْ نَعمانَ باللهِ خلّيـا نسيمَ الصّبا يخلُصْ إلىّ نسيمُها[1]

وإذا جاد عليه بنزر يسير أنشد :

توتيك نَزْراً قليلا وهى خائفة كما يخاف مَسِيسَ الحيّةِ الفَرِقُ[2]

وهذه جمعيةٌ لم أظفر بمثلها ، فرحِمَ اللهُ مَن فَهِمها وحفظها ، وأورَدَ كلَّ بيتٍ فى محلِّه ، ليحِلَّ عند خِلِّه .

---

(١) البيت لمجنون ليلى ، فى الأغانى ١ : ٥/١٧٠ : ٣٤ وحماسة ابن الشجرى١٦٨،وهو فى أمالي القالى ٢ : ١٨١ بدون نسبة . وفى الأغانى — ونحوه فى حماسة ابن الشجرى : أن أهل المجنون خرجوا به معهم الى وادى القرى قبل توحشه ليمتاروا خوفا عليه أن يضيع ويهلك فروا فى طريقهم بجبلى نعمان ، فقال له بعض فتيان الحى : هذان جبلا نعمان . وقد كانت ليلى تنزل بهما . قال : فأى الرياح يأتى من ناحيتهما ؟ قالوا : الصبا . قال : فوالله لا أريم هذا الموضع حتى تهب الصبا . فأقام ومضوا فامتاروا لأنفسهم ثم أتوا عليه فأقاموا معه ثلاثة حتى هبت الصبا ثم انطلق معهم . ففى ذلك يقول :

أيا جبلى نعمان بالله خليا نسيم الصبا يخلص إلي نسيمها
أجد بردها أو تشف منى حرارة على كبد لم يبق إلا صميمها
فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت على نفس محزون تجلت همومها

(٢) البيت لابن هرمة . المختار من شعر بشار ٩٦ . وصدره فيه : « تبدى بذاك سرورا وهى مشفقة كما يهاب» . فى الأصل : «وهى جائعة» ، صوابه ما أثبت . المسيس : المس . والفرق : الخائف الفزع .

رسالة في أعجاز أبيات تغني في التمثيل عن صدورها

لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد

٢١٠ ـ ٢٨٥

مقـــدمـة

وهذا أبو العباس محمد بن يزيد المبرد الأزدى البصرى النحوى الأديب الأخبارى، صاحب « الكامل » الذى يقول فيه ابن خلدون : « وسمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة : وهى كتاب الكامل للمبرد ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع منها » .

وكان الناس بالبصرة يقولون : «ما رأى المبرد مثل نفسه» . ولما صنف أستاذه المازنى كتاب الألف واللام سأل المبرد عن دقيقه وعويصه فأجاب بأحسن جواب ، فقال له : قم فأنت المبرد ، بكسر الراء ، أى المثبت للحق ، فغيره الكوفيون وفتحوا الراء .

وقد دلنى على كتابه هـذا الصديق الكريم الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى ، فأسجل له هنا صادق الشكر .

وهذا الكتاب يشبه الكتاب السابق فى موضوعه ، إذ هو فى الأمثال الشعرية ، وإن اختلف الأسلوبان والمنهجان ، فإن أبا العباس لم يذكر هنا مضارب الأمثال كما ذكرها ابن فارس ، ولم يذكر من الأبيات إلا أعجازها المغنية عن صدورها ، وليس هذا الأمر بالهين فى التأليف ، ومع أن أبا العباس قد ذكر نسبة معظم هـذه الأعجاز فإنه اقتضانا البحث عن صدور هذه الأعجاز عند التحقيق .

وأصل هذا الكتاب مخطوطة فى دار الكتب الأزهرية برقم ٧٣٢٣ أباظة . وهو فى مجموعة تشمل بعض الكتب النفيسة ، منها قواعد الشعر لثعلب ، وفحولة الشعراء للأصمعى ، وشجر الدر فى متداخل اللغة لأبى الطيب اللغوى .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : هـذه أعجاز بيوت تغنى فى التمثيل عن صدورها .

قال أنس بن مدركة[١] الخثعمى ، وكنيته أبو سفيان[٢] :

* لشىء ما يسوَّد من يسودُ[٣] *

امرؤ القيس : * وكل غريبٍ للغريب نسيبُ[٤] *

وقال : * وبالأشقَين ما كان العِقابُ[٥] *

وقال : * والبرُّ خير حقيبةِ الرَّحـــلِ[٦] *

النابغة : * ولا قرار على زأر من الأسد[٧] *

وقال : * وذلك من تلقاء نفسك رائع[٨] *

---

(١) ومثله فى الأغانى ٧ : ٩/١٦١ : ١٦ والعينى ٤ : ٢٩٩ وحماسة ابن الشجرى ٤٩ . وفى الحيوان ١ : ٣/١٨ : ٨١ و ٤٦٩ والاشتقاق ٣٠٦ وشرح الحماسة التبريزى ٢ : ١٩٣ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٢٨ وكتاب البسوس ٦ ومعجم البلدان (أيك ، صيدة) : « أنس بن مدركة » .

(٢) فى الأصل : « أبو الحسن » صوابه من كتاب كنى الشعراء لابن حبيب الملحق بكتاب أسماء المغتالين له ، مصورة دار الكتب المصرية ، وكذا الخزانة ١ : ٤٧٨ .

(٣) صدره : * عزمت على إقامة ذى صباح *

(٤) صدره : * أجارتنا إنا غريبان ها هنـا *

انظر معجم البلدان (عسيب) والشعر والشعراء ٦٩ .

(٥) صدره : * وقاهم جـدهم ببنى أبيهم *

ديوان امرئ القيس ١٦٠ .

(٦) صدره : * الله أنجـح مـا طلبت به *

والبيت يروى لامرئ القيس بن عابس الكندى . الأغانى ٣ : ٩٤ .

(٧) صدره : * نبئت أن أبا قابوس أوعدنى *

(٨) صدره : * مقالة أن قد قلت سوف أناله *

وقال : * إذاً فلا بسطت سوطى إلىّ يدى[(١)] *

وقال : * وليس وراء الله للمرء مذهبُ[(٢)] *

وقال : * لمبلغك الواشى أغشُّ وأكذبُ[(٣)] *

وقال : * ولكن ما وراءكَ يا عصامُ[(٤)] *

وقال : * وهل يأثَمَنْ ذو إمّة وهو طائع[(٥)] *

وقال : * سَبْقَ الجوادِ إذا استولى على الأمَدِ[(٦)] *

أنس بن أبى إياس[(٧)] : * وشـــديد عادة منتزعهْ[(٨)] *

زهير بن أبى سلمى : * وكانوا قديماً من مناياهم القتلُ[(٩)] *

وقال : * ولا محالةَ أن يشتاقَ من عشقا[(١٠)] *

---

(١) صدره : * ما قلت من سيّ مما أتيت به *

(٢) صدره : * حلفت فلم أترك لنفسك ريبــة *

(٣) صدره : * لئن كنت قد بلغت عنى خيانة *

(٤) صدره : * فإنى لا الأم عــلى دخــول *

وكان النابغة قد وفد على النعمان ليعوده ، وأراد الدخول فمنعه حاجب النعمان عصام بن شهبر . أى لا ألام على ترك الدخول إليه لأنى محجوب منه ، لغضبه على وخوفى إياه على نفسى . ويروى : « فإنى لا ألومك » .

(٥) صدره : * حلفت ولم أترك لنفسك ريبة *

(٦) صدره : * إلا لمثلك أو من أنت سابقه *

(٧) هو أنس بن زنيم بن محمية بن عبد بن عدى الكنانى ، وذكره صاحب المؤتلف ٥٥ . وانظر الحيوان ٥ : ٢٠٥ .

(٨) صدره كما فى مجموعة المعانى ١٧٣ :

* لا تهنى بعــد إكرامك لى *

وقبله : سل أميرى ما الذى غيره عن وصالى اليوم حتى وزعه

ونسب البيت فى زهر الآداب ١ : ٢٥٣ إلى أبى الأسود الدؤلى .

(٩) صدره : * فإن يقتلوا فيشتفى بدمائهم *

أى هم أشراف دماؤهم دواء من داء الكلب ، أوهم أشراف إذا قتلوا رضى بهم من قتلهم بهم يدرك ثأره ويشتفى . من مناياهم القتل ، اى لا يموتون على فرشهم .

(١٠) صدره : * قامت تبدى بذى ضال لتحزننى *

وقال : * على آثار مَن ذهَبَ العفاء(١) *
عنترة : * والكفر مَخبثة لِنفس الْمنعِمِ(٢) *
لبيد : * ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر(٣) *
وقال : * ومِن الأرزاء رزء ذو جَلَل(٤) *
طرفة : * ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّدِ(٥) *
أبو خراش : * وإنما نوكَّل بالأدنَى وإنْ جلّ ما يَمضى(٦) *
أبو ذؤيب : * والدهرُ ليس بمعتبٍ مَن يجزعُ(٧) *
وقال : * وإذا تُرَدُّ إلى قليل تَقنعُ(٨) *
حميد بن ثور : * وحسبك داء أن تَصِحّ وتَسلما(٩) *
أبو الأسود : * وما كل مؤتٍ نصحه بلبيب(١٠) *
القطامى : * وقد يَكون مع المستعجل الزللُ(١١) *
عروة بن الورد : * ومبلغ نفسٍ عذرَها مثلُ مُنجِحِ(١٢) *
جرير : * ليت التشكِّى كانَ بالعُوَّادِ(١٣) *

---

(١) صدره : * تحمل أهلها عنها فبانوا *
(٢) صدره : * نبئت عمرا غير شاكر نعمتى *
(٣) صدره : * إلى الحول ثم اسم السلام عليكما *
(٤) صدره : * وأرى أربد قد فارقنى *
(٥) صدره : * ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا *
(٦) صدره : * على أنها تعفو الكلوم وإنما *
(٧) صدره : * أمن المنون وريبها تتوجع *
(٨) صدره : * والنفس راغبة إذا رغبتها *
(٩) صدره : * أرى بصرى قد رابنى بعد صحة *
(١٠) صدره : * وما كل ذى نصح بمؤتيك نصحه *
(١١) صدره : * قد يدرك المتأنى بعض حاجته *
(١٢) صدره : * ليبلغ عذرا أو يصيب رغيبة *
(١٣) صدره : * وتزور سيدنا وسيد غيرنا *
وانظر ماسبق من تحقيق هذا البيت فى كتاب ابن فارس ص ١٥١ .

وقال : * رأيت المـرء يلزم ما استعادا[١] *

ومثله : * وكل امرئٍ جارٍ على ما تعوّدا[٢] *

الحطيئة : * ولا ترى طارداً للحرّ كالياسِ[٣] *

وقال : * لا يذهبُ العُرف بين الله والناسِ[٤] *

وقال : * ومن يسوّى بأنف الناقة الذّنبا[٥] *

دريد بن الصمة : * يضَع الهِنـــاء مواضعَ النُّقَبِ[٦] *

مالك بن الريب : * وكل بلادٍ أُوطِنت كبلادِ[٧] *

سالم بن وابصة : * إن التخلق يأتى دونه الخلق[٨] *

ابن الزِّبَعرَى : * وعدلنــــاه بيـدرٍ فاعتدل[٩] *

---

(١) صدره : * تعود صالح الأعمـال إنى *
والاستعادة هنا بمعنى التعود ، كما فى اللسان (عود) .

(٢) هذا تنظير فى الاستشهاد ، والبيت لم يرد فى ديوان جرير ، فلعله استشهاد بشعر غيره .

(٣) صدره : * أزمعت يأسا مريحا من نوالكم *

(٤) صدره : * من يفعل الخير لا يعدم جوازيه *

(٥) صدره : * قوم هم الأنف والأذناب غيرهم *

(٦) صدره : * متبـذلا تبـدو محـاسنه *
الهناء : القطران تهنأ به الإبل ، أى تطلى . والنقب : جمع نقبة ، وهى القطع المتفرقة من الجرب فى جلد البعير . وكانت الخنساء قد خرجت فهنأت ذودا لها جربى ، ثم نضت عنها ثيابها واغتسلت ، ودريد يراها ولا تراه ، فقال فيها هذا الشعر ، وأوله كما فى الأمالى ٢ : ١٦١ :

حيوا تماضر واربعوا صحبي وقفوا فإن وقوفكم حسبي

(٧) صدره : * وفى الأرض عن ذى الجوز منأى ومذهب *
ونسبة البيت إلى مالك بن الريب غريبة ، فإن أبا تمام رواه فى الحماسة ١ : ٢٧٨ للفرزدق من أبيات ، وهى فى ديوان الفرزدق ١٩٠ . ونسب فى حماسة البحترى ١٨٠ إلى رجل من تميم . والفرزدق تميمى .

(٨) صدره : * عليك بالقصد فيما أنت فاعله *
ونسبته إلى سالم بن وابصة تطابق ما فى الحماسة ١ : ٢٩٥ . ونسب فى حماسة البحترى ٣٥٨ إلى ذى الإصبع العدوانى . وصدره فى الأخيرة :

* اعمد إلى الحق فيما كنت فاعله *

(٩) كذا فى الأصل . ورواية السيرة ٦١٦ جوتنجن والحيوان ٥ : ٥٦٠ : « وعدلنا ميل بدر » . وصدره فى السيرة :

* فقتلنا الضعف من أشرافهم *

الأخطل : * والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر[١] *

يزيد بن مفرغ : * والحـر تـكفيه الملامه[٢] *

عَبْدة بن الطبيب : * وفىّ لمصلح مستمتع[٣] *

وقال : * والعيش شُحٌ وإشفاق وتأميلُ[٤] *

وقال : * أعرافُهنّ لأيدينا مناديلُ[٥] *

عمر بن أبى ربيعة : * إنمـا العاجز مَن لا يستبد[٦] *

وقال : * حسَنٌ فى كلِّ عينٍ من يودّ[٧] *

وقال : * ووجوهٌ زهاها الحسنُ أن تتقنعا[٨] *

وقال : * وحديث النفس قدما وَلوعُ[٩] *

العُدَيل بن الفرخ : * وما على الحرِّ إلا الحلفُ مجتهدا *

الحارث بن وعلة : * والقول تحقره وقد يَنْمِى[١٠] *

= وفى الحيوان : * وقتلنا الضعف من ساداتهم *

(١) صدره : * حتى استكانوا وهم منى على مضض *

(٢) صدره : * العبد يقرع بالعصا *

(٣) هو بتمامه كما فى المفضليات ١ : ١٤٣ :

أبنى إنى قد كبرت ورابنى بصرى وفىّ لمصلح مستمتع

(٤) صدره : * وللمرء ساع لأمر ليس يدركه *

(٥) صدره : * ثمت قمنا إلى جرد مسومة *

(٦) صدره : * واستبدت مرة واحدة *

وقبله : ليت هندا أنجزتنا ماتعد وشفت أنفسنا مما تجد

(٧) كذ بالياء ، وتقرأ بالبناء للمفعول . ويروى بالتاء . وصدره :

* فتضاحكن وقد قلن لها *

(٨) صدره : * فلما تواقفنا وسلمت أشرقت *

(٩) صدره : * إن همى قد نفى النوم عنى *

(١٠) صدره : * أن يأبروا نخلا لغيرهم *

وقبله فى الحماسة ١ : ٦٥ :

لا تأمنن قوما ظلمتهم وبدأتهم بالشتم والرغم

الخنساء : * كأنه علم فى رأسه نار[(١)] *

الأسود بن يعفر : * والدهر يُعقِب صالحاً بفسادِ[(٢)] *

عبد الله معاوية : * ولكن عين السخط تبدى المساويا[(٣)] *

نُصيب : * ولو سكتوا أثنت عليك الحقائبُ[(٤)] *

قَعنَب بن أمّ صاحب : * زكِنت منهم على مثل الذى زَكِنوا[(٥)] *

ابن الدمينة : * على ذاك قرب الدار خير من البعدِ[(٦)] *

الطائية[(٧)] : * وكيف بتركى يا ابن أمّ الطبائعا *

أشجع بن عمرو : * ما أخَّر الحزمَ رأىٌ قدم الحذَرا[(٨)] *

---

(١) صدره : * وإن صخرا لتأتم الهداة به *

(٢) صدره : * فإذا وذلك لا مهاه لذكره *

وهو آخر قصيدة له فى المفضليات ٢ : ١٥ — ٢٠ .

(٣) صدره : * وعين الرضا عن كل عيب كليلة *

(٤) صدره : * فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله *

انظر ماسبق من التحقيق فى كتاب ابن فارس ص ١٤٢

(٥) صدره : * ولن يراجع قلبى حبهم أبدا *

(٦) صدره : * وقد زعموا ان المحب إذادنا *

(٧) هى غنية بنت عفيف بن عمرو بن عبد القيس ، وهى أم حاتم ، كانت من أسخى النساء وأقراهن الضيف ، وكانت لا تليق شيئا تملكه ، فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها ومنعوها مالها ، فمكثت دهرا لاتصل إلى شىء ولا يدفع إليها شىء من مالها ، حتى إذا ظنوا أنها قد وجدت ألم ذلك أعطوها صرمة من إبلها ، فجاءتها امرأة من هوازن كانت تأتيها كل سنة تسألها ، فقالت لها : دونك هذه الصرمة فخذيها فقد والله مسنى من ألم الجوع ما آليت معه ألا أمنع الدهر سائلا شيئا ، ثم أنشأت تقول :

لعمرى لقدما عضنى الجوع عضة ... فآليت ألا أمنع الدهر جائعا

فقولا لهذا اللائمى اليوم أعفنى ... فإن أنت لم تفعل فعض الأصابعا

فماذا عسيتم أن تقولوا لأختكم ... سوى عذلكم أو عذل من كان مانعا

ولا ماترون الخلق إلا طبيعة ... فكيف بتركى يا ابن أم الطبائعا

انظر الأمالى ٢:٢٣٣ .

(٨) صدره كما فى عيون الأخبار ١ : ٣١ :

* رأى سرى وعيون الناس هاجعة *

ابن أبى عيينة : * فالصبر من كلِّ أمرٍ فائتٍ خلفُ *

البكرى[(١)] : * إن بنى عمِّكَ فيهم رماح[(٢)] *

أبو حفصٍ الشطرنجى : * لو صح منك الهوى أرشدتَ للحيلِ *

دعبل : * ضحك المشيبُ برأسه فبكى[(٣)] *

دعبل : * كان يُنهَى فنَهَى حيث انتهى *

العتكى : * حلّمنى قلّة أكفائى *

محمود : * فاصبر فإن الدهر لا يصبر *

عباس بن الأحنف : * من عالج الشوق لم يستبعد الدارا[(٤)] *

آخر : * والمشربُ العذبُ كثير الزحام[(٥)] *

آخر : * إن النَّدَى حيث ترى الضِّغاطا[(٦)] *

آخر : * من فاته العين لم يستبعد الأثرا[(٧)] *

---

(١) فى البيان والتبيين ٣ : ٣٤٠ ومعاهد التنصيص ١ : ٢٧ أنه حجل بن نضلة .

(٢) صدره : * جاء شقيق عارضا رمحه *

(٣) صدره : * لا تعجبى ياسلم من رجل *

(٤) سبق فى حواشى كتاب ابن فارس ص ١٥٦ . وصدره كما فى ديوان العباس ٧٣ :

* ستقرب الدار شوقا وهى نازحة *

وفى محاضرات الراغب :

* يقرب الشوق دارا وهى نازحة *

(٥) صدره : * يزدحم الناس على بابه *

وهو بدون نسبة فى عيون الأخبار ١ : ٩٠ .

(٦) هذا ليس عجزا من أعجاز الشعر ، بل هو شطر من أشطار الرجز . والرجز فى البيان ١ : ١٧٧ والحيوان ٥ : ٤٥٤ . وأنشد الجاحظ الشطر فى البخلاء ٢٠٣ وابن قتيبة فى عيون الأخبار ١ : ٩١ . والضغاط بالكسر : الزحام .

(٧) أى من فاته عين شئ فإنه يقنع بتتبع أثره . وأما من فاز بعين الشئ فإنه لا يهتم بتتبع أثره ، كما جاء فى أمثالهم للرجل يترك شيئا يراه ثم يتبع أثره بعد فوت عينه : « تطلب أثرا بعد عين » .

آخر : * أنّ السلامة منها تَركُ ما فيها[1] *

آخر : * وما لا ترى مما يقى اللهُ أكثرُ *

آخر : * وإن الصِّبا لَلعيشُ لولا العواقبُ *

آخر : * سَقَطَ العَشاءُ بِهِ على سِرْحانِ[2] *

آخر : * إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصارا[3] *

آخر : * ناب وقد تقطع الداويّة النابُ *

آخر : * أَذِنَ الخِوانُ برغم أنف الحاجبِ[4] *

آخر : * لا يحسنُ البرُّ إلا بعد إنصافِ *

آخر : * لا خير فى لذة من بعدها النار *

آخر : * والهجر خيرٌ من الفراقِ *

---

(١) لسابق البربرى ، كما فى محاضرات الراغب ١ : ٢٥١ . وسابق البربرى هذا شاعر أموى . ترجم له فى الخزانة ٤ : ١٦٤ . وصدر البيت :

* النفس تكلف بالدنيا وقد علمت *

(٢) قيل إن السرحان هنا الذئب ، وأن رجلا خرج يلتمس العشاء فوقع على ذئب فأكله الذئب . وقيل سرحان رجل من غنى كان يقال له سرحان بن هزلة ، وكان بطلا فاتكا يتقيه الناس ، فقال رجل يوما : والله لأرعين إبلى هذا الوادى ولا أخاف سرحان بن هزلة فورد بإبله ذلك الوادى فوجد به سرحان وهجم عليه فقتله وأخذ إبله ، وقال :

أبلغ نصيحة أن راعى أهلها   سقط العشاء به على سرحان

سقط العشاء به على متقمر   طلق اليدين معاود لطعان

وفى اللسان (قمر) أن هذا الشعر لعبد الله بن عنمة الضبى .

(٣) أنشد هذا العجز فى أمثال الميدانى ١ : ٢٧ وقال : « يضرب مثلا للمدل بنفسه إذا بلى بمن هو أدهى منه وأشد » .

(٤) قيل إن البيت لبشار ، وقيل هو لغيره . عيون الأخبار ١ : ٨٦ . وفيه :

تأبى خلائق خالد وفعاله   إلا تجنب كل أمر عائب

فإذا أتيت الباب وقت غدائه   أذن الغداء برغم أنف الحاجب

وفى محاضرات الراغب ١ : ٣١٠ : « وإذا حضرنا الباب عند غدائه » .

آخر : * فينا العسر إذ دارت مياسير[1] *

آخر : * وتعلمُ قومى حين أنزعُ من يَرمى *

آخر : * لكلِّ أناسٍ من بعيرهم خُبُر[2] *

آخر : * كَفَّا مطلَّقةٍ تفتُّ اليَرمعا[3] *

آخر : * إنّما الجودُ المقِلُّ المُواسِى *

آخر : * قد ذلّ مَن ليس له ناصر[4] *

آخر : * ذهب القضاة بحيلة الأقوام *

(تمت والحمد لله وحده)

---

(١) صدره : * فاستقدر الله خيرا وارضين به *
والشعر قصة فى عيون الأخبار ٢ : ٣٠٥ . وانظر مجالس ثعلب ٢٦٥ ومحاضرات الراغب ٢ : ٢٣٩ ونزهة الألبا ٣٠ والمعمرين ٤٠ والعقد ١ : ٣٨١ بولاق ودرة الغواص ٣٣ وأسد الغابة ٣ : ٣٥١ . ونسب الشعر فى المختار من شعر بشار ٢١٣ إلى نويفع بن لقيط الفقعسى ، وفى شرح شواهد المغنى ٨٦ لعثير بن لبيد العذرى أو حريث بن جبلة . وفى تاج العروس (دهر) لأبى عيينة المهلبى .

(٢) يضرب فى معرفة كل قوم بصاحبهم . ويروى : «فى جبلهم» مصغر جبل . البيان ١ : ٣/٢٣٨ : ٣٠٠ والميدانى ٢ : ١١٤ ــ ١١٥ واللسان (جبل) .

(٣) اليرمع : حجارة لينة رقاق بيض تلمع . وأنشد هذا العجز فى اللسان (رمع) . وقال الميدانى فى أمثاله فى باب الكاف : « يضرب للرجل ينزل به الأمر يبهظه فيضج ويجلب فلا ينفعه ذلك » .

(٤) من بيتين فى اللسان (عمر) وسمط اللآلى ١٧٤ والتنبيه على أمالى القالى ٣٠ . وهما :

قامت تبكيه على قبره ... من لى من بعدك يا عامر
تركتنى فى الدار ذا غربة ... قد ذل من ليس له ناصر

كتاب العصا

لأبي المظفر أسامة بن منقذ

٤٨٨ - ٥٨٤

مقدمة

أسامة بن منقذ (١) :

فى قلعة شيزر ، على بعد خمسة عشر ميلا من الشمال الغربى لحماة ، ولد الأمير أبو المظفر أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكلبي الشيزرى ، الملقب مؤيد الدولة مجد الدين ، وذلك فى يوم الأحد ٢٨ من جمادى الآخرة سنة ٤٨٨ وهذا العام هو الذى ألقى فيه البابا (أوربانوس الثانى) خطابه محرضاً المسيحيين على انتزاع بيت المقدس من أيدى المسلمين . وعاش أسامة حياته الطويلة المعمرة معاصراً للحروب الصليبية إلى أن نال صلاح الدين الأيوبى انتصاراته الفاصلة فى تلك الحروب ، ثم قضى أسامة نحبه فى ليلة الثلاثاء ٢٣ من رمضان سنة ٥٨٤ .

نشأ أسامة فى كنف أبويه وعمه وجدته فى أسرة جل رجالها فرسان محاربون فشب على الفروسية والجرأة النادرة وممارسة الصيد ، وملاقاة الأسود ، وعنى أبوه بتثقيفه ، فكان يحضر له كبار الشيوخ يقبس هو وإخوته منهم العلم ، فكان شيخه فى الحديث أبا الحسن على بن سالم السنبسى ، وفى الأدب أبا عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة ، كما قرأ النحو عشر سنين على سيبويه زمانه أبى عبد الله الطليطلى النحوى . وسمع منه الحافظ أبو سعد السمعانى صاحب كتاب الأنساب (٥٠٦—٥٦٢) والحافظ ابن عساكر (٤٩٩ — ٥٧١) والعماد الأصبهانى (٥١٩ — ٥٩٧) والحافظ عبد الغنى المقدسى (٥٤١ — ٦٠٠) .

وخرج أسامة من شيزر سنة ٥٣٢ فأقام بدمشق نحواً من ثمان سنين فى رعاية صديقه معين الدين أنر ، وزير شهاب الدين محمود ، حتى نبت به دمشق فسار إلى مصر

---

(١) ترجم له ابن عساكر فى تاريخ دمشق والسمعانى فى الأنساب فى رسم (الشيزرى) وابن خلكان فى الوفيات ، وأبو شامة فى الروضتين ، وابن الأثير ، وصاحب النجوم الزاهرة والذهبى فى تاريخ الإسلام ، وياقوت فى إرشاد الأريب ، والعماد الأصبهانى فى الخريدة ، كما ترجم هو لنفسه فى كتاب الاعتبار . وانظر دائرة المعارف الإسلامية ، ومقدمة الأستاذ الكبير الشيخ أحمد شاكر لباب الآداب ، والدكتور فيليب حتى لكتاب الاعتبار . وقد اختصه صديقنا الأستاذ محمد حسين مراقب الفهارس بدار الكتب المصرية بدراسة شاملة تعد أوسع وأغزر ما كتب فى أسامة .

فدخلها يوم الخميس فى الثانى من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ فلقى فيها إكراما من الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله عبد المجيد بن المنتصر العلوى . ثم ولى الخلافة ابنه الأصغر الظافر بأمر الله أبو منصور إسماعيل من سنة ٥٤٤ — ٥٤٩ وكان وزيره على بن السلار الملقب بالملك العادل . وهذا أرسل أسامة فى سفارة حربية سياسية إلى الملك العادل نور الدين بن زنكى .

وبعد حروب ووقائع استدعاه على بن السلار إلى مصر فمكث بها إلى سنة ٥٤٩ ثم غادرها مكرهاً بعد اغتيال الخليفة الفاطمى الظافر الذى حدثت فى عهد خلافته أحداث وفتن قتل فى أثنائها الخليفة وزيره ، وذهب المؤرخون أن لأسامة يدا فى قتلهما . وأما أسامة فإنه يحاول تبرئة نفسه من ذلك (١) .

ورجع أسامة من مصر إلى دمشق فأقام بها ردحا من الزمن ، ثم رحل بأهله وولده إلى حصن كيفا وأقام بها إلى أن استولى صلاح الدين الأيوبى على دمشق سنة ٥٧٠ ، وكان لأسامة ولد يدعى « أبا الفوارس مرهف بن أسامة » وكان ذا منزلة عالية عند صلاح الدين، فظل يصنع لأبيه عند السلطان حتى استدعاه إلى دمشق وهو شيخ قد تخطى الثمانين ، فحاز إعجاب صلاح الدين وتقديره وجعله من خاصته بمنزلة المؤامر المستشار . وظل أسامة فى دمشق حتى وافته منيته .

مؤلفاته :

ألف أسامة فى ضروب شتى من العلم ، وأشهر كتبه كتاب (الاعتبار) ألفه وهو ابن تسعين ، وقد نشر مرتين إحداهما بتحقيق درنبورغ ، والأخرى بتحقيق الدكتور فيليب حتى . وكتاب (لباب الآداب) ألفه وهو ابن إحدى وتسعين ، وأول ناشر له هو الصديق الجليل الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر . و (البديع) فى نقد الشعر . و (الشيب والشباب) عارض به الشريف المرتضى ، قال فيه أسامة : « فمن وقف عليه من الفضلاء عرف ما بينه وبين كتاب الشهاب فى ذكر الشيب والشباب تأليف المرتضى رضى الله عنه ، وعلم أن الفضل للمقدم فى البيان لا فى التقدم فى الزمان(٢) » . و(ديوان أسامة) وقد صنعه بنفسه كما نص فى كتاب العصا . ومنه نسخة قديمة تاريخ كتابتها سنة ٦٨٨ دخلت فى خزانة دار الكتب المصرية فى ديسمبر

---

(١) الاعتبار ٦ — ٢٩ . (٢) لباب الآداب ٣٢٧

سنة ١٩٤٧ برقم ١٦٨٧٧ ز ، وصورت منها صورتان شمسيتان اعتمدت على إحداهما في معارضة شعر أسامة .

كتاب العصا :

على أن الذى يعنينا الآن من مؤلفات أسامة هو كتاب العصا . وليس هذا العنوان من ابتداع أسامة ، فإنه يذكر لنا فى مقدمة كتابه هذا ، الباعث له على هذا التأليف ، وهو قصة قصها عليه والده جاء فيها على لسان أبى يوسف القزوينى مخاطبا أبا الحسن بن بوين حين أمسك من كتبه كتاباً يسمى « العصا » لمؤلف ضاع اسمه « ما أحوجك أن يكون ما فى يدك فوقها » . قال أسامة (١): « ولى منذ سمعت هذا نحو من ستين سنة أتطلب كتاب العصا بالشام ومصر والعراق والحجاز والجزيرة وديار بكر فلا أجد من يعرفه . وكلما تعذر وجوده ازددت حرصا على طلبه ، إلى أن حدانى اليأس منه على أن جمعت هذا الكتاب وترجمته بكتاب العصا ، ولا أدرى أكان ذلك الكتاب على هذا الوضع أم على وضع غيره ... ولا أرتاب أن مؤلف ذلك الكتاب وقع له معنى فأجاد فى تنميقه وتأليفه ، وأنا فاتنى مطلوب ففزعت إلى تجويزه وتلفيقه » . ويدور فى خلدى أن ذلك الكتاب الذى ظل أسامة يبحث عنه دهرا إنما هو « كتاب العصا » للجاحظ ، وهو من مشتملات كتاب البيان والتبيين وأن أسامة إنما التبس عليه الأمر فظن ذلك الكتاب الذى دار حوله الحديث كتاباً مستقلا لمؤلف آخر غير الجاحظ ، على حين عرف هو كتاب العصا للجاحظ ، وقرأه واقتبس منه كثيراً فى كتابه هذا .

وهذا الكتاب الذى ضمنه الجاحظ الجزء الثالث من البيان والتبيين إنما كان محوره مزاعم الشعوبية الذين ذكروا فى مثالب العرب أنهم يعتمدون فى خطبهم على العصا ويتكئون على القوس ، « وليس بين الكلام والعصا سبب ، ولا بينه وبين القوس نسب ، وهما إلى أن يشغلا العقل ويصرفا الخواطر ويعترضا على الذهن أشبه ، وليس فى حملهما ما يشحذ الذهن ، ولا فى الإشارة بهما ما يجلب اللفظ .. .. وحمل العصا بأخلاق الفدادين أشبه ، وهو بجفاء العرب وعنجهية أهل البدو ، ومزاولة إقامة الإبل على الطرق أشكل ، وبه أشبه (٢) » .

---

(١) فى مقدمته لكتاب العصا . (٢) البيان ٣ : ٩٢ .

وقد انبرى الجاحظ لهم فى إسهاب جميل معلنا مزية العصا ومحاسنها ، فهو يسوق الأخبار والأشعار ، ويزجى الأمثال واللغات ، والبراهين والحجج على عظم شأن العصا وكريم فضلها ، وشدة الحاجة إليها ، وقيامها مقام سائر السلاح فى القتال .

وقد نهج أسامة فى صدر كتابه هذا منهجاً مقارباً لمنهج الجاحظ ، ولكن تأليف أسامة تأبى إلا أن تحمل طابع تأليفه ، وهو العناية الظاهرة بسرد ما يعرض له فى حياته من أحداث وما يتلقفه من أخبار ، ولا سيما أخبار الصالحين والزهاد(١) ، وكذا أخبار الإفرنج وإبداء رأيه فى أخلاقهم وسياستهم .

وهو لاينسى أن يوشع تأليفه هذا بعرض طائفة من أشعاره ، كما صنع فى كتابه الاعتبار ، وكتاب لباب الآداب .

ومما هو بالذكر جدير أن كتاب العصا قد أدى إلينا من شعر أسامة ثروة لايستهان بها ، وهى تسعون بيتاً زائداً على شعر ديوانه الذى سبقت الإشارة إليه ، كما أدى إلينا نصا نادرا لأبى العلاء المعرى ، هو نموذج من كتاب (القائف) الذى طوته أحداث الزمان .

نسخة كتاب العصا :

هذه النسخة هى إحدى نسخ ثلاث معروفة :

الأولى نسخة ليدن رقم ٣٧٠ وعليها تاريخ ١٠٩٤ . ومن هذه النسخة نشر درنبورغ (Derenbourg) مقتطفات منها مع أخرى من ديوان أسامة بعنوان (Anthologie de textes Arabes inédits par Ousâma et sur Ousâma) وذلك فى باريس سنة ١٨٩٣ .

والثانية نسخة الأمبروزيانا بميلان ، ورقمها H ١٢٥ وتاريخ نسخها سنة ١٠٦٧ .

والثالثة نسختنا هذه ، وربما كانت تمت بسبب إلى إحدى النسختين السابقتين فإنها مكتوبة بخط حديث فى كراسة حديثة أكل الفأر بعض أطرافها . وقد أمكننى عند التحقيق سد تلك الثغرات والإشارة إليها فى مواضعها ، وهى ثغرات قليلة (٢) .

وهذه النسخة هى التى تفضل الأستاذ الكبير (الدكتور أحمد أمين بك) فأشار على أن أقوم بتحقيقها ونشرها ، ووثق بإرسالها إلى فى صحبة رسول كريم ، فكان

(١) انظر قصة جرار وقصة حسن الزاهد .
(٢) أشير إلى ذلك بوضعه بين علامتى التكملة [ ] .

ذلك إسهاما كريما فى (نوادر المخطوطات) . فإليه أزجى أجل الشكر وصادق الثناء .

وبدا لى بعد ما استنسخت صورة من هذا الكتاب وعارضتها بالأصل أن أقترح على حضرته إهداء الأصل إلى دار الكتب المصرية فى عهد مديرها الكاتب الكبير (الأستاذ توفيق بك الحكيم) صاحب (العصا) ، فوافق هذا الاقتراح منه مناسبة أدبية موفقة . وقد حفظت هذه النسخة بدار الكتب برقم ١٩٨١٣ ز .

العصا لا القضا :

وكان صديق العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر فى مقدمته لكتاب (لباب الآداب) لأسامة قد أشار إلى كتاب العصا ، واستظهر أن يكون صوابه « القضا » لا العصا ، وبعد فترة من الزمن حين وقعت نسخة كتاب العصا إلى الأستاذ الكبير أحمد أمين بك كتب مقالا فى مجلة الثقافة (١) يقطع الشك باليقين فى تسمية هذا الكتاب ، ويعين أن اسمه «العصا» لا القضا ، وعرف بالكتاب تعريفاً فى مقاله هذا ، وعرض طائفة من مشتملاته ، وقد أخبرنى ـ حفظه الله ـ فى لقاء قريب ، أن نسخته هذه وقعت إليه منذ نحو ثمانى سنوات فى أوراق وكتب ، اشتراها من مكتبة (السيد محمد أمين الخانجى) .

وإليك نص كتاب العصا :

(١) نشر هذا المقال أيضا فى فيض الخاطر ٤ : ١٤٣ ـ ١٤٧ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وعلى أصحابه البررة المتّقين ، وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين ، صلاةً دائمةً إلى يوم الدين .

و بعد فإنّ النفس ترتاح لما سمعت ، وتُلحّ فى الطّلب إذا مُنِعت . وكان الوالد السعيد مجد الدين أبو سلامة مرشد بن على بن مقلّد بن نصر بن منقذ رضى الله عنه ، حدّثنى أنّه لما توجه إلى خدمة السلطان ملِكشاه[1] رحمه الله ، وهو إذ ذاك بأصفهان قصد القاضى الإمام الصّدر العالم أبا يوسف القزوينى رحمه الله ، عائداً ومسلِّما بمعرفة قديمة كانت بينهما ، ويَدٍ كانت عنده للجدّ سديد الملك ذى المناقب أبى الحسن علىّ بن مقلّد رحمه الله . وذاك أن القاضى المذكور سافر إلى مصر فى أيام الحاكم صاحب مصر ، فأحسن إليه وأكرمه ووصله بصلات سنية ، فاستعفى منها وسأله أن يجعل صلته كتباً يقترحها من خِزانة الكتب ، فأجابه إلى ذلك ، فدخل الخزانة واختار منها ما أراد من الكتب ، ثم ركب فى مَركَب وتلك الكتبُ معه ، يريد بلاد الإسلام التى فى الساحل ، فتغيّر عليه الهواء فرمى بالمركب إلى مدينة اللاذقية وفيها الروم ، فبعِلَ بأمره[2] وخاف على نفسه وعلى ما معه من الكتب ، فكتب إلى جدى سديد المُلك رحمه الله تعالى كتاباً يقول فيه : « قد حصلت ع[ـند] اللاذقية بين الروم ، ومعى كتب

(١) هو السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان بن محمد بن داود بن ميكائيل ، جلال الدولة أبو الفتح السلجوقي ، ثالث ملوك السلاجقة ، تولى الملك بعد أبيه ألب أرسلان سنة ٤٦٥ ، وتوفى سنة ٤٨٥ هو ووزيره نظام الملك الحسن بن إسحاق ، صاحب المدرسة النظامية .

(٢) بعل بأمره : برم وضجر فلم يدر كيف يصنع فيه .

الإسلام ، وقد وقعت لك رخيصا فهل أجدك حريصا » . فسيّر إليه من يومه ولده عمى عِزّ الدولة أبا الـ[رهَف[1]] نصراً رحمه الله ، وسيّر معه خيلا كثيرا من غلمانه وجنده ، وظَهراً لركوبه وحمل أثقاله ، فأتاه وحَمَله وما معه فأقام عند جدّى رحمه الله مدّة طويلة ، وكانت له بالوالد رحمه الله عنايةٌ وإلف ، فلما اجتاز ببغداد قصده ليجدِّد به عهدا ، فحدثنى رحمه الله قال :

دخلت عليه ومعى الشيخ أبو الحسن على بن البُوَين الشاعر ، وهو كاتب كان لجدِّى رحمه الله ، فوجدته قد بلغ من العمر ما غَيّرَ ما كنت أعرفه فيه ، ونسى كثيراً مما كان يذكره ، فلما رآنى عَرَفنى بعد السُّؤال ، لأنّه فارقَنى وأنا صبىّ ورآنى وأنا رجل ، فاستخبرنى عن طريقى ، فعرّفته توجُّهى إلى دَرْكاه السُّلطان[2] ، فقال : تبلِّغ خواجا بُزُرْك نظام الدِّين[3] سلامى ، وتعرفه إن الجزء الأول من التفسير الذى قد جمعته قد ضاع ، وهو تفسير « بسم الله الرحمن الرحيم » واسأله أن يأمر باستنساخه من النسخة التى فى خزانته ويُنْفذه لى . وكان جَمَع تفسير القرآن فى مائة مجلد ، وكان لضعفه وكبره مستنداً بين الجالس والمستلقى على فراش له ، وحوله كتب كثيرة ، وهو يكتب ، فسلَّم عليه الشيخ أبو الحسن بن البُوَين كاتب الأمير سديد الملك . قال : البوين أى شىء هو ؟ لعن الله البُوين ! ثم فكّر هنيهة وقال : أنت الشاعر النحوى الكاتب ؟ قال : نعم . فأنشد :

قالوا السّلامىُّ فقلت اطبِقى ذا مِحلبانُ الضَّرع لبّانُ[4]

ثم عاد إلى حديثه معى فلمح الشيخَ أبا الحسن وقد أخذ كتاباً من تلك

---

(١) التكملة من النجوم الزاهرة ٥ : ١٦٣ . وهو أبو المرهف نصر بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ . وقدتولى شيزر سنة ٤٧٩ وتوفى سنة ٤٩٢.

(٢) الدركاه : القصر ، فارسيته دركاه ، ومعناه الباب والسدة والدار ، مركب من « در » أى باب ، ومن « كاه » أى محل . الألفاظ الفارسية المعربة لأدى شير ٦٢.

(٣) كذا فى الأصل . وفى الألفاظ الفارسية المعربة ٢٢ : « البزرك فارسى محض ، ومعناه العظيم ، لقب به الوزير نظام الملك » . وانظر كتاب الاعتبار ١٧٤ ــ ١٧٥ .

(٤) محلبان ، عنى به المبالغة من الحلب ، ولم أجده فى معجم .

الكتب التى حول فراشه فقال : يدخل الإنسان وينبسط ويقرأ ما عنده[1] من من الكتب ، أى إنّى من أهل العلم ، ما أحوجك أن يكون ما فى يدك فوقها . فألقاه من يده ، وكان الكتاب كتاب العصا .

ولى منذ سمعت هذا نحو من ستين سنة أتطلب كتاب العصا بالشام ومصر والعراق والحجاز والجزيرة وديار بكر فلا أجد من يعرفه ، وكلّما تعذّر وجودُه ازددت حِرصاً على طلبه ، إلى أن حدانى اليأس منه على أن جمعت هذا الكتاب وترجمته بكتاب العصا . ولا أدرى أكان ذلك الكتاب على هذا الوضع أم على وضعٍ غيره . على أنّى قد بلّغتُ النفس مُناها ، وكانت حاجةً فى نفس يعقوب قضاها . ولا أرتاب فى أن مؤلّف ذلك الكتاب وقَع له معنًى فأجاد فى تأليفه وتنميقه ، وأنا فاتنى مطلوب ففرغت إلى تجويزه وتلفيقه[2] . وكتابى هذا وإن كان خالياً من العلوم يتجمّل [أصحاب[3]] التصانيف بها ، ويرغب أولو الفضل فى طلبها ، فما يخلو من أخبارٍ وأشعار تميل النفوس إليها ، ويحسن موقعُها ممن وقَف عليها . وقد افتتحته بذكر عصا موسى عليه السلام ، ثم ذكر عصا سليمان بن داود عليه السلام ، ثم أفَضْتُ فى ذكر الأخبار والأشعار التى يأتى فيها ذكر العصا . ولا أدّعى أنى أتيت على ذكر العصا فيما جمعته ، وإنما أدرت منه ما حفظتُه وسمعته . وبالله عزّ وجل أعو[ذُ] وأعتصم ، من أن تكتسب يدى ما يُؤْثِم وَيَصِم[4] . ومن رحمته تعالى أطلب الصفح والغفران ، عن اشتغالى بالترهات عن تلاوة القرآن ، وهو سبحانه أقرب م[دْعوّ] ، وأكرم مرجوّ .

---

(١) كذا . ولعله يريد « مايلقاه فى مجلسه » .

(٢) فرغ إلى الشىء : عمد له وقصد . وفى حديث أبى بكر : « افرغ إلى أضيافك » ، أى اعمد واقصد . والتجويز : الإنفاذ والإمضاء ، وليس مايضطرنا إلى تصحيحها لتكون « تحويره » .

(٣) ليست فى الأصل (٤) يصم ، من الوصم ، وهو العيب .

فصل فى تسمية العصا

قال أبو بكر محمد بن دريد رحمه الله[١] : إنما سميت العصا عصا لصلابتها ، مأخوذ من قولهم عصَّ الشيء وعَصَا وعسا ، إذا صلُب . واعتصَت النواة ، إذا اشتدّت . فإنما العصا مثَل يضرب للجماعة . يقال شقّ فلان عصا المسلمين والجماعة . وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إياك وقتيل العصا[٣] » يريد المفارق للجماعة فيقتل . وألقى الرجل عصاه ، إذا اطمأنّ مكانه . ويقال عصا وعصوان ، والجمع العِصِى[٤] ، وأعصَى الكرمُ ، إذا خَرَجَ عيدانُه[٥] . وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لا ترفع عَصاكَ عن أهلك » ، يراد به الأدب . ويقال لعِظام الجناح عِصىّ . وعَصَوت الجرح ، أى داويتُه . والعصيان : خِلاف الطاعة . قال دريد بن الصمة :

فلما عَصَونى كنتُ منهمْ وقد أُرى غَوايتَهم وأننى غير مهتدِ[٦]

وقد سمِّيت الهراوة ، وجمعها[٧] هَراوَى . قال ابن فارس فى كتاب مجمل اللغة : هَرَوته بالهِراوة ، إذا ضربتَه بها .

قال العباس بن مِرداس السُّلَمى أبياتاً ذكر فيها الهراوة أنا ذاكرها ومورِدُها لحسنها وجزالتها ، وهى من مختار الشعر . وقد اختارها أبو تمام حبيب بن أوس الطائي فى حماسته فى باب الأدب[٨] ، وهى :

---

(١) لم أجد كلامه هذا فى الجمهرة ولا فى الاشتقاق .

(٢) يقال أيضا : « عسى » كرضى .

(٣) فى الأصل : « وقتل العصا » . وهو من حديث صلة بن أشيم، رواه فى نهاية ابن الأثير واللسان (عصا) باللفظ الذى أثبته . وقالا : معناه إياك أن تكون قاتلا أو مقتولا فى شق عصا المسلمين .

(٤) يقال بضم العين وكسرها .

(٥) فى القاموس واللسان : « خرج عيدانه ولم يثمر » .

(٦) من قصيدة فى الأصمعيات ٢٣ ــ ٢٤ والحماسة ١ : ٣٣٦ .

(٧) فى الأصل : « وأصلها » .

(٨) الحماسة ٢ : ٢٠ .

ترى الرجل النحيف فتزدريه … وفى أثوابه أسد مزير[١]
ويعجبك الطرير فتبتليه … فيخلف ظنك الرجل الطرير[٢]
فما عِظَمُ الرجالِ لهم بفخرٍ … ولكن فخرهم كرم وخِيرُ[٣]
ضِعاف الطير أطولها جسوما … ولم يطل البُزاة ولا الصُّقورُ
بغاث الطَّير أكثرها فراخاً … وأمُّ الصقر مِقلاتٌ نَزُورُ

— بغاث الطير: صغارها، وفيها ثلاث لغات: ضم الباء وفتحها وكسرها. والمقلات: التى لا يعيش لها ولد —

لقد عظُم البعيرُ بغير لبٍّ … فلم يستغنِ بالعظَم البعيرُ
يصرّفه الصبىّ بكلّ وجهٍ … ويحبسه على الخَسْف الجرير[٤]

— الجرير: حبل يكون فى رأس البعير —

وتضربه الوليدةُ بالهَراوَى … فلا غِيَرٌ لديه ولا نكيرُ
فإن أكُ فى شرارِكم قليلاً … فإنّى فى خيارِكم كثير

ذكر أبو هلال العسكرى اللغوى رحمه الله فى كتاب الأوائل قال: أول من من خطب على العصا وعلى الرّاحلة قس بن ساعدة الإيادى. فما ورد عنه من خطبه قوله[٥]:

أيها الناس اسمعوا وعُوا، من عَاش مات، ومن مات فات، وكلُّ ما هو آتٍ آت. ليلٌ داج، وسماء ذاتُ أبراج، ونجوم تزهر، وبحارٌ تزخر، وجبال

---

(١) المزير: الشديد القلب القوى النافذ. وفى الأصل «بزير» صوابه فى الحماسة واللسان ومقاييس اللغة (مزر) ومجالس ثعلب ١٦٢. ورواه ثعلب: «الرجل الضعيف».
(٢) الطرير: الشاب الناعم ذو الرواء والمنظر. وهذا البيت يروى أيضاً للمتلمس، وليس فى ديوانه. انظر اللسان (طرر).
(٣) الخير، بالكسر: الكرم والشرف.
(٤) الوجه: الجهة. والخسف: الذل.
(٥) انظر البيان والتبيين ١: ٣٠٨ — ٣٠٩ والأغانى ١٤: ٤٠ ومجمع الأمثال للميدانى عند قولهم: (أبلغ من قس).

مُرساة ، وأرضٌ مُدحاة ، وأنهارٌ مجراة . ما بال الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضُوا فأقاموا ، أم تُرِكوا فناموا . يقسم قسٌّ بالله قَسَماً لا إثم فيه إن لله ديناً هو أرضَى وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه . إنكم لتأتون من الأمر منكراً . ثم أنشأ يقول :

فى الذاهبين الأوليـــن من القرون لنا بَصائر
لمـــا رأيت موارداً للقوم ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحـــوَها يمضى الأصاغر والأكابر
لا يَرجع المـــاضى إلــىّ ولا من الباقين غابر
أيقنت أنِّى لا محـــا لة حيث صار القوم صائر

قال المؤلف — أطال الله بقاءه— العرب تقول : فلان ممن قُرِعت له العصا ، إذا كان يرجع إلى الصواب ، وينقاد إلى الحق ، ويستقيم عَنَدُ رأيِه[١] إذا نُبِّهَ . وتقول: فلان صلب العصا ، إذا كان ذا نجدةٍ وحزامة . وتقول إذا تفرقت الخلطاء واختلفت آراء العشيرة ومَرِج الأمر : انشقت العصا . وتقول للمسافر إذا آب واستقرّت به داره : ألقى عصا التسيار ، « فألقت عصا ها »

قرع العصا

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « [ما] قرعت عصا على عصا إلا فرِح لها قوم وحزن آخرون » .

قال الحجاج بن يوسف الثقفى فى بعض خطبه[٢] : « والله لأعصبنكم عصب السَّلَمَة ، وألحونكم لحو العصا ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل . يا أهل العراق ،

(١) العند : الميل . وفى الأصل : «عند ربه» .

(٢) جمع أسامة هنا بين نصين لخطبتين من خطب الحجاج ، أولاهما فى البيان ٢ : ١٣٨ والعقد ٤ : ١١٠ وابن أبى الحديد ١ : ١١٤ والطبرى ٧ : ٢١٢ . وإعجاز القرآن ١٢٤ . والأخرى فى البيان ٢ : ٣٠٧ والكامل ٢١٥ ليبسك والعقد ٤ : ١١٩ وصبح الأعشى ١ : ٢١٨ وعيون الأخبار ٢ : ٢٤٣ وابن الأثير ٤ : ١٠٦ .

يا أهل الشقاق والنفاق ، ومساوى الأخلاق . إنى والله سمعت لكم تكبيراً ليس بالتكبير الذى يراد به الله فى الترغيب ، ولكنه التكبير الذى يراد به الترهيب . يا عبيد العصا وأشباه الإماء[١] ، إنما مثلى ومثلكم ما قاله ابن بَرّاقة الهمدانى[٢] :

وكنت إذا قومٌ غزونى غزوتُهم فهل أنا فى ذا يالَهمدان ظالم[٣]
متى تجمع القلبَ الذكىَّ وصارماً وأنفاً حمِيًّا تجتنبك المظالم

والله لا تُقرع عصاً على عصا إلا جعلتُها[٤] كأمسِ الدَّابِر .

وقال وعلة بن الحارث بن ربيعة[٥] :

وزعمتَ أنّاً لا حلومَ لنا إن العصا قرعت لِذى الحلم[٦]
أقتلتَ سادتنا بغير دمٍ إلا لتُوهِنَ آمن العصم[٧]

وقال كثيِّر بن عبد الرحمن الخزاعى :

وقد قرع الواشون فيها لك العصا وإن العصا كانت لذى الحلم تقرعُ

ذو الحلم : عامر بن الظَّرِب العَدْوانى[٨] ، وكان حَكَماً للعرب يُرجَع إلى حكمه ورأيه ، فكبِر وأفناه الكِبَر والدهر وتغيّرت أحواله ، فأنكر عليه الثانى من ولده أمراً من حكمه فقال له : إنك ربّما أخطأتَ فى الحكم ويُحمَل عنك . قال : اجعلوا لى أمارةً أعرِفها فإذا أخطأتُ وقرِعَت لى العصا رجعتُ إلى الحكم. فكان يجلس أمامَ بيته يحكم ويجلس ابنُه فى البيت ومعه العصا ، فإذا زلّ وهفا

---

(١) فى البيان : « وأولاد الإماء » .

(٢) هو عمرو بن براقة ، أو ابن براق ، كما ذكر صاحب الأغانى ٢١ : ١١٣ . وهو أحد عدائى العرب ، ذكره تأبط شرا فى قصيدته الأولى من المفضليات :

ليلة صاحوا وأغروا بى سراعهم بالعيكتين لدى معدى ابن براق

(٣) فى البيان : « يال همدان » . (٤) فى الأصل : « يجعلها » .

(٥) كذا . والصواب : « الحارث بن وعلة » ، كما فى البيان ٣ : ٣٨ والحماسة ١ : ٦٤ .

(٦) فى البيان والحماسة : « وزعمتم ألا حلوم لنا » .

(٧) العصم : جمع أعصم وعصماء ، وهو الوعل بإحدى يديه بياض .

(٨) انظر للخلاف فى « ذى الحلم » أمثال الميدانى فى (إن العصا قرعت لذى الحلم) والمعمرين للسجستانى ٤٥ .

قَرَعَ له الجفنةَ بالعصا . وإياه عنى المتلمس بقوله :

لذى الحلم قبل اليوم ما تُقرع العصا وما علِّمَ الإنسانُ إلا ليعلما

(صلب العصا) يقال فلان صلب العصا ، إذا كان جلدا قويا على السفر والـ [رِّحلة] . قال الراعى يصف راعيا :

صلب العصا بضربةٍ دمّاها[(١)] إذا أراد رشداً أغواها[(٢)]

قوله بضربة أى بسَيْرة . قال الله تبارك وتعالى : «وإذا ضَرَبتُم فى الأرض» : سافرتم . وقوله « دمّاها » أى تركها كالدُّمى ، واحدتها دمية ، وهى الصور [فى] المحاريب . وقوله « أغواها » أى رعاها الغواء[(٣)] ، وهو نبت تسمن عليه [الإبل] .

وقال [أبو[(٤)]] الجثّر الضبى :

فإن تَكُ مدلولاً على فإننى كريمك لا غُمرٌ ولا أنا فانِ[(٥)]

وقد عجمتنى العاجماتُ فأسارت صليبَ العصا جَلدا على الحدثان[(٦)]

صبوراً على عض الخطوب وضَرسِها إذا قَلَّصَتْ عن الفم الشفتانِ[(٧)]

---

(١) فى اللسان (دمى) : « برعية دماها » .

(٢) الرشد ، هنا: حب الرشاد . انظر كتاب الإنصاف والتحرى فى تعريف القدماء بأبى العلاء ٥٦٤ .

(٣) لم أجد من ذكر هذا النبات .

(٤) هذه التكملة من حماسة ابن الشجرى ٦٠ واللسان (أبى) . وذكر كلاهما أنه شاعر جاهلى .

(٥) رواه فى اللسان (دلل) . وفى الأصل : « فإن يك » تحريف . يقال : مادلك على ، أى ماجرأك على . كريمك ، هى فى اللسان : « لمهدك » . ولعل هذه « كمهدك » . الغمر ، بتثليث الغين : الذى لا تجربة له . وفى الأصل : «غم» ، وصوابه من اللسان. والفانى : الشيخ الكبير .

(٦) عجمته العاجمات : خبرته . وفى حماسة ابن الشجرى : « لقد عجمتنى النائبات » . أسأرت : أبقت .

(٧) الضرس : النبش بالأضراس ، ومثله التضريس . قال الأخطل :

كلمع أيدى مثاكيل مسلبة يندبن ضرس بنات الدهر والخطب =

(انشقّت العصا) العرب تقول : فلان شَقَّ العصا ، إذا كان لا يدخل تحت حُكم ولا طاعة مخالفاً لأمر الآمرين . ويستعمل شقُّ العصا فيمن يتفرق عنه أحبابه ، ويظعن عنه أصحابه فيظهَرُ مكنونُ سرِّه ، ويبوحُ مخفيَّ أمره[(١)] ، لضرورة البين الداعية إلى ذلك .

قال أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرىّ فى كتابه المسمى بالقائف[(٢)] :

« مر ركبٌ بشجرةٍ مُورِيَة[(٣)] ، فاقتضَبَ إنسانٌ منهم عصا ثم شقها ، ثم جعل يقتدِح قريباً من الشجرة فأورى الزند فقالت الشجرة : ياهذا ما أسرع ما ظهر سرُّك ، وسوف ترغَبُ الرَّكبَ فى اتخاذ زنادٍ منى ، فأحورُ عِيداناً فى أيدى القوم . فقال : لا تلُمْنى المغرورة ، أظهرتْ سرِّى ضرورة » .

وقال قيس بن ذَرِيح :

إلى الله أشكو نيةً شقَّت العصا ... هى اليومَ شَتَّى وهى أمسِ جميعُ[(٤)]
مضى زمنٌ والناس يستشفعون بى ... فهل لى إلى لُبنَى الغداةَ شفيعُ

وأول هذه القصيدة :

سقَى طللَ الدارِ الذى أنتمُ بها ... حَناتِمُ وبلٍ صيِّفٌ وربيعُ[(٥)]

= وقال زهير :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

وفى الأصل : « وضربها » صوابه فى حماسة ابن الشجرى . وروى بعده فى الحماسة :

وقبلك ماهاب الرجال ظلامتى ... وفقأت عين الأشوس الأبيان

(١) باح الشىء يبوح : ظهر . والمخفى ، المستور المكتوم ، يقال خفيته وأخفيته .

(٢) ذكره أبو العلاء فى تصانيفه التى ألفها ، وقال : « كتاب القائف على معنى كليلة ودمنة ألفت منه أربعة أجزاء ثم انقطع تأليفه بموت من أمر بعمله ، وهو عزيز الدولة » . انظر تعريف القدماء بأبى العلاء .

(٣) مورية : تورى النار ، أى تخرجها . وفى الأصل : « موزية » .

(٤) قصيدة هذه الأبيات تختلط أبياتها بشعر المجنون اختلاطا وتروى حينا للمجنون، وحينا لقيس . القالى ١ : ١٣٦ ــ ١٣٧ والحيوان ٥ : ١٩٣ ــ ١٩٤ وعيون الأخبار ١ : ٢٦١ والأغانى ٨ : ١٢٦ وحماسة ابن الشجرى ١٥٧ ــ ١٥٨ .

(٥) الحناتم : سحائب سود ، الواحدة حنتمة . الصيف : المطر الذى يجىء فى الصيف . والربيع : أول مطر يقع بالأرض أيام الخريف ، كما فى اللسان .

قال المؤلِّف أطال الله علاه : وقد صرّعت هذه الأبيات جميعاً وأثبتُّها فى ديوان شعرى ، وأنا ذاكر تصريع هذين البيتين لما فيهما من ذكر العصا .

قال غفر الله له :

أيرجو لى اللاحى من الحبِّ مَخلَصاً[1] وقلبى إذا ما رضته بالأسى عصا
ولو أن ما بِى بالحصى فلَق الحصى إلى الله أشكو نيةً شقّت العصا
هى اليوم شتَّى وهى أمسِ جميع
أطاعت بنا لُبنى افتراء التكذُّبِ وصدُّ التجنِّى غير صدِّ التجنُّبِ[2]
فيالكَ من دهرٍ كثيرِ التقلب مضى زمنٌ والناس يستشفعون بى
فهل لى إلى لُبنَى الغداةَ شفيع

وقال المؤلِّف أطال الله بقاءه أيضاً أبياتاً فى ذكر العصا ، وهى :

رمتنا الليالى بافتراق مشتِّتِ أشتَّ وأنأى من فراق المحصَّبِ[3]
تخالفت الأهواء وانشقَّت العصا وشعَّبنا وشكُ النوى كلَّ مَشْعَبِ[4]
وقد نثر التوديعُ من كلِّ مقلةٍ على كل خدٍّ لؤلؤاً لم يثقَّبِ

المصراع الثاني من البيت الأول من قصيدة لامرئ القيس بن حجر الكندى واسمه حُندج[5] ، والحُندُجة : الرملة الصغيرة[6] . وأول القصيدة :

---

(١) فى الأصل : « من الذنب » والوجه ما أثبت من الديوان ٣٦٤ .

(٢) فى الديوان : « غير صد التعتب » .

(٣) ديوان أسامة ٦٠ ومسالك الأبصار ج ١٠ ص ٥٥ مصورة دار الكتب المصرية . المحصب : موضع رمي الجمار بمنى .

(٤) فى الديوان والمسالك : « وشعبهم » .

(٥) عرف امرؤ القيس بلقبه هذا : امرؤ القيس . واسمه حندج بن حجر بن عمرو بن الحارث . ويكنى أبا وهب وأبا الحارث ، ويلقب أيضا بذى القروح . والقيس فى اللغة الشدة وقيل هو اسم صنم ، قالوا : ولهذا كان يكره الأصمعى أن يروى :
« يا امرأ القيس فانزل »
وكان يرويه : « يا امرأ الله » . شرح أبى بكر لديوان امرئ القيس .

(٦) وقيل الرملة الطيبة ؛ وقيل رملة طيبة تنبت ألوانا من النبات .

خليلى مُرّا بى على أمّ جُندبٍ . نقضِّ لُبانات الفؤادِ المعذَّبِ

ومنها البيت :

فلله عينا من رأى من تفرقٍ أشتَّ وأنأى من فراق المحصَّبِ (١)

وقال أبو الحسن مِهيار بن مَرْزَوَيه الدَّيلمى ، من جملة قصيدةٍ له :

ما قَصُرت يدُ الزَّمان شدَّ ما تَطُول فى نقضِى وفى نقضِ مرر (٢)

عصًا شظايا ومشيب ذائعٌ ومنزل ناء وأحباب غُدُر (٣)

وصاحبٌ كالداء إن أخفيته غَوَّر وهو قاتلٌ إذا استتر (٤)

وقال المؤلف أطال الله بقاءه :

زدنى جوًى يا حُبّهم وأضِلَّنى يا مرشدى عن مَنهج السُّلوانِ

لا تنهنِى عنهم فإنَّ صبابتى لا تستطيع تطيع من ينهانى (٥)

أحببتهم أزمانَ غصنى ناضرٌ حتَّى عَسَا وعَصَى بَنانَ الحانِى (٦)

فارجِعْ بيأسك لستَ أول آمرٍ شقَّ الغرامُ عصاه بالعِصيانِ (٧)

---

(١) فى شرح الديوان : « المحصب من فارقه لا يرجع إليه . وقال ابن السيرافى : المحصب : الموضع الذى يرى فيه بحصى الجمار ، ثم كانت تجتمع العرب من الأماكن المختلفة فيرى وينظر الرجل إلى وجوه النساء فربما هوى الرجل منهم بعض من هوى من النساء ، فإذا تم حجهم مضوا فى طرق شتى » .

(٢) ديوان مهيار ١ : ٤١٣ من قصيدة كتب بها إلى أبى القاسم هبة الله بن على بن ماكولا وفى الديوان : « ياقصرت » فيكون هنا دعاء عليها . وفى الديوان أيضا : « فى تلى » . والمرر جمع مرة ، وهى الطاقة من طاقات الحبل ، كناية عن الشدة . وأراد نقض مررى . فحذف ياء المتكلم . وفى الديوان : « المرر » .

(٣) ذائع ، هى فى الأصل « زائع » . وفى الديوان : « ومشيب عنت » .

(٤) غور ، من قولهم غور الماء فى الأرض : ذهب فيها وسفل . وفى الديوان : « عور » بالمهملة . وفى الأصل : « وهو قاتل » صوابه من الديوان .

(٥) كذا فى ديوان أسامة ٥٤ . وفى الأصل : « لا تنه عنهم » ، تحريف .

(٦) البنان : الأصابع ، أو أطرافها . والحانى : الذى يحاول أن يحنيه ويلويه .

(٧) فى الأصل : « أول امرئ » تحريف .

وقال أيضا :

كم ذا التجنى وكثرةُ العِلَلِ لا تأمنوا من حوادث المَلَلِ
ولا تقولوا صبٌّ بنا كلِفٌ فأوّلُ اليأس آخر الأمَلِ
ولستُ ممن يريد شقَّ عصاً الذَّنْب ذنبي والحب شُفِّعَ لي(١)
هبونى أخطأت عامداً فهبوا خجلةَ عذرى ما كان من زَلَلِي(٢)

وقال امرؤ القيس بن حُجر الكندى :

إذا ما لم تكنْ إبلٌ فمِعزَى كأنَّ قرون جلتها العصىُّ
فتملا بيتنا أقِطا وسَمناً وحسبك من غنًى شِبَعٌ ورِىُّ

أى كفاك . وكذلك حسبك الله ، أى كفاك .

العرب تقول : « طارت عصا بنى فلان شِقَقا » . وقال الأسدى :

عِصِىُّ الشملِ من أسدٍ أُراها قد انصدعت كما انصدع الزُّجاجُ

ويقال : « فلان شقَّ عصا المسلمين » ، ولا يقال شقَّ ثوباً ولا غير ذلك مما يقع عليه اسم الشقّ(٣) .

(ألقى العصا) يقال ألقى عصا التسيار ، إذا أقام وترك السفر . وكأنَّ العرب عنَتْ بقولها « ألقى عصاه » أى وصل إلى بغيته ومُراده ، أو وطنه ومَرَاده ، وراحته ، ومظِنة استراحته . قال الأصمعى — واسمه عبد الملك بن قريب — قصيدةً مدح بها جعفر بن يحيى البرمكى ورحل إليه فمات قبل أن يصل إليه ، وذكر فيها العصا ، وهى قصيدة طُولى أنا موردٌ منها نبذةً لأجل العصا ، وهى :

فحطَّت إليهـــا مناقيلَها وألقت عصا السَّفَر المِسفرِ(٤)

---

(١) فى الديوان ٤٠ : « يشفع لى » .

(٢) فى الأصل : « حجلة عذرى » صوابه من الديوان .

(٣) الكلام من « العرب تقول » إلى هنا ، مقتبس من البيان والتبيين ٣ : ٣٩ — ٤٠ .

(٤) المناقيل : جمع منقل بفتح الميم وكسرها ، وهو الخف ، وزيادة الياء فى مثل هذا الجمع جائز عند الكوفيين اطرادا . والمسفر : الكثير السفر ، وصف به السفر مبالغة ، كما يقال جهد جاهد ، ونصب ناصب .

وقال راشد بن عبد الله[١] :

وخبَّرها الرُّوَّادُ أنْ ليس بينها ... و بين قرى نجرانَ والدّربِ كافرُ[٢]

فألقت عصاها واستقرَّت بها النَّوَى ... كما قرَّ عيناً بالإياب المسافرُ[٣]

وقال آخر[٤] :

فألقت عصا التَّسيار عنها وخيَّمتْ ... بأجباء عذبِ الماء بيضٍ محافرُه[٥]

الجَبَا : ما حول البئر ، مفتوح الجيم مقصور ، وجمعه أجباء ممدود . وقوله « بيض محافره » يريد أنه يحفر فى أرض جرداء[٦] ، ولا من دمن ، بل هى أرض صلبة .

وقوله : « خيمت » أى اتخذت [خيمةً] فأقامت .

روى أن قتيبة بن مسلم[٧] لما تسنَّمَ منبرخراسان سقط القضيبُ من يده فتطيَّر له صديقه وتشاءم عدوُّه ، فعرف ذلك قتيبة فحمِد الله تعالى عليه ثم قال : ليس كما سرَّ العدُوَّ وساء الصديق ، بل كما قال الشاعر :

فألقت عصاها واستقرَّ بها النَّوَى ... كما قر عيناً بالإياب المسافرُ

قال المؤلف أطال الله بقاءه : قال جدِّى الأمير سديد الملكِ والمناقب أبو الحسن

---

(١) كذا . وفى البيان ٣ : ٤٠ نسبة البيت الثانى إلى مضرس الأسدى ، وفى اللسان (عصا) نسبته إلى عبد ربه السلمى ، أو سليم بن ثمامة الحنفى ، أو معقر بن حمار البارقى . ونسب البيت الثانى فى المؤتلف للآمدى ٩٢ إلى معقر بن حمار .

(٢) الكافر ، هنا : المطر ، كما فى اللسان (كفر ، عصا) عند إنشاد البيت .

(٣) النوى : الوجه الذى ينويه المسافر ، وهى مؤنثة . وكذا ورد البيت فى البيان والمخصص ١٢ : ٦١/١٥ : ١٧٢/١٦ : ١١ . وفى اللسان (عصا) : « واستقر » . وترك تأنيث الفعل فى مثل هذا جائز . وفى اللسان (نوى) : « واستقر » أيضا ، وهذا لا يتفق مع الغرض الذى سبق له الاستشهاد .

(٤) هو مضرس الأسدى ، كما فى البيان ٣ : ٤٠ .

(٥) فى البيان : « بأرجاء » .

(٦) فى الأصل : « سوداء » . وفى اللسان (بيض) عند تفسير قوله : « وكانت لهم البيضاء والسوداء » « أراد بالبيضاء الخرابة من الأرض لانه يكون أبيض لا غرس فيه ولا زرع . وأراد بالسوداء العامر منها لاخضرارها بالشجر والزرع » .

(٧) الخبر فى عيون الأخبار ٢ : ٢٠٩ ومحاضرات الراغب ١ : ٧٠ .

عليّ بن مقلد رحمه الله ، يخاطب بعض ولاة حلب :

خيَّمتَ فى حلبِ العواصِم بعد ما قلّدتَ خوفَكَ نازحَ الأقطارِ
لا تَرضَها دار الثَّواء ولا تقُلْ فى مثلها تُلقَى عصـا التَّسْيارِ
استحِيِ من أجداث قومك أن ترى عرَض البسيطة وهى دارُ قرارِ

قال المؤلف أطال الله بقاءه : حدثنى من أثق به فى شوال سنة تسع وستين وخمسمائة بحصن كَيفا[1] قال : كان فى خدمة الأمير نجم الدولة مالك بن سالم صاحب قلعة جَعْبر[2] رجلٌ عوّاد يقال له أبو الفرج حدثنى : كنت يوماً فى مجلس الأمير نجم الدولة وهو يشرب إلى [أن[3]] سكر ، وانصرفت إلى منزلى ، فما كان أكثر من مُضىٍّ ساعتين من الليل إذْ وافانى رسوله فقال : الأمير يَستدعِيك . فقلت : ما نزلتُ حتَّى سكر ! قال : هو أمرنى بإحضارك . فمضيت معه فرأيت الأميرَ جالساً ، فقال : يا أبا الفرج ، بعد انصرافكم نِمت فرأيت إنساناً يغنِّينى صوتاً حفِظته ثم أُنسِيته وأريد أن تَذكُره لى . فقلت : يا مولاى ، اذكر لى منه كلمة . فقال : ما أذكرُ منه شيئاً ولـكن اعرِضْ علىّ ما يحضرك . فعرضت عليه أصواتاً كثيرة وهو يقول : ما هـذا الصوتُ الذى رأيتهُ ! ثم قال : انصرف وأفـكِرْ لعلك تذكره . فانصرفت وأصبحت من بكرةٍ طلَعت إلى خدمته فقال: يا أبا الفرج ، أىُّ شىء كان من الصوت ؟ قلت : يا مولاى لا يعلم الغيبَ إلا الله سبحانه وتعالى . قال : والله لئن لم تذكره لأخرجنّك من القلعة . فقلت : والله يا مولاى ما أدرى ، ما أذكَره من صوتٍ ما سمعته ولا ذكِرتْ لى منه كلمة واحدة ؟! فقال : خذوه وأخرجوه . فأخرجونى إلى « البلبل[4] » فأقمت فيه يوماً

---

(١) مدينة وقلعه عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر .
(٢) قلعة جعبر ، على الفرات مقابل صفين التى كانت بها الوقعة . وكانت تعرف أولا بدوسر ، فتملـكها رجل من بنى نمير يقال له جعبر بن مالك ، فغلب عليها فسميت به .
(٣) تكملة ليس لها موضع فى الأصل .
(٤) البلبل ، كذا وردت .

ثم ردّنى وعدت فى الخدمة كما كنت . فأنا يوماً فى المجلس أغنّى إذ قال لى بعض الفراشين : على الباب رجلٌ يطلبك . فخرجت إليه فرأيت رجلاً عليه عمامة مطلّسة كعمائم المغاربة ، فسلم علىّ وقال : قد قصدتك لتوصّل لى فى الحضور بمجلس الأمير فأنا رجلٌ مغنٍّ . فدخلت وأعلمته به فقلت : يا مولاى ، إن كان مجيداً سمعتَه واستخدمته ، وإلا وهبتَه شيئاً وانصرَف . فأذن له فدخل فسلّم وجلس فشد عودَه وغنّى :

وخبّرها الروّاد أن ليس بينها ... وبين قُرى نجران والدربِ كافرُ
فألقت عصاها واستقرّت بها النوى ... كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

فقال الأمير : لا إله إلا الله ، هذا والله الصوت الذى رأيته فى منامى وطلبته منك . فعجبت أنا ومن حضر لهذا الاتفاق .

(عصا الأعرج) . وقال المؤلف أطال الله بقاءه فى أعرج بيتين على سبيل الرياضة ذكرها وإن لم يكن فيها ذكر العصا :

عابوا هوَى شادنٍ فى رجله قصرٌ ... من سكر ألحاظه فى مشيه ثَمَلُ[(١)]
وماهوَى خُوط بانٍ ماسَ من هيفٍ ... عيبٌ ، وإنْ كان عيباً فهو محتَمل

فصل

قال المؤلف أطال الله بقاءه : زرت بيت المقدس فى سنة اثنتين وث[ ](٢) وخمسمائة ، وكان معى من أهله من يعرفنى المواضع التى يصلَّى فيها ويتبرك [بها] ، فدخل بى إلى بيت جانبَ قبّة الصخرة فيه قناديلُ وستور ، فقال لى : هذا بيت السلسلة . فاستخبرته عن السلسلة فقال لى : هذا بيتٌ كانت فيه على عهد بنى إسرائيل سلسلة ، إذا كان بين اثنين من بنى إسرائيل محاكمة ووجبت اليمينُ على أحدِهما دخلا هذا البيت ، فوقفا تحت السلسلة ، واستُحلِف المدَّعَى عليه ، ثم يمد يده

(١) البيتان فى ديوان أسامة ص ١٩١ .
(٢) تحتمل أن تكون ثلاثين أو ثمانين . والأولى هى الأقرب .

فإن كان صادقاً أمسك السلسلة ، و إن كان كاذباً طالت عن يده فلا يصل إليها .
فأودَعَ رجلٌ من بنى إسرائيل جوهراً عند رجل، ثم طلبه منه فقال: أعطيتك إياه .
فقال : تحاكمنى إلى السلسلة . فمضى المستودع فأخذ عصاً فشقها وحفر فيها للجوهر وتركه فيها ، ثم ألصقها عليه ودهنها ، وأخذها فى يده ودخل مع خصمه بيت السلسلة فقال للخصم : أمسِكْ عنّى هذه العصا . فمسكها ثم حلف له أنه سلّم الجوهرة إليه ومدّ يده فأمسك السلسلة ثم عاد أخذ العصا وخرجا ، فارتفعت السلسلة من ذلك اليوم .

ولم أر هذا الحديث مسطوراً ، و إنما أوردته كما سمعته .

قال المؤلف أطال الله بقاءه : كان عندنا بشيزر رجلٌ زاهد من خيار المسلمين ، اسمه جرّار ، رحمه الله ، وكان منقطعا على مسجد على جبل جريجس لا يخرج منه إلاّ على صلاة الجمعة ، وكنت أزوره فيه وأتبرّكُ به . فحدّثني بعض من كان يخالطه أنه قال : أردت زيارة الشيخ يٰس رحمه الله — وأظنه كان بمَنبِج — فخرجت أنا ورفقةٌ لى ، وفى نفسى أن أطلبَ منه عصاً ، فلما صرنا بالقُرب من مَنبِج ومعنا فضلةٌ من زادنا فتحنا رُجْمَ حجارة[1] ودفنّاها فيه ثم ردَدنا عليه الحجارة ، ودخلنا على الشيخ رحمه الله فأقمنا عنده ما أقمنا ، ثم ودّعناه وعزَمنا على المسير ، فأحضرَ لنا زاداً وقال : احملوا هذا فإنّ زادكم أكلَه الثّعلب . وأحضر عصاً وأخرج من تحت عمامته طاقِيَة[2] وقال لى : خذ هذه العصا وهذه الطاقية . فودّعنا وانصرفنا وأنا مسرورٌ بالعصا والطّاقية ، ونحن

---

(١) الرجم ، بالضم : جمع رجمة ، وهى حجارة ضخام مجموعة .

(٢) يراد بالطاقية ضرب من القلانس تدار عليه العمامة ، وهى وإن كانت عربية اللفظ فإنها لم تذكر فى المعاجم . كأنها منسوبة إلى الطاق ، وهو ضرب من الثياب ، أو الطيلسان ، أو الأخضر منه . وقد استعمل الفرس هذا اللفظ . وفسره استينجاس فى المعجم الفارسى الإنجليزى ٨٠٦ — ٨٠٧ بقوله: A fillet, especially one worn onder the head-dress
أى عصابة تلبس تحت لباس الرأس .

نعجَبِ من قوله عن الزاد . فلمّا صرنا إلى الموضع الذى فيه الزّادُ طلبناه فلم نجِدْه ، وإذا الوحشُ قد أكلته ، فسِرْنا ثم افترقنا وركِبَ كلٌّ منّا قصْدَه ، فوصلت إلى أرض شَيزَر وإذا الفرنج قد أغاروا على البلَد ، وهم منتشرون فيما بينى وبين قَصدِى ، فوقَعَ فى نفسى أنْ أخرجت الطاقيّة من تحت عمامتى ووضعتُها على رأس العصا ومشيت على الطَّريق ، والفرنج عن يمينى وشمالى وبين يدىّ والعصا فى يدى وعليها الطاقية . فلا والله ما عارضَنى منهم أحد ، كأنَّ الله سبحانه وتعالى أعمى أبصارهم عنّى ، فما نالنى منهم سُوءٌ حتّى وصلتُ إلى مأمَنى .

***

قال المؤلف أطال الله بقاءه : ولعلّ من يقف على هـذا الحديث يدفعُه ويكذّبه . وقد جَرى بشيزر ما هو أعجبُ من هذا ، وأنا حاضر . نَزَل الفرنج علينا فى بعض السِّنين ، وكان الماء بيننا وبينهم ، وهو إذْ ذاك زائدٌ لا يمكن خَوضُه ، فما كان لنا إليهم سبيلٌ ولا لهم إلينا ، فلما تبيّنوا ذلك انتشروا فى الأرض ودخلوا فى البساتين يَرعَون خيلَهم ، فجاء نفرٌ منهم إلى بستانٍ على جانب الماء ومعهم خيلُهم، فتركوها ترعى فى قَضْ[ب(1)] فى البستان وناموا ، فتجرّد رجالٌ من أصحابنا وسَبَحوا إليهم ومعهم سيوفُهم ، فقتلوا منهم وجرحوا بعضَهم ، وانتشر الصِّياح فى الفرنج وهم فى خِيَمهم ففزِعوا وجاءوا مثلَ السَّيل ، كلٌّ من ظفروا به قتلوه ، وانتهى بعضُهم إلى مسجدٍ مما يليهم يعرف بمسجد أبى المجد بن سُميّة ، ونحن نراهم ولا سبيلَ لنا إليهم ، وفى المسجد [رجلٌ(2)] يُعرَف بحسنٍ الزاهد رحمه الله ، واقفٌ يصلّى على سَطحه وعليه ثياب سودٌ صوفٌ ، وبابُ المسجد مفتوح ، فجاء الفرنج وترجّلوا ودخلوا المسجد، ونحن نقول : الساعةَ يَقتُلون الشيخ .

---

(١) فى الأصل : «قصد» ولعل تكملتها وصوابها ما أثبت . والقضب: الرطبة ، هو نوع من المرعى يسمى فى مصر : البرسيم . انظر تذكرة داود .

(٢) ليس لها موضع فى الأصل . والكلام يقتضيها .

فلا واللهِ ما قطعَ صلاتَه ولا تحرّكَ من مُصلاّه ، ونحن نظنُّ أنّهم يرونه كما نراه ، إلاّ أنّ الله سبحانه وتعالى أعمى أبصارَهم عنه ، وحماه من كَيدِهم ، وخرجوا من المسجد بأجمهم وانصرفوا ، والشيخ رحمه الله فى مُصلاّه كما كان . وما العِيان كالإخبار والسّماع .

* * *

قال المؤلف أطال الله بقاءه : حضرت بدِمشق وقد وقع بين العُميان و بين رجلٍ كان يتولّى وقفَهم يعرف بابن البعلبَكّيّ خُلْف ، فلقُوا فيه صاحب دمشق شِهابَ الدين محمود بن تاج الملوك بُورِى رحمه الله[1] عـدّة مرار ، فقال للأمير مجاهد الدين بُوزَان بن مامين : أى مجاهدَ الدين ، تاللهِ خلِّصْنى منهم ، واجمَعْهم وأحضِرْ نائبَهم فى الوقف وافصِلْ حالهم . فقال : السّمع والطاعة . وقال لى مجاهد الدين : تفضّلْ واحضُر معنا . فاجتمعنا فى إيوانٍ كبير فى دار ، وحضر النائب ابنُ البعلبكى ونائبٌ كان قبله يقال له ابن الفرّاش ، وحضر العُميان فى نحوٍ من ثلاثمائة رجل ، لحملوا قدّامهم ودخلوا الإيوان ، كلٌّ واحدٍ وعصاه معه فى يده وضَعَها إلى جنبه ، ثم تحاوَرُوا الحديث ، فـكان بعضُهم هواه مع النائب الأول ابن الفراش ، و بعضهم هواه مع ابن البعلبكى . فتنازعوا وتخاصموا ساعةً ولا يتدخّل بينهم لعلوِّ أصواتهم وكثرتهم ، ثم تواثَبوا فارتفع فى الإيوان نحوٌ من ثلاثمائة عصاً فى أيدى العُميان لا يَدرون مَن يَضرِبون . وعلا الضَّجيجُ والصِّياح حتّى ندِمْتُ على حضورى . فتلطّفْنا الأمر حتّى سكنت الفتنةُ بينهم ، ومشّيا أمرَهم على ما أرادوا ، وما صدّقْنا أنهم ينصرفون .

---

(١) قتل سنة ٥٣٣ فى مؤامرة لجماعة من الأمراء . النجوم الزاهرة .

العصا فرس جذيمة الأبرش[١]

قال المؤلف أطال الله بقاءه : ومع ما أوردَ فيها[٢] من قول أصحاب السِّيَر وأشعار الشعراء فلا يحقِّق ذلك[٣] مَنْ مارسَ الحروبَ وعرفَ مكايدها ، واتّقاء الرجال التغرير ، والتخوّفَ من سوء عواقب الحيلة وضعفِ المكيدة . والحزمُ في الحرب أبلغ من الإقدام . وقد حاربتُ الفرنج في مواقفَ ومواطن لا أحصى عددَها كثرةً فما رأيتهم قطُّ كسرونا فلجُّوا في طلبنا ، ولا يَزيدون خيلهم عن الخبب والنَّقَل ، خوفاً من مكيدةٍ تتمُّ عليهم ، فكيف يحكم مَن في رأسه لبٌّ على نفسه حتَّى يَدخُل في غرارةٍ مشدودة عليه[٤] وفي تابوت ، وكيف يَخفَى الرَّجُل إذا رُبِطَت عليه غرارة .

وخطر لي أن قلت عند انتهائي إلى هذا الموضع أبياتاً أنا ذاكرها ، وهي :

لو سرتَ في عرض البسيطة طالبا ... رجلاً خبيراً بالحروب مجرَّبا[٥]
عانَى الحروب مجاهراً ومُخاتِلاً ... طفلاً إلى أن عادهُمّا أشيبا
قتل الأسودَ ونازل الأبطالَ في الـ ... ـهيجاء واقتاد الكميَّ المِحْرَبا[٦]

---

(١) وهي التي قيل فيها المثل : « إن العصا من العصية » ، وجذيمة الأبرش هذا ، هو جذيمة بن مالك الأزدي ملك الحيرة ، وقد نجا قصير بن سعد اللخمي على فرسه هذه فأخذ بثأره وقتل الزباء ، في حديث طويل . اللسان (عصا) والخيل لابن الكلبي ٣١ وحلية الفرسان نشرة محمد عبد الغني حسن ١٥٩ .

(٢) في الأصل : « أوردته فيه »

(٣) أي لا يسنده حقا .

(٤) يشير إلى ماصنعه عمرو بن عدي بمشورة قصير، من حمله الرجال على الإبل في غرائر ليتمكنوا من دخول مدينة الزباء . انظر مجمع الأمثال في (خطب يسير في خطب كبير)، والأغاني ١٤ : ٧١ ومروج الذهب ٢ : ٩٦ .

(٥) هذه الأبيات مما لم يرو في ديوان أسامة .

(٦) قال أسامة بن منقذ : وقد شهدت قتال الأسد في مواقف لا أحصيها ، وقتلت عدة منها لم يشركني أحد في قتلها فما نالني من شيء منها أذى . الاعتبار ١٤٤ نشرة فيليب حتي .

لم تلقَ مثلى من يكاد يُريه حُسـ ... نُ الرأيِ ما قد كان عنه مغيَّبا
وأرى مسير الأَلفِ تطلب وِترها ... ضِمنَ الغرائر فريةً وتكذُّبا[1]

فصـــل

قال الفرزدق فى قصيدة مدح بها هشام بن عبد الملك[2] :

رأيت بنى مروان جلَّت سيوفُهم ... عَشاً كان فى الأبصار تحت العمائم[3]
عصا الدين والعودَين والخاتم الذى ... به الله يعطى ملكَه كلَّ قائم

ـ عصا الدين : السيف . والعودان : العصا والمنبر ـ

رأيت الغِشاواتِ انجلَتْ حين أعطيت ... هشاماً عصا الدين الذى لم تخاصم[4]

فصـــل

قال معن بن أوس المزنى :

إذا اجتمع القبائل كنتَ رِدفاً ... أمام الماسحين لك السبالا[5]
فلا تُعطَى عصا الخطباء فيهم ... وقد تُكفَى المقادةَ والمقالا

وقال آخر فى عصا الخطابة :

إذا اقتسم الناس فضلَ الفخارِ ... أطَلْنا إلى الأرض ميل العصا[6]

---

(١) الألف ، يعنى ألفا من الجنود .

(٢) قالها وهو عبوس . ديوان الفرزدق ٨٤٥ ـ ٨٤٧ .

(٣) جلت ، من التجلية ، وهى الإجلاء والطرد .

(٤) هذا البيت لم يرو فى قصيدة الفرزدق .

(٥) البيتان فى ديوان معن بن أوس ، رواية القالى ، ص ٢٥ ليبسك ١٩٠٣ . وهما فى البيان ١ : ٣/٣٧٢ : ١٠ . السبال ، جمع سبلة ، وهو مقدم اللحية . ومسح اللحى كناية عن التهدد والتوعد ، أو هو تأهب للكلام . انظر تفسير البغدادى فى الخزانة ١ : ٥٢٠ لقول الشماخ :

أتتنى سليم قضها بقضيضها ... تمسح حولى بالبقيع سبالها

(٦) البيان ١ : ٣٣/٧٢ : ٨ .

تقول العرب[١] : ما تزال تحفظ أخاك حتى يأخذ القناة فعند ذلك يفضحك أو يمدحك . تقول : إذا قام الخطيب والقناة بيده فقد قام المقام الذى يخرج منه[٢] مذموما أو محمودا .

وقال جرير بن عطية :

مَنْ للقناة إذا ما عَىَّ قائلها أم للأعِنّة يا عمرو بن عمار[٣]

عن عبد الله بن رؤبة بن العجاج قال : سأل رجلٌ رؤبةَ عن أخطب بنى تميم ، فقال : خِداش بن لبيد بن بَيْبَة بن خالد . يعنى البَعِيث الشاعر . وإنما قيل له البعيث لقوله :

تبعَّث منى ما تبعَّث بعد ما أُمِرَّتْ حبالى كلَّ مِرَّتِها شَزْرا[٤]

قال أبو اليقظان : كانوا يقولون : أخطب بنى تميم البَعِيث إذا أخذ القناة فهزَّها ثم اعتمد بها على الأرض ثم رفعها . يريد بالقناة بالعصا .

قال يونس : لئن كان مغلَّبا فى الشعر لقد غُلِّب فى الخطب[٥] .

العرب تقول : اعتصَى بالسيف ، إذا جعل السيف عصاً . وقال عمرو بن الإطنابة :

وفتًى يضرِب الكتيبةَ بالسَّيـ ـفِ إذا كانت السيوفُ عِصِيا[٦]

وقال [عمرو بن[٧]] محرز :

نزلوا إليهم والسيوفُ عصيُّهم وتذكَّروا دِمَنًا لهم وذُحولا[٨]

---

(١) هو قول أبى المجيب الربعى ، كما فى البيان ١ : ٢/٢٧٣ : ١٠ .
(٢) فى البيان : «الذى لابد من أن يخرج منه» .
(٣) نبهت فى البيان أن صواب روايته : «ياعقب بن عمار» . انظر ديوان جرير ٢٣٦-٢٣٧ .
(٤) البيان ١ : ٣/٢٧٤ : ١٠ .
(٥) انظر البيان ١ : ٢/٢٧٤ : ٣/٣١٢ : ١١ .
(٦) البيان ٣ : ٧٧ ، الأغانى ١٠ : ٢٨ .
(٧) التكملة من الأغانى ١٠ : ٢٨ .
(٨) الدمن : جمع دمنة ، وهو الحقد القديم . والذحول جمع ذحل ، وهو الثأر .

فصل جامع

قال عمرو بن بحر الجاحظ : الدليل على أن [أخْذَ][1] العصا مأخوذ من أصل كريم، ومعدِنٍ شريف ، اتِّخاذُ سليمان بن داود عليهما السلام العصا لخطبته وموعظته ، ومقاماته ، وطول صلواته وتلاوته وانتصابه . فجعلها لتلك الخصال [جامعة[2]] .

وقولُ الله عزّ وجل : (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إلا دابة الأرضِ تأكلُ مِنسأتَه) . والمنسأة هى العصا . وقال أبو طالب حين قام بذمِّ الرجل الذى ضرب أبا نبقة[3] (وفى نسخة أبا نيقة) واسمه علقمة[4] حين تخاصما :

أمن أجل حبلٍ ذى زمامٍ ضربتَه بمنسأةٍ قد جاء حبل وأحبُلُ[5]

و (المحجنة[6]) : العصا المعوجّة . وفى الحديث المرفوع أنه صلى الله عليه وسلم طافَ بالبيت يستلم الأركان بمحجنةٍ[7] . وفى الحديث أن أبا بكر رضى الله عنه أفاض من جَمعٍ وهو يخرِش بعيرَه بمحجنة[8] .

والعرب تقول : « لو كان فى العصا سير » للمقلّ والضعيف . قال أبو تمّام حبيب بن أوسٍ الطائى :

---

(١) التكملة من البيان ٣ : ٣٠ .

(٢) التكملة من البيان .

(٣) الذى فى نسخ البيان والتبيين: « الذى ضرب زميله » . انظر ٣ : ٣٠ .

(٤) ابو نبقة ، ورد اسمه فى السيرة ٧٧٥ فيمن قسم لهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى مقاسم خيبر . وترجم له ابن حجر فى الإصابة ١١٣٦ فى باب الكنى . والذى فى الإصابة أن علقمة هو والد أبى نبقة ، واسم أبى نبقة عبد الله بن علقمة بن المطلب بن عبد مناف . وقد ورد ذكر علقمة بن المطلب بن عبد مناف فى جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٦٦ .

(٥) البيت فى البيان ٣ : ٣٠ وليس فى ديوان أبى طالب مخطوط الشنقيطى بدار الكتب . وهو مع بيتين آخرين فى اللسان (نسأ). ورواية اللسان والبيان : «أمن أجل حبل لاأباك » .

(٦) يقال محجن ومحجنة .

(٧) فى البيان ٣ : ٨٥ واللسان : «بمحجنه» .

(٨) جمع ، هى المزدلفة . وفى البيان ٣ : ٨٥ «بمحجنه» .

يا لك من هِمَّةٍ ورأى لو أنه فى عصاكَ سَير[١]
ربَّ قليلٍ أجدى كثيراً كم مطرٍ بدؤه مُطَيرُ
صبراً على الحادثات صبراً ما فعل الله فهو خيرُ

وتقول العرب : قد أقبل فلان و[لانت[٢]] عصاه ، إذا أصابه السُّواف — وهو ذَهاب المال ومَو[تُه] — فرجع وليس معه إلا العصا ، فإنه لا يفارقها إن كان معه إبلٌ أوْ لا . قال حُمَيد بن ثور :

واليوم يَنْتَزِعُ العصا من ربِّها وَيلُوك ثِنْىَ لسانِه المنطيقُ[٣]

قيل : كانت العرب تقاتل بالعصىّ ، فلهذا قال الأعشى ميمون بن قيس ابن جندل :

لسنا نُضارِب بالعصىِّ ولا نقاذِف بالحجاره[٤]
إلا بكلِّ مهندٍ عَضْب من البيض الذِّكاره[٥]
قَضِمِ المضارِبِ باترٍ يشفى النفوسَ من الحراره[٦]

وقال جندلُ الطُّهوىّ :

حتّى إذا دارت عصانا تجرى[٧] صاحت عصىٌّ من قنًا وسِدرِ[٨]

تقول العرب : « العصا من العُصَيّة والأفعى من الحية » . تريد أن الأمر الكبير يحدث من الصغير .

---

(١) الأبيات مما لم يرو فى ديوان أبى تمام . وهى فى البيان ٣ : ٦٧ . ورواية الأولى : « مالك من همة وعزم »
(٢) التكملة من البيان ٣ : ٥٢ .
(٣) فى البيان ٣ : ٥٣ : « تنتزع العصا » وفى مجالس ثعلب ١١٩ واللسان (نطق) : « والنوم ينتزع » .
(٤) ديوان الأعشى ١١٥ والبيان ٣ : ١٥ .
(٥) الذكارة ، بالكسر : جمع ذكر ، والذكر من الحديد أيبسه وأشده .
(٦) القضم : الذى تكسر حده مما طال عليه الدهر وكثر به الضراب .
(٧) فى البيان ٣ : ١٥ : « ورحى لا تجرى » يعنى رحى الحرب .
(٨) قال أبو منصور : القناة من الرماح : ما كان أجوف كالقصبة .

والعرب تسمّى الصغيرَ الرأسِ : رأسَ العصا . وكان عمر بن هبيرة[(١)] صغير الرأس ، فقال فيه سويد بن الحارث :

من مبلغٌ رأسَ العصا أن بيننا ضغائن لا تنسى وإن قدُم الدهرُ

وقال آخَر[(٢)]] :

[من مبلغٌ رأسَ العصا أن بيننا ضغائن لا تُنسى وإن هى سُلَّتِ

رضيتَ لقيسٍ بالقليل ولم تكن أخاً راضياً إنْ صدر نعلِك زلَّت

أى لم تكن قيس ترضى لك بالقليل .

وقال أبو العتاهية فى والبة بن الحُباب وقومِه وكانت رءوسهم صغارا :

رءوس عصىٍّ كن فى عود أثلةٍ لها قادحٌ يفرِى وآخر مخربُ[(٣)]

وفى حديث زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد[(٤)] رضى الله عنها وقد تكلّم أبو طالب وذكر رغبته فيها فقال قائلٌ منهم[(٥)] : « ابن أخيك الفحل لا يُقرع بالعصا أنفُه » . وذلك أنَّ الفحل اللئيم إذا أراد الضِّرَاب فى الإبل ضربوا أنفَه بالعصا .

وفى خطبة الحجاج : « والله لأعصبنّكم عَصْبَ السَّلمة ، ولأضربنّكم ضرب غرائب الإبل » . وذلك أنّ الأشجارَ تُعصَب أغصانها لتجتمع ، ثم تُخبَط بالعصا ليسقُطَ ورقها وهشيمُ العِيدان لتأكلَه الماشية .

* * *

---

(١) عمر بن هبيرة بن سعد بن عدى بن فزارة . ولى العراقين ليزيد بن عبد الملك ست سنين ، وكان يكنى أبا المثنى . المعارف ٢٨٩ .

(٢) هذه التكملة من البيان ٣ : ٤١ .

(٣) القادح : أكال يقع فى الشجر والأسنان . انظر البيان ٣ : ٤١ .

(٤) الخبر يروى فى زواجه من خديجة ، كما فى اللسان (قدح ، قرع) ، ويروى فى زواجه من أم حبيبة .

(٥) القائل فى خبر خديجة هو ورقة بن نوفل أو عمرو بن أسد بن عبد العزى ، كما فى اللسان . وفى خبر أم حبيبة أبو سفيان بن حرب ، كما فى البيان ٣ : ٤٤ .

قال المؤلف أطال الله بقاءه : زرتُ قبر يحيى بن زكريا عليهما السلام بقريةٍ يقال لها بطية[١] من أعمال نابُلس ، فلما صلّيت خرجت إلى ساحة بين يدى الموضع الذى فيه القبر محوّط عليها ، وإذا بابٌ مردود ففتحته ودخلت ، وإذا كنيسةٌ فيها نحو من عشرة شيوخ رءوسهم مكشوفة كأنها القُطن المندوف ، وقد استقبلوا الشّرقَ وفى صدورهم عصىٌّ فى رءوسها عوارض معوجّة على قدر صَدْر الرجال وهم مُعتمِدون عليها ، ويمنح بين أيديهم بقراء[٢] ، فرأيت منظراً يرقّ له القلب ، وساءنى وآسفنى إذْ لم أر فى المسلمين مَن هو على مثل اجتهادهم . فمضَتْ على ذلك مدّة فقال لى يوماً مُعين الدين أُنَر[٣] رحمه الله وأنا وهو نسير عند دار الطَّواويس : اشتهى أنزل أزور المشايخ . قلت : الأمر كذلك . فنزلنا ومشينا إلى منزل عرضى[٤] طويل، فدخلناه وأنا أظن أنّ ما فيه أحد، وإذا فيه نحو من مائةِ سَجّادة وعلى كل سَجّادةٍ رجلٌ من الصوفية عليهم السكينة ، والخشوعُ عليهم ظاهر. فسرّنى ما رأيت منهم ، وحمِدت الله عزّ وجلّ ، ورأيت فى المسلمين مَنْ هو أكثر اجتهاداً من أولئك القسوس ، ولم أكن قبل ذلك رأيت الصوفيّة فى دارهم ، ولا عرفتُ طريقَهم .

ويقال « يوم أطول من ظل القناة ، وأحرّ من دمع المِقْلات » . قال عبد الله ابن الدُّمينة[٥] :

ويوم كظلّ الرمح قصّر طولَه دمُ الزِّقِّ عنا واصطفاق المَزَاهر[٦]

---

(١) كذا وردت الكلمة بهذا الرسم .

(٢) كذا وردت هذه العبارة .

(٣) بذا ورد مضبوطا فى الأصل ؛ ويضبط أيضاً بضم النون . انظر النجوم الزاهرة ٥ : ٢٨٦ وكان معين الدين وزيراً لحاكم دمشق شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بورى ، وتوفى سنة ٥٤٤ كما فى النجوم الزاهرة .

(٤) كذا . ولعلها « عريض » .

(٥) الصواب يزيد بن الطثرية كما فى الحيوان ٦ : ١٧٩ .

(٦) دم الزق ، عنى به الخمر فى حمرتها . والمزاهر : جمع مزهر ، وهو العود الذى يضرب به .

ويقال رجل كالقناة، وفرسٌ كالقناة. قال عروة بن الورد[(١)]:

متى ما يجئْ يوماً إلى المال وارثى   يجدْ جُمعَ كفٍّ غيرِ ملأَى ولا صِفْرِ[(٢)]
يجد فرســاً مثل القناةِ وصارماً   حُساماً إذا ما هزّ لم يرض بالهَبَرْ[(٣)]

ويقال للرجل إذا لم يكن معه عصا: باهل؛ وناقة باهِلٌ إذا كانت بغير صِرار[(٤)].

فصل

فى بديع ما جاء فى عصا الكبر:

وقال المولى مؤيّد الدّولة مؤلِّف هذا الكتاب أطال الله بقاءه فى المعنى:

أسفى على عَصر الشباب تصرّمت   أيامُــه لا بل على أيامى[(٥)]
لم أبكه أسفاً على مرح الصِّبا   ووصالِ غانيةٍ وشُربِ مُدام
لكن على جَلَدِى وخوضى معرَكاً   يرتاع فيه المـوتُ من إقدامى
بِيَدِى حسامٌ كلّما جرّدتُه   يومَ الوغى أغمدتُه فى الهـام
ولِصدرِ مُعتدِلِ الكعوب حَطَمته   فى صدر كبشِ كتيبةٍ قَمقام[(٦)]
ونِزَالِ فُرسانِ الهِياج وكلُّهم   فَرِقٌ لهول تقحُّمى ومُقامِى[(٧)]
ولِقتلىَ الأسَد الضّوارىَ نَحطُها   كالرّعد قَعقَعَ فى مُتون غمام[(٨)]
تَلقَى إذا لاقيتَهــا أسداً له   بأسٌ يُبيح به حِمَى الأجسام

---

(١) الصواب أنه حاتم الطائى. ديوانه ١٢١ والحماسة ٢: ٣٧٤. والبيتان فى البيان ٣: ٥٩ بدون نسبة.

(٢) جمع الكف، بالضم، هو قدر أن تجمع أصابعها وتضمها. يقول: لا يجد عندى الوارث كثيرا ولا قليلا، بل شيئا بين بين.

(٣) الهبر: قطع اللحم. يقول: يأبى إلا أن يخالط العظم.

(٤) الصرار: خيط يشد فوق خلفها لئلا يرتضعها ولدها. البيان ٣: ٧٤.

(٥) هذه الأبيات مما لم يرو فى ديوان أسامة. تصرمت: تقطعت.

(٦) الكبش: الرئيس والقائد. والقمقام: السيد الواسع الفضل.

(٧) الفرق: الخائف الفزع.

(٨) النحط: صوت معه توجع.

لوأنَّ عينَ أبي زُبَيدٍ عاينَتْ فتَكاتِه لأقرَّ بالإحجام(١)
فحملتُ من بعد الثَّمانينَ العصا متيقِّنا إنذارَهـا لحِمـامى

وقال أيضاً أطال الله بقاءه فى المعنى :

مع الثَّمانينَ عاثَ الضَّعفُ فى جَلَدِي وساءنى ضعفُ رجلى واضطرابُ يدى(٢)
إذا كتبت فخطِّى جِدُّ مضطربٍ كخَطِّ مرتعشِ الكفينِ مرتعدِ(٣)
وإن مشيت وفى كفِّي العصا ثقُلت رجلى كأنى أخوضُ الوحل فى الجَلَد(٤)
فاعجَبْ لضعف يدى عن حملها قلماً من بعد حَطْم القنا فى لَبَّة الأسد
فقُلْ لمن يتمنَّى طولَ مدَّته هذِى عواقبُ طول العمر والمددِ

قال المؤلف أطال الله بقاءه : دخل علىّ بالموصل سنة ست وعشرين وخمسمائة رجلٌ من أهل الموصل نَصرانىٌّ يعرف بابن تَدرُس ، وهو شيخ كبير يمشى على عصا ليسلم علىّ ، وأنشدنى والعصا بيده قبل السلام :

أحمدُ الله إذْ سَلِمتُ إلى أن صرت أمشى وفى يدى عُكّازه
نعمةٌ ليتنى بقِيتُ عليهـا خالداً لا أُشالُ فوق جِنازه

وقال آخر :

عصيت العصا أيَّام شرخ شبيبتى فلما انقضى شَرخ الشباب أطعتُها
أحمِّلُها ثقلى ويحسب كلُّ مَن رآها بكفِّى أننى قد حملتُهـا

---

(١) أبو زبيد الطائى ، حرملة بن المنذر ، كان نصرانيا مخضرما ، وكان أوصف الناس للأسد ، وصفه بحضرة عثمان بن عفان وصفا مرعبا ، فقال له عثمان : اسكت قطع الله لسانك فقد أرعبت قلوب المسلمين . انظر الشعر والشعراء ٢٦٠ والأغانى ١١ : ٢٣ — ٣٠ والمعمرين ٨٦ والجمحى ١٣٢ والخزانة ٢ : ١٥٥ — ١٥٦ .

(٢) هذه الأبيات مما لم يرو أيضا فى ديوان أسامة . وقد أنشدها فى الاعتبار ١٦٣ . وهى أيضا عند ابن خلكان ١ : ٦٣ وابن فضل الله العمرى فى المسالك ١٠ : ٥٠٠ مصورة دار الكتب .

(٣) فى الأصل والمسالك : « لخط مرتعش » ، والوجه ما أثبت من الاعتبار .

(٤) الجلد : الغليظ من الأرض .

وقال المؤلف رحمه الله :

حمَلَتْ ثِقلِيَ فى السهل العصا وتبَتْ بى حين حاولت الحزُونا[1]
وإذا رجليَ خانَتْنى فلا لوم عندى للعصا فى أن تخُونا[2]

قال المؤلف : وأنشدنى العميد أبو الحسن على بن أبى الآمال بالموصل فى سنة ست وعشرين وخمسمائة ، ولم يسمّ القائل :

مازلت أركب شاكلاتِ الربرب حتّى مشَيت على العصا كالأحدب[3]
وتراد رجلى كلَّما ثبَّتُّهـــا فكأننى أمشى الوجَى فى المطلب[4]
أأزيد ثالثة وأنقص عن مَدَى مشيِ اثنتين لقد أتيتُ بمعجبِ
والليثُ لو بلغت سنوه سنِّتى أوقاربت ، أمْسَى فريسةَ ثعلب[5]

قال وأنشدنى القاضى الرشيد أحمد بن الزبير بمصر سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، للشاعر المعروف بابن المـكر بل :

تقوّس بعد طول العمر ظهرى وداستنى الليــالى أىَّ دوسِ
فأمشى والعصا تمشى أمامى كأنَّ قوامها وترٌ لقوس

قال المؤلف رحمه الله : أنشدنى الخطيب مجد الدين أبو عمران موسى بن الخطيب قدوةِ الشريعة يحيى الحِصْكَفى[6] رحمه الله ، بظاهر ميّافارِقين فى شعبان سنة إحدى وستين وخمسمائة :

---

(١) فى الأصل : « وثبت بى حين حاولت الحرونا » ، صوابه فى الديوان ٣٢٣ . والحزون جمع حزن ، بالفتح ، وهو ما غلظ من الأرض .
(٢) فى الأصل : « فى العصا أن تخونا » ولا يستقيم به الوزن . وصوابه فى الديوان.
(٣) شاكلة الشيء : جانبه .
(٤) فى الأصل : « فى الطلب » .
(٥) سنتى ، لعلها « شيبتى » .
(٦) نسبة إلى حصن كيفا ، وهى بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر . ويحيى هذا ، هو أبو الفضل يحيى بن سلامة بن الحسين الحصكفى الخطيب ، ترجم له فى خريدة القصر ، وسرد طائفة من خطبه وأشعاره .

كَبرتُ إلى أن صرتُ أمشى على العصا
لتجبر ما أعدي الزّمانُ على الوَهنِ(١)
يقولون ما تَشْكِي وهــل من شكاية
أشــدّ على الإنسانِ من كبر السنّ(٢)

قال : وأنشدنى أيضاً لبعضهم :

ولـكننى ألزمت نفسِيَ حَمْلَها لأُعلِمَهاَ أن المقيم على سفرْ

قال : وأنشدنى بها الموفَّق نصر بن سلطان لبعضهم :

كل أمرٍ إذا تفـكرت فيـه وتأملته تراه طريفــا
كنت أمشى على اثنتين قويا صرت أمشى على ثلاث ضعيفا

قال المؤلف رحمه الله :

إذا تقوّس ظهر المرء من كبر فعاد كالقوس يمشى والعصا وترُ(٣)
فالموت أروح شىء يستريح به والعيش فيه له التعذيب والضرر(٤)

وقال أيضاً فى المعنى(٥) :

إذا عاد ظهر المرء كالقوس والعصا له حين يمشى وهى تقدمه وترْ
وملّ تـكاليف الحياة وطولَها وأضعفه من بعد قوّته الـكبر
فإن له فى الموت أعظمَ راحةٍ وأمناً من الموت الذى كان ينتظر

وقال المؤلف رحمه الله :

حنانىَ الدهــــر وأفــنتنى الليـالى والغِيَرْ
فصرتُ كالقوس ومِن عصاى القــوس وتر

---

(١) فى الأصل : « ليخبر » .
(٢) شكيت ، لغة فى شكوت .
(٣) فى الأصل : « فعادة القوس » ، صوابه من الديوان ٣١٨ .
(٤) فى الديوان : « أروح آت » .
(٥) الأبيات التالية فى ديوانه ٣١٩ .

أهدج في مشيي وفي خطوى فتورٌ وقِصَر
كأنني مقيـــــــدٌ وإنما القيدُ الكبر
والعمر مثل الماء ، في آخره يأتي الكدرْ

وأنشدني الأمير السيد شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين العلوي الحسيني ، بالموصل في شوال سنة خمس وستين وخمسمائة ، لبعض المغاربة :

ولي عصاً في طريق السَّير أحمدها بهـا أقدِّم في تأخيرها قدمي
كأنها وهي في كفِّي أهشُّ بها على ثمانين عاماً لا على غنمي
كأنني قوسُ رامٍ وهي لي وترٌ أرمي عليها ذَماء الشَّيب والهرم[1]

قال المصنف رحمه الله : وحدثني الشريف الإمام شمس الدين أبو المجد علي ابن علي بن الناصر للحق الحسيني الحنفي بالموصل، في شهر رمضان سنة خمس وستين وخمسمائة قال : خرج خواجا بُزُرك[2] وفي يده عصا ، وهو ينشد هذين البيتين :

بعد الثمانين ليس قوهْ لهفي على قوّة الصُّبوّه[3]
كأنني والعصا بكفِّي موسى ولكن بلا نبوّة

قال : وأنشدني أيضاً قال : أنشدني والدي أبو الحسن علي قال : أنشدني والدي أبو طالب يحيي قال : أنشدني والدي الأمير أبو شجاع وقد علت سِنُّه وحَمَل العصا :

أهدى ليَ الدهرُ رجلاً منه ثالثةً ما كان أحسَنَني أمشي بثنتَين
أمشي بها وهي تمشي بي معاونةً ما كان أحسنني أمشي بلا عَونِ

---

(١) الذماء : بقية النفس . وفي الأصل : «رماء» .

(٢) هو نظام الملك الطوسي الحسن بن علي بن إسحاق . انظر ما سبق في صفحة ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٣) هذان البيتان نسبا الى نظام الملك ، كما في وفيات الأعيان . وهذه النسبة لا تستقيم ، والشعر نفسه يأباها فإن نظام الملك ولد سنة ٤٠٨ وقتل سنة ٤٨٥ ، أي إنه لم يصل الى الثمانين. والصواب نسبتها الى أبي الحسن محمد بن أبي الصقر الواسطي ، كما في الوفيات في ترجمة نظام الملك . وابن أبي الصقر هو محمد بن علي بن الحسن ، ولد سنة ٤٠٩ وتوفي سنة ٤٩٨ . ورواية ابن خلكان : «قد ذهبت شرة الصبوة» . وكلمة «الصبوة» لم أجدها سنداً في المعاجم، وفيها « الصبو » بدون هاء .

هديّة كنت آباها فصيَّرها ... إلىّ بالرغم منى قُرَّةَ العينِ
بانَ الشباب وجاء الشَّيب يَصحبه ... ياليتهــا صحبةٌ تبقى بلا بَينِ

وقال المؤلف رحمه الله :

ويْحَ السِّنينَ ومرِّها ... ماذا بنا هى فاعــله
جعلت عصاىَ ولم تكن ... شُغلى لِـكَفِّىَ شاغله
محمولةٌ هى فى المجا ... ز وفى الحقيقة حامله
والعمرُ ألجأنى إليـ ... ـها والقُوَى المتخاذله
والنَّفس عما سوف تلـ ... ـقى حين تُسلَمُ غافله
وجميعُ مكروهاتِهــا ... فى العيشة المتطاولهْ

قال المؤلف رحمه الله[1] :

قصّر خطوِي وقنَا صعدتى ... مُزَوَّرُ دهرٍ خائن خاتل
وصار كفّى مالــكاً للعصا ... من بعد حمل الأسمر الذابل
أمشي بضعفٍ وانحناء على ... عصاىَ مشىَ الصائد الخاتل
كأنَّنى لم أمش يوم الوغى ... إلى نِزال البطل الباســل
ولم أشُقَّ الجيش لا أختَشِى ... من الرَّدَى كالقدرِ النازل
فانظرْ إلى ما فعل العمرُ بى ... من طُوله لم أحظَ بالطائل
يا حسرتا إنِّى غداً ميِّت ... على فراشى مِيتةَ الخامل
هلاَّ أتانى الموتُ يومَ الوغى ... بين القنا والأَسلِ الناهلِ

وقال أيضاً[2] :

نظَرَتْ إلى ذى شيبة مُتَهدِّمِ ... أفنَى وكم أفنَى من الأعوامِ
يمشى وتَقدُمُه العصا وقد انحنى ... فــكأَنها وترٌ لقوس الرامى

---

(١) الأبيات التالية مما لم يرد فى ديوانه .
(٢) وهذه الأبيات أيضا مما لم يرد فى ديوانه .

ورأتْ سِماتِ الأريحيّة والنّدَى ودلائلَ المعروف والإقدام
واستَخبرَتْ عنّي فقلت لها امرؤ نائي المواطن من كرام الشّام
نَبَت الديارُ به وضاق فسيحُها عنه ففارقَها بغَير ملام
قالت من أيّ الناسِ أنت فقلت مِن أولاد مُنقِذَ فى ذُرًى وسَنام
من معشرٍ أبداً تروح رماحُهم بدم العِدَى مخضوبة الأعلام
تحمى البلادَ سيوفُهم وتبيح ما تحميه دونهم سيوفُ الحامى
النازلين بكلِّ ثغر خائف والآمنين معرّةَ الجُرّام(١)
وإذا أناخ السائلون بجوِّهم عادُوا ثقالَ الظّهر بالإنعام(٢)
كم فيهم عند الحقوقِ إذا عرَتْ من باذلٍ متبرِّع بسّام(٣)
تُغنى يداه إذا هما هَمَتا ندًى فى المَحْل عن صوب الغمام الهامى
يتهلّلون طلاقةً ويخافهم لسُطَاهمُ الآسادُ فى الآجام(٤)
قالت فأين همُ فقلتُ أبادَهمْ دهرٌ وهل باقٍ على الأيام
ووددْت لو ناهَلتُهم كأسَ الردى ووردْتُ قبلَهمُ حياض حِمامى
فحياةُ مثلى بعد عزٍّ باذخ ومعاشرٍ غُلْبٍ ومالٍ نام
ونفاذِ أمر لا يُرَدّ، مطيعه فيما قضى القاضى من الأقوام(٥)
لا شَكّ مِن غُصص الحِمام وراحتى بالموت غايةُ مُنيَتى وَمرامِى
فبكت بزفرة مُوجَع لو صادفت حجراً لذاب من الزّفير الحامى

وقال أيضاً :

حمّلْتُ ثقلى بعدما شبتُ العصا فتحملَتْه تحمُّل المتكارِهِ

---

(١) المعرة : الأذى والجناية . والجرام : جمع جارم ، وهو الجانى . وفى الأصل : «الحرام» .
(٢) الجو : ما انخفض من الأرض . وفى الأصل : « بنحوهم » .
(٣) فى الأصل : « متترع » .
(٤) السطا ، أراد بها السطوات .
(٥) أى إن القاضى يخضع له ، فهو يطيع بما يقضى به أمره .

ومشت به مشىَ الحسير بوِقره	لا يستقل مقيّدا بعِثاره[1]
ما آدها ثِقلى ولكن ثقل ما	أبقى الشباب علىّ من أوزاره[2]
ورجاىَ معقودٌ بمن أعطى أخا السّبعين عهدةَ عتقه من ناره

وقال أيضاً[3] :

غَرِضْتُ من الحياة فكلُّ عمرى	تصرّم بالحوادث والخطوب[4]
فما ظفرت يدى بسرورِ يومٍ	بغير همومِ حادثةٍ مَشُوبِ
صِباً كالسُّكر أعقبه شباب	تقضّى بالوقائع والحروبِ
ووافى بعده شيبٌ بَغيض	فلا سَقياً لأيام المشيبِ
أرانى طِيب لذّاتى ولهوى	يعدُّ من الجهالة والعيوب
وأدّانى إلى كبرٍ وضعف	وأدواء خَفِينَ على الطبيب[5]
إذا رُمتُ النُّهوض حسبت أنّى	حملت ذُرى الشّناخب من عسيب[6]
فإن أنا قمت بعد الجهد أمشى	فمشيِى حين أعجل كالدّبيب
تسيِّرنى العصا هَوناً وخلفى	مسيرُ الموت كالرّيح الهَبوب
وأفنَى الموتُ إخوانى وقومى	وأترابى فما أنا كالغريبِ
وفيما قد لقيت ردًى وموتٌ	ولكن ليس قلبى كالقلوب

(١) فى الأصل : « بعثاره » ، صوابه من الديوان ٢٢٣ .
(٢) كلمة « على » ليست فى الأصل ، وإثباتها من الديوان .
(٣) الأبيات التالية مما لم يرد فى ديوانه .
(٤) يقال غرض غرضا ، من باب تعب : أى أدركه الملال والضجر . وفى الأصل : « عرضت » تحريف . وقال أسامة أيضا فى ديوانه ٤٦ :

غرضت من الهجران والشمل جامع	ولم يتصدنا بفرقتنا الدهر

(٥) فى الأصل : « وأدواء جفين » .
(٦) حسبت ، هى فى الأصل : « همت » . انظر البيت الرابع من المقطوعة التالية الآتية . والشناخب : جمع شنخوب ، وهو رأس الجبل وأعلاه . وعسيب : جبل بعالية نجد

وقال أيضاً :

إنْ ضعفتْ عن حمل ثِقْلى رجلى ورابنى عِثارُها فى السهل[1]

أمشى كما يمشى الوَجِى فى الوحلِ مشىَ الأسير مُوثَقاً بالكِبْل

فالعصا عندىَ عُذرُ المُبْلِى[2] إن عَجَزت أو ضَعُفَت عن حَملى

وقال أيضاً وكتب بها فى كتاب إلى ولده الأمير عضد الدين أبى الفوارس مرهَف إلى مصر يطلب منه عصا من آبنوس[3] :

أريد عصاً من آبنوسٍ تُقِلنى فإن الثمانين استعادت قُوَى رِجْلى

ولو بعصا موسى اتقيتُ لآدها على مابها من قُوّةٍ حَمْلُها ثِقْلى

ولكن تمنّينا الرّجاء بباطلٍ وكم قَدْرُ ما تُرجِى المنايا وكم تُمْلِى

إذا بلغَ المرء الثمانين فالرّدَى يناديه بالتّرحال من جانب الرّحلِ

وقال أيضاً[4] :

لما بلغت من الحياة إلى مَدَى قد كنت أهواهُ تمنَّيت الرّدَى

لم يُبقِ طولُ العمر منى مُنّةً ألقَى بها صَرْفَ الزّمانِ إذا اعتدى

ضَعُفت قواىَ وخاننى الثّقتانِ من بصرى وسمعى حين شارفتُ المَدَى

فإذا نَهَضتُ حسبت أنِّى حاملٌ جبلاً وأمشى إن مشَيتُ مقيَّدا

وأدبُّ فى كفّى العصا وعهِدتُها فى الحرب تحمل أسمراً ومهنَّدا

وأبِيت فى لِيَنِ المِهاد مسهَّدًا قلِقاً كأنّنِىَ افترشت الجَلْمَدا

والمرء ينكس فى الحياةِ وبينما بلغَ الكمالَ وتمَّ عادَ كما بدا

وقال أيضاً[5] :

ألوم الرّدَى كم خضته متعرِّضاً له وهو عنِّى معرِضٌ متجنِّبُ

---

(١) فى الأصل : « ودانسنى » ، صوابه فى الديوان ٣٢٠ .

(٢) يقال أبلاه عذراً : أداه إليه فقبله . (٣) الأبيات التالية ليست فى ديوانه .

(٤) الأبيات التالية ليست فى ديوانه .

(٥) الأبيات التالية لم ترد فى ديوانه . وقد وردت ما خلا البيت الرابع فى كتاب لباب الآداب ص ٢٢٦ .

وكم أخذت منّى السُّيوفُ مآخذ الـــحِمامِ ولكنّ القضاء مغيّبُ
إلى أن تجاوزتُ الثمانينَ وانقضت بُلَهنيةُ العيش الذى فيه يُرغب[(١)]
وأصبحت أستهدِى العصا فتميلُ بى لضعفى عن قصدى كأنّى أنكَبُ[(٢)]
فمكروهُ ما تخشى النُّفوسُ من الرّدى ألذُّ وأحلى من حياتى وأعذب[(٣)]

وقال أيضاً[(٤)] :

قد كان كفّى مألَفاً لمهنّدٍ تُفدَى القلوبُ له وتُفرَى الهامُ

ـ قوله « تفدى » من الفِداء ، وهو الحماية[(٥)] ـ

ولأسمرٍ لدنِ الكعوب وحازَه حيث استمرّ الفِكرُ والأوهامُ
يتزايل الأبطال عنّى مثلَ ما نَفَرت من الأسَد الهَصُورِ نعامُ
فرجعتُ أحمِلُ بعد سبعينَ العصا فاْعجَبْ لمـــا تأتى به الأيّام
وإذا الحِمامُ أبَى معاجلةَ الفتى لحياته لا تكذبنّ حِمامُ[(٦)]

قال مؤيد الدولة مؤلّفُ هذا الكتاب ، رحمه الله : هذا آخرُ ما قلته وجمعته ، وألفته ورصّفته ، فى ذكر العصا ، وبه نجز الكتاب ، بعون الملك الوهّاب .

---

(١) البلهنية : سعة العيش ورخاؤه ونعمته .
(٢) الأنكب : الذى كأنما يمشى فى شق ، أى جانب .
(٣) فى لباب الآداب : « وأطيب » (٤) الأبيات التالية مما لم يرو فى ديوانه .
(٥) فى الأصل : « الحماء » . (٦) فى الأصل : « وإذا الحمام أبى » .

رسالة التلميذ

لعبد القادر بن عمر البغدادي

١٠٣٠ - ١٠٩٣

مقـــدمـــة

عبد القادر البغدادى :

فى سنة ١٠٣٠ وفى مدينة بغداد ، ولد عبد القادر بن عمر البغدادى ، وبغداد يومئذ فى محنة قاسية بين الدولة الصفوية وعلى رأسها الشاه عباس ، والدولة العثمانية .

وفى سنة ١٠٤٨ حين حمى وطيس القتال حول بغداد وتدفقت إليها جيوش مراد الرابع العثمانى فانتزعتها من الإيرانيين ، حينئذ رحل عبد القادر إلى دمشق فكان شيخه فيها محمد بن يحيي الفرضى ، ولكنه لم يستقر بها عامين حتى شد رحاله إلى القاهرة فدخلها سنة ١٠٥٠ وكان شيخه فيها شهاب الدين الخفاجى ، كما كان من شيوخه يس الحمصى ، والنور الشبراملسى ، والبرهان إبراهيم اللأمونى . وبموت الخفاجى سنة ١٠٦٩ انتقلت معظم كتبه إلى عبد القادر ، وضم إليها بعد ذلك كتباً أخرى جليلة الشأن . وفى سنة ١٠٧٧ وهى السنة التى تولى مصرفيها إبراهيم باشا كتخدا ، اتصل به عبد القادر فأحله محلا كريماً ، وكان سميره ونديمه ، وظل ملازماً له إلى انتهاء مدة ولايته سنة ١٠٨٥ فرجع معه إلى ديار الروم ، واتصل حبله هناك بالوزير أحمد باشا الكوبريلى فألف باسمه (شرح قصيدة بانت سعاد) ، ثم بالسلطان محمد بن السلطان إبراهيم ، فتوج باسمه كتابه الكبير (خزانة الأدب) ، وظل فترة من الزمن مضطربا بين الشام والروم ، ثم عاد من طريق البحر إلى مصر ولم تطل مدته بها حتى توفى فى سنة ١٠٩٣(١) .

التلميذ :

كلمة ضعيفة الصلة بالأصول العربية فى مادتها ، لذلك صرح بعض اللغويين القدماء ، وفى مقدمتهم ابن دريد فى الجمهرة ٢ : ٣٧ وابن فارس فى مقاييس اللغة ١ : ٣٥٣ ، والجواليقى فى المعرب ٩١ ، والخفاجى فى شفاء الغليل بأنها ليست عربية الأصل .

ومهما يكن فإن هذه الكلمة سامية الأصل ، ومأخذها إما أن يكون من العبرية وإما أن يكون من السريانية . وذهب معاصرنا اللغوى الفاضل (الأب مرمرجى

---

(١) انظر خلاصة الأثر للمولى المحبى ٢ : ٤٥١ — ٤٥٤ ومقدمة الأستاذ محب الدين الخطيب لخزانة الأدب التى اضطلعت بأكبر عبء فى تحقيقها من سنة ١٣٤٧ — ١٣٥١ .

الدومنكي) أن أصلها الأول من العربية نفسها(١) وذلك بناء على القاعدة التي ينصرها، وهي قاعدة (الثنائية) التي ترجع أصول الكلمات إلى أصل ثنائي تتفرع منه الثلاثيات فما فوقها ، فهو يقول إن الأصل الثنائي للكلمة موجود في العربية وهو « لد » الدال على الشدة ، ومنه اشتق « لدم » الدال على الضرب ، ثم قلب إلى « لمد » بمعناه ، ثم اشتق منه التلميذ .

وأنا أرى أن هذه المحاولة البارعة يمكن إجراؤها في كثير من الكلمات المعربة ، فنستطيع أن نرد كثيراً من الكلمات المعربة والدخيلة إلى أصل عربي، وهو لا يستقيم.

وقد تضمن مقاله النفيس ، مقارنة ممتعة بين اللغات السامية في مادة هذه الكلمة .

(في السريانية) : « لْمَدْ » : جمع ، ضم ، أضاف . « تَلْمِيْذ » : هذّب ، علّم ، أرشد . « تَلْمِيذَا » : طالب علم ، متعلِّم .

(في الأرمية) : « تَلْمِيذَا » طالب علم .

(في المندائية) : « تَرْميدا » : تلميذ .

(في العبرية) « لاَمَدْ » : ضرب بالسياط ، عاقب ، روّض . « مَلْمَيْذْ » : مهماز يضرب به للترويض ، خاصة للحيوانات . « تَلْمُود » : تعليم ، نظرية . « تَلْمِيذْ » : متعلم ، دارس .

(في الحبشية) : « لَمَدَ » : تعود ، آلف ، واظب . « لَمُودْ » : متعوّد ، أليف . « لِمَاد » عادة ، طبع . « تِلْمِيذ » طالب علم ، دارس .

(في الأكدية) : « لَمَادُو » : تعلّم ، عرف . « لُمَادُوتو » : تعلُّم ، عرفان . « مُلَمِّدُو » : معلم ، أستاذ . « تَلْمِيدُو » : دارس ، طالب علم .

(في العربية) : « لَمَدَ » : تواضع له بالذل . « لَمَدَه » : لدمه (بالقلب) . « تَلْمَذَ له ، وتتلمذ » : صار له تلميذا ، تخرج عليه . « التلميذ » : المتعلم العلم أو المهنة .

---

(١) مجلة الثقافة العدد ٦٤٢ إبريل سنة ١٩٥١ . والمقال كتب بمناسبة مقال قبله للأستاذ الجليل أحمد عبد الغفور عطار ، عنوانه (التلميذ في لغة العرب) نشر في مجلة الثقافة العدد ٦٣٤ فبراير سنة ١٩٥١ .

رسالة التلميذ :

كنت قد نشرت هذه الرسالة أول مرة فى مجلة المقتطف (عدد مارس ١٩٤٥) . وقد رأيت إعادة نشرها فى (نوادر المخطوطات) لندرتها ولما ثار حولها وحول موضوعها فى هذه الأيام من بحث جديد .

وقد ذكر البغدادى فى صدر رسالته أنه لم يجد كلمة « التلميذ » فى الجمهرة ، والصحاح ، والمحكم ، والعباب ، والقاموس . فعقب عليه الأستاذ المحقق (أحمد عبد الغفور عطار) فى مجلة الثقافة ، بأنها وجدت فى جميع هذه الكتب ، ولكن فى غير مظنها ، أى فى مادة (تلم) ، وأما صاحب العباب فإنه لم يذكر هذه الكلمة لأن تأليفه إنما وصل إلى مادة (بكم) ولم يتم تأليف معجمه . وزاد على ذلك أن الكلمة وردت فى مادة (تلم) من المجمل والمقاييس لابن فارس والتهذيب للأزهرى والمخصص ١٢ : ٢٥٧ والقرطين لابن مطرف الكنانى ، وشفاء الغليل للخفاجى .

ولكنه قد غاب عن الأستاذ الباحث عطار ، أن البغدادى لم يعن بكلامه فى صدر رسالته أنه لم يجد الكلمة فى تلك الكتب ، بل أراد أنه لم يجدها فى مادتها التى يتوقعها فيها الباحث وهى (تلمذ) ، بدليل أن البغدادى نفسه أورد فى رسالته نصوصاً من الصحاح والقاموس والتهذيب من مادة (تلم) وفيها ذكر التلميذ والتلاميذ .

أصول رسالة التلميذ :

أصول هذه الرسالة ثلاث نسخ محفوظة بدار الكتب المصرية : إحداها برقم ٦ مجاميع ش ، والثانية برقم ١٨١ مجاميع ، والثالثة برقم ١٢٢ مجاميع . وقد رمزت إلى هذه النسخ بالرموز : ا ، ب ، ج على التوالى . وأصح هذه النسخ وأكملها هى نسخة ب ، وكل ما أثبته بين علامة الزيادة فهو منها .

وفى الخزانة التيمورية نسخة بخط المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا كتبها بخطه سنة ١٣٢٢ .

وهذه رسالة التلميذ :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين .

[أما بعد] فهذه كلمات ذكرتها لمعنى التلميذ ، فإنى لم أجد هذه الكلمة مذكورة فى كتب اللغة المتداولة ، المدوّنة [لبيان] الجليل والحقير ، وذكر النقير والقِطْمير ، كالجمهرة لابن دريد ، والصّحاح للجوهرى ، والمحكم لابن سيده ، والعباب للصاغانى ، والقاموس لمجد الدين الفيروزابادى ، وغيرها ، إلاّ فى لسان العرب لابن مكرّم ، فإنه أورده فى مادة (تلمذ) وقال : « التلاميذ : الخدَم والأتباع ، واحِدُهم تلميذ » ، مع أنّها كلمة متداولة بين العام والخاص ، وكثيرة الاستعمال فى تآليف العلماء الأعلام .

وكان الباعث لهذا أنى لما قرأت كتاب مغنى اللبيب ، ووصلت إلى قوله فى الباب الخامس « حُكِيَ لى أنّ بعض مشايخ الإقراء أعرب لتلميذٍ له بيتَ المفصّل[1] » رأيت شارحه الفاضل إبراهيم بن الملاّ الحلبى[2] قال : « التلميذ : القارئُ على الشيخ . ولم أقف عليه فى شىء من كتب اللغة المتداولة كالصحاح والقاموس وغيرهما » . اهـ

فحينئذٍ تتبعت بطون الدفاتر ، من مصنفات الأوائل والأواخر ، حتى رأيته فى كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى ، فإنه ساق[3] فيه شعراً للبيد بن ربيعة العامرىّ الصحابى وفيه هذا البيت :

فالماء يجلو متونهنّ كما يجلو التلاميذُ لؤلؤاً قَشِبا[4]

وقال بعد إنشاد الأبيات : « التلاميذ غلمان الصنّاع . والقَشِب والقشيب : الجديد ، والجمع القُشُب » .

(١) المفصل للزمخشرى فى النحو . انظر شرح ابن يعيش ٢ : ٩٤ . والبيت هو :

لا يبعد الله التلبب والغا راتِ إذ قال الخميس : نعم

(٢) هو إبراهيم بن الملا محمد الحلبي المتوفى سنة ٩٧٩ . ذكره فى كشف الظنون . وفى ا ، حـ : « حلبي » موضع . « الحلبي » تحريف . (٣) ا ، حـ : « سابق » والصواب فى ب .

(٤) ديوانه ١٤١ بشرح الطوسى : وفيه : « التلاميذ غلمان الصاغة .. التلاميذ فارسى » .

ورأيته أيضاً فى شعر أمية بن أبى الصلت ، وهو شاعر أدرك النبى صلى الله عليه وسلم ولم يوفق للإيمان به . وغالب شعره فى الوعظ وتذكير الآخرة وقصص الأنبياء ، وهو مما لا يكاد يُقضَى العجب منه . قال فى قصيدة :

والأرض مَعقِلُنا وكانت أمَّنا فيها مقامتُنا وفيها نولدُ
وبها تلاميذ على قُذُفاتها حُبِسوا قياماً فالفرائص تُرْعَدُ[1]

قال شارح ديوانه : « التلاميذ الخدم ، يعنى الملائكة » .

وقال أيضاً فى قصيدة أخرى :

صاغ السماء فلم يخفض مواضعَها لم ينتقص علمَه جهلٌ ولا هَرَمُ
لا كَشَّفت مرةً عنا ولا بليت فيها تلاميذ فى أقفائهم دَغَمُ[2]

وقال شارحه هنا أيضاً كذلك .

ورأيت فى المقامة الأولى من المقامات الحريرية قوله : « فوجدته محاذياً لتلميذ ، على خبز سميذ ، وجدى حنيذ ، وقبالتَهما خابيةُ نبيذ[3] » . قال شارحه الشريشى : « التلميذ متعلم الصنعة ، والتلميذ الخادم ، والجميع التلاميذ » . وأنشد بيت لبيد المتقدم ، ثم قال : « وطلبة العلم تلاميذ شيخهم » . اهـ .

وإهمال داله لغة فيه ، قال أمية بن أبى الصلت فى القصيدة الدالية التى تقدم إنشاد بيتين منها :

فمضى وأصعدَ واستبدَّ إقامةً بأولِى قوًى فمبتَّل ومُتلمَدُ

قال شارحه : « يريد متلمَذ ، أى خادم من التلاميذ . وتُلمِذ : جُعل للخدمة . « متلمِذ » بكسر الميم . وأراد بأولى قوى : الملائكة الذين يحملون العرش . وقوله : « فمضى » يعنى الله عزَّ وجل . واستبدَّ ، يعنى لا يستشير أحداً ، يقال استبدَّ

---

(١) القذفات بضم القاف وفتحها : جمع قذفة ، بالضم ، وهى الناحية . وقذفات الجبال وقذفها : ما أشرف منها . (٢) الدغم : السواد .

(٣) هذا سهو من البغدادى ، فإن الشريشى فى هذا الموضع لم يقل إلا : « تلميذ ، متعلم الصنعة » . انظر الشريشى ١ : ٢٩ س ١ . وأما الكلام الذى نقله البغدادى بعد فهو تعليق على قول ابن الحريرى : فالتفت إلى تلميذه وقلت عزمت عليك بمن تستدفع به الأذى ، لتخبرنى من ذا » . انظر الشريشى ١ : ٣٠ .

فلان برأيه ، إذالم يستعن أحداً على ما يريد . والمبتّل : المفرد » . اهـ

ويؤخذ منه أن تاءه أصلية ، ووزن تلميذ فِعليل ، وأن له فعلاً متصرفاً هو تلمذه كدحرجه ، بمعنى خدمه ، يتلمذه كيدحرجه ، تلمذة وتِلماذا ، كدَحْرَجَةً ودِحْراجاً ، فهو متلمذ كَمُدَحْرِج بمعنى خادم ، وذاك متلمَذ أى جعل خادماً[(١)] وإطلاق التلميذ على المتعلم صنعة أو قراءة ، لأنه فى الغالب يخدم أستاذه .

وقول الناس : « تمذّ له » و « تلمّذ منه » بتشديد الميم ، خطأ ، لأنهم توهموا أن التاء زائدة ، وليس كذلك ، وصوابه « تلمّظ له » و « تلمظ منه »[(٢)] بالظاء المشالة المعجمة . ولمّظه أى أطعمه وأذاقه . والتلمظ : تتبّع اللسانِ بقية الطعامِ فى الفم . وقد يكنى به عن الأكل ، استعير للتعليم شيئاً فشيئاً .

والتلميذ يجمع على تلاميذ ، فإنّ فِعْليلا يجمع على فعَاليل ، كبرطيل وبراطيل ، وعفريت وعفاريت ، وقنديل وقناديل ، وإصليت وإصاليت ، وإبريق وأباريق ، ومِنْديل ومناديل .وأماقولهم فى جمعه «تلامذة» فعلى توهم أنه اسم أعجمى[(٣)] ، فإن الهاء فى الجمع تكون فى أحد ثلاثة مواضع : (أحدها) الاسم الأعجمى المعرب ، سواء كانت للتعويض عن مَدّةٍ نحو أستاذ وأساتذة ، أم لا نحو موزج وموازجة ، وكيلجة وكيالجة . (ثانيها) للتعويض عن ياء النسب فى المفرد ، نحو أشعثى وأشاعثة ، ومهلبى ومهالبة ، وأزرقى وأزارقة . (ثالثها) للتعويض [إما] عن ألف خامسة جوازاً نحو حبنطى وحبانطة ، وعفرنى وعفارنة ، وإما عن [عين[(٤)]] مضاعفة نحو جبار وجبابرة . وفى غير هذه المواضع الثلاثة قليل نادر كفحولة وحجارة

قيل : وقد يرخم التلاميذ فى الشعر على تلَام ، كقول الطرِمّاح :

تتقى الشمس بمدريّةٍ كالحماليج بأيدى التلام

---

(١) الأولى من تلمذه بمعنى خدمه ، والأخيرة من تلمذه أى جعله خادماً .
(٢) هذه فتوى لغوية للبغدادى . ولم يستعمل هذه التعبير ، ولا أظنه سائغاً .
(٣) كأن البغدادى يذهب إلى أنه عربى .
(٤) كتبت كلمة عين فى ا ، خ لكن جعل فوقها خط ، والصواب إثباتها .

والحاليج : منافخ الصاغة الطوال، واحدها حملوج شبه قرن البقرة الوحشية بها.

قال الجواليقى فى المعرّبات[١] : «التلام أعجمى معرب ، قيل هم الصاغة ، وقيل غلمان الصاغة ، وقيل هم التلاميذ » . وأنشد هذا البيت .

وأنشد ابن برى فى حاشية الصحاح قول غَيلان بن سلمة الثقفى[٢] أيضاً :

وسربال مضـــاعفة دِلاص   قد أحرزَ شكَّها صُنعُ التلامِ

وروى : « التلام » فى البيتين بفتح التاء وكسرها . أما الفتح فعلى أنه مرخَّم التلاميذ ضرورة . وقد اقتصر عليه صاحب الصحاح ، وقال : « التلام التلاميذ سقطت منه الدال » .

وصاحب الصحاح تابع فى هذا لأبى على ، قال فى المسائل العسكرية[٣] : ومن قبيح الضرورة قول الشاعر :

* مثل الحاليج بأيدى التلامْ *

قالوا : يريد التلامذة ، فحذف . وقد أعلمتك أن ذلك يكون على الترخيم فيما تقدم . إلا أنه قد جاء من هذا النحو ما لا يكون فى الترخيم كقوله[٤] :

* درَسَ المَنَا بِمُتَالِعٍ فأبانِ *

قالوا : يريد : المنازل . ومثل ذلك ما أنشدوه لأبى دُوادٍ[٥] الإيادى :

* فكأنَّما تُذْكى سنابكها حُبَا[٦] *

قيل يريد الحباحب ، أى نار الحباحب . وفى التنزيل: «فالموريات قَدحاً». انتهى كلامه .

---

(١) المعرب للجواليقى طبع دار الكتب ص ٩١ .

(٢) شاعر مخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام . الإصابة ٦٩١٨ والأغانى ١٢ : ٤٣ — ٤٧

(٣) المسائل العسكرية لأبى على الفارسى المتوفى سنة ٣٣٧ . نقل منها البغدادى نصوصاً جليلة فى مواضع شتى من الخزانة . انظر ١ : ٩ ، ١٤ / ٢ : ٦٢ ، ٢٧٥ ، ٤٠٢ ، ٥٢٢/٣ : ٤٦ / ٤ : ٦٧ ، ٧٣ ، ٥٨٢ ، ١٠ ا ، حـ : « مسائل السكرية » تحريف .

(٤) هو لبيد بن ربيعة . والبيت مطلع قصيدة له فى ديوانه طبع فينا ١٨٨٠ وعجزه :

* وتقادمت بالحبس فالسوبان *

(٥) ا ، حـ : «لأبى دؤاد» بالهمز . (٦) روى البيت فى الحيوان ١ : ٢٨٨ هكذا :

يهوين جندل حائر لجنوبها   فكأنها تذكى سنابكها الحبا

وأما الكسر فعلى أنه جمع « تلم » بكسر فسكون ، بمعنى الغلام . قال ابن مكرَّم[١] : فمن[٢] رواه : التلامى ، بفتح التاء و إثبات الياء ، أراد التلميذ ، يعنى تلاميذ الصاغة . هكذا رواه أبو عمرو ، وقال : حذف الذال من آخرها[٣] ومن رواه : التلام ، بكسر التاء ، فإنّ أبا سعيد قال : التلم الغلام . قال: وكلُّ غلامٍ تِلْمٌ ، تلميذاً كان أو غير تلميذ ، والجمع التلام . وقال ابن الأعرابى : التلام الصَّاغة ، والتلام الأكرة » اهـ .

وأقول : « الصاغة » تصحيف من الصناع[٤] لوقوعه فى صحبة الحماليج . و يدفعه البيت الثانى[٥] .

وقال صاحب القاموس : « التلم ، بالكسر : الغلام ، والأكّار ، والصائغ أومنفخهُ الطويل. وكسحاب : التلاميذ ، حذفت ذاله . ولم يذكر الجوهرى غيرها ، وليس من هذه المادة [و] إنما هو من باب الذال » اهـ .

أقول : أما قوله : « الأكّار والصائغ » فأخذه من قول ابن الأعرابى ، على أن الصاغة والأكرة بالتحريك جمع صائغ وأكّار .

وأما قوله : « أو منفخه » فقد أخذه من قول بعضهم ، وقد غلط فيه .

نقل الأزهرى عن الليث أن بعضهم قال : التلام الحماليج التى ينفخ بها . قال : وهذا باطل[٦] .

والعجب من صاحب القاموس ، أنه اعترض على صاحب الصحاح فى ذكره التلام فى باب الميم ، مع أنه أثبته مثله ، ولم يذكره فى باب الذال .

[انتهت الرسالة]

---

(١) فى لسان العرب مادة تلم . (٢) فى الأصل : «ومن» وصواب النص من اللسان .
(٣) أسقط البغدادى هنا قول ابن منظور : « كقول الآخر :

لها أشارير من لحم تتمره من الثعالى ووخزمن أرانيها

أراد من الثعالب ، ومن أرانبها» . وهذا البيت لأبى كاهل اليشكرى كما فى اللسان ٥ : ١٦١ .
(٤) ط فقط : «فى الصناع» . (٥) يشير إلى بيت غيلان بن سلمة .
(٦) فى اللسان : «قال أبو منصور — وهو الأزهرى — قال الليث : إن بعضهم قال التلاميذ الحماليج التى ينفخ فيها . قال : وهذا باطل ما قاله أحد» .

فهرس المجموعة الثانية

صفحة

المجموعة الثالثة

١٠ ـ رسالة أبي عامر بن غرسية في الشعوبية.
١١ ـ رسالة في الرد عليها لأبي يحيى بن مسعدة.
١٢ ـ رسالة ثانية في الرد عليها.
١٣ ـ رسالة ثالثة لأبي جعفر أحمد بن الدودين البلنسيّ.
١٤ ـ رسالة رابعة لأبي الطيب بن من الله القرويّ.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذه هى المجموعة الثالثة من (نوادر المخطوطات) ، وهى وثيقة هامة تقدم إلى خاصة الأدباء والباحثين مادة غزيرة فى ناحية مغلقة من نواحى الأدب العربى ، وتعرض لوناً من ألوان الحياة الثقافية والاجتماعية والدينية فى بلاد الأندلس فى القرنين الخامس والسادس .

وقد كان للصديق الفاضل « الدكتور شوقى ضيف » فضل تعريفى برسالة ابن غَرسِيَة التى لم أكن أعرف عنها إلا الاسم فحسب ، وقد عثر عليها فى أثناء تفتيشه لذخيرة ابن بسام[1] .

وعند ما رجعت إلى الذخيرة وجدت النص فيها مضطربا شديد التحريف ، فبحثت عن مرجع آخر يسعف فى تحقيق هذا النص فساقنى الطاف إلى فقر متناثرة نشرها المستشرق الألمانى الكبير إجنتز جولد تسيهر Ignaz Goldziher فى أثناء بحثه فى (الشعوبية عند مسلمى الأندلس) الذى قدمه إلى مؤتمر المستشرقين الثانى عشر بمدينة روما فى أكتوبر سنة ١٨٩٩ ونشره فى مجلة الجمعية الألمانية الشرقية[2] . وقد رأيت أن أطلع على هذا البحث المكتوب باللغة الألمانية ، فاتصلت بالصديق الفاضل « الدكتور عبد الحليم النجار » الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، الذى كان له فضل إمدادى بترجمة دقيقة لهذا البحث استوجبت جزيل شكرى وعظيم التقدير .

---

(١) القسم الثالث من مخطوطة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٢٢ ص ٢١٩ — ٢٣١ .

(٢) Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft المجلد ٥٣ ص ٦٠١ — ٦٢٠ ليبسك ١٨٩٩ .

وكان فى النية أن أنشر هذه الترجمة النفيسة فى هذه المجموعة ، ولـكنى وجدت فيما بعد أن نطاق المجموعة يضيق عن استيعاب نص هذا البحث المسهب ، فآثرت أن أوجزها إيجازاً ، وأن ألحقها بنهاية هذا التقديم .

وقد دلنا جولد تسيهر على مخطوط فى مكتبه الإسكوريال برقم (٥٣٨) يتضمن هذه الرسالة وبعض الردود عليها وهو مخطوط نادر مكتوب بخط مغربى مجهول التاريخ وإن كان يبدو عليه سمة القدم ، كتب فى صدره :

« الحمد لله . مجموع فيه مبايعة على بن أبى طالب أبا بكر الصديق رضى الله عنه وتفسير ألفاظها لغة ، ومكاتبات الأمير على بن يوسف بن تاشفين ، ومخاطبة الراهب الفرنسي وجوابه للإمام أبى الوليـد الباجى ، ومكاتبات أهل سبتة لأهل الجزيرة الخضراء ، ومضحكات وغرائب . بالله يثق وعليه يتوكل ويعتمد مالـكه محمد ابن يوسف بن محمد . وفيه المراسم الجـدلية ومسائل من أصول الفقه . والحمد لله وحده » .

وهذه العنوانات هى بعض ما ورد فى مجموعة الإسكوريال ، وهناك عنوانات أخر لرسائل كثيرة تضمنها هذا المجموع النادر .

وبذلك اجتمع لنا نصان يسعفان فى نشر هذه الرسائل النادرة .

نص الذخيرة ونص مجموعة الإسكوريال

أما نص الذخيرة[١] فإنه يشتمل على رسالة ابن غرسية ، ورسالتين أخريين هما :

١ — رد أبى جعفر أحمد بن الدودين .

٢ — ثم رد أبى الطيب بن من الله القروى .

وأما نص المجموعة فإنه يشتمل على الرسالة وعلى ردود أربعة ، وهى :

١ — رسالة أبى يحيى بن مسعدة .

٢ — ثم رسالة لم يصرح باسم كاتبها ، وأرجح أنه أبو يحيى .

٣ — ثم رسالة أبى جعفر بن الدودين .

---

(١) مما يجدر ذكره أن جولدتسيهر لم يطلع على هذا النص ، ولم يشر إليه فى بحثه . وكان ذلك سبباً فى عثرته التى أشرت إليها فى ص ٢٤٢ .

٤ — ثم رسالة أبى الطيب بن من الله القروى .

ومما هو جدير بالذكر أن صاحب مجموعة الإسكوريال قد نقل الرسالتين الأخيرتين من الذخيرة ولم يصرح بذلك ، فإننا نجد نص رسالة أبى جعفر بن البودين هو نص الذخيرة ، لا يفترقان إلا فى القليل .

ونلقى صدر رسالة أبى الطيب فى المجموعة هو عبارة ابن بسام وسجعه فى الذخيرة بالحرف الواحد : « وممن رد عليه وأجاد ، ما أراد ، أبو الطيب بن من الله القروى برسالة طويلة أثبت منها بعض الفصول ، تخفيفاً للتثقيل » .

ثم نرى توافقاً تاماً فى تقسيم فصول الرسالة وفقرها ، إذ يبدو لنا أن هذا النص مؤلف من فصول مختارة من الرسالة ، وليس نصاً كاملا .

ثم نطالع هـذه العبارة فى الورقة (٥١ أ) : « قال صاحب الكتاب : وبين أبو الطيب بطلانِ كلامهم فى احتجاج طويل ، تركته تخفيفاً للتثقيل » . وهذه هى عبارة الذخيرة بنصها . وصاحب الكتاب هو ابن بسام صاحب الذخيرة بلا ريب .

فلأن نص مجموعة الإسكوريال أعظم قيمة من حيث هى أقدم خطاً ، وأصح متناً ، وأكثر استيعاباً فى النص ، واشتمالا للردود — جعلتها أصلا فى نشر هذه المجموعة ، وجعلت نص الذخيرة للمقابلة والاستعانة فى التحقيق .

أبو عامر بن غرسية :

أفرد له على بن سعيد صاحب المغرب المتوفى سنة ٦٨٥ ترجمة خاصة[1] قال فيها :

« أبو عامر بن غَرسيَـة[2] من عجائب دهره ، وغرائب عصره ، إن كان نصابه

(١) المغرب ٤ : ٢٣٦ مخطوطة دار الكتب ٢٧١٢ تاريخ .

(٢) غرسية تعريب « جارسيا » : Garcia ومعناه فى الأسبانية ذو الحيلة ، أو الثعلب أو الماكر ، كما ورد فى معجم المجمع العلمى الأسبانى (Dicionario de la Lingua Española) وهو علم شائع فى بلاد الأندلس تسمى به كثير من ملوكهم وأمرائهم وفرسانهم . وذكر ابن حزم فى جمهرة الأنساب ٤٦٧ تحقيق بروفنسال « غرسية » ملك البشاكسة الذى زفت إليه أورية بنت قسى ، فولدت له « موسى بن غرسية » . ومن أبرز علماء المشرقيات الأسبانيين المعاصرين صديقنا الأستاذ « إميليو جارسيا جوميز » : Emilio Garcia Goméz الأستاذ =

فى العجمية ، فقد شهدت له رسالته المشهورة بالتمكن من أعنة العربية ، وهو من أبناء نصارى البشكنس[١] ، سبي صغيراً وأدبه مجاهد مولاه ، ملك الجزر ودانية. وكان بينه وبين أبي جعفر بن الخراز صحبة أوجبت أن استدعاه من خدمة المعتصم بن صمادح ملك المرية ، ناقداً عليه ملازمة مدحه وتركه ملك بلاده ».

ثم قال : ومن شعره :

إن أصلى كما علمت ولكـ ـن لسانى أعز من سحبان

وأنا من خير الملوك بصدر هل ترى بالقناة صدر السنان

ويحمل هذا النص :

١ — أن مولد أبي عامر كان ببلاد البشكنس . ويفهم ذلك أيضاً من نصوص البلوى فى كتابه ألف باء ١ : ٣٥٠ .

٢ — وأنه انتقل إلى دانية من أعمال بلنسية فى سباء وقع عليه وهو صغير ، حيث ربى فى كنف أبى الجيش مجاهد العامرى[٢].

= بجامعة مدريد . ومما يجدر ذكره أن هناك عالما جليلا من علماء الأندلس يشترك مع أبي عامر فى الكنية ، وهو أبو المطرف عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد بن محمد بن بشر بن غرسية القرطبي المالكي ، ويعرف أيضاً بعولى بنى فطيس ، ولاه متولى قرطبة على بن محمود الحسنى القضاء سنة ٤٠٧ وتوفى فى شعبان سنة ٤٢٢ وله ثمان وخمسون . ذكره الذهبي فى سير النبلاء (القسم الأول من الجزء ١١ مصورة دار الكتب رقم ١٢١٩٥ ح) . قال الذهبي : « ولم يجئ بعده قاض مثله » .

(١) البشكنس أو البسك : Basques ويسميهم المسعودى «الوشكنس» هم قوم يسكنون ما بين جنوب فرنسا والشمال الشرقى من أسبانيا مما يجاور خليج « بسكاى » . ويتميزون عن جيرانهم بلغتهم غير الآرية ، ولهم ميل إلى الأخذ بالخرافات والمحافظة على القديم ، وهم ذوو حماسة وكبر وتمسك بالمعتقدات الدينية ، والمبادئ الأخلاقية ، تبلغ عدتهم نحو ٦٠٠ ألف منهم ١٢٠ ألفا فى الأقاليم الفرنسية . انظر المعلمة البريطانية ، وكذا : Universal Knowledges

(٢) هو أبو الجيش ، الموفق مجاهد بن عبد الله العامرى ، مولى عبد الرحمن الناصر ابن المنصور محمد بن أبي عامر . نشأ بقرطبة ، ولما جاءت الفتنة وتقلبت العساكر على النواحى بذهاب دولة بنى أبي عامر ، قصد إلى الجزائر التى فى شرق الأندلس فغلب عليها وحماها ، ثم حاول الاستيلاء على سردانية فنجح ثم صدته الروم ، ثم استولى على دانية وما يليها ، وتوفى سنة ٤٣٦ . جذوة المقتبس ٣٣١ — ٣٣٢ تحقيق محمد بن تاويت .

وفى المغرب ٤ : ٢٢٦ : « وكان جليل القدر . له غزوات فى النصارى فى البحر =

٣ — ويبدو أن أبا عامر كان له شأن عظيم فى دولة مجاهد ، الأمر الذى حمله على أن يستدعى صديقه أبا جعفر بن الخراز لينضم إليه فى خدمة مولاه مجاهد . كما يفهم من نص لابن الأبار[1] أنه كان لابن غرسية ولد سماه « أبا جعفر أحمد » كان له مؤدب خاص من بين العلماء ، وهو « أبو العباس الجريرى » . قال : « وسكن دانية وكان بها يؤدب أبا جعفر أحمد بن أبى عامر بن غرسية الكاتب » . فهذا دليل على أنه كان من خواص الدولة ، ودليل أن عمله الرسمى كان الكتابة .

٤ — ويفهم أيضاً من هذا النص ومن ترجمة مجاهد التى سقناها من قبل أن ابن غرسية وجد فى كنف مجاهد مرعى صالحاً لشعوبيته ، إذ أن مجاهداً كان مولى من موالى الروم ، وهم مظنة البعد عن العصبية العربية .

وفى ذلك يقول أبو يحيى بن مسعدة فى أواخر رسالته :

أيا عبد عبد ألا تستحى ولا لك دون النهى زاجر

فهو يعيره بأنه مولى مولى .

بل يبدو أن « مجاهداً العامرى » كان مأوى وملاذاً للشعوبيين ، فكما نشأ ابن غرسية فى بلاطه ، نجد عالماً آخر لائذاً بكنفه وهو اللغوى ابن سيدة صاحب المخصص . جاء فى سير النبلاء[2] فى ترجمته : « كان شعوبياً يفضل العجم على العرب » ثم قال : « وكان منقطعاً إلى الأمير مجاهد العامرى » .

٥ — وهو يحاول أن يجتذب صديقه أبا جعفر بن الخراز من كنف ملك عربى ، هو المعتصم بالله أبو يحيي محمد بن معن بن صمادح التجيبى[3] ، وكان المعتصم

= مشهورة ، ومن أعظم ما فتحه جزيرة سردانية الكبيرة ، وكان محباً للعلماء محسنا لهم ، كثير التولع بالمقرئين للكتاب العزيز حتى عرف بذلك فى بلده ، وقصد من كل مكان ، وشكر فى الأقطار بكل لسان ، وقد أثنى عليه ابن حيان فى كتاب المتين بهذا الشأن . وقد وفد عليه أفذاذ الشعراء كإدريس بن اليمان ، وجلة العلماء كابن سيده » .

ومما يجدر ذكره أن مجاهدا كان « رومى » الأصل . انظر المعجب للمراكشى ص ٤٨ طبع السعادة . وانظر أخباراً أخرى لمجاهد مع العلماء فى جذوة المقتبس ١٧٢ ، ١٧٣ ، ٢٩٣ .

(١) فى المعجم ص ٢٩٩ .

(٢) سير النبلاء ج ١١ القسم الثانى ص ١٨٠ مصورة دار الكتب .

(٣) انظر ترجمته فى قلائد العقيان ٤٧ ، ووفيات الأعيان ، والحلة السيراء ١٧٢ . وكانت وفاته سنة ٤٨٤ . وتجيب : بطن من كندة .

ملكا على المرية ، وهى مدينة كبيرة من كورة ألبيرة من أعمال الأندلس ، وكانت هى وبجانة بابى الشرق .

٦ — وهو فى ذلك يعتب عليه ، لتركه مدح مجاهد واقتصاره على مدح ابن صمادح ، كما يفهم من نص المغرب مقروناً إلى نص ابن بسام التالى .

تاريخ الرسالة :

مما لا يتطرق إليه الشك أن الرسالة كتبت فى حياة مجاهد ، مولى أبى عامر ابن غرسية ، بعد استيلائه على « دانية » . وتمتد حياة مجاهد السياسية ما بين سنتى ٤٠٦ و ٤٣٦ . وكانت دانية آخر ما استولى عليه من البلاد ، وفيها وطد ملكه[١] .

أبو جعفر بن الخراز :

نص المغرب فى ترجمته لأبى عامر بن غرسية[٢] يعين أن الذى أرسل إليه أبو عامر رسالته هو « أبو جعفر بن الخراز » .

وكذلك نص ابن بسام فى الذخيرة يقول إن أبا جعفر بن الخراز هو الذى أرسلت إليه الرسالة . قال ابن بسام فى صدر ترجمته لأبى جعفر أحمد بن الدودين البلنسى[٣] :

« وأخبرنى برسالته التى رد فيها على أبى عامر بن غرسية ، وكان — لحاه الله وأبعده — قد استقر بمدينة دانية فى كنف مجاهد ، فخاطب الأديب أبا جعفر بن الخراز معاتباً له لتركه مدح مجاهد واقتصاره على مدح ابن صمادح التجيبى .. » ثم قال : « وهذه نسخة رسالة ابن غرسية يخاطب الشاعر ابن الخراز » .

ونص ثالث فى التكملة[٤] فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد

(١) جذوة المقتبس ٢٣١ — ٢٣٢ .

(٢) انظر ما سبق فى ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

(٣) القسم الثالث من الذخيرة ص ٢١٩ مخطوطة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٢٢ .

(٤) التكملة ١ : ١٥٧ .

ابن سهل الأنصارى المعروف بابن الخراز ، قال : « وكان أبوه أبو جعفر أيضاً شاعراً[1] ، وهو الذى خاطبه أبو عامر بن غرسية بالرسالة المشهورة » .

فهذه المراجع جميعها تنص نصاً واحداً ، أن الذى كاتبه أبو عامر بن غرسية إنما هو « أبو جعفر بن الخراز » .

ولكننا نجد فى صدر هذا النص من مجموعة الإسكوريال أن الذى كاتبه أبو عامر إنما هو « أبو عبد الله بن الحداد » .

ويزيد فى هذه الشبهة أننا نجد شاعراً كان يلزم ابن صمادح ويمدحه ، وهو « أبو عبد الله بن الحداد » واسمه محمد بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم القيسى ، كما ذكر ابن خلكان[2] .

ويقويها أيضاً ما ورد فى سير النبلاء للذهبى[3] فى ترجمة ابن صمادح : « ومن وزرائه أبو بكر بن الحداد الأديب » .

والقول فى ذلك أنهما — كما يبدو — شخصان مختلفان فى الاسم والنسب والانتساب ، اتصل كل منهما بابن صمادح ومدحاه ، ولكن الذى أرسل إليه ابن غرسية الرسالة إنما هو « أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن سهل الأنصارى » المعروف بابن الخراز .

ومما يعزز ذلك أن صاحب المغرب نص عليه فى ترجمته لأبى عامر بن غرسية ، وصاحب المغرب يعرف ابن الحداد أيضاً ويترجم له فى موضع آخر من المغرب[4] ، قال : « أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد القيسى ... وصفه الحجارى وابن بسام

---

(١) من شعره ما أنشده المقرى فى نفح الطيب ٥ : ٤٣ :

وما زلت أجنى منك والدهر ممحل ولا ثمر يجنى ولا زرع يحصد
ثمار أياد دانيات قطوفها لأوراقها ظل على ممدد
يرى جاريا ماء المكارم تحتها وأطيار شكرى فوقهن تغرد

(٢) وفيات الأعيان ٢ : ٣٥ فى ترجمة محمد بن معن بن أحمد بن صمادح . وأنشد ابن خلكان وكذا المقرى فى نفح الطيب ٤ : ٢٤٦/٥ : ٢٤٠ مدائح لأبى عبد الله بن الحداد فى المعتصم ابن صمادح .

(٣) القسم الثانى من الجزء ١١ ص ٢٨٤ مصورة دار الكتب .

(٤) المغرب ٥ : ٢٣٥ من النسخة ١٠٣ تاريخ م .

بالتفنن فى العلوم ولا سيا القديمة . وديوان شعره كبير جليل ، وكان أكثر عمره عند المعتصم بن صمادح ملك المرية ، ثم فر عنه إلى ابن هود صاحب سرقسطة » .

فهو يعرف الرجلين ويميز بينهما .

وأما ما ورد فى صدر مجموعة الإسكوريال فلا يبعد أن يكون من تصرف أديب أو ناسخ ، ساقته معرفته لصاحب العلاقة المشهورة بابن صمادح أن يجعله هو أيضاً صاحب أبى عامر بن غرسية الذى ساق إليه الرسالة ، ومما أسعف فى ذلك قرب إحدى الـكلمتين فى الرسم من الأخرى ، أعنى « الخراز » و « الحداد » .

أصحاب الردود على رسالة ابن غرسية :

كان أجدر بأبى جعفر بن الخراز أن يرد على صديقه أبى عامر بن غرسية موافقاً أو مخالفاً ، ولـكن لم يذكر لنـا المصادر التى نعرفها أنه كتب رداً ، فضلا عن أن تحمل إلينا ذلك الرد . بيد أن هذه المجموعة التى حفظتها مكتبة الإسكوريال قد نقلت إلينا ردوداً أربعة[1] :

(أولها) رد أبى يحيى بن مسعدة . ويبدو أنه كان شيخاً جليلا فى حضرة ملوك المغرب . ونجد فى هذا الرد ذكر الإمام المهدى أبى عبد الله محمد بن عبد الله القرشى العلوى . ومحمد هذا هو المعروف بمحمد بن تومرت[2] ، وكان قيامه بالأمر سنة ٥١٥ ووفاته سنة ٥٣٤ . ونجد فى الرد أيضاً ذكر عبد المؤمن بن على[3] ، وكانت ولادته سنة ٤٨٧ ووفاته سنة ٥٥٨ . وهذه التواريخ تبعد كثيراً عن التاريخ الذى كتبت فيه رسالة ابن غرسية ، هذا التاريخ الذى لا يصح أن يتجاوز سنة ٤٣٦ وهى سنة وفاة مجاهد ملك دانية .

---

(١) يبدو أن جولدتسيهر لم يقع إليه إلا رسالة ابن غرسية فقط كما يفهم من كلامه فى بحثه إذ ذكر أن صديقه Louis Barran قد أمده بصورة شمسية من الرسالة عن مخطوطة الإسكوريال .

(٢) المعجب ١١٥ — ١٢٥ .

(٣) المعجب ١٢٥ — ١٥٣ .

ويستغرق هذا الرد من مجموعة الإسكوريال الورقات من ٢٩ — ٤١ . وهذا الرد هو أكبر الردود وأحفلها .

(ثانيها) رد لمجهول ، وعنوانه فى الأصل « رسالة ثانية فى الرد على ابن غرسية » . فمن المحتمل أن تكون رسالة ثانية لأبى يحيى بن مسعدة ، أو تكون لأحد الذين قد جرى لهم ذكر فى التاريخ أنهم تناولوا الرسالة بالرد ، وسأذكرهم فيما بعد . وإنى أرجح الاحتمال الأول ترجيحاً ، لسببين .

١ — التشابه الشديد بين أسلوبى الرسالتين ، ويبدو ذلك واضحاً لمن درس الرسالتين ولمس الروح السارية فى تضاعيف كل منهما .

٢ — التقارب الشديد بين بعض العبارات مما ينطق بأن صاحبهما واحد . ومن أمثلة ذلك :

ا — ما جاء فى الرد الأول فى الورقة ٣٢ ا : « لقد ذهبتم من العار بحمه ورمه ، والفحل السوء يبدأ بأمه » وفى الرد الثانى ٤٢ ا « ذهبوا والله من العار بثمه ورمه ، وفحل السوء يبدأ بأمه » .

ب — ٣٣ ا « الذين مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل » وفى الثانى ٤٢ ا « ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل » .

حـ — ٤٠ ا « وتجمل المحصل كله للعرب ، والفضل للنبع على الغرب » وفى الثانى ٤١ ا « فتعلم أن البأس للعرب ، وأن النبع ليس من الغرب » .

ء — ٣٦ ا « وأبرهة ذى المنار ، وعمرو ذى الأذعار » هو بنفسه فى الثانى ٤١ ا .

هـ — ٣٦ ا « يزدجردكم وشهرياركم » هو بنفسه فى الثانى ٤١ ا .

و — ٣٦ ب ، ٤١ ا اتفق اقتباس هذا البيت :

ولم أر أمثال الرجال تهافتوا على المجد حتى عد ألف بواحد

ز — ٣٨ ا ، ٤١ ا تطابق اقتباس هذا البيت :

والليث حيث ألب من أرض فذاك له عرين

إلى غير ذلك كثير ، مما يقرب القطع بأن صاحب الرسالتين كاتب واحد .

وهذا الرد يستغرق من مجموعة الإسكوريال الورقات من ٤١ — ٤٣ . ولم يذكر جولدتسيهر هذا الرد ولا أشار إليه .

(ثالثها) رد أبي جعفر أحمد بن الدودين[1] البلنسي ، وكان هذا معاصراً لابن بسام صاحب الذخيرة[2] ، قال في صدر ترجمته : « هو أحد من لاقيته وشافهته ، وأملى على نظمه ونثره [بأشبونة[3]] سنة سبع وسبعين[4] ، وأخبرنى برسالته التي رد فيها على أبي عامر بن غرسية » .

وقد فات « جولدتسيهر » أن يذكر هذا الأديب فى ثبت من ردوا على ابن غرسية . انظر الحاشية (١) من ص ٢٣٦ . مع أن هذه الرسالة فى ضمن مجموعة الإسكوريال من الورقة ٥٣ — ٥٤ .

وهذه الرسالة لم يذكرها البلوى ولا صاحب كشف الظنون .

(رابعها) رد أبي الطيب بن من الله القروى ، وهو الفقيه الأديب أبو الطيب عبد المنعم بن من الله الهوارى القيروانى ، كما فى الصلة لابن بشكوال[5] . ونسبة « القروى » هى الثابتة فى نص مجموعة الإسكوريال ، وأما كتاب ابن بشكوال فيجعلها « القيروانى » .

---

(١) فى الذخيرة (القسم الثالث الورقة ٢١٩ مخطوطة جامعة القاهرة) : « الدودى » وفى مسالك الأبصار (القسم الثانى ج ١١ الورقة ٤٤٩ من النسخة رقم ٢٠٦٧) وكذا نفح الطيب (٥ : ٢٩٠) : « الدودى » .

(٢) يخلط بعض المؤرخين بين ابن بسام صاحب الذخيرة وبين البسامى الشاعر الهجاء ، ومنهم صاحب كشف الظنون ، وصانعو فهرس دار الكتب ، جعلوا وفاة ابن بسام (سنة ٣٠٢) وهذه الوفاة إنما تصدق على البسامى ، واسمه أبو الحسن على بن محمد بن منصور بن بسام . وأما ابن بسام صاحب الذخيرة فهو أبو الحسن على بن بسام التغلبي الشنتريني ، ترجم له ابن سعيد فى المغرب ١ : ٤١٧ تحقيق الدكتور شوقى ضيف ، وياقوت فى معجم الأدباء ١٢ : ٢٧٥ والمقرى فى نفح الطيب ٥ : ٩ . وأرخ المقرى وفاته (سنة ٥٤٢) .

(٣) التكملة من المسالك عن الذخيرة .

(٤) أى وأربعمائة .

(٥) الصلة رقم ٨٣٥ .

قال[1] : « قدم الأندلس وحدث بشرقيها عن أبى بكر محمد بن على بن الحسن بن البر التميمى ، وكان أديباً شاعراً ، وتوفى يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من صفر سنة ٤٩٣ » .

وقد حفظ لنا البلوى فى كتابه[2] عنوان رسالته ، وهو « حديقة البلاغة ، ودوحة البراعة ، الورقة أفنانها ، الثمرة أغصانها ، بذكر المآثر العربية ، ونشر المفاخر الإسلامية ، والرد على ابن غرسية فيما ادعاه للأمم العجمية » . وعرف هذا العنوان أيضاً صاحب كشف الظنون .

ردود تاريخية :

وأعنى بها الردود التى حفظ التاريخ أسماءها ولم نصل بعد إليها .

١ — رد الفقيه أبى مروان عبد الملك بن محمد الأوسى . ذكره البلوى وصاحب كشف الظنون ، وعنوانه « رسالة الاستدلال بالحق ، فى تفضيل العرب على جميع الخلق ، والذب والانتصار ، لصفوة الله المهاجرين والأنصار » .

٢ — رد الكاتب ذى الوزارتين أبى عبد الله محمد بن أبى الخصال الغافقى المتوفى سنة ٥٤٠ سمى رسالته « خطف البارق وقذف المارق ، فى الرد على ابن غرسية الفاسق ، فى تفضيله العجم على العرب ، وقرعه النبع بالغرب » . ذكرها البلوى وصاحب كشف الظنون ، وقد رآها البلوى[3] وقال : « فأما ابن أبى الخصال ، فأخنى عليه وصال ، بحجاج أمضى من النصال ، ما له عنها انفصال » .

وقال ابن الأبار[4] فى ترجمة ابنه عبد الملك : « ووجدت إسماعه من أبيه فى نسخة من رسالته التى رد فيها على ابن غرسية فى جمادى الآخرة سنة ٥٢٨ » .

٣ — رد أبى محمد عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجى الغرناطى ، وكان

---

(١) الصلة رقم ٨٣٥ .
(٢) ألف باء ١ : ٣٥٠ .
(٣) ألف باء ١ : ٣٥١ .
(٤) تكملة الصلة رقم ١٧٠٠ .

يعرف بابن القرس ، ذكر ابن الأبار[١] جده وقال : « وكان هو وابنه محمد وابن ابنه عبد المنعم بن محمد فقهاء ثلاثة فى نسق » .

وذكر النباهى فى تاريخ قضاة الأندلس[٢] عبد المنعم هذا فى قضاة غرناطة ، وذكر وفاته فى سنة ٥٩٧ . وترجم له أيضاً ابن الأبار[٣] .

وقد عرف هذه الرسالة البلوى وصاحب كشف الظنون ولم يذكرا لها عنواناً .

٤ — رد عبد الحق بن خلف بن مفرج ، ذكر فى تكملة التكملة[٤] .

رد أبى الحجاج البلوى :

وهو أبو الحجاج يوسف بن محمد المالكى الأندلسى ، المعروف بابن الشيخ ، من أدباء القرن السادس . وقد وقعت إليه رسالة ابن غرسية مع طائفة من ردود الأدباء ، وفى ذلك يقول[٥] بعد أن ساق ثبت ردود الأدباء على ابن غرسية : « وقد أرانى جميع ذلك بعض الأصحاب ، ممن هو فى العلم كالسحاب ، وفى جملتها كلام ابن غرسية المذكور فى رسالته الدالة على فساد القول وفسالته ، التى فضل فيها على العرب العجم ، وأراد أن يعرب فأعجم ، فقلت وقد غاظنى ما رأيت لهذا الجاهل من الاقتراف ، وأنا بالعجز عن معارضة من سبقنى من العلماء ذو اعتراف » . . . ثم أنشأ فى ذلك ما يشبه المقامة الهزلية التى يختلط فيها الشعر بالنثر .

ويعد هذا الأثر الأدبى أول رسالة أظهرتها المطبعة مما يمت بصلة ظاهرة إلى رسالة ابن غرسية .

---

(١) فى المعجم رقم ٢٢٣ .

(٢) ص ١١٠ بتحقيق بروفنسال ، طبع دار الكاتب المصرى .

(٣) فى تكملة الصلة ١٨١٤ .

(٤) انظر تكملة التكملة ص ٤٢٢ مع فهرسها ص ٦٦٢ .

(٥) ألف باء ١ : ٣٥١ .

موجز بحث جولدتسيهر

الشعوبية عند مسلمى أسبانيا

قسم جولدتسيهر بحثه فصولا ثلاثة :

الأول فى الشعوبية الأسبانية — والثانى فى تحليل رسالة ابن غرسية — والثالث فى الكلام على صدى هذه الرسالة .

الشعوبية الإسبانية :

اتصل بالعناصر العربية والبربرية فى أسبانيا عنصران آخران هما :

ا — المولدون ، وهم نصارى أسبانيا الذين اعتنقوا الإسلام .

ب — الصقالبة ، ويراد بهم السلافيون بوجه خاص ، وأسارى الحرب والأرقاء من مختلف الشعوب الشمالية بمعنى عام .

ومن المولدين من اندمج فى الكيان العربى اندماجاً جعل بعضهم يتدعون أنساباً عربية ، ومن هؤلاء أسرة بنى مغيث الروى الأصل .

وكما كان للمولدين فضل كبير فى خدمة الثقافة العربية — ومنهم بقى بن مخلد القرطبى ، وأبو محمد بن حزم ، وعبد الملك بن سراج القرطبى — كان للصقالبة أيضا فضل لا ينكر ، ومنهم جؤذر مولى الحكم الثانى ، وفاتن مولى المنصور بن أبى عامر الذى اشتبك مع صاعد الأندلسى فى جدل على نخرج منصوراً عليه مظفراً .

وقد كان العرب يتعالون على هؤلاء القوم مما دعا بعضهم أن ألف كتاباً سماه « كتاب الاستظهار والمغالبة ، على من أنكر فضل الصقالبة » أشاد فيه بذكر مشاهير الصقالبة فى شتى فروع الثقافة العربية . ولعل هذا الكتاب أول محاولة للكتابة فى دائرة الشعوبية وإن لم تكن فى صميمها ، لأن مؤلفه دافع عن عنصره ولم يهاجم غيرهم .

أما الميل الحقيقى إلى الشعوبية فقد أخذ طابعه الكامل فى محيط المولدين ، ويمتاز

هذا الميل فى أسبانيا بحرصه على أن ينسجم مع العقيدة الإسلامية ، على حين نجد شعوبية المشرق على النقيض من ذلك ، إذ نرى ممثلى الشعوبية فيه من الملاحدة والزنادقة فى أكثر الأمر.

ومن أقطاب شعوبية الأندلس محمد بن سليمان المعافرى ، وكان شديد العصبية للمولدين . ومنهم أبو محمد عبد الله بن الحسن المتوفى سنة ٣٣٥ وكان معروفاً بشدة تعصبه للعجم ، ومحاولته الغض من شأن العرب .

ويبدو أنه لم يتح للنزعة الشعوبية الأندلسية أن تستعلن فى إنتاج أدبى إلا بعد أن انقسمت الدولة إلى دويلات صغيرة تناهب الحكم فيها صقالبة ومولدون ، فنسمع حينئذ من أبى عامر بن غرسية صوتاً شعوبياً قوياً يحاول إثبات فضل العجم على العرب .

ثم ساق « جولدتسيهر » ترجمة استنتاجية لابن غرسية لم يخالفه الصواب فى بعض زواياها ، فهو يظن أنه كان فى خدمة المعتصم بن صمادح . على حين تشير المصادر التاريخية إلى أنه كان فى خدمة مجاهد ملك دانية ، وأنه كان يريد تنفير صديقه أبى عبد الله من خدمة ابن صمادح ، ويحثه على ترك خدمته . وبنى « جولدتسيهر » على هذا الظن ظناً آخر ، أن ابن غرسية عاش زماناً فى المرية حيث المعتصم بن صمادح . وهو افتراض لا يصح .

ثم يعلل جولدتسيهر النشاط الشعوبى لابن غرسية بأنه كان يعيش فى صقع ضعف فيه النفوذ العربى وتغلب عنصر الصقالبة ، ويقول : « وما كان لعامل من العمال الرسميين فى مجتمع تنحصر مقاليد السلطان به فى أيد عربية أن يحدث نفسه بإثارة مثل هذا الهجوم الجرىء على العرب ثم يترك وشأنه دون عقاب أو قصاص » .

تحليل الرسالة :

لم يأت ابن غرسية بجديد من وجهة النظر الموضوعية ، ويبدو أنه أطلع على كتابات الشعوبية بالشرقية واستقى منها أهم الحقائق ولم يبتدع هو إلا الملابسات والدواعى الخاصة . وكان جدل الشعوبية بالمشرق من جهة الأسلوب أبعد عن

الصناعة الفنية ، ومن جهة المبدأ أقرب إلى الموضوعية العلمية منه إلى الذاتية الشخصية ، على حين نجد كتابة ابن غرسية رسالة شخصية يستعمل فيها كل التعبيرات الفنية من ترادف وطباق ، وتلاعب بالألفاظ ، وتمريض ، وتضمين واقتباس ، ورمز إلى حوادث أدبية وحقائق تاريخية مما يطبع الرسالة الفنية بالطابع المطلوب . كما أن نمو وسائل الأسلوب الفنى وتنوعها على الصورة التى يستخدمها كتاب القرن الخامس قد أعارت قلمه أحياناً لون التهكم والفكاهة الذى استغنى عنه جدل الشعوبية بالمشرق .

ومما يجدر ذكره أن المشرقيين حين يقولون « العجم » فإنهم يعنون الفرس ، على حين يتسع مدلول هذه الكلمة عند الأسبانيين فيشمل الروم وبنى الأصفر .

وقد وازن ابن غرسية بين المميزات الطبيعية والخصال الخلقية بين عنصرى العرب والعجم ففخر ببياض العجم على سمرة العرب . ثم هو يقابل بين حياة العرب القدامى بين الإبل والشاء ، وحياة الأكاسرة والقياصرة فى ظلال السيوف والرماح ، ويعقد مقايسة بين هاجر أم العرب ، وسيدتها سارة أم العجم ، ويتكلم فى قناعة العرب بالشهوات الدنيا ، كالطبل والزمر ، ومعاقرة الخمر ، ويذكر أن العجم يمتازون فى لباسهم وطعامهم وشرابهم ، ثم يفخر بأمجاد العجم السياسية والحربية والعلمية . وأما أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) كان عربياً فلا فخر فى ذلك للعرب ، فإن التبر من الترب ، والمسك بعض دم الغزال ، والماء العذب يستودع جلد المزادة البالى .

ثم ختم ابن غرسية رسالته بعبارات يستظهر بها التقوى ، توهيناً لما قد يشتم من كلامه مما قد يمس العقيدة الدينية ، وهو فى ذلك لا ينسى أن يتملق أميره بمدح ، ويخلط باللين عنفاً فى مخاطبة صديقه .

ثم يتحدث جولدتسيهر عن مدى سرعة انتشار شعر أبى العلاء المعرى فى الأندلس إذ تمكن ابن غرسية من الاستشهاد به . ويذكر من نماذج تأثير المعرى فى الأدب الأندلسى تأليف ابن أبى الخصال رسالة عارض بها « ملقى السبيل » ، ومعارضة رسالة « الصاهل والشاحج » لأحد شعراء الأندلس ، وتأليف ابن السيد البطليوسى شرحاً كبيراً لديوان أبى العلاء ولما يكد يمضى نصف قرن على وفاته .

صدى رسالة ابن غرسية :

ذكر جولدتسيهر في هذا الصدد خمسة ردود ، هي رد أبي يحيي بن مسعدة ، وعبد الملك بن محمد الأنصاري ، وأبي الطيب عبد المنعم بن من الله القيرواني ، وعبد المنعم بن محمد الخزرجي ، ثم مقامة البلوى التي نجدها في كتابه ألف باء .

* * *

وقد تناولت الكلام على هذه الردود فيما سبق ، وزدت عليه ردوداً ثلاثة أخرى تهديت إليها .

وكنت على أن أتناول هذه الرسائل بالشرح بعد تحقيقها ، ثم رأيت أني لو فعلت ذلك لأربى حجمها على الأضعاف ، وخرجت بذلك عن المنهج المرسوم لهذه المجموعات ، لذلك لم أفسر إلا ما يقتضيه التحقيق وموازنة النصوص ، أو ما يشكل على بعض الخاصة أن يتبينوه في مظانه ، من الإشارات الأدبية والتاريخية وغيرها ، أو ما يلقى شيئاً من الضوء على جوانب بعض المبهمات ، حتى ينفذ النور إليها جميعاً .

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

مصر الجديدة في ربيع الأول سنة ١٣٧٣ — عبد السلام محمد هارون

رسالة ابن غرسية

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة خاطب بها أبو عامر بن غرسية أبا عبد الله بن الحداد[١] ٢٦/أ
يعاتبه فيها ويفضل العجم على العرب، وكتب بها من لارة

سلامٌ عليك ذا الروِىّ، المروِىّ، الموقوفَ قريضُه على حلَلَةِ بجّانة[٢] أرشِ اليَمَن[٣]، بزَهيد الثَّمن، كأنْ ما فى الأرض إنسانٌ، إلّا من غسّان، أو مِن آل ذى حَسّان. وإنْ كان القوم أقنَوْك، وعن العالَم أغنَوْك، على حسب المذكور، فما هذا الإعمال للكُور، وتَركُ الوُكور. وقلّ ما تأخذ الشَّعَرة[٤] فى ٢٦/ب الرَّحيل، إلّا عن الرَّبع المُحيل! ولوأنّ القومَ خلطوك بالآل، لَما أحوجك إلى الخَبْط فى الآل[٥]. مَهْ مه، مَنْ أحوجَكَ إلى ركوب المهمه، وثَقِف[٦]، وودُّك لا ثقِفٌ، عَلَى من اضطرّك إلى الإيغال، وباعك بَيعَ المُسامِح بك لا المُغال، وعوّضك من الأندية[٧]، بجوب الأودية، ومن المآلِف، بقطع المتالف، وحملك على مخالفة الحِسان، ومحالفة الحِصان، ووكّلك بمَسْح الأرض، ذاتِ الطُّول والعرض، فإذا يمّمت تَبالة، تتبالَه[٨]، وصرت ضِغثاً على إبّالة، تتعلّل باليمين: ضِنًّا بالعِلق الثَّمين.

---

(١) كذا فى نسخة الأصل. والصواب أنه «أبو جعفر بن الجزار». انظر ما سبق فى ص ٢٣٤ — ٢٣٦ من التقديم.

(٢) حللة: جمع حال بمعنى نازل فى المكان. وبجانة، قال ياقوت: مدينة بالأندلس من أعمال كورة ألبيرة، خربت، وقد انتقل أهلها إلى المرية، وبينها وبين المرية فرسخان.

(٣) أصل معنى الأرش العيب فى السلعة.

(٤) جمع شاعر. ولابن غرسية ولوع بهذه الصيغة من الجموع.

(٥) الآل الأولى بمعنى الأهل، وهذه بمعنى السراب.

(٦) يقال ثقف، إذا صار حاذقا فطنا. انظر ما سيأتى فى ٤٤ ب.

(٧) الأندية: جمع الندىّ، وهو مجلس القوم يجتمعون فيه. الخريدة: «من قطع الأندية».

(٨) تبالة: بلدة مشهورة من أرض تهامة فى طريق اليمن. وتباله: تصنع البلاهة.

أحْسَبك[١] أزرَيت، وبهذا الجيل البَجيل ازدريت، وما دريت، أنهم الصُّهب الشُّهب، ليسوا بعُرْب، ذَوِى أينُقٍ جُرب؛ أساورة، أكاسرة، مُجُد، نُجُد، بُهَم[٢]، لا رُعاة شويهاتٍ ولا بَهَم[٣]، شُغِلوا بالماذىّ والمُرّان، عن رَعى البُعران، وبجَلْب العِزّ، عن حلب المَعْز، جبابرة، قياصرة، ذوو المغافر والدُّروع، التّنفيس عن رَوع المَرُوع، حماة السُّرُوح، بُناة الصُّروح[٤]، صُقورة، غلبت عليهم شُقورة[٥]، وشقورة الخِرْصان، لـكنّهم خَطَبة بالخِرصان[٦].

ماضرّهم أنْ شَهِدوا مِجادا[٧] أو كالحَوا يومَ الوغى الأندادا

ألّا يكون لونُهم سـوادا

أرومة رُوميّة، وجُرثومة أصفريّة[٨].

نَمَتْهُم ذوو الأحساب والمجدِ والعُلى من الصُّهب لا راعُو غنماً وأقانِ[٩]

من القُدُم، المُلْس الادُم، لم تُعرِقْ فيهم الأقباط، ولا الأنباط، حسبٌ حرِىّ، ونسَبٌ سرِىّ، أمُّـكم لأمّنا كانت أمَة، إنْ تُنكروا ذلك تُلفَوْا ظَلَمَة، ولا تَهايُل[١٠]، فى التّكايل، فما سُسنا قطُّ قُروداً، ولا حُـكنا بُروداً[١١]،

---

(١) فى الأصل: «أأحسبك»، صوابه فى الخريدة.
(٢) بضم ففتح، جمع بهمة بالضم، وهو الفارس لا يدرى من أين يؤتى، لشدة بأسه.
(٣) البهم، بالتحريك، وبالفتح أيضاً: جمع بهمة، وهى الصغير من أولاد الغنم.
(٤) السروح: جمع سرح، وهو المال يسام فى المرعى. والصروح: القصور.
(٥) عنى بالشقورة الشقرة، وهى الحمرة. أى حمرتهم كحمرة الأسنة تعلوها الدماء.
(٦) الخرصان: جمع خرص، وهو سنان الرمح، وهو الرمح أيضاً. عنى أنهم يخطبون النساء ويتكحونهن بالحروب. ومثله قول الفرزدق فى ديوانه ٧٣٧:

وبنت كرام قد نكحنا ولم يكن لنا خاطب إلا السنان وعامله

(٧) المجاد: مصدر ماجده إذا عارضه بالمجد.
(٨) يقال للروم بنو الأصـفر. انظر نهاية الأرب ٢: ٣٢٢. وقد أورد ابن خلـكان فى ترجمة ياقوت بن عبد الله الرومى تعليلا خرافيا لتسمية الروم ببنى الأصفر.
(٩) الأقانى: جمع أقانية، وهو ما يسمى «عنب الذئب».
(١٠) هال الدقيق ونحوه: صبه من غير كيل.
(١١) الحوك: النسج. والبرود: جمع برد، وهو ثوب فيه خطوط.

ولا لُكْنا عُرودا(١) ، فلا تَهاجُر ، بنى هاجَر ، أنتم أرقّاؤنا وعَبَدتُنا ، وعُتَقاؤنا وحَفَدتنا(٢) ، منَنَّا عليكم بالعِتق ، وأخرجنا كم من رِبق الرّقّ(٣) ، وألحقنا كم بالأحرار ، فعَظَمُ النّعمة ، فصَفعنا كم صَفعا ، يشارك سَفْعا(٤) اضطرّ كم إلى سُكنَى الحِجاز ، وألجأ كم إلى ذات الجاز . رُزُنٌ ، رُضُن . ٢٧/١

جالَ ذى الأرضِ كانوا فى الحياة وهمْ   بعد المماتِ جَمالُ الكُتْب والسِّيَرِ(٥)

إذا قامت الحربُ على ساق ، وأخذَتْ فى اتّساق ، وقُرعت الظَّنابيب ، وأُشرِعت الأنابيب ، وقَلَصت الشِّفاه ، وفغر المِدانُ فاه(٦) ، وولّى قفاه ، ألفيتَهم ذَمَرة النّاس(٧) ، عند احمرار الباس ، الطّعنُ بالأسَل ، أحلى عندهم من العَسَل .

مُستسلِمين إلى الحُتوف كأنما   بينَ الحتوف وبينهم أرحامُ(٨)

مِن أمنيّاتِهم ، حُلولُ مِيتاتهم ، لهم على القُدْمة اليدان(٩) ، على التّنائى والتّدان .

مِن الألَى غيّرَ زجرِ الخيل ما عرَفوا   إذْ تعرفُ العُربُ زَجْرَ الشّاء والعَكَرِ(١٠)

بُصُر ، صُبُر ، تزدان بهم المحافل ، والجحافل ، فُيول على خيول ، كأنها فيول ، كواكب ، المواكب ، نجوم ، الرُّجوم ، من العجَم ، ضَراغمة الأجَم ، بنو غاب ،

---

(١) اللوك : المضغ . والعرود : جمع عرد وهو الشديد الصلب من كل شىء . انظر هذه الكناية فى ٤٤ ا من الأصل .

(٢) الحفدة : الأعوان والخدمة ، واحدهم حافد .

(٣) إشارة إلى أن هاجر كانت جارية سارة ثم عتقت وتزوجها إبراهيم .

(٤) السفع : اللطم .

(٥) البيت لأبى العلاء المعرى . شروح سقط الزند ١٤١ .

(٦) المدان ، بالكسر : الوخم الثقيل فى الحرب .

(٧) ذمرة : جمع ذامر ، وهو الذى يذمر القوم ، أى يحضهم ويحثهم .

(٨) البيت لأبى تمام فى ديوانه ص ٢٨١ .

(٩) القدمة : الاسم من الإقدام . قال :

تراه على الخيل ذا قدمة   إذا سربل الدم أكفالها

(١٠) لأبى العلاء المعرى . شروح سقط الزند ١٤٠ . وقد غير المشاد البيت ليتساوق مع الكلام . وإنما أوله : «يا ابن الألى» . والعكر : القطعة من الإبل ما بين الخمسين إلى المائة .

المُنتَقُون من كلّ عاب ، لم تلذمهم صواحبُ الرّايات(١) ، بل تبجّحت عليهم سارَةُ الجمالِ ربّةُ الإياة(٢) ، شُمخ ، بُذخ ، بررةُ أقيال ، جررةُ أذيال . بخ بخ ، أحلّتهم سيوفهم سِطَةَ الأرَضين ، فما قنعوا بذلك ولا رَضِين ، حتّى دوّخوا المشارقَ والمغارب ، واستوطنوا من المجد الذّروة والغارب .

بضربٍ يُزيل الهامَ عن سَكِناتِه ... وطَعْنٍ كتَشهاق العَفَا هَمّ بالنّهقِ(٣)

شرِهُوا برنّات السّيوف ، لا بربّات الشّنوف ، وبركوب السّروج ، عن الكلب والفرّوج ، وبالنّفير ، عن النّقير(٤) ، وبالجنائب ، عن الحبائب ، وبالخَبّ عن الِخب(٥) ، وبالشليل ، عن السليل(٦) وبالأمر والذّمر(٧) ، عن معاقرة الخمر والزّمر ، وباللُّقيان ، عن العِقيان(٨) ، وعن قُنيان القيان ، طِيّاتهم ، خَطّيّاتهم(٩) ،
٢٧ ب وغلّاتهم ، آلاتهم ، وحصونهم ، حُصُنهم ، أقيال ، آباؤهم من بين الأنام أقتال(١٠)

أولئك قومي إن بنَوا شيّدوا البُنَى ... وإن حاربوا جَدّوا وإن عقَدوا شدّوا

وُضّح ، رُجّح ، لاحَفَزة عَسكَر(١١) ، ولا حَفَرة أُكَر(١٢) ، ملوكٌ جِلّة ، لاعُجرِقو

(١) كانت البغايا فى الجاهلية يجعلن على بيوتهن رايات ليعرفن بها . تفسير الطبرى (١٨ : ٥٧) .

(٢) سارة : زوج إبراهيم ، وكان اسمها « ساراى » ثم غير إلى « سارة » ومعناه رئيسة . انظر سفر التكوين أصحاح ١٧ — ١٨ وهى بالراء المخففة . ولا عبرة بما ورد فى اللسان (هجر ، سقم) من ضبطها بالراء المشددة . والإياة ، أصلها ضوء الشمس وحسنها . وفى فتح البارى (٦ : ٢٧٩) أن يوسف أعطى شطر الحسن ، وسارة شطره الآخر .

(٣) البيت لأبى الطمحان حنظلة بن شرقى . اللسان (سكن ، عفا) .

(٤) النفير : القوم ينفرون للقتال . والنقير : النكتة فى ظهر النواة .

(٥) الخب ، بالفتح : مصدر خب خباً ، وهو ضرب من العدو . والخب ، بالكسر : الخداع .

(٦) الشليل : الدرع . والسليل : سنام البعير .

(٧) الذمر : الحض والحث .

(٨) اللقيان : لقاء الأبطال . والعقيان : الذهب .

(٩) الطية : الحاجة والوطر . والخطيات : الرماح المجتلبة من الخط بالبحرين .

(١٠) جمع قتل بالكسر ، وهو المثل والقرن ، والمقاتل .

(١١) حفزة : جمع حافز ، والمراد به السائق . والعكر ، سبق تفسيره .

(١٢) الأكر : الحفر فى الأرض ، جمع أكرة .

حِلّة ، نُدُس ، غَنَوا بالإستبرق والسُّندس، عن البَتّ ، المُقيِّظ المشتّ ، المجموع من النُّعَيْجات الستّ[١] . بُسُل، لا حُرّاس مُسُل[٢] ، ولا غُرّاس فُسُل ، مُلّك لقاح[٣] ، ليس منهم فى وِردٍ ولا صدَرٍ شُرّابُ دَرِّ اللِّقاح ، بل شرابهم النَّبيذ ، وطعامهم الحَنيذ ، لا زهيد الهَبِيد[٤] ، فى البيد ، ولا مُسكون[٥] ، الوكون ، ولا منهم مَن احتشَى ، بمذموم الكُشَى[٦] ، ولا فى سائر الأحفاش[٧] من وليدٍ وناش ، مَن اغتذَى بالأحناش ، فلا يُقعقَع لهم بالشِّنان[٨] ، ولا يُوعوَع لهم بالشنآن[٩] ، فكُفّ أيها الشّان[١٠] فإنهم عظيم الشان ، واليدُ الطُّولى إذ تخلّصوكم من أكُفّ الحُبشان ، صنيعٌ ، منيع ، ومِنّة ، لا يشوبها مَنّة ، فيالها مِنحة ، لكنها أعقبت مِحنة ، إذ صادفت كَفرة ، لا شكرة . إيهاً ، إذ تأبّطتم تِيها ، معشر البُداة ، العُداة . اعتقدتم غِلاًّ ، فاستثرتم صِلّا[١١] . أمَا علمتم أنّ الدولة النُّوشِروانية ، والمملكة الأردَشيرية بَقَروا أجوافكم ، وخلعوا أكتافكم ، ثم عطفوا ، ورأفوا ، وملّكوكم الحِيرة ، بعد الحَيرة ، قُللا ، ذُلُلا، تتخيّرون البَنات، عند البَيات ، مبهوراتٍ، لا ممهورات فبَرِم من ذلك غسّانكم ونُعمانكم ، وكان بَرَمُه سبباً لدرء أمانكم ، فأصبحَ بعد جرٌ

---

(١) يلمح قول الراجز :

من يك ذا بت فهذا بتى مقيظ مصيف مشتى

تخذته من نعجات ست سود سمان من نعاج الدست

(٢) المسل : جمع المسيل ، وهو الجريد الرطب .

(٣) اللقاح : الحى الذين لم يدينوا للملوك . عنى أنهم يخضعون من لم يخضع .

(٤) الهبيد : حب الحنظل .

(٥) السكون : جمع مكن ، وهو بيض الضب .

(٦) جمع كشية ، وهى شحمة بطن الضب .

(٧) جمع حفش ، بالكسر ، وهو الصغير من بيوت الأعراب .

(٨) الشنان : جمع شن ، وهى القربة الخلق الصغيرة .

(٩) فى الخريدة : « ولا يزعزع له باللسان » .

(١٠) أى الشانئ ، وهو المبغض .

(١١) الصل : الحية القاتلة .

الذُّيول ، مَدُوساً بأخفاف الفُيُول[1]. والـكرامُ بَنو الأصفر ، الأطهرِ الأظهر ، عطفتهم عليكم الرحم الإبراهيمية ، والعُمومة الإسماعيلية ، فسمَحوا لـكم من الشام بأقصَى مكان بعد ما كانَ ، مِن سيل العرِم ما كان ، يؤدِّى نُعمانكم ، وغسّانكم ، لقروم الأعاجم ، الإتاوة على الجماجم .

هذى المـكارمُ لا قَعبانِ من لبنٍ شِيبَا بمـــاء فعادا بَعْدُ أبوالا[2]

٢٨/أ مهلاً بنى الإماء ، عن النمز والإيماء ، فنحن عُرُق ، غُرُق ، فى الأنساب الصَّميمة ، والأحساب العميمة ، فمن يهولنا أو يروعنا ، وقد رسَخَت فى المجـد أصولُنا وفروعنا ، ومَن يَطُولنا ، وكلٌ الورى قد شمِله فضلُنا وطَولُنا .

شَرفٌ ينطح النُّجوم برَوقَيـ ـهِ وعزٌ يقلقِلُ الأجبالا[3]

حُلُم ، علم ، ذوو الآراء الفلسفية الأرضية ، والعلوم المنطقيّة الرياضية ، كحملة الأسترلوميقَ[4] والموسيقى ، والعلَمة بالأرتماطيقى والجومطريقَى ، والقَوَمة بالألوطيقَى والبوطيقى[5] ، [والنهضة بعلوم الشرائع ، والطّبائع ، والمهرة فى علوم الأديان ، والأبدان.

---

(١) كان كسرى طلب الى النعمان بن المنذر أن يزوجه إحدى بناته فأبى النعمان ذلك كبراً ، وأخفى بناته وأمواله فى أحياء العرب ، وعلم بذلك كسرى فاستزار النعمان ، وعاقبه بطرحه تحت أقدام الفيلة . انظر الأغانى (٢ : ٢٨ — ٢٩) . وفى ذلك يقول الأعشى :

فذاك وما أنجى من الموت ربه بساباط حتى مات وهو محزرق

(٢) لأمية بن أبى الصلت . الشعراء ٤٣٣ .

(٣) البيت للمتنبى فى مدح سيف الدولة . ديوانه (٢ : ١٠٤) بشرح العكبرى .

(٤) يراد بها علم النجوم . وعند الخوارزمى فى مفاتيح العلوم ٨٠ « اسطرنوميا » .

(٥) الأرتماطيق: علم العدد والحساب انظر ابن خلدون ٤٢٠ . والجومطريق عند الخوارزمى ١١٧ وابن النديم ٣٧١ « الجومطريا » . ابن النديم : « إقليدس صاحب جومطريا ومعناه الهندسة » . الخوارزمى : « وهى صناعة المساحة ، وأما الهندسة فكلمة فارسية معربة ، وفى الفارسية أندازه ، أى المقادير» . وفى مروج الذهب (١ : ٣٢١) : « والجومطريق وهو علم المساحة والهندسة » . وأما الألوطيق فقد تكون محرفة عن « أبوطيقا» ومعناه الشعر . إخبار العلماء للقفطى ٢٨ . أو «أنولوطيقا» ومعناه تحليل القياس ، والبرهان . وفى مفاتيح العلوم ٨٩ أنولوطيقا معناه العكس وأما «البوطيق » فهى فى الأصل « البوطيقى » محرفة . وفى مفاتيح العلوم ٩٢ « بيوطيقى ومعناه الشعر ، يتكلم فيه على التخييل ، ومعنى التخييل إنهاض نفس السامع الى طلب الشىء ، أو الهرب منه وإن لم يصدق » .

هم ملكوا شرقَ البلاد وغربَها وهم منحوكم بعد ذلك سوددا[١]]

ما شئت من تدقيق ، وتحقيق ، حَبسوا أنفسهم على العلوم البدنية والدينية ، لا على وصف الناقة القَدَنيّة[٢] ، فِعلُهم ليسَ بالسفساف ، كفعل نائلة وإساف[٣] أصغِرْ بشأنكم ، إذ بزِقّ خمر باع الكعبة أبو غُبْشانكم[٤] ، وإذْ أبو رِغالكم ، قاد فِيلَ الحبشةِ إلى حرَم الله لاستئصالكم[٥] . [غُضُّوا الأبصار ، فهذا الذِّكر إلى الفحش أصار[٦]] .

أزبدك أم كفاك وذاك أنى رأيتك فى انتحالك كنتَ أحمقْ

فلا فخرَ معشر العُربان ، الغِربان ، بالقديم ، المفرِّى للأديم[٧] ، لكن الفخر بابن عمِّنا ، الذى بالبركة عَمَّنا ، الإبراهيمى النسب ، الإسماعيلى الحسب ، الذى انتشلنا[٨] الله تعالى به وإيَّاكم من العَماية ، والغَوَاية . أما نحن فمن أهل التثليثِ وعِبادة الصُّلبان ، وأنتم من أهل الدين المَلِيث وعبادة الأوثان[٩] ، ولا غَرو أن

(١) التكملة من الذخيرة .

(٢) القدنية : المشبهة فى علوها بالقدن ، وهو القصر المشيد .

(٣) يزعمون أن إساف بن عمرو ، ونائلة بنت سهل ، فجرا فى الكعبة فمسخا حجرين ثم عبدتهما قريش . شروح سقط الزند ١٣١٥ .

(٤) يذكرون أن أبا غبشان كان يلى أمر البيت ، فاتفق أن اجتمع مع قصى بن كلاب فى شرب بالطائف ، فخدعه قصى عن مفاتيح الكعبة بأن أسكره ؛ ثم اشترى المفاتيح منه بزق خمر وأشهد عليه ، ودفع المفاتيح فى يد ابنه عبد الدار بن قصى وطيره إلى مكة ؛ فلما أشرف عليها قال رافعا عقيرته : معاشر قريش هذه مفاتيح أبيكم إسماعيل قد ردها الله عليكم ! وأفاق أبو غبشان من سكره أشد ندامة من الكسعى . شروح سقط الزند ١٩٨٢ .

(٥) كان أبرهة عامل النجاشى على اليمن قد عزم أن يهدم البيت ، ومر فى طريقه على ثقيف بالطائف ، فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة . السيرة ٣١ — ٣٢ .

(٦) التكملة من الذخيرة .

(٧) الذخيرة : « فعلى فرى الأديم » .

(٨) فى الأصل : « انتشانا » ، تحريف .

(٩) المليث من الملث ، وهو أن يعد الرجل الرجل عدة لا يريد أن يفى بها .

كان منكم حِبرُه وسِبْره ، فنى الرَّغام يُلْقَى تِبرُه ، والمِسك بعضُ دمِ الغزال ، والنِّطاف العِذاب مستودَعات بمَسْك الغَزَّال (١).

لله مما قد برا صــفوة وصــفوة الخلق بنو هاشم (٢)

وصــفوة الصفوة من بينهم محمـــد النور أبو القاسم (٣)

بهذا النبيِّ الأمّيّ ، أفاخرمن تفخّر ، وأكاثِرُ من تقدّم وتأخّر ، الشّريف

٢٨ ب السلفَين ، والكريم الطّرفين ، الملقّى بالرسالة ، والمنتقَى للأداء والدّلالة . أصلّى عليه عددَ الرّمل ، ومَدَدَ النّمل ، وكذلك أصلّى على واصِل جناحه ، سيوفِه ورماحه أصحابِه الكرام ، عليهم من الله أفضل السلام .

يا بنَ الأعاربِ ما علينـــا باسُ لم أحـــكِ إلا ما حكاه الناسُ

هذا .

ولم أشــتمْ لــكم عرضاً ولــكنْ حَدَوتُ بحيثُ يُستمَع الحــداء

ثم أحجِ بشاعرِ غسّان ، لا ساسان ، فى هذا العيد ، بالوعيد ، وأحرِ فى هذا الفصل ، بعدم الوصل . لقدْ غمّ آخرَك ، لكن بالرّغم أخّرك ، إذ أضربتَ عن مديح ، عِلقنا الرّبيح ، مُعِزّ الدولة شهمِنا الرئيس ، وسَهمِنا النّفيس ، قَيْل الأُمَم (٤) ، وسيل الأَمَم (٥) ، معنى المعانى ، ومغنى المغانى ، ذى الرياسة السّاسانية ، والنّفاسة النفسانية . فاذهبْ ، ياغثّ المذهب ، وابتغِ فى الأرض نفقا ، أو فى السّماء مرتقى ، فهذه أَلِيّة ، جلبت عليك بليّة . أو حُكْ من البسيط والمديد ، ما تستجير به مِن بطشِنا الشّديد ، إذ نحن معشرَ الموالى ، لا نوالى ، إلّا من هو

(١) المسك ، بالفتح : الجلد . والعزالى : جمع عزلاء ، وهو فم المزادة الأسفل .
(٢) فى مروج الذهب (٢ : ٢٧٤) : « ممن قد برا » .
(٣) فى مروج الذهب : « وصفوة الصفوة من هاشم » .
(٤) القيل : الملك ، وأصله الملك من ملوك حمير .
(٥) الأمم ، بالتحريك : القصد الذى هو الوسط ، وهو القرب أيضاً .

لعظيمتِنا مُوالى ، وحذَارِ حذار أن تقرع سنَّ الندم ، ولات حينَ مندم ، قبل أن تُجمَع ذُنوُبك ، على ذَنوبِك(١) ، وكُرَبُك فى كَرَبك ، فمن أبصر ، أقصر ، وما حرَّف ، مَنْ صديقه خوَّف .

فلا تبشَّعْ ممضَّ العتـــا ... بِ يلقاك يوماً بلقياه لاقِ(٢)
فإنَّ الدواء حميــدُ الفَعالِ ... وإن كان مرًّا كريهَ المذاق

يا معتقِلَ علَمِ الشعر ، والمستقلَّ بقلم النظم والنثر .

قد استحييتُ منك فلا تكِلْنى ... إلى شىء سوى عُذرٍ جميل(٣)
وقد أنفــذتُ ما حقّى عليــه ... قبيحُ الهجو أو شتمُ الرسولِ(٤)
وذاك على انفرادك قوتُ يوم ... إذا أنفقتَ إنفاقَ البخيــل
وكيف وأنت عُلوىٌّ السجايا ... وليس إلى اقتصادك مِن سبيل ٢٩ / ١
وقد يُقوى الفصيحُ فلا تقابِلْ ... ضعيفَ السبرِ إلا بالقَبول
وإنَّ الوزن وهو أصحُّ وزن ... يُقام صَفاهُ بالحرف العليل(٥)
فإنْ يَكُ ما بعثتُ به قليــلا ... فلى حالٌ أقلُّ من القليــل

نجَزَتْه من كلام المعرى .

والسَّلام عليك ما سَبَّحَ الفَلَكُ ، وسبَّح المَلَكُ(٦) . ورحمة الله وبركاته .

(١) الذخيرة : « فى ذنوبك » . والذنوب ، بالفتح : الدلو .
(٢) الذخيرة : « فلا تتتبع . . . فيلقاك . . لمناه .
(٣) للمعرى فى شروح سقط الزند ١١٤٤ — ١١٤٩ .
(٤) يعنى الرسول الذى أنفذه بالرسالة .
(٥) الذخيرة : « وإن الشعر وهو أتم وزن » وما فى الأصل يطابق ما فى الشروح .
(٦) الملك : الملائكة .

رد أبي يحيى بن مسعدة

الرد على ابن غرسية منشئ الرسالة المتقدمة ، مما عنى بإنشائه وتأليفه الشيخ المبارك الأفضل أبو يحيي بن مسعدة نفعه الله بها وجعلها حجّةً له عند الحاجة إليها[*] :

ومن يَعصِ أطرافَ الزِّجاج فإنّه يطيع العوالى رُكِّبت كلَّ لَهذَمِ[١]

إياكَ أعني أبا عامر ، ولا أقول خامرِى أمَّ عامر[٢] ، بل أُعْرِيك جَنَى غَرسِيَه[٣] ، فالتقط يالقيطَ غرسيَة[٤] .

هيهات جئت إلى دِفلَى تحرّكها مستطعماً عنباً حرّكتَ فالتقطِ[٥]

شُربك الحميم ، وشعارى لك حاميم[٦] ، فاخلَعْ عن مقلّدك البَريم[٧] ، وذق إنك أنت العزيز الكريم .

رُميت بما لو أنّ الجنّ تُرمَى به لتَهيّبتها الإنسُ نهبا

لِمَنْ بعثتَ ياغثيثُ مِن هامد دَخْنك أُوارا ، وأرّثتَ من خامد أُبنِك نارا[٨] .

وإنّ النّار بالعودين تُذكَى وإنّ الحرب يَقدُمها الكلامُ[٩]

(*) هذا الرد لم يرد فى نسخة الذخيرة .

(١) البيت من معلقة زهير .

(٢) أم عامر : كنية الضبع . يقال لها خامرى ، أى استترى .

(٣) أعراه النخلة : أعطاه إياها يأكل رطبها . وغرسيه ، أى غرسى ، زاد هاء السكت .

(٤) يعنى أن أباه غرسية التقطه وتبناه .

(٥) الدفلى ، كذكرى : شجر مر أخضر حسن المنظر يكون فى الأودية .

(٦) جاء فى حديث الجهاد : « إذا بيتم فقولوا حاميم ، لا ينصرون » . فهى مما يستظهر به على استنزال النصر على العدو . وأنشد أبو عبيدة لشريح بن أوفى العبسى :

يذكرنى حاميم والرمح شاجر فهلا تلا حاميم قبل التقدم

(٧) البريم : خيطان يكونان من لونين .

(٨) جمع أبنة بالضم ، وهى العيب والوصمة .

(٩) من أبيات مشهورة لنصر بن سيار . البيان والتبيين (١ : ١٥٨) والطبرى (٩ : ٩٢) . ويروى : « أولها الكلام » .

مثلك يادَعِيَّ العَجَم ، وذِمِّيَّ العُجْم ، تعدَّى للأعراب مَواليه بسَفَه ، أو تصدَّى لمارضةِ فخارِها ببنتِ شفة ؟! غرَّكَ أن تولَّيتها بحكم القَاسم (١) ، وأن ظأرتْ أمُّك لها أحورَ من جآذر عاسم (٢) . كلا :

* فما الكَرَجُ الدُّنيا ولا الناس قاسمُ *

٢٩ ب
ما استجلاكَ الدَّوُّ يا آبقُ إن سَفَرت ، ولا خلا لك الجوُّ حتى بِضْت وصَفَرت ، في مثلِ هذا المَعْمَر ، نقِّرٍ واصفِرِ (٣) ، وبهذا المحتَر ، يا مصفِّرِ استِه حمِّرْ وصفِّرْ (٤) ، بموقف لا يعزُّ على الأوس بن تغلب ، أن تهان وتُغلب (٥) .

رُوَيدكَ حتَّى يلحق الدارِثُون ، أصحابُ الجياد المكفيُّون (٦) ، وتاللهِ لاتغسلكَ منى الحواريُّون (٧) ، بعد أن أتقدَّمَ لتأديبك ، وأفضح في الحَقِين عِذْرَةَ أديبك (٨) مُناقلِك في الأراجيز ، وناقلك إلى مَعرِض التعجيز ، شيخ الاعتزال ، وصَريع أهل السُّنَّة إذا تداعَوْا نزال ، الأعمى البصر والبصيرة ، وشُعوبيُّ هذه الجزيرة (٩) .

عُمِّيَ حذوكَ الغَيُّ أيَّ عجيبةٍ   أعمى دليلُ هُدًى أوَ أخرسُ ينطق (١٠)

---

(١) يعني مقاسم الغنائم . (٢) عاسم : اسم ماء لكلب بأرض الشام .

(٣) أخذ فيه من رجز طرفة :

يا لك من قبرة بمعمر   خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري

(٤) رمى له بالأبنة . والتحمير والتصفير باستعمال الزعفران والطيب . انظر اللسان (حمر ، صفر) .

(٥) في الأصل : « وتغلبا » .

(٦) فيه نظر إلى قول الراجز وأنشده في القاموس واللسان (دور) :

لبث قليلا يلحق الداريون   ذوو الجياد البدن المكفيون

وفي الأصل هنا : « أصحاب الجباب » .

(٧) الحواري : القصار الذي يبيض الثياب ، ومنه حواريو المسيح عليه السلام ، لأنهم كانوا قصارين .

(٨) أصله من المثل « أبى الحقين العذرة » . وهي بكسر العين العذر . ومنشأ المثل أن رجلا ضاف قوما فاستسقاهم لبناً وعندهم لبن قد حقنوه في وطب ، فاعتلوا عليه واعتذروا فقال : أبى الحقين العذرة ! أي إن هذا الحقين يكذبكم .

(٩) لعله يعني ابن سيده . انظر ما سبق في ص ٢٣٣ .

(١٠) في الأصل : « حدوك الغي » . حذاه : أعطاه ووهب له .

لشد ما سَمَّع بك فى الأملاء(١)، وسرّك بالإجراء فى الخلاء(٢)، وأرسلك سائماً ورتع فى خلاء، كَفَتَه فى معانى القرآن زُحلوقاته الزُّلّ الضُّل، وكَبّته فى نحوه عثراته التى يَدمَى منها الأظلّ، مُماتحُك فى الدُّلىّ والدَّوِىّ(٣) ومُطارحُك السلامَ على ذى الروىّ المروى، لقد أعلَّك بواضحِها وأبلّ، وأغلَّك مِن فاضحها ما أسَـلّ(٤)، ورماك يا رجيم بدائه وانسلّ، فتصنَّعت بعُمارِ حُلاه، وتنطَّقت بمـا تلاه، وتشبَّعت بالعار الذى تولّاه، كالخَصىّ يَفخر بمتاع مولاه..

كثانيةٍ لحـلىِ مسـتعارٍ | بأذْنيهـا فشانَهما الثُّقوب(٥)
فردّت حَـلْىَ جارتها إليهـا | وقدْ بقيت بأذْنيها نُدُوبُ

أولَى لك يا زُفَر، يا أستَ عَيرٍ يحكّه الثَّفَر، حينَ نَهقت، وبلسانـِ العربِ سُباتِك(٦) تفقّهت، فقلت:

أولئكِ قومى إن بنوا شـيَّدوا البُنَى | وإن عاهدوا أوفَوا وإن عَقَدوا شدُّوا

ما لَكَ يا وَقاح، ولهذا الحَىّ اللَّقاح(٧). تفوَّهتَ بكلامهم، وتَفِهتَ عن أفهامهم(٨)، وأهلات بشِعارهم، وتمثّلت بأشـعارهم، وشَحَجت فى أعيارهم، وما نارك من نارهم(٩). هلّا رتَعت بفَطانتك، ونَطَقت بعُجمتك ورِطانتك.

---

(١) التسميع: التشهير. والأملاء: جمع ملأ، وهم أشراف القوم.
(٢) نظر إلى المثل: «كل مجر فى الخلاء يسر»، والمجرى: الذى يجرى دابته، فهى فى الخلاء لا منافس لها.
(٣) المماتحة: مفاعلة من المتح، وهو جذب رشاء الدلو. والدلى: جمع دلو. والدوى: المفازة.
(٤) يقال: أسله الله فهو مسلول، شاذ على غير قياس.
(٥) لابن هرمة فى الأغانى (٥ : ٢٨).
(٦) السباة: جمع ساب، من السبى وهو أخذ الناس عبيدا وإماء.
(٧) حى لقاح، كسحاب: لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم فى الجاهلية سباء.
(٨) تفه: أعيا وكل وضعف.
(٩) النار: السمة، وأصلها سمة الإبل، تجعل كل قبيلة لإبلها سمة خاصة.

٣٠/أ أظنّك شاهدتَ ليالبَهم بالجَمع(١)، أو قعدتَ منهم مقاعدَ السّمع، ودانيت السِّرار فاسترَقْت(٢)، وضمّك السّرار فأغدقت(٣)، وأعجزكَ النّزْعُ فأمرقت(٤)، وأورقت وما أخرفت، ثم فَسُلت، وظننت أنّك طُلْت، بل سَفُلت، وحيث وجَب لك أن تسجد بُلْت.

وقيــل يارخَمُ انطــقى في الطّـير إنّكِ شرُّ طائر(٥)
فأنتِ بمــا هي أهــلُه والعَيُّ من شـكل المحاور(٦)

أما كان لكَ يالئيمَ الجدود، ومَدرأَ الحدود، ولآبائك لفظٌ تحكيه، أو لذوى وَلائك من العجم قَبر بجِلّق تبكيه(٧)، أو نحوٌ بلسانك تَضعه، أولحنٌ في شأنك تخفضه وترفعه، فقاولت العربَ بلسانِ هامان، وناضلتَها بطمطمة بيحائيل وورمان فتذرها تسبر ما خَلَقت، وتصبر لسبائك على لَكَنِك لمّا صدَقت.

فما على البدر مِن نَبح الكلابِ ولا يوماً على البحر يُرمَى فيه بالحجرِ

هذا جزاؤها في تدريبك وتعليمك، وتصريفِ ألِفاتها في حَلْقة ميمك، فلا ماء وجهكَ أبقيت، ولا جِرحَ أمّك القَلْاء أنقيت. ما أنبذَكَ يا نبيذُ لذِمامها، وأقلّ شُكركَ على كَفالتها لك و إلقاء أقلامها(٨)، لـكن أمِنتَ سورةَ إقدامها،

---

(١) جمع هي المزدلفة، وفيها يقول ابن هرمة:

سلا القلب إلا من تذكر ليلة بجمع وأخرى أسعفت بالمحصب

(٢) السرار، بالكسر: المسارة. استرقت، يريد استرقت السمع.
(٣) السرار، بالفتح: جمع سرارة، وهي من الوادى أفضل موضع فيه.
(٤) أمرق السهم إمراقا: جعله يمرق من الرمية وينفذ.
(٥) للكميت. الحيوان (٣ : ٥٢٠). وأوله فيه: «إذ قيل».
(٦) كذا ورد في الأصل.
(٧) إشارة إلى قول النابغة:

لئن كان للقبرين قبر بجلق وقبر بصيداء التى عند حارب

والقبران يعنى بهما صاحبى القبرين، وهما يزيد بن الحارث الأعرج، وأبوه الحارث الأعرج، والنابغة يمدح عمرو بن يزيد بن الحارث الأعرج ويمجد أباه وجده.
(٨) فيه نظر إلى تنازع الأحبار وزكريا في كفالة مريم وإلقائهم الأقلام لتحكم أيهم يكفلها.

وضمنَتْ عن مثلك سعةُ أحلامها ، فساجلتها بخَلَق أرمامها[١] ، وجاذبتها فضولَ كلامها . « ليسَ قطًا مِثلَ قُطَىّ » ، ولا الرُّشد من الغىّ .

يموت الفتى من عثرةٍ بلسانه ... وليسَ يموت المرء من عثرةِ الرجلِ[٢]

فرُوغِى جَعَارِ[٣] ، وبَدَارِ الإنصافَ بدار .

مَن يَهُنْ يسهل الكَلامُ عليه ... ما لجـرحٍ بميت إيلام[٤]

وبعد قَرْع صفاك ، وصَفع قفاك ، ننتقل إلى نَقَلة أديانكم ، وجهلة أحبارِكم ورُهبانكم ، وإقامة أقانيمكم الثلاثة فى سنودساتكم الستِّ وهذيانكم ، ثم نُرسِل ٣٠ ب
عليكم خيل البيان شُزَّباً غِراثا[٥] ، ونبعثها ملاحم تُنسِى الكُلابَ ومَلْهماً وبُعاثا[٦] ، وتنقُض ما غزلَتْ أمُّك الورهاء بعد قوّةٍ أنكاثا .

هما الشَّظاظان لخولى حولكا ... لأَقطعنَّ بالمِرار حبلكا[٧]

اشدُدْ حيازيمك للمناقِش ، واجذُذْ جراميزك عن المُناهِش ، فعلى أهلها دلّت بأذاها براقِش ، أتظنُّ أن تقنع منك اليَمَن بالأرْش ، أوسبأُ الحاضرُونَ بردِّ العرش[٨] ، هذا يا ضبُّ أشدُّ من الحرش ، نكِرتَ يا أُنكَير ، ويا عُوَير ، أن تتحامَى الشَّعْرةُ أبؤسَها بالغُوَير ، لو حلّ رائدُها أرضَ تبالة ، لما حُرِم ولا توالَه ، ولكنّما أعرضَتْ عنه تبَالة ، ورأى أكمةً فتباله ، وترك الضِّغث والإبّالة ، وجَهِد أن

(١) يقال حبل أرمام ، أى بال ، وصف بالجمع ، كأنه جعل كل جزء منه واحدا ثم جمع . وفى الأصل : « أزمامها » .

(٢) البيت لجعفر بن محمد بن على بن الحسين . العقد ٢ : ٤٧٣ .

(٣) جعار ، كقطام : اسم للضبع . والمثل بتمامه : « روغى جعار وانظرى أين المفر » . يضرب لمن يروم أن يفلت ولا يقدر على ذلك .

(٤) البيت للمتنبي فى ديوانه (٢ : ٣٣٨) بشرح العكبرى ، برواية : « يسهل الهوان » .

(٥) شزب : جمع شازب ، وهو الضامر . والغراث : جمع غرثان ، وهو الجائع .

(٦) الملاحم : الحروب الشداد . الكلاب وملهم وبعاث : مواضع كان بها بعض أيام العرب .

(٧) المرار : الحبل الذى أجيد فتله .

(٨) فى الأصل « الحاضرين » ، تحريف . وهو نظر الى قول الأعشى :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ ... يبنون من دون سيله العرما

يلحق آلَه وثماله ، وقال مَن ابنُ يزيدَ ومن ثُمالةَ[١] .

تَيامَنْ تجاهَكَ تلقَ الـكلا مُنِيراً وتأمَنَ في المسلَكِ

إيه ليت شعرى مَن عِلْقُكَ الرَّبيحُ فى الزَّمان ، وهل أحاط بُسقْمه هدهُد سليمان[٢] ؟ لعلك تعنِي الموفَّق ، ذا النجار الملفَّق ، حاجب الظَّاهر ، ومملوك معافِر[٣] ؛ عجَمَ دانية ، وعرَكَ سَردانية[٤] . أين أَمُّكَ[٥] ، ثكلتكَ أُمُّك ، وهل سوى زِعنفةٍ من زعانف الرِّيف ، وسفاسف السِّيف ، العُراةِ الحِقوَين ، السُّراةِ كَمسَرى القَين[٦] ، المعتصمين بالخيزُرانة بعد الأَين[٧] .

ومن يَسكُن البحرَينِ يعظُمْ طِحالُه ويُغبَطْ بما فى بطنه وهو جائع[٨]

متى جرى يا عَبْدَ عبدَةِ الأوثان ، مدحُ العَجم على آسانٍ من لسان[٩] ، أو تبِعهم قائلٌ بإحسان ، عياذًا ببشرٍ وأميّة وحَسّان ، وحقٌّ للمعروف تقريضه ، للموقوف على حَلَقة بَجّانة قريضُه[١٠] وإنْ كانت أرشَ اليمن ، فيها نُودِيَ عليكم

---

(١) إشارة إلى قول عبد الصمد بن المعذل فى هجاء محمد بن يزيد المبرد ، وهو من قبيلة ثمالة :

سألنا عن ثمالة كل حى فقال القائلون ومن ثماله
فقلت محمد بن يزيد منهم فقالوا زدتنا بهم جهاله
فقال لى المبرد خل عنى فقومى معشر فيهم نذاله

(٢) السقم ، بالسين : لغة فى الصقم ، وهو الناحية .

(٣) معافر ، بفتح الميم : حى من اليمن .

(٤) العرك : جمع عركى ، وهو صياد السمك .

(٥) الأم : القصد .

(٦) سرى القين مثل فى الكذب . يقولون : «إذا سمعت بسرى القين فإنه مصبح» . وأصله أن القين بالبادية يتنقل فى مياههم ، فيقيم بالموضع أياما فيكسد عليه عمله ، فيقول لأهل الماء : أنى راحل عنكم الليلة ! وإن لم يرد ذلك ، ولكنه يشيعه ليستعمله من يريد استعماله .

(٧) إشارة إلى قول النابغة فى صفة الفرات :

يظل من خوفه الملاح معتصما بالخيزرانة بعد الأين والنجد

الأين : الفترة والإعياء . والنجد : العرق والكرب .

(٨) عرفت البحرين قديماً بأن أهلها مطحولون . الحيوان ٤ : ١٣٩ .

(٩) الآسان : البقايا ، الواحد أسن بضمتين .

(١٠) التقريض : التقريظ ، وهو مدح الإنسان حياً والثناء عليه . وانظر ماسبق فى ص ٢٤٦ .

بأبخس الثَّمَن ، أن يَزْدرِىَ بفرعك المُجيل ، وجبلك النّجيل ، من النَّجْل
والتنجيل(١) ، يا أشلاء الرَّجيم البجيل ، والبَظْر السَّجيل ، وقد راعتكم مِن غسَّان ٣١/١
وخَوْلان ، وصَميم قيس وعيلان ، الرائع التَّحجيل ، أصحابُ الغُرَر والتحجيل ، الذين
مَثَلُهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل(٢) ، يا تَبَعة المجوس ، وقَرَعة القَرن
والناقوس ، ألسِنَا بالقُوس وأنتم بالقرقوس(٣) ، عَبَدةَ التثاليث ، وشَرَدة أجزاء
الثالوث ، لقد أبحتم السَّمُرة للعاضد ، وجئتم بما فضحتْ قومَها غامِد(٤) ، الجوهر
وروح القدس وابن الإنسان إله واحد ، صَمِّى صَمامِ ، لا بالصِّماخ ولا الصِّمام
بالحَرَا تألَّفَتْ لكم تلك الأقانيم الثلاثة فى قُرونٍ من الدَّهر ، وقد كان بين أُقنومين
منها بزعمكم سَبعُمائة شهر . لقد ضلَّ أُقنومٌ بين سنودسين(٥) ، واتَّحدَ أهلُ
التكليف منكم خلال اتحاد الكلمة بالنَّفسين ، وليتها كانت تسعةً فانقرض
عليها جيلُكم ، وانقرض من الاختلاق إنجيلكم . يا قُرْبَ ما تنفَّقت لكم هذه
الألوهةُ دون تكليف ، وتنزَّهتْ وحدانيتها عن التأليف بالتسويف . وعلى أنَّ
الجاثليق قد أتاكم فى الزِّيادة عليها ببعض القول ، وردَّ فرضَ أحكامكم المنسوخة
إلى العَول(٦) . كفى ما بين المَلْكانية والنُّسطورية(٧) من فسادٍ فى الوضع ،

---

(١) النجل : العيب ، نجله أى عابه .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى فى صفة أصحاب الرسول الكريم : « ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه » . آخر سورة الفتح .

(٣) القوس ، بالضم : رأس الصومعة . والقَرقوس ، بالتحريك : القاع أو الوادى الأملس .

(٤) فيه إشارة إلى قول امرأة من غامد فى هزيمة ربيعة بن مكدم لجمع غامد وحده :

ألا هل أتاها على نأيها ... بما فضحت قومها غامد
تمنيتم مائتى فارس ... فردكم فارس واحد

انظر البيان (١ : ٢٤٩) .

(٥) الأقنوم : واحد الأقانيم وهى الأصول . والسنودس هو المعروف فى مصر بالسنهودس ، وهو المجمع الدينى . انظر مروج الذهب ١ : ٣١٨ — ٣١٩ والتنبيه والإشراف ١٢٢ ، ١٣٦ .

(٦) العول : عول الفريضة فى الميراث ، وهو أن تزيد سهام الورثة فيدخل النقصان عليهم ، كأن يكون لأحدهم الثمن فيصير له التسع .

(٧) الملكانية : فرقة منسوبة إلى « ملكا » ، ومعناه الملك بالسريانية ، والمراد بهم أتباع =

واختلاف فى الأناجيل الأربعة بغير إسناد ولا قطع ، لهؤلاء جزء من الإله ولهؤلاء جزء ، أليس هذا يا هُزْأة عينَ الفـكاهة والهزء .

وحاطبٍ جاء بعارٍ يحطِبُ يفيه من ذاك حِجارُ الأثلَبِ[1]

ثم ما لـكم ويلـكم ، توسّعتم فى الكِيان وضايقتم معبودكم بتضايف المـكان ، ونقلتموه من عالم العقل إلى عالم الحسّ ، وأفردتموه من الإنسانية عن رُوح القُدُس ، فنقضتم الأسلوب ، وقِستم الجَمْعَ المربوب ، وعبدتم منه الجزء المصلوب . أبدِع بهذا البِدْع ، وأقدِر بشَعْبِ[2] هذا الصَّدْع ، وأقذِرْ بالسَّبّ واللَّذْع[3] ، وأحقِرْ

٣١ ب بأمّة لم تنقذ معبودَها من الجِذْع ، أتظنّونه أعفاكم من طلب ثاره ، وأعاذَكم يومَ هول المُطَّلَع من ناره ، أم تراه إذا قادكم للعَرْض وأوقفـكم بين يديه للجزاء يأخذ بحقّه منكم ويوفّيه ، أم يترك للنّاسوت هدراً ثلاثةً فيه .

جاءوا بعِقْىٍ ثم قالوا بنُّوا[4] يا ويحهم أحَمُقوا أم جُنّوا

ولمّا أخلفـكم التبطين والتحليق ، وأعيا عليكم التّدخين والتخليق ، وخلف على دينكم الجاثليق ، حلّيتم خشبةَ المسيح بعد رفعه عسجدا ، وتوليتم مكانها عِيداً ومسجدا ، هلّا نصرتموه فى حياته ، أو تحدّيتم بتأليف أثليه قبل وفاته .

هلَّا جعلتم رسولَ الله فى سَفَطٍ من الألُوّة أحوَى مُلبَساً ذهبا[5]

= مذهب قياصرة الروم ، الذى يسمى أيضاً المذهب الخلقيدونى ، الذى أقره المجمع المعقود فى خلقيدونية سنة ٤٥١ م . انظر تاريخ الأمة القبطية (الحلقة الثانية ٩١ — ٩٢) . والنسطورية : أتباع نسطورس ، وكان بطريركا بالقسطنطينية سنة ٤٢٨ وأتى ببعض البدع ، فحكم عليه السنهودس الثالث المعقود فى أفسس سنة ٤٣١ بالعزل والنفى ، فسار إلى صعيد مصر فأقام ببلاد إخميم والبلينا ، ومات بقرية يقال لها « سيفلج » . انظر ما كتبته فى حواشى الحيوان (٤ : ٤٥٨) .

(١) الأثلب : التراب والحجارة .

(٢) فى الأصل : « شعب » . وشعب الصدع : لأمه وأصلحه .

(٣) فى الأصل : « وأقرر » .

(٤) العقى : أول ما يخرج من بطن الولد . وبن بالمكان : أقام .

(٥) الألوة : ضرب من العود . والبيت فى اللسان (ألا) قاله أعرابى مر بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو يدفن .

ثم مَهْيَمَ ، يا أبا مريم ، وهات الحديث عن مريم ثالثة آلهتكم ، والنُّصُب الذى تُوفِضون إليه ببلاهتكم ، أليست العذراء البتول ، المُحْصنةَ أمَّ الرسول ، الطَّيِّبة النِّجار ، الطاهرة الإزار ، ما لكم قذفتموها بإنكار المهدِ قبل قذفها بيوسف النجار .

صَلَامة كحُمُر الأبكْ   لا جَذَع فيها ولا مُذكْ[1]

يا غُواةَ الهُدَى ، وعُواةَ الصُّدَى ، لقد خذلتكم ضَلالاتُ السُّرَى ، وخبلتكم خيالاتُ الكَرَى .

أطرِقْ كَرَا أطرق كرا   إنَّ النعام فى القُرى[2]

أىُّ حذاء من أديمكم يُرقَع ، أم أىُّ حَلْى لنسائكم يُقعقَع ، ألِاتِّخاذكم الصَّاحبة للرحمن ، أم لرميكم بالكذب ابنةَ عمران ، تصدِّقون مِن مشبِّهتكم لوقا ويُحَنَّا ، وتكذِّبون من قال لو أردْنا أن نتَّخذ لهوا لاتَّخذناه من لدُنَّا . يالَلْعُجاب ، وهل أمامَ هذه السَّوأة من حجاب .

حانيَة من عانةٍ أو بيشا   تحلق حلق النُّورة الجميشا

لمثل هذا استقادك السَّفَه والعَمَه ، وجعلتَ أمَّنا لأمِّكم أمَة .

أسمعُ صوتاً ولا أرى أحدا   مَن ذا الشقىُّ الذي أباح دمَه

٣٢/١ حاشى لإبراهيم أن يكون لكم أبًا وإن كنتم بنيه فمَه ، ثم مه   وهَبْكَ هاجر أمة ، بَخْ بَخْ ، أزْم بعقبك الفخّ ، نِكاح ، أم سِفاح ، وكم بينَ محظورِ

---

(١) الصلامة ، القوم المستوون فى السن والشجاعة والسخاء . والأبك : موضع تنسب إليه الحمر . والمذكى : المسن . والرجز لقطية بنت بشر الأعرابية ، مر بها مروان بن الحكم وهى ترتجز بهذا وتنزع بدلو على إبل لها ، فخطبها فتزوجها فولدت له بشر بن مروان . الأغانى (١ : ١٢٩ — ١٣٠) .

(٢) الكرا : لغة فى الكروان ، وهو طائر صغير يشبه به الذليل . والمثل يضرب للرجل الحقير إذا تكلم وغيره أولى منه بالكلام .

ومُباح . أنَّى لبُضع أُمَّاتكم الحنيفية جُنوح ، أو فى نكاح عَمّاتكم ما أوصى به نوح ، لقد ذهبتم من العار بجُمَّة ورُمَّه ، والفحل السوء يبدأ بأمّه . فى الفرق بين السَّرارى والمَهيرات ، وخيرِهنّ الذائع وأبنائهن الأنبياء والخلفاء والسَّادةِ السَّراة ، ما يرفع الالتباس ، ويعرِّف بمُنْجبات الناس . وسل عن سِبْط داود وسليمان ، وبنى عبد المطلب وخلائف[1] بنى العباس . على أنَّ العرب لا تترجَّح للأمَّهات ، ولا تتبجَّح بذِكر الحرُمات ، ولا رضِيَتْ الشِّغارَ كفعلكم بالبنات ، بل وأدتها الحفيظة هَبرا ، ووردت بها حِياضَ الثُّكل صَبْرا ، واختارت لهنَّ جَنَن القبور صِهرا .

* والموتُ أكرم نزَّالٍ على الحرمِ[2] *

وتقدَّر يا قُدار[3] ، ما صيَّرتَ لآلك فى ذكر سارَةَ[4] من حديثٍ مُدار . ربَّةِ الإياة[5] أمِّكم ، بل ابنة هارَانَ عمِّكم ، ذاريةِ السِّبْط ، وعاريةِ صادوف طَرْخان القِبط ، إذ غصبها[6] ، ولولا عِصمة النبوّة لعصَبَها ، فتداركها اللهُ بأمْنها

---

(١) فى الأصل : « خلاب » .

(٢) من بيت لإسحاق بن خلف ، فى الحماسة بشرح المرزوقى ٢٨٣ . وصدره :

* تهوى حياتى وأهوى موتها شفقا *

(٣) هو قدار بن سالف ، الذى يقال له أحمر ثمود ، عاقر ناقة صالح ، وهو مثل فى الشؤم .

(٤) سارة ، ضبطت فى اللسان (سقم ، هجر) بتشديد الراء ضبطا بالقلم . والوجه فيها تخفيف الراء . وفى سفر التكوين ١٧ : ١٨ « وقال الله لإبراهيم : ساراى امرأتك لا تدعو اسمها ساراى ، بل اسمها سارة » وفى الحواشى أن معنى « سارة » رئيسة . انظر الكتاب المقدس طبع الأمير كانية ١٩٠٦ . وفى التنبيه والإشراف ١٤٣ أن نقفور ملك الروم أنكر على الروم تسميتهم العرب « ساراقينوس » معناه عبيد سارة ، طعنا منهم على هاجر وابنها إسماعيل . قال المسعودى : « والروم الى هذا الوقت تسمى العرب : ساراقينوس » .

(٥) أصل الإياة ضوء الشمس وحسنها . وكانت سارة بارعة الجمال .

(٦) فى القاموس أن الطرخان اسم للرئيس الشريف ، خراسانية . وفى فتح البارى (٦ : ٢٧٨) أن اسم الذى حاول اغتصابها عمرو بن امرئ القيس بن سبأ ، وكان على مصر ! ذكره السهيلى ، وهو قول ابن هشام فى التيجان . وقيل اسمه « صادوق » وحكاه ابن قتيبة ، وكان على الأردن . وقيل سنان بن علوان بن عبيد بن عريج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح . حكاه الطبرى . وانظر قصة اغتصاب فرعون لها فى سفر التكوين ١٢ : ١١ — ٢٠ واغتصاب أبيمالك ملك جرار لها فى ٢٠ : ١ — ١٨ .

ذات المناسك الخمس ، ومخلّصتها من مَلِك عين الشّمس[١] ، إذ نافحت عنها بإرهاص الوحى والتنزيل ، وشهدت ببراءتها عند إبراهيم الخليل ، فاختارها على أمّكم لوِراثة أمره ، وتسرّاها بعد ثمانين من عمره ، فكانت بِكرَ سلالته ووصِيّ أبينا إسماعيل صلوات الله عليه حامِل رسالته ، وما زالت أمّكم حتّى نافستها فى السّلام ، ووسمتها بثلاثٍ لَقَذْرها بقين سنّةً فى الإسلام[٢] ، ولم ترض لها بِبسان بيتا فرضى الله بالبيت الحرام .

لُزَّت بها ضَرّةٌ زهراء واضحـــة كالشّمس أحسن منها عند رائيها

فرحلت عنها أثرة الفِراق ، طاهرة الأعراق ، سائرة مع جبريل على البُراق ، ٣١ ب
فبحقٍّ تَزْهَى بنو هاجَرَ ، بالتهاجر ، وتَلهَى بالتّكاثر والتّفاخر ، يا فاجر .

رأيت اللّســـــانَ على أهله إذا قاده الجهلُ ليثاً هَصُورا[٣]

وأمّا ماجلَبتَ عليه يا حائنُ بِرِجْلك ، ونكّستَ به حذاء صدرِكَ نِصَالَ نَبْلك من ذكر صواحب الرايات[٤] ، والسّارين بأمثال أمّك للبيات ، فقد رجعتَ فى ذلك بِاشامٌ على أدراجك[٥] ، وبحثتَ عن مُدية لأوداجك ، حِلاًّ أمّ عامرٍ[٦] عسالكِ ناديتنا من أقرب طِيّة ، ونزعتْ بك إلينا عُروق[٧] من سُمَيّة . دونك هِيلى بكَيلِكِ الوافى .

* واعرنْزِمى مَيَّادَ للقوافى[٨] *

---

(١) هى عين شمس ، المدينة المصرية المعروفة ، قال ياقوت : « اسم مدينة فرعون موسى » .
(٢) فى اللسان (هجر) : « هاجر أول امرأة جرت ذيلها ، وأول من ثقبت أذنيها ، وأول من خفض . قال : وذلك أن سارة غضبت عليها فحلفت أن تقطع ثلاثة أعضاء من أعضائها ، فأمرها إبراهيم عليه السلام أن تبرقسمها بثقب أذنيها وخفضها ، فصارت سنة فى النساء » .
(٣) أنشده ابن قتيبة فى عيون الأخبار (١ : ٢٣٠) برواية :
* إذا ساسه الجهل ليثا مغيرا *
(٤) انظر ما سبق فى ص ٢٤٩ . (٥) الشام : المتكبر ، يقال شم ، أى تكبر .
(٦) تهكم بكنيته « أبو عامر » انظر ما سيأتى فى ص ٢٨٠ س ٧ .
(٧) فى الأصل : « عرق » .
(٨) لابن ميادة ، واسم الرماح بن أبرد . وميادة أمه ، كان يضرب جنبيها ويقول لها :
* اعرنزى مياد للقوافى *

سُمَيَّة أخيذةٌ من أسراكم[١]، وسريةٌ تصيّرت إلى أبي جبر[٢] ثم إلى الحارث ابن كَلَدَة من هدايا كِسراكم، فأزْوَجها الحارث مسروحًا[٣] في حيٍّ مُضَاع، وبيت قعيدتُه لَكَاع، تَسرح في حِيَال[٤]، ويبيت عندها مصطلِباً شيخُ العيال[٥] فإن كان واثَبَها حليفَ عهد، أو سافحها أو خاتلها عن قَصْد، فسافحته بما سافحها. ثم صارتْ إلى عُبَيد، بغير عقد، وظنَّت أنَّ في كل أوديتها بني سَعد[٦].

كعادتها فيما مضى من شبابها ... كذلك تدعو كلَّ مرء أراملهُ

أتراها من الاثنى عشر ألفاً بنَين، ببلاد الأرمن، حاضرةِ مُلككم، وسُمَيساط[٧] واسطةِ سلككم، اللاتي حظرهنَّ طاغيتكم عن التزويج، وأباح

= يريد أنه يهجو الناس فهم يهجونه ويذكرون أمه. واهرنزم: تقبض، وفي الأصل: « واعزى »، صوابه في الشعراء ٧٤٧ والأغاني (٢ : ٨٦). وبعده:

واستسمعيهن ولا تخافى ... ستجدين ابنك ذا قذاف

(١) كانت سمية من أهل زندورد، وهي مدينة كانت قرب واسط. معجم البلدان والمعارف لابن قتيبة ١٢٥.

(٢) في الأصل: « ابن جبر »، تحريف. وفي المعارف والعقد (٥ : ٤) « أبو الخير » تحريف كذلك. وأبو جبر كان أحد ملوك اليمن، واسمه كنيته، وقيل هو أبو الجبر يزيد بن شراحيل الكندى، وقيل أبو الجبر بن عمرو الكندى. وفيه يقول ابن دريد في مقصورته المشهورة:

وخامرت نفس أبي الجبر جوى ... حتى حواه الحتف فيمن قد حوى

انظر ابن خلكان (٢ : ٢٩٤) في ترجمة يزيد بن مفرغ.

(٣) وكذا عند ابن قتيبة في المعارف، لكن بلفظ « مسروح » بالحاء. لكن في العقد وابن خلكان أن زوجها هو « عبيد »، وهو عبد وهبه أبو الجبر للحارث بن كلدة مع سمية. وهو الصواب، فقد ورد فيما روى من خطبة لزياد بن أبيه: « فأما عبيد فإنما هو والد مبرور، أو ربيب مشكور ». انظر العقد (٦ : ١٣٢) ومروج الذهب (٣ : ١٦).
وما ذكر هنا يجمع بين الروايتين.

(٤) نوق حيال وحول: لم تحمل.

(٥) يقال صلب العظام واصطلبها: جمعها وطبخها واستخرج ودكها ليؤتدم به. قال الكميت:

واحتل برك الشتاء منزله ... وبات شيخ العيال يصطلب

(٦) إشارة إلى المثل: « في كل واد بنو سعد ».

(٧) في الأصل: « سياط »، تحريف. وسميساط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي العراق، ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن. معجم البلدان.

فُروجهنَّ لغراميل العُلوج ، بوظيفة دينارين ونصف دينارٍ فى السنة على كل واحدةٍ وَقَفَها على مأكله ومشربه ، وجعلَها سُنّةً باقيةً فى عقبه .

فلَوْلا الرِّيح أسمع من بنجد صليلَ البيض تُقرع بالذُّكور[١]

فيا لها نعمةً ، أضاعتْ طِعمة ، وغُنْمَ إفادة ، جلبتْها قِيادَة ، وزكاء خراج ، بمخض زُبْدَه إدخالٍ وإخراج ، ويملأُ فى كل فِيقةٍ عُسَّ أبى سُواج[٢] ، ٣٠٣ أ

أتحيط ، يا بليط ، بهذه الروايات حُسبانا ، أو تحصِّل لها بظورا أو جُوفانا . لقد نبَّهت بهذا السماع هاما ، وقلقلت للقِراع بها يَلَمَا وشَماماً . أظنُّك هذا اعتمدت ، أو جمعت قافاتِ الكندىّ[٣] وأنشدت :

شرف ينطح النجوم برَوْقَيـ ـهِ وعزٌّ يقلقل الأجبالا[٤]

فهلا يا جاهلُ ، وشرَّ مُباهِل ، سُقت البيت الثانى بعده والثالث[٥] ، وضِفْتَهما بشرف قومك على إيقاع الثانى والثالث ، أأردت يا ضبعُ أن تخلع فخارها التغلبىّ ، وتكسوه مغلوبه الدمستق[٦] المسبىّ ، إذْ أذاقه سيفُ الدولة بأساً ونَكالا ، وغطَّى منه ببَنِيَّة الحَدَث جبيناً وقذالا[٧] .

---

(١) البيت لمهلهل . والرواية المعروفة : « أهل حجر » . وانظر حواشى البيان (١ : ١٢٤) .

(٢) أبو سواج : رجل من ضبة كان قد جاور فى بنى يربوع فخانوه فى أهله ، فاحتال لمن خانه — وهو صرد بن حمزة اليربوعى — بأن سقاه ماء رجلين تداولا مباضعة إحدى الإماء ، فعير بنو يربوع بذلك . انظر شروح سقط الزند ١٧٨٥ — ١٧٨٨ .

(٣) يعنى المتنبى ، وهو أحمد بن الحسين الجعفى الكندى الكوفى .

(٤) من قصيدة له فى مدح سيف الدولة . الديوان (٢ : ١٠٤) بشرح العكبرى . وانظر ما سبق فى ص ٢٥١ .

(٥) هو قوله :

حال أعدائنا عظيم وسيف الـ ـدولة ابن السيوف أعظم حالا
كلما أعجلوا النذير مسيراً أعجلته جياده الإعجالا

(٦) الدمستق ملك الروم ، وفى الأصل : « الدمستق » .

(٧) يعنى ببنية الحدث قلعتها . والحدث : مدينة بين ملطية وسميساط .

وحماها بكلّ مطّرد الأكـ ـعاب جَور الزمانِ والأوجالا[١]

ألم يأنِ لك أن ترجعَ فى الروايات إلى رِبِّيِّك ، وتأخذ هذه المنحة من رِبِّيِّك[٢] ، وتستتر دونها من عُوَارِى ، وتتغطّى هذه الفضيحةَ بأطمارى ، فاربَعْ لاربعت ، ولا طِرتَ مع النَّوكَى ولا وقعت .

وقُدْ بزمامِ بَظْرَ أمِّك واحتفرْ بأيرِ أبيكِ الفسلِ كُرّاث عاسمِ[٣]

وأمّا عَوسك بالإيغال[٤] ، ونَوسك فى خبر أبى رِغال[٥] ، فناهيك من تَقَفِىّ مُنافِف ، وناجتٍ أثلةِ عدوِّهِ ناقف ، ضمّه القَسْر ، وضامه الأسر ، فساق[٦] لأعدائه الأعراض والوسوم ، ووصَفَ لهم الأطلالَ والرسوم ، حتّى بلّغ حتفَه أبا يكسوم ، فأترّه بالمغمّس بعد صِيالِه ، وأنزلَه عن محمودٍ غير محمودٍ لاستئصاله[٧] ، وأسلمه للصِّلِّمِ الصالم ، فهل هو فى ذايال هَمْدان ظالم[٨] ؟

وعلى أنّ العربَ لم تُعْذِر إليه فى استكانته للأعادى ، ودِلالته للتخلّص بفيل المُمادِى ، ورَجَمتْ قبرَه كما رَجَمتْ قبر العِبادى[٩] .

---

(١) فى الأصل : « والآجالا » ، صوابه من الديوان .

(٢) لربى : الحبر العالم . والربى أيضاً : الجماعة الكثيرة .

(٣) الطرماح بن جهم السنبسى ، كما فى الحماسة بشرح المرزوقى ١٤٨٧ .

(٤) فى الأصل : « غوسك » تحريف . والعوس ، بالمهملة : الطوف بالليل ، وهو أيضاً الوصف .

(٥) أبو رغال : رجل من ثقيف ، وهو الذى دل أبرهة أبا يكسوم على الطريق إلى مكة ، وخرج معه حتى أنزله « المغمس » فلما أنزله به مات أبو رغال هناك فرجمت قبره العرب . السيرة ٣٢ جوتنجن . (٦) فى الأصل : « فساب » .

(٧) محمود : اسم الفيل الذى وجه إلى الكعبة .

(٨) إشارة إلى قول عمرو بن براقة الهمدانى ، فى الأمالى (٢ : ١٢٢) :

وكنت إذا قوم غزونى غزوتهم فهل أنا فى ذا يال همدان ظالم

(٩) فى الأصل : « العبادى » ، تحريف . وفى مروج الذهب (٢ : ٧٩) : « وفى طريق العراق إلى مكة — وذلك بين الثعلبية والهبير نحو البطان — موضع يعرف بقبر العبادى ترجمه المارة إلى هذه الغاية كما ترجم قبر أبى رغال » .

ها إنّها عِذرةٌ إلّا تكُنْ نفعت فإنّ صاحبها مشارِكُ النَّكدِ[(١)]

وتعرف ، يا مُقْرِف ، إذ أخسَرْتَ بشأننا ، وسَخِرت لانتصاف قُصَيٍّ من ٣٣ ب
أبي غُبْشاننا ، والأصح في الآثار ، عن نقلة الأخبار ، أنّ أبا غُبشان ما أضاع البيت ولا باعه ، وأن عبد منافٍ وأخاه رزاحاً غلبا عليه خُزَاعة[(٢)] ، وانتزعاه منه عنوةً ورأى اللهُ انتزاعَه ، وإن صحّ البيع في مفرد الإسناد ، وانتسب إلى أهل الجدَل والعناد ، فخُزاعة لم تُعرِقْ في السِّدانة ، ولا كان لها طوقٌ بحمل تلك الأمانة ، فرزَحت بحِملِها ، وضَحَت عن ظلّها ، وأسلم أبو غُبْشان مفاتح الكعبة لأهلها ، ورثةِ الدّعوة الإسماعيلية ، وخالصة الملّة الإبراهيمية ، قُرعة ولد إسماعيل في قصيٍّ وعبد مناف ، والعِترة الهاشمية أولِي الرِّحلتين والايلاف .

الخالطين فقــــيرهم بغنيّهم والظّاعنين لرِحلة الأضــياف[(٣)]

أربِحْ بها صفْقَةً قَمْرٍ ، وولاية أمرٍ وذمرٍ ، وشراء أمِّ رِحْمٍ بزق خمر[(٤)] .

شرت القُلوبَ رخيصةً أعلاقُه ومضى يمَصُّ بنانه المغبونُ

أين فِعلُ هذا ، من حواريِّكم يهوذا ، الذى هو عندكم أفضل من موسى بِكر التنزيل ، وخير من نوح وسرافيل[(٥)] والخليل ، إذ سامَ بالحكم عيسى على دعواكم سَوْمَ العبيد ، وباعَه بثلاثين درهماً من اليهود ، فجَلّوه الخَبَط ، وسقوه الخلّ وأفرشوه السَّبَط[(٦)] ، ثم جنَبوه ، وسحبوه وصلبوه ، قلتم — وقال الله تعالى : ﴿وَمَا قَتَلوه وما صَلَبوه﴾ . وما فتئتم بعد تُولون يهوذَا التّعزير والتبجيل ، وتأخذون

---

(١) النابغة الذبياني في ديوانه ٢٧ .

(٢) انظر ماسبق في حواشي ص ٢٥٧ .

(٣) لمطرود بن كعب الخزاعي في السيرة ١١٤ جوتنجن . وروايته فيها :

المنعمين إذا النجوم تغيرت والظاعنين لرحلة الإيلاف

(٤) أم رحم : اسم من أسماء مكة .

(٥) كذا . ولعله « إسرافيل » ، وهو الملك الموكل بالنفخ في الصور .

(٦) السبط : ضرب من النبت . وانظر انجيل متى ٢٧ : ٣٣ — ٣٤ ومرقس ١٥ : ٣٦ ولوقا ٢٣ : ٣٦ ويوحنا ١٩ : ٢٨ — ٣٠ .

عنه مختلفات الإنجيل ، وتسجدون له ولصاحبيه مَرْقُش[(١)] ومَتّى ، وتزعمون أنّهم يمشون على الماء ويُحيون الموتى . شاهت تلكم الوجوه ، ولا عُدم اللّطيم منها والمَجوه[(٢)] .

إذا لم تخشَ عاقبة الّليالى ولم تستحيِ فافعلْ ما تشاء

ذلك كلُّه والنُّبوّة غَضّةٌ بمانها . وعَصا المسيح بِقرفها ولحائها ، والوحى من

٣٤/١ ورائها ، والمَلَك على أرجائها : والعهد جديد ، والخلْقة حديد . لكنّهم :

نزعوا بسهمٍ قطيعةٍ تهفو به ريشُ المقرقِ فسارَ غير سديد

فأينَ بُناة الصُّروح ونُماة الشُّروح ، بل عَصَمة السُّفوح ، ولَمَقة الدّم المسفوح ، متى ملكوا الأرَضين ، أو أُعطُوا من جزيرة العرب مارَضِين[(٣)] ، أبعد أنْ استباحتهم الحُبْشان ، وضُربت عليهم الجزيةُ وكانت أوّلَ خراجٍ بالزّمان . فما زلتم تَشغلونهم من أبنائكم بالأماثيل ، ويَعملون لهم ما يشاءون من محاريب وتماثيل ، حتّى أخدَموكم بيوتَ النِّيران ، وقدّموكم للحرث مع الثِّيران ، فما أنِفَ ذو جاهِكم ولا أنْقَر ، ولا أحلى ولا أمقر[(٤)] ، كذلك الكلابِ على على البقر[(٥)] . أهذه النُّجُد البُهَم ، لا رعاة شياهٍ ولا بَهَم[(٦)] . ومَنْ لرعى الشُّوَيهات يا كُشاجم[(٧)] ، غير العُسَفاء والأعاجم ، سُوّاس الخنازير ، وحُرّاس

(١) كذا بالشين المعجمة ، وهو مرقس ، ويسميه المسعودى « مارقس » .
(٢) نجهه : استقبله بما يكره ، وزجره وردعه .
(٣) سبق مثل هذا التعبير فى ص ٢٤٩ .
(٤) أنقر : كف وأقلع . وأمقر : كان مرا . وفى الأصل : « أمقر » ، تحريف .
(٥) هو مثل ، يقال بالرفع والنصب ، أى أرسلها على بقر الوحش . ومعناه خل امرأ وصناعته .
(٦) انظر ما سبق فى ص ٢٤٧ .
(٧) كشاجم : لقب لشاعر معروف ، واسمه محمود بن الحسين . توفى سنة ٣٥٠ أو ٣٦٠ . الفهرست ٢٠٠ ، وسير النبلاء القسم الثانى من الجزء ١٠ ص ٢١٨ ، وحسن المحاضرة ١ : ٢٦٨ وشذرات الذهب ٣ : ٣٧ . قالوا سمى بذلك لأنه كان كاتباً شاعراً جواداً منجما ، ثم مهر فى الطب فقيل « طكشاجم » .

الجازير ، نَدَحة الأ كر[1] ، ولَقَحة الشَّجر لا العَكَر ، ما حاكوا — قُلتَ — بُرودا ، ولا ساسُوا قُرودا ، ولا لاكوا عُرودا . لقد أوضحتَ لو وافقت ، ووصفت لو أنصفت ، قل لى فمن رَقَم البرودَ بنيسابور ، وغرسَ زيتونَ العراق لسابور إذ غلّ أيمانكم ، وكسر صُلبانكم ، وقسر على الغِلمة لشفاء الغُلمة ولِدانكم ، تعبَّدَهم وعبَّدهم ، وسوَّرهم وخلَّدهم[2] ، وطوَّقهم وقرطقهم[3] ؛ وماشَهم وطَرَّقهم[4] . وبعد ذلك أخذ فى جَذْ كم ونقلكم ، وزنق فَقْحة هِرَقلكم ، فصارت فى ملوككم مُثْلة ، ولهذا لم تزْنَق بعدُ فى أرضكم بغلة ، إنّما لتحرُّجٍ من الاعذاء[5] ، أو تحرُّجٍ عن شماتة الأعداء ، يفعل هذا بالذّليل يابنى الصَّيداء[6] ! تُرَى ، يا فَقْع وادى القُرى ، حَضَر هناك لسلفكم حَوكُ بُرود ، ورشْفُ بَرود ، ولوكُ عرود ، رُزْها ، يا مُزْهى ، بمدامنة فُهود ، كما زعمت وسياسةِ قرود ، وتذكَّرْ حال أيتامك ، وقدِّر على هذا الإصبع سَعةَ خَيْتامك .

ولا تغضبَنْ من سِيرة أنتَ سرتَها ، وأول راضٍ سيرةً من يسيرها[7] ٣٤ ب

---

(١) يقال ندحت الشيء ندحا ، إذا وسعته . والأكر : جمع أكرة ، وهى الحفرة فى الأرض .

(٢) خلدهم : حلاهم بالخلد — بكسر ففتح — وهى الأقراط .

(٣) القرطق ، بضم القاف وفتح الطاء : القباء . معرب « كرته » .

(٤) أصل الميش خلط الصوف بالشعر ، والطرق ضرب الصوف والشعر بالقضيب لينتفشا . قال :

عاذل قد أولعت بالترقيش ... إلى سرا فاطرقى وميشى

(٥) الأعذاء : جمع عذى ، وهو الزرع لا يسقى إلا من ماء المطر . ولعلها « الإعداء » .

(٦) إشارة إلى قول زيد الخيل ، وكان بنو الصيداء — وهم من بنى أسد — قد أخذوا فرسه :

يا بنى الصيداء ردوا فرسى ... إنما يفعل هذا بالذليل

الأمالى (١ : ١٢) والأغانى (١٦ : ٤٧) والعقد (٣ : ٣٤١) .

(٧) لخالد بن زهير الهذلى . الشعراء ٦٣٧ وديوان الهذليين (١ : ١٥٧) .

وما ذكرت من إتاوة غَسَّان، لسَليح يا خَطِل اللسان[١]، فتلك سارية من خلال الأزد، وفُلَّال عَرِم السَّدّ، رازُوا لقومهم البلادَ فضَلُّوا، وفَقَدوا ملاَّم فقَلُّوا، فما عَدَاهم، أن داهنوا عِدَاهم، حتّى استقلُّوا، وأمِرُوا فملُّوا. ولمّا تداركَ غابرُهم، ودعا دَرَاكِ حاشُهم وعاسُرهم، قصَّروا خُطامهم، وقصَروا مَطامهم، وأعطاهم جِذْعٌ من سيفه ما أعطاهم[٢]، ثم جعل قومُه بعدُ يضربونهم في الأعراض والرّواجب، ويناوبونهم بين الصَّفَرية والرّواجب[٣]، حتَّى استرهنوا منهم قَوسَ حاجب[٤]، رغبةً في خفرهم، وإجارة سَفْرهم، وتجهيز لطائمهم، وتجويز خطائمهم[٥]، وجعلَتْ ملوكُكم تَخَوّلُنا بالجمائل والوضائع، وتَنحلُنا ضروب الوشي والقطائع.

وإساءاتُ ذي الإساءة يذكر نَكَ يوماً إحسان ذي الإحسان

هذه أقيالكم الأكاسرة، وأجيالكم القياصرة، لاهَا اللهِ[٦] إلاَّ الفيوج المتقاصرة، وعُلوج بخت نصَّر وناصرة[٧]، عامِلُو المِهَن، وحاملو الأُهُن[٨]، وباذلو

(١) سليح، بالحاء المهملة: هم بنو سليح بن حلوان، بطن من قضاعة. وفي الأصل: «لسليخ»، تحريف. وكانت غسان تؤدي إلى ملوك سليح دينارين كل سنة عن كل رجل. العقد (٣ : ١٢٢).

(٢) جذع، هو جذع بن عمرو الغساني، وكان سبطة بن المنذر السليحي يلي ضرائب غسان، فلما طالب جذعا بالدينارين دخل جذع منزله واشتمل على سيفه ثم خرج فضربه به وقال: «خذ من جذع ما أعطاك»، فامتنعت غسان من الدينارين بعد ذلك.

(٣) الرواجب الأولى: جمع راجبة وهي مفاصل أصول الأصابع. والثانية أراد بها الغزوات التي في شهور رجب.

(٤) هو حاجب بن زرارة التميمي. انظر قصة قوسه في ثمار القلوب ١٠٥ والعقد (٢ : ٢٠)

(٥) جمع خطيمة، يقال خطم الناقة: وضع على أنفها الخطام. وفي الأصل: «حطائمهم».

(٦) ها الله: بمعنى والله، وها التنبيه قد يقسم بها.

(٧) ناصرة: قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلا.

(٨) الأهن: جمع إهان، وهو العرجون.

السكّين ، والهن ، يا طَغام الأحلام ، وحُمّال أوتار الحُلّام[(١)] ألهذه الخلال ، واستقراء الأحوال بهذا الاستدلال ، نحن أرقاؤكم وحفدتكم ، وعُتَقاؤكم وعبدتكم ؟ ! لو ساترة شوار كلّمتنى ، أو ذات سِوارٍ لطمتنى ! ألم تدر يا أمْتَر[(٢)] ، يا مُجتنِيَ الحَتَر[(٢)] أنّ جدّنا يعربَ هو الذى أرقاكم ورفعكم ، وصَقع بالبَجّ من صَفَعكم ، ووسمكم بسَوادِ جلدته وسفَعكم ، وأجلاكم عنكم إلى ريف عُمان وماسان ، وأطراف خراسان ، فلمّا غمطتم نِعمتَه ، وأمطتم إمّته[(٣)] ، عَادكم من عيده ، وسابقةٍ وعيدِه ، ذو نواسٍ[(٤)] فناسكم وداسكم ، وخَرَّب نواويسكم ، وبهر أنفاسكم ، وجذّكم عن ماء المعمودية[(٥)] ، وردّكم إلى دين اليهوديّة ، فمن أىّ دينٍ تحسبون ، أو إلى أىّ رحم تنسبون ، أ إلى الأفياء الشّورية ، أو إلى الأغبياء النّسطورية[(٦)] ، والأدعياء الصّفّورية[(٧)] ، نسبٌ موضوع بين السفار والعُفر ، ومنتسَبٌ مقطوع فى رومة ونهر الصّفر . ٣٥/١

فخالِفْ فلا واللهِ تهبط تَلعةً   من الأرض إلا أنتَ للذّلّ عارفُ

---

(١) الحلام : القتيل الذى ذهب دمه باطلا . قال مهلهل :

كل قتيل فى كليب حلام   حتى ينال القتل آل همام

(٢) الأمتر : المنسلق العين . والحتر : النبت وهو حامض صلب لم يتشكل ولم يتموه . فى الأصل : « أختر » و « الختر » ، تحريف .

(٣) الإمة ، بالكسر : النعمة .

(٤) أحد أذواء اليمن . وكان أهل نجران على النصرانية ، فسار إليهم ذو نواس فدعاهم إلى اليهودية وخيرهم بين ذلك والقتل ، فاختاروا القتل ، فخد لهم الأخدود وضرم فيه النيران فحرق من حرق ، وقتل بالسيف حتى أسرف فى ذلك . وفى ذلك قول الله تعالى : « قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود » . السيرة ٢٢ — ٢٥ .

(٥) فى الأصل : « العمودية » ، تحريف . والمعمودية بتخفيف الياء ، وتقال بتشديدها : ماء للنصارى يغمسون فيه ولدهم للتطهير . وفى تاج العروس أنه معرب من « معموذيت » ومعناها الطهارة .

(٦) انظر ما سبق فى حواشى ٢٦٢ — ٢٦٣ .

(٧) نسبة إلى صفورية : بلد بالأردن .

وما لكم ، والذى كثَّرَ آلكم ، وأنتم أعجز الأمم بعولا ، وأجفرها فحولا ، وأثقلها ظهراً مرحولا ، ومنكم الأسقفّ والنطران ، والبطْرَك والمطْران[1] ، وفيكم الجَبُّ والخصاء ، والعدّ فى وَذْعة المِساس والإحصاء[2] ، إلى إفراد رئيسكم ورَهبانيّة شمّاسكم وقِسّيسكم ، وأنتم مع ذلك أكثر أهل الكِتاب عدداً ، وأبقى نسائهم ولداً[3] ، ما ذاك إلاّ أن ضَرَبت فيكم الأكراد والأنباط ، والحبشة والأقباط ، فمنكم الصُّفر والسُّمر ، والغُثر البُرْش الحمر ، يظّاهرون بعقْرِفيهم لا منجبيهم ، والأمُّ تضحك منهم لعلمها بأبيهم :

ألا أنها تسرِى إذا نام أهلها   فتأتى بشىء ليس فى الظنّ يخطر

وما فخرت به يا حمار ، يا ميراث أثمار ، من حَمَلة الأسترلوميقى ، والعلم بالأرثماطيقى والألوطيقى[4] ، كفخر الأمَة بحِدْج ربّتها ، ذلك لمستنبطى يونان وساسان ، وكينيّة بابل وكلذان وكاسان ، أصحاب العلوم الأرضية ، والتعاليم الرياضية ، من الطبقة الفيثاغورية ، والفلاسفة الهُرمسية . معالم عفّت ملوككم آثارَها ، وطمست أنوارها ، بغَواية قسطنطينكم ، وغباوة المفلق لدينكم ، ابن الهِلانيّة[5] ، وقيّم المِلّة الطبانية .

حبوت النصارى بها معلناً   لهـا غيرَ كاتِم أسرارها

ولم أدرِ أنك من قبلهـا   تحبُّ السِّياط بأثمارها[6]

---

(١) البطرك والبطريرك ، هو بالرومية « بطريركس » تفسيره رئيس الآباء ، مخفف . التنبيه والإشراف ١٢٣ .

(٢) المراد بالمساس المباضعة . ويقال وذع الماء يذع ، إذا سال .

(٣) بقت المرأة : كثر ولدها .

(٤) انظر ما سبق فى ص ٢٥١ .

(٥) يعنى قسطنطين بن هيلانى . قال المسعودى : « وهو أظهر دين النصرانية وحارب عليها حتى قبلت وانتشرت فى البلاد » . التنبيه والإشراف ١١٩ . وانظر الفصل (٢ : ٧٣) .

(٦) ثمرة السوط : عقدة طرفة . وذكر الثعالبي فى الكنايات ١٨ أن ثمرة السوط يكنى بها عن القلفة . وأنشد لدعبل :

الى عليجين لم تقطع ثمارهما   قد طال ما سجدا للشمس والنار

أراد أنهما لم يختنا . وانظر للكلام على هذه الكناية النادرة حواشى البيان (٣ : ٢٢٨ — ٢٢٩) .

اللهمَّ ناقلةً فيكم من فارس(١) ، وخَدَمة تلك المدارس ، لُقِّنوا من آثار اللحون طريقةً ، وحكَوها تقليداً لا حقيقة ، يندبون بها فى نَوحكم ، ويَقصِفون عليها فى سَمانينكم وفِصحكم ، فما أنتم وذا ، لا قُذِّيت(٢) أعينكم من قذى ، إنْ قلتُ : لكم بوطيقى لا موسيقى ، وأرضرثيقى لا جومطريقى(٣) ، وصفتُ قومَك ، وعرَّفت سومَك . ٣٥ ب

إيَّاكَ يعنى القائلون بقولهم   إنَّ الشقىَّ بكلِّ حبل يخنقُ

وأمّا قِيلُك يا سفساف ، من العرب فى نائلة وإساف ، فتانك صخرتانِ نُصِبَتا كاللّات ، وثالثتهما مناة ، وجدُوها على زمزم مَواثِلَ جُلْفا(٤) ، وطافوا بها غلتًا أن تقربهم إلى الله زُلْفَى . فإن صح الخبرُ ووضح الأثر ، بمسخهما عبرةً لمقارفة العبث ، وموافقة الفسوق فى حرم الله والرفث ، فزيادةٌ فى الإنذار ، وأخذ فى تعظيم شعائر الله بالإعذار . أين هذا المتقدّ يا بنى الأستاه ، الأجلاه ، من جمود السماء عندكم سبعمائة سنة أن محت لكم اسم ابن الله ، وأن يُحنّا للغيثَ المنزلَ المطر(٥) ، الآتى من أفسُس(٦) فى الكامة والجلاد بالبُهت المُستَطَر(٧) ، مسجًّى فى بيعته الآن ، من ذلك الأوان ، عبيط الدم ، غضّ الأَدَم ، مشيراً باليد والقدم .

يحج مأمومةً فى قَعرِها لجَفٌ   فاستُ الطبيب قَذاها كالمغاريد(٨)

---

(١) اللهم ، كلمة تستعمل فى الاستثناء بمعنى إلا . انظر شفاء الغليل ٢٠ .
(٢) قذى عينه تقذية : أخرج منها القذى .
(٣) انظر ما سبق فى ص ٢٥١ .
(٤) جلفا ، لعلها « جنفا » جمع أجنف ، وهو الضخم ، أو المنحنى الظهر .
(٥) فى الأصل : « للمنت لمنزل المطر » .   (٦) فى الأصل : « أسيس » تحريف .
(٧) المستطر : المكتوب . وفى الكتاب : « وكل صغير وكبير مستطر » .
(٨) البيت لعذار بن درة الطائى ، كما فى اللسان (حجج) . يحج : يصلح . والمأمومة : الشجة بلغت أم الرأس . وفى الأصل : « مأمونة » صوابه فى المقاييس (حجج) واللسان (حجج ، لجف ، غرد) والحيوان (٣ : ٤٢٥) .

وأنسِيت ياهامان ، ما وعوَعْتَ به وجمجمت فى قبر كسرى والنعمان .

يا مدَّعى سُورانَ منزل جدِّه ... قل لى لمن أهناسُ والفيّـــومُ[١]

أحزار الفرس كِفاؤنا ، وأعداؤنا أكفاؤنا ، نجتلد ونحتطم ، وكما قال أخو لقمان : « أُلطمك إذا لم أجد من ألطم » . فما للرُّوم والخرس ، أولِى الأراكنة الُملس[٢] ، والأعاريبَ الخُمْس . « حَنَّ قِدحٌ ليس منها » . ومع هـذا فقد أنبأتْك الأممُ الخوالى ، والرّمم البوالى ، أنّ العرب لا تنكح العجم ولا الموالى ، لذاك أحبَّ أبرويز أن يَصِمَها بهَناته ، وأراد من أبى قابوس أن ينكحه إحدى

٣٦/١ أخواته ، ويستولى على حُرَمه وحُرُماته ، فرغب عن صِهره ، على عظيم أمره ، وطوى الحديث معه على غرّه ، وأغراه فى قومه بالسَّواد . وأحاله على بَقَر السَّواد ، فكان فى حقّ الإباء ، وكرم الآباء ، ألا يَلوى إليه صفحا ، ويَضرِبَ عنه الذكر صَفْحا ، وينأى بكسرويّته ، ويشمخ بقوميَّته ، ولا يرجع لغـدره وكَيدِه ، ويستزيده خدعة وقد نصب لصيده .

ذئب فلاةٍ كيدُه دارع ... صادف ليثاً كيدُه حاسرُ

والذى دلّ على فَسَالته ، وخفّة نُسَالته[٣] ، رأيه العاجز بعد موته ، فى حرائبه ونُزْله[٤] وتهافُته على أخْذ ماله وأهله ، فحماها عنه ذُوْبان العرب وخُمْسها ،

---

(١) سوران ، لعلها « سوذان » أو « سوراب » وهما من بلاد الفرس . وأهناس : قرية قريبة من الفسطاط ، ذكر بعضهم أن المسيح عليه السلام ولد بها . ياقوت .

(٢) فى القاموس (ركن) : « والأركون ، بالضم : الدهقان العظيم » . ومثله فى اللسان . وفى معجم استينجاس ٣٨ أن الأركون هو الرئيس أو الحاكم . والكلمة يونانية الأصل دخلت فى الفارسية والعربية .

(٣) النسالة ، بالضم : ما سقط الريش .

(٤) الحرائب : جمع حريبة ، وهو المال المسلوب . وفى الأصل : « حراتبه » .

شَيْبانها ومازنها وأوسها ، وصدُّوه عن حَوزته إلى الأطرار[1] ، واتّبعوه بحرب ذى قار ، ثم أزالوه عن مُلك ظَفَار[2] .

إذْ جنبنا خيلنا من ظفار ثم سرنا بها مسيراً بعيدا[3]

فاستبحنا بالخيل مُلك قُباذ وابن أفلوذ جاءنا مصفودا[4]

فهــذا أبرويز كم ، لا أبانَ تمييزكم ، الذى بذكره تبجّحتَ ، وعذرَه رجّحت ، هو الذى دوّخ أريافــكم ، ووطئ أكنافــكم[5] ، وأورثَنا ورثَته بالمدائن أسيافَــكم ، وحطّــكم من الحزوم ، وأقصاكم إلى أبعد التُّخوم ، وبه نزلَتْ فى قصتكم : ﴿ الٓمٓ غُلِبَت الرُّوم ﴾ ، فأخَذْنا الخؤولة فيكم بثأرها ، ونَضَحنا بالحمية من عارها[6] ، وتداعينا بمضر الحمراء ونزارها ، ياللهم ِ الحِيرية ، والعصائب اليمنية والمضريّة ، مِن أبناء ذى مَرَاثد[7] والصّــباح ، وجَذِيمة الوضّاح ، وأبرهةَ ذى المنار ، وعمرٍو ذى الأذعار ، وناشر النِّعَم[8] والرائش ، وسلمة ذى فائش ،

---

(١) الأطرار : الأطراف ، جمع طر بالضم .

(٢) ظفار : مدينة باليمن قرب صنعاء . وفى الأصل : « ذفار » فى هذا الموضع والبيت بعده ، تحريف .

(٣) من قصيدة منسوبة إلى تبع فى أخبار عبيد بن شرية ٤٥٨ . وروايته :

وسلى عن مسيرنا من ظفار بجموع نؤم غورا بعيدا

(٤) فى أخبار عبيد ٤٥٩ :

واستبحنا جميع ملك قباذ وجيئناه صاغرا مصفودا

(٥) الأكناف : النواحى . وفى الأصل : « أكتافكم » ، تحريف .

(٦) النضح : الذب والدفع . وفى الأصل : « نصحنا » ، تحريف .

(٧) فى الأصل : « من ذى أبناء مراثد » ، تحريف . وذو مراثد ، هو الرائش الأصغر ، واسمه الحارث بن الهمال ذى شدَد ، أحد ملوك اليمن . التيجان ٧٨ — ٧٩ .

(٨) انظر مروج الذهب (٢ : ٧٦) والتيجان ٢١٩ وأخبار عبيد بن شرية ٤٢٥ حيث ذكر فى الأخير علة تسميته .

والمدهاد ، وابن عبّاد ، والحارث بن شدّاد ، والفيّاض (١) والضحاك (٢) والبرّاض (٣) ، والحارث بن مُضاض .

٣٦ ب هو المشهد الفضل الذي ما نجابه لكسرى بن كسرى لا سَنامٌ ولا غَرْبُ

فما هو إلاّ أن وضَح التمييز ، ورجَح التبريز ، وقيل هذا دِرَفْش (٤) راية أبْرَوِيز ، فلِلحينِ قوّضنا بنيانَه ، وحللنا سَنْدانه ، ونزلنا إيوانه ، وأخمدنا نيرانه .

ولم أرَ أمثال الرجال تَهافتُوا على المجد حتى عُدَّ ألفٌ بواحدِ

ولله أيامٌ بالقادسية واليرموك ، وعُتاةٌ منهم مواليكَ وأبوكَ وحموك ، يا هَبيد البِيد ، وعَبيد العبيد .

لو كنت من نخبة الموالى إذاً لم تنتَسُوءا فى نُخْبة العرب

إذ جئتمونا أعقادَ الرمل ، وأعدادَ النمل ، قد اعتقدوا ، واحتدموا واحتقدوا ، فمن دمائهم ما خاضوا ولصِلائهم ما أوْقدوا ، وعند ما تنادَوْا يا أساورة تأهّبي (٥) ، وقلنا يا خيلَ الله أركَبي .

بضربٍ تَرقُص الأحشاء منه وتَبطُل مهجةُ البطَلِ النجيدِ

---

(١) هو عبدالله بن جدعان . انظر خبره فى الاشتقاق ٨٨ — ٨٩ والحيوان (٢ : ٢٠٢) .

(٢) الضحاك أحد ملوك الفرس ، وهو المسمى البيوراسب . وفى التنبيه والإشراف ٧٦ أن اليمانية من العرب تدعى الضحاك وتزعم أنه من الأزد » . وفى جمهرة الأنساب لابن حزم ٨ : « والضحاك بن معد هو الذى أغار على بنى إسرائيل فى أربعين فارسا من تهامة » .

(٣) هو البراض بن قيس بن رافع الضمرى ، وهو الذى قتل عروة الرحال بن جعفر ابن كلاب . الحيوان (١ : ١٦٦) والتنبيه والإشراف ١٧٨ .

(٤) فى معجم استينجاس ٥١٣ أن « درفش كاوان » اسم راية فريدون . وفى التنبيه والإشراف ٧٥ — ٧٦ أن رجلا إسكافيا من الفرس يسمى « كابى » رفع راية من جلود ، ودعا إلى خلع الضحاك وتمليك أفريدون ، فلما تم الأمر تيمن القوم بتلك الراية فسميت « درفش كابيان » إضافة إلى كابى صاحبها . قال المسعودى : « والدرفش بالفارسية الأولى الراية ، وبهذه الفارسية إشفى الخرز . وحليت بالذهب وأنواع الجواهر الثمينة وكانت لا تظهر إلا فى حروب عظيمة ، تنشر على رأس الملك أو ولى عهده أو من يقوم مقامه » .

(٥) الأصل : « تاهبين » .

قسمناهم فشَطْرٌ فى العـــوالى ... وشَـــطْرٌ فى لَظَى حرّ الوَقود

فـا أغنى عنكم فى تلك المشاهد أنوشروانـكم وقُباذُكم ، ويزدجردكم وشهريارکم ، وشهبوركم وخُرّذاذُكم ، ونسـطوركم ويعقوبكم ، ونسطسُكم وبروسسكم[١] .

غَدَت غِيرانُهم لهمُ قبـــورا ... كفت فيهم مَؤوناتِ اللّحود

أهؤلاء القيول ، كما ذكرت على خبول ، كأنّها فُيول ، بل الخُبل القُيول إذا لاذت الخيـل بالسكيول[٢] ، وألاّ سألتُكِ يا أمّ عامر[٣] بحرمة الصليب ، وجرى المذكّيات فى طلبكم واليعاقيب ، أيّةُ خيولٍ لأسلافك ، أم أىّ حَلْبة شاهدتها لأقيالك وأردافك . متى عرفَ ذَوُوكِ لها اسما ، أو حكَوا عنها شيّة أو وَسما . لعلّها تقدّمت من جنائبكم فى السّوابق ، أو لحقت مِن مَقانبكم بآل الوجيه وأعوج ولاحق ، أو راهنت بها الذائد والسّكب ، وقُرزل[٤] واليحموم والبَطِين وزاد الركب ، أو داحس والغبراء ، أو الحَنْفاء والشقراء . أم هل من براذنكم المجلِّى والمصلِّى ، والعاطف والعاقب والمتلّى[٥] . ٣٧/١

عنها الحديث إذا ما حاوَلُوا سَمَرا ... والرّزق منها إذا حلوا أماريتا[٦]

لـكم الـكَوْدن واللّطيم ، والسُّكَيت الأخنس والفِسكِل الحطيم .

تبكّى عليهنّ البطارقُ فى الدُّجى ... وهنّ لدينــا مُلقَياتٌ كواسد

---

(١) كذا . ولعلها « وأريوسكم » . وأريوس كان قسيسا بالإسكندرية كان فى زمن قسطنطين الأول ، وكان قسطنطين هذا على مذهب أريوس . الفصل (١ : ٤٨) .

(٢) القيول الثانية : جمع قيل ، والقيل : الثقيل الخسيس . السكيول : آخر الصفوف فى الحرب .

(٣) تهكم به وبكنيته أبى عامر ، فجعله « أم عامر » . وانظر ما مضى فى ٢٦٦ س ١٣ .

(٤) فى الأصل : « خردل » ، وليس فى أعلام خيلهم . وانظر الخيل للكلبى ٢٧ وابن الأعرابى ٧٥ والعمدة (٢ : ١٨٢) وشرح الحماسة للمرزوقى ١٤٩٤ .

(٥) المتلى : التالى . وفى الأصل : « المسلى » ، ولا وجه له .

(٦) الأماريت : القفار ، جمع أمرات ، وهذا جمع مرت . والبيت لأبى العلاء المعرى . انظر شروح سقط الزند ١٦١٠ .

شيخ زعمت رُجُح ، بُذخ وُضُح ، فمن الشُّنُخ الوسخ الوُذُح . من العَجَم قُلتَ القُدُم ، نَعَم الأُلكن القُدُم ، الحُلُم لكن عمَّن بلغ الحلُم ، بصُر صبير !! بصُر بأوقات السمر ، وأفول القمر ، ودبيب الضَّراء والخَمَر(١) ، صُبُر على الذفر والقذر ، وذَفَر الغَمَر ، وأَطَر الكَمَر ، و بجُرْ مُرَر ترمى بشَرَر كالقَصَر(٢) . مُلْس الأَدَم ، قلتَ ، هذا وأبيك والتفكيك يا ديُّوث والتخنيث ، وعِرْض السَّقاء الخبيث(٣) ، لقد نبهتَ [يا] هذا الخبيث ، وقلنا إليك يساق الحديث .

تصيخ للنَّبأة أسماعَها إصاخةَ النَّاشد للمُنْشِد(٤)

جَرَرَة أذيال ، لكن على دَمَال وأبوال(٥) ، لا كجرِّنا العوالىَ للإعوال ، وإعلام الأشبال منَّا للاحتيال ، بريش الرئال(٦) .

أبقَتْ بنى الأصفرِ المصفرِّ كاسمهم صُفْرَ الوجوه وجَلَّتْ أوجُهَ العربِ(٧)

آنِفاً يا حَضَاجِر(٨) ، يا باردا فى شهر ناجر ، وصَفْتَ العربَ بمعاقرة الدِّنان ، وتُفنيان القيان ، والآنَ فخرتَ عليهم بالنَّبيذ والسَّميذ ، والجدى الحَنيذ ، فلم لا تفاخر بالتَّطبيخ والوقيذ ، وأكل الميتة بعد التشميذ(٩) . وأمَّا حينئذ

---

(١) يقال دب له الضراء ، ودب له الخمر ، إذا ختله وخدعه . وما واراك من أرض فهو الضراء ، وما وراه من شجر فهو الخمر .

(٢) اقتباس من الآية الكريمة . والقصر ، بالتحريك قراءة ابن عباس وابن جبير ومجاهد والحسن وابن مقسم . تفسير أبى حيان (٨ : ٤٠٧) فى سورة المرسلات .

(٣) العرض ، بالكسر : الرائحة .

(٤) للمثقب العبدى فى الكامل ٦٣ ليبسك والبيان (٢ : ٢٨٨) . وانظر شروح سقط الزند ٣٧٦ والأمالى (١ : ٣٤) . وصواب الرواية : « يصيخ للنبأة أسماعه » ، لأن قبله فى صفة ثور :

كأنما ينظر من برقع من تحت روق سلب مذود

(٥) الدمال ، كسحاب : السرقين ونحوه . وفى الأصل : « ذا مال » ، تحريف .

(٦) الرئال : جمع رأل ، وهو ولد النعام .

(٧) لأبى تمام فى ديوانه ١٢ .

(٨) حضاجر : اسم للذكر والأنثى من الضباع .

(٩) التشميذ ، لعل المراد به الانتفاخ . وأصل الشمذ رفع الذنب والإزار .

الجِداء والحُملان ، وكُوم متون الجفان ، فلنا منها البضيع بعد الذّكاة والسّديف ، والوشيق المسرهد والقدير المعجّل والشّواء الصّفيف .

لنا الجَفَنات الغُرُّ يَلمَعن بالضّحى وأسيافُنا يقطُرْن من نجدةٍ دما[١]

٣٧ ب وأما القِيان والقُنيان ، والمعاقرة والدِّنان ، فنحن اخترنا صِرفَها ، واختبرنا صفوها وعَفْوها ، وأخذْنا فى الجاهلية وصفَها ، وأهدينا أنفاسَ النسيم شذاها وعَرفها ، ومنكم غارس حُبَلها وآبِرها ، ومنقّحها وزابِرها ، وسالف سليلها وعاصرها ، ومنّا أبو عُذْرِها وفاطرها ، ومديرها بحديث الرُّكبان ومعاقرها ، تدوسونها لنا بالأرجل ، وتقتلونها قبل حلول الأجـل ، ثم تجلبونها من جُوَانى والرّسّ ، وتَسبونها من قُطْرُبُلَ وبيتِ رأس ، وتجهِّزون بها بناتِكم بأكواب الساج ، ومدارع الدِّيباج ، فيرشُفُنها بالشِّفاه قبل الزجاج ، وبهذا توفَّرت على ضغنها فى المِزَاج ، وأخذَتْ من رءوسنا ثأرَها عند أرجل الأعلاج ، فلنا الحَلْب ، وعليكم الجَلْب ، ومنّا الأجر ، وإليكم التّجر ، ومن بضائع القهر ، ثمن البُضْع والشّكر ، وكالئُ المهر[٢] .

مُستردَفات فوقَ جُردٍ أُوقِرَتْ أكفالُها من رجّح الأكفالِ

ولا حَرَب ، أن شدهت العرب ، بربّات الشنوف ، ووَلِهَت بوُطْف الجفونِ وذُلْف الأنوف ، ودُلِّهت بَعزف القيانِ والشُّرب بالمُعْلَمِ المَشُوف .

فإذا ما شربوها وانتشوا وَهبوا كلَّ جَوادٍ وطِمِرّ[٣]

ثم راحوا عَبِقُ المسكِ بهم يُلحفون الأرضَ هُدَّابَ الأُزُرْ

لهم عُرِف النّسيب والتشبيب ، وعليهم وُقف التّسهيد والتعذيب ، ولهم

---

(١) لحسان بن ثابت فى ديوانه ٣٧١ .

(٢) الكالئ : النسيئة المتأخر .

(٣) لطرفة بن العبد فى ديوانه ٦٨ .

الجآذر في زِيِّ الأعاريب[١] ، شُهِروا بالحبّ والجوى ، وخُبِروا بالتحرّق للتفرّق والنوى ، وعزُّوا للموت كرماً وذلُّوا للهوى . هم حَدَوا الرَّكبَ بالحنين والإرزام ، وعارضوا السُّحبَ بعيني عروة بن حزام[٢] ، بكَوا الديار ، ونَدَبوا بصدق عُهودهم الطُّلولَ والآثار ، وحَمَوا الذّمار ، وردُّوا أيديَهم عن حُرمة الجار .

قومٌ إذا حاربوا شدُّوا مآزرَهم دونَ النِّساء ولو باتت بأطهارِ[٣]

٣٨ / أ رَضُوا لِفضل النَّيل بفُضول الغَبوق والقيل ، وتبرّءوا من رَضاع الغَيل[٤] ، ولم يعرفوا غيرَ داعي النِّداء وزَجْر الخيل .

أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم دُجَى الليل حتَّى نظَّم الجَزْعَ ثاقبُه[٥]

أرزاقهم في السّير والإسآد ، وإنفاقهم من أكفّ الآساد .

والليث حيث ألبَّ من أرضٍ فذاكَ له عرينُ

أنِفُوا المِساحة والفلاحة ، وألفوا الاستباحة لامتلاء الراحة ، ملكوا الأرض وما ملكَتْهم ، وتخيّروا البقاعَ فما نهكَتْهم ، منازلُهم من المعمورة بمكان الغُرّة ، وحظُّهم من الفَلَك رأسُ المَجَرّة ، أغنام من الأعمال المَدَنية ، والمَلَكة البدنيّة ، إيضاع الشَّدَنية ، وإنضاء النّاقة الفَدَنية ، طلباً للاعتزاز ، وضرباً في مجاهل الأرض للابتزاز ، وكفاهم عارضَ المَسّ ، وأرضَ الرّسّ[٦] ، إيثارُهم على النَّفس ،

---

(١) فيه لمحة إلى قول المتنبي :

من الجآذر في زي الأعاريب حمر الحلى والمطايا والجلابيب

(٢) فيه نظرة إلى قول المتنبي :

فكأن كل سحابة وكفت بها تبكي بعيني عروة بن حزام

(٣) للأخطل في ديوانه ٢٠ وشرح شواهد المغني ٢٧٠ .

(٤) الغيل : أن ترضع المرأة ولدها على حبل .

(٥) البيت لقيط بن زرارة في الحيوان (٣ : ٩٣) والشعراء ٦٩٢ . ويروى أيضاً لأبي الطمحان في الحماسة ١٥٩٨ بشرح المرزوقي والكامل ٣٠ ليبسك والوساطة ١٥٩ .

(٦) الأرض : الرعدة والنفضة . والرس : أول الحمى .

والاستقبالُ بأبنيتهم مطالعَ الشمس ، تَنعموا بأفلاذ الحَشَا ، والاحتشاء من الكُشَى ، عن التأرِّى لما فى القدور ، والتعرِّى لوَهَج التَّنُّور .

لِقرص تُصَلَّى ظَهرَه نبطيّةٌ   بتَنُّورها حتَّى يطير له قِشْر
فأمّا البَهطُّ وحيتـــــانُكم   فما زِيلَ منها كثيرُ السَّقَم(١)
ومَــكْنُ الضباب طعام العُرَيبِ   ولا تشــتهيه نفوسُ العَجَمْ(٢)

تُوقِف الطِّباعَ على الصَّمِيم والخلاصة ، وتُوقِى به شحَّ النَّفس والخَصَاصة ، يسوا كالنَّهِمة الخَفَرة ، الأكلة الحَفَرة ، خَفَرة الجفان ، وحَفَرة الأنفاق للنِّيران ، أعدُّوها للتَّحصين ، لا للتحسين ، وأوقدُوا بها على الطِّين للتبطين ، لا للتَّوطين ، إذ لم يُغْنِهم القَهْر عن الحَصر ، ولا عَقْد الجِسر عن الأسر ، أعجلتهم الغُربان ، الغِربان ، عن الانتفاع ، باليَفَاع ، والاعتصام ، بالأعصام ، والاحترام(٣) ، بالأهرام .

ولذاك كانوا لا يَحُشُّون الوغَى   إلّا وقد علموا مكانَ المهربِ ٣٨ ب

وأما الفُسُل ، والمُسُل ، فقد أجلَّها الله عن اغتراسكم واحتراسكم ، وطهَّر النخلةَ عمَّتنا من أدناسكم ، و بَخَرِ أنفاسكم ، وحبا العربَ بها عُجالةَ صائمهم ، ولُهْنة طاعمهم ، ونقيعةَ ضَيفهم ، وفاكهة شتائهم وصيفهم ، تُحفة الكبير ، وصُمْته الصغير ، وتَخرِسةُ مريمَ ابنةِ عمران ، من الرَّاسيات فى الضَّحل ، الراسخات فى الوحل ، المطعمات فى المَحْل(٤) .

(١) الشعر لأبى الهندى ، كما فى الحيوان (٦ : ٨٨ — ٨٩) . وانظر محاضرات الراغب (٢ : ٣٠٣) والفصول والغايات ٤٧١ والمخصص (١٦: ١٧/٨٣ : ١٠) . والبهط : الأرز يطبخ باللبن والسمن ، معرب من الفارسية عن الهندية . انظر تحقيقه فى حواشى الحيوان . ورواية الحيوان : « فما زلت منها » .
(٢) العريب بالتصغير : العرب ، قال ابن منظور : « صغرهم تصغيرا » .
(٣) الاحترام ، أراد به أنه دخل فى حرمة لا تهتك . والمعروف « الإحرام » .
(٤) وصف النخلة هذا ينسب إلى أبى حشة ، وهو عبد الله — ويقال عامر — =

فاخراتٌ زروعها فى ذُراها وأخاضَ العيدانُ والجبّار

فأينَ صنيع قومك الجِلّة ، من صنيع مُحرِق البعَر والجِلّة ، لما أمّنوا اللّهفان ، وخوّفوا أسْدَ خَفّان[١] ، وأفنت نارُهم الغضى والأَفَان[٢] .

ضَربوا بمَدرجةِ الطّريقِ قبابَهم يتقارعون بها عَلَى الضِّيفانِ

فلم يبقَ إلّا الجِلّة والبعَر ، أو خالقةُ طِرافٍ من أديم أو بيتٍ من الشَّعَر ، خَلَوا فتحلّوا ، وعلَوا وتجلّلوا .

* هنالك إن يُستَخْبَلوا المالَ يُخْبِلوا[٣] *

غَنُوا بالجِلّة عن الجلايل ، ومن الحُلّة بالشّليل[٤] ، وبالخُوَذ عن العُوَذ ، وبالحَلَق عن الخِرَق ، والسُّندس والإستبرق ، من كلّ مدجّج .

سُمْرُ القِنــا بإهابه أولى من السِّربالِ

ما أكَلَ ذو جارٍ لهم بهواه[٥] ، ولا استأثر على مَن حَلّ ربعه وثَوَاه[٦] ، متى جاع أنشد أمّ مثواه ، أيا ابنة مالك وابنة عبد الله[٧] :

= بن ساعدة بن عامر الخزرجى . الأمالى (٢ : ٥٨) . وإلى عبد الرحمن بن محصن النجارى . التنبيه للبكرى ٩٥ . وإلى خالد بن صفوان . اللسان (خرس) . والتخرسة : طعام النفساء .

(١) خفان : مأسدة قرب الكوفة .

(٢) الأفانى : شجر بيض ، واحدته أفانية ، ويسمى كذلك ما دام رطبا ، فإذا يبس فهو الحاط .

(٣) صدر بيت لزهير فى ديوانه ١١٢ . وعجزه :

* وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا *

(٤) الحلة ، بالضم : القميص والإزار والرداء . والشليل : غلالة تلبس فوق الدرع .

(٥) بهواه ، أى بما يهوى ، والمعنى أنه يخضع لجاره فيما يطعم ، يحكمه فى ذلك ، مبالغة فى لرعاية . فى الأصل : « ذو جارهم بهداه » .

(٦) يقال ثوى بالمكان وثواه أيضاً .

(٧) نظر إلى قول حاتم الطائى — وليس فى ديوانه — :

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك ويا ابنة ذى البردين والفرس الورد

الحماسة ١٦٦٨ بشرح المرزوقى . والبيت التالى هو قرين هذا البيت .

إذا ما صنعتِ الزّادَ فالتمِسِى له أكيلًا فإنِّى لستُ آكِلَه وحدى

هذا المجد السرىّ ، والفخر الحرِىّ ، والنَّسب الحُرِّىّ ، لا ما تقوّلتَه لحاكَ الله ولحا أباكَ ، وحيّا مَن أباكَ ، مِن فخرنا بالقديم ، المُفرِى للأديم ؛ أغفيتَ فانتبهْ ، « مَن يطُلْ أيرُ أبيه ينتطقْ به » .

أتبغض جوهَرَ العربِ المصفَّى ولم يبغضْهمُ مولًى صريحُ

فما لكَ حيلةٌ فيهم فتُجدِى عليكَ بل تموتُ فتستريحُ ٣٩/١

أما لكَ فيهم بعد الملوكِ العاربة ، والكواكب الطَّالعة الغاربة ، من الثَّموديّة والعاديّة ، والطَّسْمية والجديسيّة ، والوَبارية[1] والأُمَيميّة ، ما يقرع صَفَاكَ ، ويتقع بماء الملام صفاكَ ، إلى خالفةٍ من المتعَرِّبَة[2] خلفَتْ خِلافَها ، وارتضعتْ فى البأس والجود أخلافَها ، وإن كانتْ من جمعكم كالبعرة فى البيداء ، والشَّعرة البيضاء فى اللِّمّة السوداء ، حطَّت ذُراكم من اليفاع ، وخَطَّت فى صدوركم بخُطَى الخطّىّ لا باليراع ، يَستمِلُّون من أنسِيَة الآجال[3] ، ويَنْهدون إليكم بقلوب أسدٍ فى صدور رجالٍ ، أقلامهم الردينيّات واليزَنيات ، وصُحُفهم المشرفيّات والسُّريجيّات ، ولمقهم الوِضاء الداوديّات ، وسُرُرهم المُقرَبات الغُرّ الأعوجيات .

إذا ركبوا الخيلَ واستلأموا تحرَّقت الأرضُ واليوم قُرّ[4]

برَويّاتهم لا برواياتهم ، ودِراياتهم لا بَادِراتهم[5] ، نَصَبوا الأحياء ، ونَسَبوا الأشياء ، وشقّقوا الأسماء ، وقَسَّموا على حصص البُروج السماء ، فوصفوا النجوم ،

---

(١) نسبة إلى « وبار » . وفى الأصل : « الأبارية » ، تحريف . وانظر البيان (١ : ١٨٧) ونهاية الأرب (٢ : ٢٩٢) .

(٢) المتعربة هم بنو قحطان بن عابر الذين نطقوا بلسان العرب العاربة وسكنوا ديارهم . نهاية الأرب ٢ : ٢٩٢ . وفى الأصل : « المتغربة » ، تحريف .

(٣) الأنسية : جمع نسىء ، بمعنى مؤخر . ويستملون ، أى يملون . عنى أنهم يكرهون الآجال المؤخرة فهم يستعجلون الموت .

(٤) لامرىء القيس فى ديوانه ٥ . (٥) فى الأصل : « ودرياتهم لا بادارتهم » .

وعرّفوا الرُّجوم[١]، وزجروا السَّانح والبارح، وأثاروا الصيد وعلّموا الجوارح، ثم كَرَوْا نهر مِهْران[٢]، و بنوا قصر غُمْدان، وحَدَوا بالركب النُّخَل من وَدّان[٣]، فجابوا الأقطاب، واجتنَوا الرِّطاب، وملؤوا الأوطاب، وميّزوا التَّوكيت والتذنيب والإرطاب[٤]، وانفردوا بالحكمة وفصل الخطاب.

سُوَرُ القُرآنِ الغُرُّ فيهم أُنزلت ولهم تُصاغ محاسن الأشعارِ

قد كان يكفى ياذاتَ النَّحيين، وكبوح الحيَّين[٥]، فى بعض محاجّاتك، وعُرْض مداجاتك، أن هذَذْتَ شفتيك بلحنك الماخوريّ، وأنفذتَ حِضنَيك بنفثات أبى العلاء المعرّى، فأقمت فيها صغاك بالحرف العليل[٦]، وبُغِيتَ فوق مبتغاك بالنَّيم[٧]، ما هو أقلّ من القليل، فأزحت[٨] عن فشلك وخمولك، وأبحتَ هجوك وشتم رسولك، ثم شكوتَ قَفَار حالك، وأبنتَ واهىَ نثرك بزُور انتحالك، فحسبُك بها ياذا العَضْب فرضاً وجزاء[٩]، و انتهاء إلى الفهاهة لا أبا لك واعتزاء، واقتساماً لأدَبك[١٠] بيد التدمير أجزاء. ٣٩ ب

---

(١) فى الأصل: «الوجوم»، تحريف. والرجوم: النجوم التى يرمى بها.

(٢) كروا: حفروا.

(٣) ودان: موضع بين مكة والمدينة. وفى معجم البلدان: «وقرأت بخط كراع المنائى على ظهر كتاب المنضد من تصنيفه: قال بعضهم: خرجت حاجا فلما جزت بودان أنشدت:

أيا صاحب الحيات من بعد أرثد إلى النخل من ودان ما فعلت نعم

فقال لى رجل من أهلها: انظر هل ترى نخلا؟ فقلت: لا. فقال هذا خطأ، إنما هو النحل. ونحل الوادى: جانبه».

(٤) التوكيت: أن يصير فى البسرة نقط من الإرطاب. وفى الأصل: «التركيب»، تحريف. والتذنيب: أن يصير فيها نكت من الإرطاب من قبل ذنبها.

(٥) كبوح، لعلها «نبوح»، وهو ضجة القوم وأصوات كلابهم. والنبوح أيضاً: جماعة النابح من الكلاب.

(٦) إشارة إلى قول أبى العلاء وقد سبق فى نهاية رسالة ابن غرسية:

وإن الوزن وهو أصح وزن يقام صغاه بالحرف العليل

(٧) بغيت: أعنت على ما تبتغى. وفى الأصل: «بعثت».

(٨) فى الأصل: «فأرحت». (٩) العضب: اللسان الذليق. يتهكم به.

(١٠) فى الأصل: «لأديك».

إنَّ العبيـــدَ إذا أذلَلتَهم صلحوا على الهوانِ وإن أكرمتَهم فسدوا

لملكَ ، لا لعاً لك ، فضَحِك العِيّ ، أوصَبَحك النَّعِيّ ، فنَدِمت على بادرة خِذْلانك ، وسَقَطات لسانك ، وهبيتَ من غفوةِ التأسِّي، أو المتأسى ، وقلت مَن الآسى ، من حزّ هذه المَوَاسى ، لِياذاً بالإسار ، عن دعوة الآصار ، وعياذاً على الإعلان والإسرار ، من مستكِنٍّ الكفر والإصرار ، وتيمُّ الهاشميِّين بدعوة أبي عُبيدِ المختار ، والتعمُّم بسيدنا ونبيِّنا محمد المختار .

« متى كان الخيامُ بذى طلوح[1] » ، أو جمعنا الرَّحِم فى سام بن نوح ، أعْرَضَ عليكم ثوبُ المُلْبَس[2] بالتَّحامل على يافث ، والترامى فى الإلحاق به على القائف والنافث ، وإلاّ أىُّ عيصٍ إلينا ضَمَّكم ، أو بأىِّ بركةٍ خَصّكم صلّى الله عليه وسلم أو عَمَّكم . ما غمّك ، من أغمّك ، ولا ذمّك من أذمّك[3] ، وسَمّك وأحمّك ، وقتل أباك وسَبَاك وأُمّك . ابن عمِّكم الطاغوت وسيِّدكم البَرَهْمَنُ والبَرَهوت[4] ، شتَّانَ ما بين النجوم الطَّارقة والشموس الفارقة ، و بين سُقَّاط الجرامقة ومُقَّاط الأفارقة[5] ، الوُضْر الأنذال ، والبُخْر السُّبال ، لا غُسْلَ ولا طهارة ، ولا نظافة لطامثٍ ولا عِطاره .

قومٌ إذا جرّ جانِي قومهم أَمِنوا من لؤم أعراضهم أن يُقتَلوا قَوَدا[6]

---

(١) صدر بيت لجرير فى ديوانه ٥١٢ . وعجزه :

* سقيت الغيث أيتها الخيام *

(٢) يضرب مثلا لمن كثر من يتهمه . الملبس : المتطى ، وهو المتهم .

(٣) أذمه : وجده ذميا . وفى الأصل : « أزمك » ، تحريف .

(٤) برهمن ، هو الذى ينسب إليه مذهب البراهمة الهنود . جاء فى دائرة المعارف الإسلامية أنه ملك مترهب عالم ، عقد مجمعا من الحكماء وسن بمعونتهم قواعد الدين ، كما وضع نظرية الأدوار الفلكية واخترع أرقام العدد . . . وأما البرهوت فهو واد بحضرموت يحفه جبل بركانى عند سفحه بئر تعرف ببئر برهوت ، يذكرون أن أرواح الكفار تأوى إليه . دائرة المعارف الإسلامية ومعجم البلدان . وانظر أيضا مروج الذهب ١ : ٧٩ .

(٥) الماقط ، مولى المولى .

(٦) الحكم بن زهرة، أو عويف القوافى. انظر ما كتبت فى حواشى الحماسة بشرح المرزوقى ٢٤٩ .

لاَ ناصرٌ أهلَ أمِّ القُرى لأمِّ الذَّبيحِ ألا ناصرُ(١)

أُسامرُ نجداً ومَن بالصَّفا وإن لم يكن بالصَّفا سامرُ

وإلا فأين حِمَى يعربٍ حفائظُ لم يَحمِها عابرُ(٢) ٤٠ / ١

فيا الرضَى وأبنائه ومَن وَلدت أمَّه هاجرُ(٣)

وللعُرب أعراقِ زَنْد الثَّرَى أكابرُ أورثَها كابرُ

أُضِمَّتْ قُصَيٌّ وأخلافها ونصرٍ وعامرُها الجادرُ(٤)

لملوكِ قِنٍّ أخِي غَيَّةٍ لغيرِ أبٍ مُلحدٌ كافرُ

يهزُّ بدانيةٍ أعظماً بمكَّةَ قد ضمَّها قابرُ

وخالِصُها فى ثرَى طيبةٍ نبىُّ الهدى القمرُ الزاهرُ

نَفَتِنى الجماهرُ من هاشمٍ ومن يَمَنٍ عمرٌو أو عامرُ

وهرَّت جفونى كأسَ الكرى وسحَّ بها دمعُها الماطرُ

لئن لم أجاهدْه لا جرّ لى قنا الخطِّ فى الصُّحف الخاطرُ

أبا عبدَ عبدٍ ألا تَستحِى وَلا لكَ دون النُّهَى زاجرُ

مَواليك أخسرتَ من شأنِهم ستَعلم وَيكَ من الخاسرُ

فإنْ تنجُ منِّى بنزْعِ الشَّوَى كما أبَقَ الضَّبع الباسرُ(٥)

فما فى ضُلوعك من نُطفةٍ وماء الكِراض دمٌ مائرُ(٦)

---

(١) أم الذبيح ، يعنى بها هاجر .

(٢) عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح .

(٣) يعنى أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت .

(٤) يعنى عامر الأجدار ، وهم بطن عظيم من كلب ، وهو أخو عامر بن صعصعة لأمه . انظر حواشى شرح المرزوقى للحماسة ٣٤١ . وفى الأصل : « الجاذر » ، تحريف . وفى اللسان (جذر) أنه سمى بذلك لسلع كانت فى بدنه .

(٥) فى الأصل : « كما أنت » .

(٦) الكراض : ماء الفحل . فى الأصل : « لما فى ضلوعك » .

هَلاَّ طمعت يا معمر ، يا آكل الأشلاء لا يَحْفِل ضوء القمر ، فى استدراك المقال ، والافتكاك من هذا العقال . كلاَّ لو تجلو معيارك ، وتمحو طومارك ، وتقلّمُ أظفارك ، وتنزع صلبانك وزُنّارك[١] ، وتُمفِى سِبالَك ، وتَنصِب قذَالك ، وتقول ذا لَك ، وتجعل الخَصْلَ كلَّه للعرب ، والفَضل للنبع على الغَرَب . كفاك أنَّ منهم آسادَ الله ، وضِرَاء الله ، وسُيوفَ الله[٢] ، ولهم بيتُ الله ، وفيهم رسولُ الله ، وعِترتُه أولياء الله ، أئمة الهدى ، وتتمةَ البأس والنَّدى ، وخيرُ من انتعلَ وارتدى المؤثرون على أنفسهم ابنَ عمِّنا صدقا ، وهادينا ومرشدنا وسيدنا حقًّا ، سيِّد ٤٠ ب البشر ، وخاتَم الرسل فى مُحكمِ الزُّبُر ، شفيع هذه الأمّة ، وحاديها إلى عِلِّيين فى خير أمّة ، سَفِيرَ يوم العَرْض ، وإمام أهلِ السموات والأرض ، منتهى لَبِنة الأحساب ، فى الأحساب ، الناطق بكلامه داعى أهل الجنة ومنادى الحساب ، الحاشر العاقب ، الشِّهاب الثاقب ، السابق الغالب ، المتخيَّر من ذؤابة لؤى بن غالب ، الذى به نَسخْنا ملَّتكم ، وفسخنا خُلَّتكم ، وكسَّرنا صُلُبكم ، وغوَّرنا قُلُبكم ، وطهَّرنا بِيَعكم ، واستظهرنا قِلَعكم ، واستوطأنا نضائدكم ، واستبطنَّا ولائدكم .

أُعجِلن عن شد البُرَى ولطالما غودرن أنْ يمشينَ غيرَ عجالِ

بهذا النبىّ الأمىّ ، السيّد العربى ، نفاخر البشَر ، ونكاثر المطر ، ونناظر الشَّمس والقمر ، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصهاره ، وصحبه وأنصاره ، وحزبه ، ومن مات على حُبّه ، كِفاء العجّ والثجّ ، والملبِّين بالحج ، وسلام الله ورضوانه على سلالته الطاهرة ، ووارث ملّته المنصورة ، الإمام المهدى أبى عبد الله

---

(١) الصليب والزنار مما كان يميز به المسيحيون . وفى الأصل : «طابانك» . وانظر ما ورد من كثرة اقتران الصليب بالزنار فى الديارات للشابستى ١١٣ ، ١٣٢ وما أنشد من قول أبى نواس :

وبالصلب العظيمة حين تبدو وبالزنار فى الخصر الدقيق

(٢) كان يقال لحمزة بن عبد المطلب : أسد الله . ثمار القلوب ١٦ . وفى اللسان (ضرا) : « وفى الحديث أن قيسا ضراء الله » . والمعنى أنهم شجعان ، تشبيها لهم بالسباع الضارية . وكان يقال لخالد بن الوليد : سيف الله ، سماه بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسن آثاره فى الإسلام ، وصدقه فى قتال المشركين . ثمار القلوب ١٦ .

محمد بن عبد الله القرشي العلوى ، الفاطمى المحمدى[١] ، وخليفة أمره العلىّ ، ومقامه القرشى ، سيِّدنا الإمام الرضىّ العربى ، المضرى القيسىّ أبى محمد عبد المؤمن بن على[٢] . والدُّعاء لحفظة سرِّه النبوىّ ، وخلافةِ أمره الدينىّ والدُّنياوى وأمدَّ الله حضرةَ مولانا أمير المؤمنين سيدنا الإمام أبى عبد الله الرضى ، الشاب التقى ، الناصر لدين الله العلى ، بمواد النصر الخفى ، والعُمر القصىّ ، وسائر العترة المهتدين ، والسَّادة الأكرمين ، والعِصابة الموحِّدين[٣] ، ورضى الله عنهم أجمعين ، عدد الرذّ والرش ، والطَّلّ والبَغْش ، والملائكة الحافِّين من حول العرش ، ما رسا ثَبير ، وعَسَا جَمير[٤] ، وسَمَر ابنا سمير ، وسلَّم تسليما .

يا باحثاً بالظِّلْف عن حتفـه   أذكرت أشياعَـك مَن ناسا
لا تَمْرِ أخـلاف الرَّدى ضَلَّةً   إن مـع الإبساس إيناسا[٥]
ومِزْ قرارَ الحق مِن نوسِـه   فليس من قَرَّ كمن ناسا[٦]
أعداكَ جهـل العُجْمِ عُجباً بها   فأوْسِ يا عَـير ترى الناسا[٧]

والسلام على من رضىَ الإسلام ، ووحَّد السلام ، وأبدى الاستسلام ، ورحمة الله وبركاته . ٤١/١

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن تومرت ، المتسمى بالمهدى . ولد بسوس ورحل إلى المشرق سنة ٥٠١ فى طلب العلم وانتهى إلى بغداد ولقى أبا بكر الشاشى والمبارك بن عبد الجبار ، ويقال إنه لقى الإمام الغزالى بالشام . ثم قام بدعوته فى المغرب سنة ٥١٤ . ولد سنة ٤٨٠ وكانت وفاته سنة ٥٢٤ . المعجب ١١٥ وابن خلكان (٢ : ٣٧ — ٤١) .

(٢) كان عبد المؤمن بن على هو الساعد الأيمن لمحمد بن تومرت ، وقد ولى الأمر بعده واستولى على وهران وتلمسان وفاس وسلا وسبتة ومراكش . ولد سنة ٥٠٠ وتوفى سنة ٥٥٨ . المعجب ١٢٥ وابن خلكان (١ : ٣١٠ — ٣١١) .

(٣) انظر تعريفا دقيقا لهؤلاء القوم ، فى المعجب ١٣٠ ، ٢٢٥ .

(٤) عسا الليل : اشتدت ظلمته . والجمير : الليل المظلم .

(٥) فى الأصل : « ظلة » ، تحريف . والإبساس : صويت للراعى يسكن به الناقة عند الحلب .

(٦) الميز : التمييز . وفى الأصل : « ومن قرار » . والنوس : التذبذب والاضطراب .

(٧) أوس : زجر للعنز والبقر .

رسالة ثانية

في الرد على ابن غرسية

رسالة ثانية فى الرد على ابن غرسية(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما

أيَّةَ نارٍ قدح القادح وأىَّ سهم فوّق الكاشحُ(١)

* إحدَى لياليكِ فهِيسى هِيسى(٢) *

لشدَّ ما استهواك أيُّها الشُّعوبى شيطانُك ، والتفَّت على نَزْعك أشطانك ، أدرَيت ، حين زرَيت ، أىَّ أديمٍ فريت ، وأيَّ ظهر للمكارم اعروريت ، رمَيتَ بكلِّ أفوق ناصلٍ رَمِيّ(٣) ، وأوضحتَ غير جلىّ ، وراهنتَ على الجحاش كلَّ سبّاق أعوجىّ ، من الأُدْم ، القُدم ، ليسوا بصُهْبٍ خُرْس ، ولا بمجوسٍ فُرس . أعِدْ نظراً فى الأمم العادية ، والأجيال الجُرهمية ، والجبابرة الطَّسمية ، والعماليق الغُلْب الإرَميّة ، ما يروعك ، ولا يُفرِخ له رُوعك . وفى مضرَ الحمراء وأقيال عدنان ، والتّبابعة من يعرب بن قحطان ، وأبرهَة ذى المنار ، وعَمرو ذى الأذعار ، ما يوقظك من سِنَة هواك ، ويَحجُرك عن باطل دعواك ، أنوف شُمَّخ ، وجبال رسَّخ ، ومجد تليد ، وعزّ مَشيد .

رسا أصلُه تحتَ الثّرَى وسما به إلى النَّجم فرعٌ لا يُنالُ طويلُ(٤)

(*) انظر ما سبق فى التقديم ص ٢٣٧ .

(١) البيت لأبى نواس فى ديوانه ١٩٢ والبيان (٣ : ١٩٨) . وانظر الحيوان (١ : ٩) والرواية فيها جميعاً : « وأى جد بلغ المازح » .

(٢) هاس هيسا : سار . والرجز فى المقاييس واللسان (هيس) ومجالس ثعلب ٢٩٣ والمخصص (٧ : ١١٣) . وبعده :

* لا تنعمى الليلة بالتعريس *

(٣) الأفوق : السهم المكسور الفوق وهو مشق رأس السهم حيث يقع الوتر . والناصل : الذى سقط نصله .

(٤) للسموأل بن عاديا ، فى الحماسة ١١٤ بشرح المرزوقى ، برواية : « تحت الثرى » .

اخسأ فلن تعدوَ الأصفريةُ أقدارَها ، ولن تعدم المجوسُ نارها . أرومتنا إسماعيلية نبويّة ، لا عيصوية أصفرية[١] ، حُرِم أبوكم بينٍ ذويه ، دعوة إبراهيم أبيه[٢] سُلِخ لها من النبوّة سلخَ الأديم ، وعُدِل بها عن الحنيفية ملّة إبراهيم ، فما أنتَ والفخرَ بالقديم ، إلاّ كدابغةٍ وقد حَلِمَ الأديم . منّا الحى اللقّاح ، أولو النّجدة والسّماح ، لمّا عدت عليهم عَوادى الزمن ، تفرقوا عن سبإِ اليمن ، أيادىَ كما انتشر اللّيل ، وانحدروا إلى أطوار الشام قدُماً كما انحدر السّيل ، فحلوا ، ربّما استقلّوا[٣] .

والليثُ حيثُ ألَبَّ من أرضٍ فذاكَ له عرينُ[٤]

٤١ ب فحين سمّيتموهم الأساورة رموكم بسهمٍ ما أخطاكم ، وأخذتم من جذع ما أعطاكم[٥] ، مُجِدٌ ، نُجُد ، إن نازعتم فيدُنا الأقوى ، [أ] وفاخرتم فالكرم التّقوى[٦] ، ما سُسنا خِنزيراً ولا عَبَدنا ناراً ، ولا عقدنا على الدُّل زُنّارا ، بلَى ملكنا ، نفوسنا ونفسنا[٧] ، على الأملاك ، الملوك ، حتّى أنفذ الله حكمه فى الدّعوة الإبراهيمية فأتمّها ، ولأمَ بها عباديد العرب ولمّها ، فحين نظمها من الدّين ناظ ووضح لها من الإيمان معالم ، وثوّب بالفَلاح مُنادِيها ، وتطاولت إلى هاديه هواديها ، أقبلتْكم الخيلُ دوائس[٨] ، عقباناً تحت أُسد عَوابس[٩] ، فثلّتْ

(١) العيصوية : نسبة إلى عيصو ، وهو العيص بن إسحاق عليه السلام . وفى نهاية الأرب (٢ : ٣٢٢) : « وولد روم بن العيص بن إسحاق بنى الأصفر ، لأن روم كان رجلا أصفر فى بياض ، فلذلك سميت الروم بنى الأصفر » . وانظر سفر التكوين ٢٥ : ٢٤ — ٢٦ .

(٢) فى سفر التكوين أن الذى بارك يعقوب وحرم عيسو أخاه الأكبر إنما هو إسحاق بوحا . الأصحاح ٢٧ : ٢٧ — ٤٠ .

(٣) الاستقلال : الارتحال . (٤) سبق فى ص ٢٨٣ .

(٥) إشارة إلى المثل : « خذ من جذع ما أعطاك » . وانظر ص ٢٣٧ لتضم هذه أيضا الى ماورد فى ص ٢٣٧ من دلائل تعزيز نسبة الرسالة ، وكذا ما فى ٢٩٨ س ٤ .

(٦) إشارة إلى قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

(٧) كذا وردت العبارة .

(٨) فى الأصل : « دواس » ، تحريف . وفى اللسان : « أتتهم الخيل دوائس ، أى يتبع بعضهم بعضاً » . (٩) فى الأصل : « غواس » ، تحريف .

عروشَ أنوشِروانكم وقباذكم ، وفلّتْ غربَ يزدجركم وشهر يارکم(١) . وسدُّوا مسالككم ، وخلعوا خلعَ الحمائل ممالككم ، وحطُّوا عن مفارقكم تيجانكم ، ونسخُوا فِصْحكم ومِهرجانكم ، وورثوا أرضكم وديارکم ، وأطفئوا بنور الله نارکم ، أصِيخْ أيها الغُمر ، فقد آن لك أن توقد بصيرتك مدارجُ العمر(٢) ، فتذكَّرَ قتلى باليرموك وجبَتْ جنوبُها ، وأشلاء بالقادسيَّة عصَفَ عليها من المنون هَبُوبها(٣) ، تهافتوا علينا أمثالَ الدَّبا ، لم تُغنِ عنهم الأسنّة ولا الظُّبا ، فتعلمَ أن البأسَ للعرب ، وأن النَّبعَ ليس من الغَرَب(٤) .

ولم أر أمثالَ الرِّجال تهافتُوا على المجد حتَّى عُدَّ ألفٌ بواحدِ

هم طَردوكم عن أكناف الشَّام ، ورُستاق العراق ، طردَ غرائبِ النِّياق ، وجذُّوكم عن تخوم بابلَ وخُراسان ، جذَّ العَير الصِّلِّيان(٥) .

بضربٍ يُزيل الهامَ عن مُستقرِّه وطعنٍ كإيزاغ المَخاض الضَّوارب(٦)

مُكُر ، نُكُر ، لم يتَّخذوا القصور وُكورا ، ولكن مَذاكيَ ذُكورا . بنيتم بالشِّيد و بنَينا(٧) وأحدقتم بالحيطان ، وأحدقنا بعوالى المُرّان ، وألِفتم الأبنيةَ والأندية ، وجُبنا فى طلب العزِّ المهامهَ والأودية ، وأذلَّتم الدبابيج والمرس(٨) ، وذلَّلنا المناجيج الضُّمَّر . جررةٌ عَوال(٩) ، و بذلة نوال .

فى الأصل : « شهر باذكم » ، تحريف . وانظر ما سبق فى ص ٢٨٠ .

(٢) فى الأصل : « القمر » .

(٣) الهبوب : الريح تثير الغبرة .

(٤) انظر ما سبق فى ص ٢٩٠ .

(٥) الصليان : ضرب من الشجر . (٦) النابغة فى ديوانه ٨ .

(٧) لعل هنا كلمة ساقطة يتم بها السجع مع « الشيد » .

(٨) الدبابيج : جمع ديباج ، وهو ثوب يتخذ من الإبريسم ، وفارسيته « ديباه » . ويقال ديباج كسروى . والمرس : ضرب من تقطيع ثياب النساء . وفى الأصل : « الدبابيج والمرس » .

(٩) عوال : جمع عالية ، وهى أعلى الرمح ورأسه ، والعالية أيضاً القناة المستقيمة .

فما دبَّ إلا فى بيوتهم النـدى ولم تربَ إلا فى حجورهم الحربُ ٤٢ / أ

دِنتم بالراح ، ودنّا بدِرّات اللِّقاح ، فشتّان بين محظور ومباح [١] . ماذا الإيغال ، فى أبى رغال ، وقد غالَه من الإله ما غال ، حين دَلَّ على بيت الله أغربة الأحابِش ، كما دلّت على أهلها براقش ، فهلك وهلـكوا ، وحَدَا بهم حادى الرّدى أيّةً سلـكوا . وضُح ، صُرُح ، لم تُعرِق فينا سُحْمة الحُبْشان ، فجئنا صُفْر الألوان ، ذوِى نُطَف أمشاج [٢] ، بين الزُّنوج والأعلاج . أشهد أنَّ السّاسانية ، العديمة الإنسانية ، نكحت أمّاتِها وبناتِها ، وتشبّهت بالبهائم فى شهواتها ، ألاّ زجرَهم عنه معقول ، أو دِينٌ عن الأمم منقول ، ذهبوا والله من العار بثُمّه ورُمّه [٣] ، وخَلَ السّوء يبدأ بأمّه ، أخزاً بالحنيذ ، والنّبيذ ، هلاّ بقِرى الضّيوفِ والسّنونَ غُبْر ، وعِزّةِ الجارِ والأسنّةُ حُمر ، وكرم الوفاء إذا استُوْثِر بالغدر ، وكتْم السّرّ حينَ تجيش مراجلُ الصّدر .

دع المـكارمَ لا ترحلْ لبغيتها واقعُد فإنّك أنت الطاعم الـكاسى [٤]

أيها الزارى علينا بشان ، أبى غُبْشان ، وماذا على رجلٍ تخوّف فصَرف على أربابها السِّدانة ، ووفَى فأدّى إلى أهلها الأمانة ، دون خُدعةٍ ولا خِلاب ، وجَرىُ المذكّيات غِلاب [٥] . نُجُح ، رجح ، لا تَطيش بهم الأحلام ، ولا تساجلهم الأيام . فمَهْ أيُّها المتعاطِى لما لا يُدرِك ، المتشبع بما لا يملك ، المُتبجِّح فى دعواه ، كالخصىّ يَفخر بمتاع مولاه . إن حظّـكم من الأسترلوميقى [٦] والأرتماطيقى ،

---

(١) فى الأصل : « محذور » ، وهو تحريف سمعى .

(٢) أمشاج : مختلطة . وفى الأصل : « ذونطف » .

(٣) أى بقليله وكثيره . انظر ما سبق فى ص ٢٦٥ س ٢ .

(٤) للحطيئة يهجو الزبرقان . ديوانه ٥٤ .

(٥) المذكى من الخيل : المسن . والغلاب : المغالبة . والمثل يضرب لمن يوصف بالتبريز على أقرانه فى حلبة الفضل .

(٦) انظر لهذا وما بعده ما سبق فى ص ٢٥١ .

والتعاليم المنطقية والموسيقَى ، والفنون الفلسفية والجومطريقَى — حظُّ الزمان من من الهرم[١] ، والحُمُرُ من تأليف النَّغَم ، لـكنّها والله أقوى منـكم لَحْيا ، وأقومُ هَديا ، وأثقب خواطر ، وأصدق بصائر . تلك علومُ يونان ، ومبادئ كَلْذان ، ونتائجُ هِرمِسيَّة[٢] ، ونِسبٌ فيثاغورية ، لا ما أنتم بنو الأستاه منه متعاطون[٣] ، ٤٢ ب
وفى عشوائه خابطون ، إنّ العرب بأمّيّتها لأدركت بحلومها ، ما أدركته الأوائلُ بتعاليمها ، أهلُ البيانِ وأربابُه ، لم فُتِحت أبوابه ؛ ورفعت باليَفَاع قِبابُه ؛ نزل الفرقانُ بلسانها ، فدلّ على إحسانها .

فلو أنّ السماء دنتْ لمجدٍ ومكرُمةٍ دنت لهم السماء[٤]

عُتُق صُدُق ، جعلَ الله لها الـكعبةَ البيتَ الحرام قياما ، والحنيفيّةَ السمحةَ قِواما ، وإنّ بيتاً رفَعَ منه إبراهيمُ القواعدَ وإسماعيل ، ونطَقَ بفضله التنزيل ، وسفَرَ بين ساحَتِه جبريل ، لمَظِنَّةُ خيرات ، ومصَبُّ بركات ، ومَنبجِ آياتٍ معجزاتٍ ؛ مشاعرِ معظَّمة ، ومناسك مكرَّمة ، وملتقى آدمَ وحوّاء ، ومَهبِط الوحى من السَّماء ، ذلك بيتُ الله لا بيوت نِيرانِـكم ، وشعارُه لاشِعار صُلْبانكم ، ومدارس الذِّكرِ لا مدارس البُهْتان ، ومعارج المَلَك لا مدارج الشَّيطان ، إنّ القرآن ليس بديوانكم ، ولا الـكَعبة من زَخاريف إيوانكم .

إنّ الذى سَمكَ السماءَ بنى لنا بيتاً دعائمه أعزُّ وأطوَلُ[٥]

---

(١) أى ليس لهم حظ من تلك العلوم والفنون ، كما ليس للزمان حظ من الهرم ، فإن الزمان دائم الشباب .

(٢) انظر الـكلام على « هرمس » ابن النديم ٤٩٤ وابن أبى أصيبعة ١ : ١٦ — ١٧ والقفطى ٢٢٧ حيث ذكر هرمس الثانى والثالث . وأما هرمس الأول ، وهو إهرمس الهرامسة ، وهو إدريس عليه السلام فقد ذكره فى ٦ — ٧ . وراجع ما أسلفت فى حواشى الرسالة المصرية ص ٣٩ .

(٣) العرب تسمى بنى الأمة : بنى استها . وانظر ص ٢٧٦ س ١١ .

(٤) لأبى البرج القاسم بن حنبل ، فى الحماسة بشرح المرزوقى ١٦٥٩ .

(٥) للفرزدق فى ديوانه ٧١٤ .

بيت فى كِسرِه اعتلج محمد صلى الله عليه وسلم ودَرَج ، وفيه دبَّ و إلى السماء عَرَج ، ثمرة دوحةٍ زكت فى مُضَر منابتُها ، ونَما فى النَّضر بن كِنانة نابتُها ، ووشَجت إلى إبراهيم صلى الله عليه وسلم أعراقُها ، وتَوافَّت من هاشم أغصانُها وأوراقها ، سمت صُعُدا بين السَّنا والسناء ، أصلها ثابتٌ وفرعها فى السماء ، صلواتُ الله عليه وعلى آله الطيِّبين الطاهرين ما فاهت الأفواه ، ووُرِدت المياه ، واستَغفرَ اللهَ كلُّ منيب أوّاه ، وعلى صحبه وعِترته نجوم الهُدى ، ورُجوم العِدى ، الرُّكَّع السُّجود ، القُوّام الهُجود ، أصحاب الغُرَر والتَّحجيل[1] ، وحملة التنزيل ، والعَلَمَة بالتأويل ، ﴿ ذلك مَثَلهم فى التَّوراة ومَثَلُهم فى الإنجيل ﴾ . إليكَ فقد بيَّن الصُّبحُ لذى عينين ، وطبَّقَ بين الخافقين . فلا تفغَرْ أيها الأثيم الأفَّاك ، بقديم
٤٣/أ بعدها فاك ، ولئن أوجعناك ، فبِما قدَّمت يداك . أجلْ ، صديق المرء عقلُه ، وعدوُّه جهله ، ولا يحزنْك دمٌ هَراقَه أهلُه .

غَمزتَ قناتى غمزةً فوجدتَها من العِزِّ يأبى عودُها أن يكسَّرا
فإنْ تغضَبوا من قسمة الله بيننا فلَلَّـهُ إذْ لم يُرضِكم كان أبصرا

كملت الرسالة والحمد لله رب العالمين

---

(١) فى الحديث « أمتى الغر المحجلون » ، أى بيض مواضع الوضوء من الأيدى والوجه والأقدام . وكتب إزاء الكلمة فى الجانب : « والمحجول » . وانظر ماسبق فى ص ٢٦٠ س ٣ لتضمه إلى ماسبق فى ٢٣٧ من دلائل تعزز نسبة الرسالة مشفوعا بما نبهت عليه فى الحاشية رقم (٥) من ص ٢٩٥ .

رسالة ثالثة

في الرد على ابن غرسية

لأبي جعفر أحمد بن الدودين البلنسي

رسالة ثالثة فى الرد على ابن غرسية

أجابه بها الأديب أبو جعفر أحمد بن الدودين البلنسى[١]

اخسأ أيها الجهول المارق ، والمرذول المنافق ، أين أمك ، ثكلتك أمك . أو ما علمتَ أنك سُحبت من عِقالك لعُقّالك[٢] ، وقدّمتَ أوّلَ قدمك ، لسفكِ دمك ، و بسطتَ مكفوف كَفِّك ، لسلطان حتْفك ، وقلّمتَ شبا أقلامك ، لاصطلامك ، وحبّرتَ بحِبْرك ، لذهاب خُبْرك ، ومشّقت فى قرطاسك ، لشقّ راسك ، فما حقيقةُ جوابك ، على خَطَل خطابك ، إلاّ سَلبُك عن إهابك ، وصَلْبك على بابك ، ولو كان بالحضرة أقيال ، وحضَرَك رجال ؟ ! لـكنّك بين همَجٍ هامج ، ورَعاع مائج ، « مذبذبين بينَ ذلك لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء » . فأقسِم ببارئ النسم ، وناشر الأمم مِن رفات الرِّمم ، لا صيِّرنّ عليك أيها السَّخيف ، المصنوف ، على نذالتك ، وفسالتك ، عَرضَ البَساط[٣] ، أضيَقَ من سَمِّ الخِياط ، ولأخلّدنّك سمراً غابرا[٤] ، ومثلا سائرا ، أو تشوِّه محيّاك ، وتُحلق [سَبَتَاتك[٥]] من قَفاك ، وتحتزم بزُنّارك ، وتلحق بأديارك . مالك ، ومَقْرأ لك[٦] ، [و] أسرتك الأرذلين ، وعِترتك الأنزَلين[٧] ، الصُّهب السِّبال ، مَن وُلَّغ الدم وشُرَّب

---

(١) انظر ما سبق فى التقديم ص ٢٣٨ . وفى الذخيرة : « فرد عليه أبو جعفر برقعة قال فيها » .

(٢) عقل البعير : ثنى وظيفه مع ذراعه وشدهما جيماً فى وسط الذراع ، وذلك الحبل هو العقال . والعقال ، كرمان : ظلع فى قوائم الدابة . فى الذخيرة : « إنما سحبت » .

(٣) . البساط ، بالفتح : الأرض الواسعة .

(٤) الغابر : الباقى .

(٥) التكملة من الذخيرة . وفى أصلها : « سبالك » . والسبت : الحلق .

(٦) القر : دق العنق .

(٧) فى الذخيرة : « الأنذلين » .

الأبوال ، أكَلة الجيف ، وحَلَة الكُنُف[١] ، « الوُضُح ، الرُّجُح » ، رُجُح الأكفال ، وُضُح كذوات الأحجال ، فلله أبوك لقد أجدتَ فى قومك الوَصْف ، ٤٣ ب
و بسطتَ لنا منهم النِّصف ، وأنا الآن أنصِف ، وقَفَارَكَ أقصِف . « عُلُم ، حلم » عُلُم بالتَّداوى من القَرَم ، ومَنافع القلم ، حُلُم عن كلّ مجاوزِ الحُلُم . « جُمُح طُمُح » الآنَ صدقتَ ، وغلطَك استدركت ، جُمُح فى الإحجام ، عن الإقدام ، طلبَ الفرار ، يوم الانتصار و إدراك الثار ، طُمُح إلى كلِّ رَمُوح طَموح ، يَطُول الشِّبْر ، و يُطِيل الشِّبْر ، معَلَّف ، مغَلَّف[٢] ، ذى خَلْقٍ مرصوص ، وهامةٍ كالفصوص[٣] . إيَّاك وأُمابَك ، أن يمحوَ كتابَك .

« حماة السروح نماة الصُّروح[٤] » ، النَّصَفَة ، يا كُشَاجم لا الأنفة[٥] ، غُضَّ قليلاً من طرفك ، وأمسِكْ عنانَ طِرفك ، ولنتحاكمْ فى ذلك إلى ظَرْفك ، هل يصحُّ فى التحصيل ، أو يجوز فى العقول ، أن يحمى قومُك سروحَ شائهم ، وقد أباحوا فُروجَ نسائهم ، أليس هذا عينَ المحال ، ومغالطةَ الجُهَّال . فهلَّا توهَّمت يا فتَى الجوابَ ، قبل الخطاب ، وأبصرت الوَرطة ، قبل السَّقطة .

وأما ما قعقعت به ووعوعت ، من صواحب الرايات ، فهنّ وأبيك بعضُ بنات ربَّة الإياة[٦] ، إماؤنا المسبيات المتَهنات ، ملَّكْتَناهنّ ظُبا البيض المندية ، وشَبَا السُّمر الرُّدينيّة ، فما عُجْنا بهنّ عما عوَّدتموهنّ من البِغاء ، للاسترضاء ،

---

(١) حلة : جمع حال . انظر ما سبق فى ص ٢٤٦ . والكنف : جمع كنيف ، وهو كل ما ستر من بناء أو حظيرة .

(٢) المعلف : المسمن . وهذه الكلمة ليست فى الأصل ، وبدلها فى الذخيرة « معلب » . والمغلف : ذو الغلاف ، والمراد به الغلفة ، وهى الجلدة تقطع عند الختان . وبدله فى الذخيرة : « ملقب » .

(٣) الفصوص من الفرس : مفاصل الركبتين والأرساغ .

(٤) فى الأصل : « بناة الصروح » ووجهه من الذخيرة مطابق لما مر فى ص ٢٤٧ .

(٥) انظر لكشاجم ما سبق فى ص ٢٧١

(٦) انظر ما مضى فى ص ٢٤٩ .

فيكثر معشرَ العُربان ، من ولد سارتكم الأُموانُ والعُبدان(١) ؛ وفيك من ذلك أصحُّ دليلٍ وأوضح برهان . فهلّا يا فتى ثقِفت ، ودونَ هذا الفصل وَقفت .

« بُصُر صُبُر » ، بُصر بتركيب عَصَب أنابيبِ الشَّرر ، ومنافعها بزعمهم الجِسم والبصر ا صُبُر على إيغال ، الغَرَاميل الطّوال .

« سُرُج ، وهُج » سُرج المَضاجع ، لا يَطفأ وَهَجانُ ذلك السُّعُر ، إلا بدافق ماء الــكَمَر .

« مُلْس الأُدُم ، ما حا كُوا قَطُّ بُرودا ، ولا لا كُوا عُرودا » . هذا وأبيك من التّعريض الرّقيق فى مقالك ، وآلك ، وذلك أنّك وصفتَهم بامّلاس الجلود ، ٤٤/أ وقفّيت بنَفْى لَوك العُرود ، و إيجابُ ذلك ، لا يليق إلّا ببالك(٢) . فهذا لعمرك من بديع التّحقيق ، فافخرْ فهاتان صفتان سُلّمتا لــكم . وأما لَوْكُ العُرود فإن ذلك أوضح(٣) من السِّراج الوهّاج ، فى اللّيل الدّاج(٤) . قد تُحُدِّث(٥) أنّ وِلدانَــكم عَطِّلُوا فى وقتٍ سُوقَ نسائكم ، فنُمِى ذلك إلى مليكــكم(٦) ، فحَــكَمَ ، أَكرِمْ به من حَــكَمٍ(٧) ، أن يبيح النِّسوان ، من أنفسهنّ ما أباحَ الوِلْدان ، وامتثَلَن ذلك فاتّسقت الحالان ونفَقَت السُّوقان ، وما سُمِــع فى الأزمان ، بأغربَ من هذا الشّأن ، فاشمَخْ بأنفك ، والخر بنِصْفك(٨) .

(١) الإموان بكسر الهمزة وضمها : جمع أمة ، وهى المرأة المملوكة .
(٢) فى الأصل : « ألا يليق إلا ببالك » .
(٣) هذا ما فى الذخيرة . وفى الأصل : « فأوضح » .
(٤) الداجى : المظلم .
(٥) الذخيرة : « قال المحدث » .
(٦) نمى : رفع وبلغ . يقال نموت الحديث أنموه وأنميه . وفى الأصل : « فنهى » تحريف ، صوابه من الذخيرة . وإنما يقال منه أنهيت إليه الخبر فانتهى وتناهى .
(٧) الذخيرة : « من محكم » .
(٨) النصف : الإنصاف . الذخيرة : « بيضك » .

وأما حَوْكُكم البرود ، فناهيك من الغِفارة الإفرَنجية[1] إلى الديباجة الروميّة ، والنِّسبتان ، بذلك تشهدان .

وأمّا فخرك برَبَّة الإياة فياليتَها حين ولدتكم ثَكِلَتكم ، فلقد سربلتموها عاراً مجدَّدا ، وعصَبتم بها شَناراً مخلَّدا ، حين خِمْتم عن الكفاح ، حذَرَ الصَّوارمِ والرِّماح ، فأسلمتم لعُداتها ، مِن بناتها ، كلَّ طَفْلة رَدَاح[2] ، جائلة الوِشاح ، ذاتِ ثغرٍ كالأقاح ، وغُرّة كالصباح ، أعجلْن عن لَوث أُزُرهن ، واعتجار خُمُرهنّ ، فعوِّضن من الإدلال بالإذلال ، ومن الحِجَال بالرجال .

خَلفَ العَضاريط لا يُوقَيْنَ فاحشةً مستمسكاتٍ بأقتاب وأكوارِ[3]

وعيّرتَ العربَ بالاغتذاء بالحيات ، لتَغذّيكم بالدّماء والميْتات ، فيمتاز الضدّ ، ويقع الحدّ ، بين من تناهت جُرأته ، وماتت همّتُه . على أن لا افتخارَ فى مشربٍ ولا مطعم ، لعرب ولا لعجمَ . وكذلك ما عيّرتَهم به من حرق الجِلّة والبعر ، غزُوا بإضرام النِّيران ، لإكرام الضِّيفان ، وإطعام المقرور الجوعان ، إلى أنْ عَدِموا الأرطَى والغضَى ، وموجودَ السَّمُر ، وسائرَ أنواع الشَّجر ، فلجؤوا إلى الجِلّة والبعَر .

وكذلك وصفُك قومَك بأن « ليسوا حفرةَ أُكَر ، ولا حَفَرة عَكَر » ، اللهُ أجلّ الأُكَر أن يحفِروها ، والعكَرَ أن يحفِزوها ، لكنّهم حفَرَة جِحشان ، ٤٤ ب
وحفَرة كهوفٍ وغيران ، اتخذوها مخبأً عن قبائل العُربان[4] ، وملجأً من وقع

---

(١) الغفارة : مثل القلنسوة يلقيها الرجل على رأسه فتبلغ الدرع ثم يلبس البيضة فوقها ، وربما جعلت من ديباج وخز أسفل البيضة . والإفرنجة ، قال ياقوت : « هم فى شمالى الأندلس نحو الشرق إلى رومية » . وانظر الفهرست ٣٠ ، ٣٤ ومروج الذهب ٢ : ٣٤ والقاموس .

(٢) الطفلة ، بالفتح : المرأة الرخصة الناعمة . والرداح : العجزاء الثقيلة الأوراك التامة الخلق .

(٣) للنابغة الذبيانى فى ديوانه ٤٢ . العضاريط : الأتباع والأجراء .

(٤) الذخيرة : « عن حبائل » .

الصّوارم والمُرّان ، فعل الخِزّان واليرابيع والجِرذان(١) .

وأمّا فخرك بعلمهم الشرائع ، فمن أبدع البدائع ، « استنّت الفِصالُ حتّى القَرعى(٢) » ، وجهلُهم بذلك أوضح ، من أن يُشرَح ، وأبين ، من أن يبيَّن ، لكن أنكتُ من ذلك نُكتة ، وأنبِذُ منه نُبذة ، تصفعهم صفعا ، [و] تردُّ صُهب أُدُمِهم سُفعا . وأنّى يكون ذلك ، هُبِلتَ لآلِك ، ولم يأخذوه عن نبيّ ، ولا تَلقَوه عن حَوارِيّ ، ولم يزالوا يتعاورون أصلَهم الإنجيلَ بالزيادة والنُّقصان ، إلى أن أصاروه فى حَيِّز الهذَيان . وحسبك بهم جهلاً أنّهم يعتقدون إلها نبيَّهم ، يسمُّونه بالربِّ المعبود ، وصيّروه بعدُ مصلوبَ اليهود ، فأعجِبْ بجهلٍ يجمع بين هذين الطّرفين ، وأعجَبُ من ذلك أنّهم يُجمِعون(٣) أنّ عيسى ينزِلُ إلى الأرض ، لحسابِ الخلائقِ يومَ العرض ، فما ظنُّك يفعل باليهوديّة(٤) على ما قدّموه على زَعيمهم من صلبه ، فهل يصحُّ بهذه الآراء الضعيفة ، والعقول السخيفة ، دين ، أو يثبتُ لهم معه يقين . ولولا أنى أجلُّ قلمى ، وأنزّه كلمى ، عن سخافاتهم ، فى ديانانهم ، وبِرسامهم ، فى أحكامهم ، لأوردت من ذلك ما لا يستجيزه إلّا مثلُ قومِكَ العَجَم ، عقولِ البُوم والرَّخَم .

وأمّا علم الطبائع فسلِّمْ بعضَها لهم ، لما تقدّم فى أثناء الرسالة ، من عِلمهم بخواصّ تلك الآلة ، والصِّدقُ أزيَنُ ما به نُطِق ، وإليه سُبِق .

وماذكرته من أبي رِغال ، فذلك جِدّ محتال ، إنّه غدا(٥) علماً منه باستئصالهم

---

(١) الخزان : جمع خزر بضم ففتح ، وهو ولد الأرنب .

(٢) استنت : جرت فى نشاط . والقرعى : التى أصابها القرع ، وهو بثر . يضرب مثلا للرجل يدخل نفسه فى قوم ليس منهم .

(٣) الذخيرة : « يجمعون » .

(٤) فى الأصل : « بفعل اليهودية » ، صوابه من الذخيرة .

(٥) بدله فى الذخيرة : « بأدواء عداه » .

عن اختيارهم إلى بَوَارهم ، فعجل الله بأرواحهم إلى نارهم .

وقضيَّة أبي غُبْشان التي عظَّمت ، ليس الأمر كما توهَّمت ، لأن الـكعبة بيت الله لا شريكَ له وضَعَه تعالى للعباد ، وسَوَّى بين العاكف فيه والباد ، وأبو غُبْشان

٤٥ / أ إنما باع خِدمتَه في البيت ، وهَٰهنا قضية سفيهنا الغوىّ[١] ، أين تقع في قضية إمامكم يَهُوذا الحواريّ ، إذ باع نَبيَّه روح القدُس ، من أعوانه بالأفلُس[٢] ، فكذَّب الله ظنَّه ، وأنجى نبيَّه ، فدونك ضعْ قضية سفيهنا في كِفَّة وفي أخرى قضيةَ إمامك ، ورجِّح بينهما بفضِّ ختامك .

وأمَّا وصفُك قومَك أنَّهم « مجُد ، نُجُد ، شمخ ، بُذخ ، عرق ، غرق » ، فهيهات ذلك منهم ، تلك صفاتُ قومِنا العربِ ذوي الأنساب ، والأحساب ، والعلوم ، والحلوم ، أُولي اللَّسَن ، والبيان واللَّحَن[٣] ، والإسهاب ، في الصواب ، والحكمةِ وفصل الخطاب ، فُرسانِ الإعراب ، وأرباب القِباب ، ومُعْمِلي الصوارم والحِراب ، أنديتهم عراصُ المنيَّة[٤] ، وأرديتهم بيض المشرفيَّة ، ولَبوسهم مُضاعَفَة الماذية[٥] .

سَهِكين من صدإ الحـديد كأنَّهم تحت السَّنَوَّر جِنَّـة البَقَّار[٦]

مجالسهم السُّروج ، وريحانهم الوشيج ، ومُوسيقاهم رَنَّات الرُّدينيَّات ،

---

(١) الذخيرة : « وصمة سفيهنا العربي » .

(٢) كان لقاء ثلاثين من الفضة . متى ٢٦ : ١٥ . وقد ندم بعد ذلك ورد الثلاثين ثم مضى وخنق نفسه ٢٧ : ٣ — ٥ .

(٣) اللحن ، بالتحريك : الفطنة .

(٤) عراص : جمع عرصة ، وهي كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء .

(٥) الماذية : السهلة اللينة . والمضاعفة : الدروع التي نسجت حلقتين حلقتين .

(٦) للنابغة في ديوانه ٣٥ والحيوان (٦ : ١٨٩ ، ٤٩٠) . البقار : موضع كثير الجن .

وطُوبيقام السُّرَيجيات(١) ، لم تكن قادتُهم النِّساء ، ولا رادَتُهم فى آجالهم النَّساء(٢) .

يَستعذِبون منايام كأنهمُ　　لا ييأسون من الدنيا إذا قُتِلوا(٣)

عُنُوا بمدِّ أطناب الأبنية ، عزّةً وأنفة عَن تشييد الأبنية ، مُخالِى الصَّحاصح والبِيد ، فِعلَ الأساود والأسود ، قُصورهم المناهل ، ومَعاقلهم الذَّوابل ، صُبُرٌ ، وُقُر ، إذا ثارَ الغبار ، واسودَّ النهار ، وحسُنَ الفِرار ، وذُهِلت الأذهان ، وأبهم البيان(٤) ، وتلجلج اللِّسان ، وتلاطمت السيوف ، وحَمِيت الحتوف ، وقلَصَت الشِّفاه ، وعصَبَ الرِّيقُ [بالأفواه(٥)] ، وتعانَقَ الشُّجعان ، وتشاجر المُرّان ، وبرِم الحمام ، وفُلَّ الحسام ، وحَمِيَ الوطيس ، والتقت الأقدام والرءوس ، فلا ترى إلَّا حزَّ الغلاصم ، وشَيْمَ الصَّماصم فى الجماجم(٦) فهنالك تلقاهم ، لا دَهِمكَ لِقاهُم ، أقيالَ الأقيال ، شَمِرة الأذيال ، أُسود الأغيال ، حُماة الأشبال ، لا مُلْس أدُمٍ ولا جررة الأذيال ، وهكذا فليكن أقيالُ الرجال ، يا مسلوب الحجال(٧) . ٤٥ ب

كُتِب القتلُ والقِتال علينا　　وعلى الغانياتِ جرُّ الذُّيول(٨)

وما كانِ أغناكَ يا كُشاجم ، عن كشف عَورات آلِكَ الأعاجم ، لكن ضَعْفُ نظَرِكَ ، حداكَ إلى هَذَرِك ، وسوء أدبك ، وافَى بك على عطَبك ، نسأل الله سِتراً يمتدّ ، ووجهاً لا يسودّ .

---

(١) الطوبيق ، سبقت فى ٢٥١ ، ٢٧٦ بلفظ « بوطيق » . والسريجيات : سيوف منسوبة إلى قين معروف .

(٢) رادة : جمع رائد . والنساء ، بالفتح : تأخير أداء الدين إلى أجل .

(٣) لأبى تمام من قصيدة يمدح فيها المعتصم . ديوانه ٢٢٩ .

(٤) الذخيرة : « وأبهم » .　　(٥) التكملة من الذخيرة .

(٦) شام السيف : أغمده . والصماصم : جمع صمصام ، وهو السيف القاطع .

(٧) الحجال : جمع حجلة ، وهى بيت كالقبة يستر بالثياب يكون له أزرار كبار . على أنه مهتوك الستر .

(٨) لعمر بن أبى ربيعة فى عيون الأخبار (٢ : ٤٩) والأغانى (٨ : ١٣٣) وزهر الآداب (٣ : ٧٦) .

رسالة رابعة

في الرد على ابن غرسية

لأبي الطيب بن منّ الله القروي

وعنوانها كما في كتاب البلوى وكشف الظنون

حديقة البلاغة، ودوحة البراعة، المورقة أفنانها، المثمرة أغصانها، بذكر المآثر العربية، ونشر المفاخر الإسلامية، والرد على ابن غرسية فيما ادعاه للأمم الأعجمية.

ومن ردّ أيضاً عليه ، وأجاد ما أراد (أبو الطيب بن منّ الله القروى) برسالة طويلة أثبتُّ منها بعض الفصول ، تخفيفاً للتثقيل ، قال فيها[1] ، وافتتحها بهذه الأبيات :

وذِى خطل فى القول يحسَب أنه ... مُصيبٌ فما يُلمِمْ به فهو قائلُه[2]
نَهَدتُ له حتّى ثنيتُ عِنـــانَه ... عن الجهل واستولَتْ عليه مَعاقلُه
تعالَ فخبِّرنى عـــلامَ تشدّدت ... قُوَى الميرِ حتّى أحرزتْكَ مجاهلُه

أيُّها الفاخر بزَعمه ، بل الفاجر برُغْمه ، ما هذه البَسالة ، فى الفسالة ، ما هذه الجسارة ، على الخسارة ، لقد تجرأْت ، ومن المِلَّة تبرأت ، أبالعرب تمرّست ، وفى مجدها تفرّست ، وعلى شرَفها تمطّيت ، و إلى سُودَدها تخطّيت .

(وفى فصل) : فأخبِرْنى عنكَ أما كانت للعرب يدٌ تشكرها ، أو مِنّة تذكرها أمَا جبرَتْ نقِيصتَك ، أما رفعت خسيستَك ، أما استنهضَتكَ من وهدتك ، أما أيقظتْكَ من [غفلتك و[3]] رقدتك ، ألم ترُبِّك فيها وليداً[4] ، ألم تتخِذك لها تليداً[5] . ألم تُغنَ بتخريجك[6] ، وتدريجك ، أما أنطقَتْك بعد العجمة ،

---

(١) إلى هنا ينتهى تطابق ما فى الأصل والذخيرة ، وما بعده إلى نهاية الأبيات الثلاثة ليس فى الذخيرة وانفردت به نسخة الأصل . أما البلوى فى ألف باء فقال : « أما أحدهم فافتتح الرد عليه بقوله :

وذى خطل فى القول يحسب أنه ... مصيب فما يهتف به فهو قائله »

ولم يبين ذلك الأحد . وانظر الكلام على هذه الرسالة وعنوانها ما سبق فى ص ٢٣٩ .

(٢) البيت لزهير فى ديوانه ١٣٩ . والبيتان بعده لم يردا فى الديوان .

(٣) التكملة من الذخيرة .

(٤) فى الأصل : « ألم تربك فينا وليدا » . تحريف سببه الحرص على نص الآية .

(٥) فى الأصل : «ألم تتخذك» . والتليد : الذى ولد يبلاد العجم وحمل فتياً يبلاد العرب .

(٦) فى الأصل : « ألم تغن » ، وفى الذخيرة : « ألم تكن » ، كلاهما محرف .

أما أسلقتْك بعد اللُّـكْنة[١] ، حتّى إذا اشتد كاهلك ، وعَلِم جاهلُك ، وقَوِىَ ساعدُك ، ورَقِىَ صاعدُك ، كفرت نعمتَها لديك ، ونثرت عصمتَها من يديك ، وأخذت تطاولُها بأرسانها ، وتقاولُها بلسانها ، وتُناضلها بسهامها ، وتُهاطِلها برهامها[٢] أحين فـكّتْ أسرَكَ من أقذورة الغَلَف[٣] ، وأخذت بضَبْعك[٤] من أهوية النلف ، وشدّت ظهرَكَ للمِتان[٥] . واعتمدت طُهرك بالختان[٦] ، ناهضتَها بحُسامها ، ٤٦/أ
وجاهَضتَها بكلامها ، ورميتَها [بسهامها[٧]] ، عن قوسٍ هى نبعتُها ، ومن هضبةٍ هى قلعتُها .

أعلّمه الرِّمايةَ كلَّ يوم فلما اشتدَّ ساعدُه رمانى[٨]

([وفى فصل[٧]]) : وهاتِ أرِنا مفاخرَك ، نُرِك مَساخرَك . أنت صاحب الشُّهب ، الصُّهب ، والسَّدَة شهباء ، والجَهَام صهباء . كذلك أنتم لا خَيْرَ ولا مَير ، ولا عَمرو ولا عُمير ، ليس للسَّخاء بالرُّومية اسم ، و[لا[٧]] للوَفاء فى العَجميّة رسم . أين أنت عن السُّمر ، القمر ، البِيض غُرراً وصِفاحا ، السُّود طُرراً وأوضاحا ، الدُّعْج عيوناً ورِماحا ، البُلْج ٍوجوهاً وسَماحا ، قِمَمٌ فى العمائم ، وهِمَمٌ فى الغمائم ، سَعَروا عليكم نارَ الحرب ، بتلك الأينُق الجُرْب ، فـكسَروا كياسرتكم ، وقصَروا

(١) السلق : رفع الصوت ، وبلاغة الخطيب . والمعروف « سلق » وأما « أسلق » فما لم يرد فى المعاجم المتداولة .

(٢) المهاطلة : مفاعلة من الهطل ، وهو تتابع المطر وسيلانه . الذخيرة : « تطأطلها » ، تحريف . والرهام : جمع رهمة ، وهى المطرة أشد وقعا من الديمة وأسرع ذهابا

(٣) الغلف : مصدر الأغلف ، وهو الذى لم تقطع غلفته بالختان . فى الذخيرة : « القلف » بالقاف ، وهما سيان .

(٤) الذخيرة : « بضبعيك » .

(٥) المتان : مصدر ماتنه ، أى باعده فى الغاية . والمتان أيضاً : جمع متن ، وهو الظهر .

(٦) فى الأصل : « ظهرك » ، صوابه فى الذخيرة .

(٧) التكملة من الذخيرة .

(٨) لمعن بن أوس فى البيان (٣ : ٢٣٢) واللسان (سدد) . وقد اتفقت النسختان هنا على رواية : « اشتد » ، وهى رواية مضعفة ، والأصح « فلما استد » بالسين المهملة .

قياصرتكم[١] . وأخمدوا نارَ صولتكم ، ومَحَوا آثارَ دولتكم[٢] ، وطهَّروا الأرضَ المقدسة من أنجاسكم ، والمسجدَ الأقصى من أرجاسكم ، الذين يَنْجُون ولا يستنجون ، ويتجنَّبون ولا يتطيَّبون[٣] ، رُعاة الخنازير ، وأَكَلة السَّنانير ، أمّا رجالكم فقُلْفٌ ، غُلْف ، وأما نساؤكم فقُذْرٌ ، بُظْر[٤] ، لا يعرفون الخِفاضِ ولا الخِتانِ ، ولا يألفون السِّنانَ ولا العِنانِ ، ويحك بما آثرت ، وبمن كاثرت ، أما استحيت ، بما انتحيت ، هلِ كانت العربُ إلاَّ كَنْز ، عِزٍّ ، وذُخر ، فَخْر ، وذخيرةٌ[٥] ذخرها الله إلى الوقت المحتوم ، وأسكنها أرضاً يرغب عنها أولو البِطنة ، ويرغب فيها ذَوُو الفطنة[٦] ، حفِظ فيها أحسابها ، وطهَّر بها أنسابَها[٧] ، واختارها ليختار منها صفيَّه[٨] ، وميَّزَها ليميز منها حَفِيَّه ، ثم اختصَّها بالأحلام الزكية ، والأفهام الذكيّة ، والأنفُس الأبيّة ، إن جاورتَهم نَصَرُوك ، وإن حاورتَهم قَصَروك ، وإنْ فاضلتَهم فَضَلوك ، وإن ناضلتهم نَضَلوك ، وإن طاولتَهم طالُوك ، وإن استنلتَهم أنالوك ، يمشى أحدهم إلى الموت ثابتةً وطأتُه ، فسيحةً خطوتُه ، شديدةً سطوتُه ، جريئاً على الكُماة جَنانُه ، دريًّا بتصريف القناةِ بنانُه[٩] ، ٤٦ ب
بصيراً بمُهَج الدّارعين سنانُه ، وأنتم كما وصفت مُلْس ، لُمْس ، لا تَغيرون ولا تغارون

---

(١) فى الذخيرة : « كياسركم » و « قياصركم » : وجمع كسرى على « كياسر » أو « كياسرة » غير معروف ، وإنما يجمع على « أكاسر » و « أكاسرة » و « كساسرة » و « كسور » . وأما « قيصر » فجمعه على « قياصر » و « قياصرة » قياس صحيح .

(٢) هذا الوجه الأوثق من الذخيرة . وفى الأصل : « صولتهم » و « دولتهم » .

(٣) التجنب : أن يصير فى حال جنابة ، يقال أجنب وتجنب ، وجنب ككرم وعلم . فى الذخيرة : « ويجنبون ولا يتطهرون » .

(٤) البظراء : الطويلة البظر ، وهو ما تقطعه الخاتنة .

(٥) الذخيرة : « وخبيئة » .

(٦) فى النسختين : « ذو الفطنة » .

(٧) هذا الصواب من الذخيرة . وفى الأصل : « وطهرها أدناسها » ، تحريف .

(٨) هذا الصواب من الذخيرة . وفى الأصل : « ليمتاز بها صفيه » .

(٩) دريا ، بدلها فى الذخيرة : « لقنا » . وفى قول مالك بن الريب :

وكنت إذا ما الخيل شمصها القنا لبيقا بتصريف القناة بنانيا

ولا تمنعون ولا تمتنعون ، قُلوبكم قَوَاء ، وأفئدتكم هَواء ، وعقولكم سواء ، قد لانت جلودُكم ، ونَهَدت نهودُكم ، واحمرّت خدودكم ، تحلِقون اللُّحَى والشَّوارب[١] ، وتتهادَوْنَ القُبَل فى المَشارب[٢] . والعرب تذمّ بالدَّعة ، وتَهجُو بالسِّمَة ، وتفخَر بالجلادة ، وتتبجّح بالصَّلادة ، فإنْ فاخرتَها فبغير الطعام والشراب ، ولكنْ بالطِّعان والضراب ، وما عليك من لَوك المُرود ، أخِفتَ إعجازَها ، وخَشِيت إعوازَها ، أبِكَ حاجة إليها ، ألك حرصٌ عليها ، لشدَّ ما أدركتك الحميَّة فيها ، وحرّكتك العصبية لها[٣] ، هذه نادرة لم تَقصِد قصدها . ومن الآيات ، ذكر صواحب الرايات ، والمباضَعة ، عندكم كالمراضعة ، مافى السُّكْر ، عندكم نُكْر ، تُبيحون وُلوج ، العلوج ، على بدور ، الخدور ، الزِّنا ، عندكم سَنا ، والفِجار ، بينكم فَخار ، فكيف أنكرتَ ، ما ذكرت ، وأنت على سَنَن ، تلك السُّنن ، الحال قائمة ، والقِصَّة دائمة ، « وأوّل راضٍ سيرةً من يسيرها[٤] » .

([وفى[٥]] فصل) : فساروا مُعرِقين ، وعَلَوا مشرِّقين ، لا تردُّهم رادّه ، ولا تصدّهم صادّة ، حتى أهلكوا ساسان وكاسان ، وملكوا خُراسان وماسان ، وسلكوا بالقَهر ، ما وراء النهر ، فأدخلوكم الدُّروب ، وألزموكم الكُروب ، بجريدة خَيل ، وطَريدة ويل ، وأمضَوْا فيكم العزائم ، وأرضَوْا منكم المزائم ، حتّى أجحروكم رومِيَة[٦] الدَّفرا ، والقُسطنطينيّة البخرا ، ونازلوكم منها على ذراعَين ، وصرعوكم بين المِصراعَين .

---

(١) اللحى : جمع لحية . وهذا ما فى الذخيرة . وفى الأصل : « اللحاء » ، وهذا إنما هو جمع لحى بالفتح ، وهو ما ينبت عليه العارض .

(٢) المشارب : جمع مشرب ، وهو الموضع الذى يشرب منه ، عنى بها الأفواه .

(٣) الذخيرة : « أدركت » و « حركت » .

(٤) عجز بيت لخالد بن زهير الهذلى . ديوان الهذليين (١ : ١٥٧) . وصدره :

* فلا تجزعن من سنة أنت سرتها *

(٥) التكملة من الذخيرة .

(٦) هذا ما فى الذخيرة . وفى الأصل : « رومة » . ورومة : أرض بالمدينة فيها بئر رومة التى ابتاعها عثمان وتصدق بها .

ألم تبلغك ضربةُ يزيدَ بعموده[(١)]، وخبر خالد بن يزيد فى أخدوده ؟
٤٧/١ والرّايةُ المعلمة ، والآيةُ المحكمة ، مسجد مَسْلَمة[(٢)] .

ثم كم قائظة ، غائظة ، وصائفة ، عليكم طائفة . ثم عطَفوا مغرِّبين ، وللأرض مخرِّبين ، فما تركوا من الأعاجم عاجماً ، ولا ناجماً ، ولا بقَّوا من البرابر غابراً ، ولا عابرا ، وساروا قُدُماً يذبحون البرَّ ذبحا ، ويَسبَحون البحر سبحا ، حتّى طرقكم طارقُهم فى هذا الطَّرَف ، ورشقَكم راشقُهم فى هذا الهدف ، واقتحموا عليكم هذه البلاد فأوطئوها ، وكأنما رموها بالحجارة فما أخطؤوها ، فملكوا أرضكم بساحتَيها ، وأحاطوا بها من ناحيتيها .

وضمُّوا جناحَيكم إلى القلبِ ضمّةً   تموت الخوافى تحتها والقوادمُ[(٣)]

فما تعرُّضك لقومٍ سلكوا بلادَكم ، واستعبدوا أولادَكم . ثم إنّهم حين قَدَروا، غفَروا ، ووضعوا الإتاوة على جماجم ، الأعاجم ، والرسوم فى براجم ، السّلاجم[(٤)] فلا يحضُرون العَشّار ، إلا بالعِشار ، ولا يشهدون الأسواق ، إلا بالأطواق ، فإن

(١) كان يزيد بن معاوية قد حاصر القسطنطينية وهو ولى عهد وذلك فى سنة ٤٩ أو ٥٠ وأبلى بلاء حسنا فى إغارته . ولعل ذكر « الضربة بالعمود » إشارة إلى حادثة تاريخية معينة فى تلك الحرب .

(٢) مسلمة بن عبد الملك بن مروان بنى مسجد القسطنطينية فى أيام أخيه الوليد . وقد أطلعنى الأخ الثقة الدكتور جمال الدين الشيال على نص هام لابن واصل فى (مفرج الكروب) الذى يقوم بتحقيقه ونشره . جاء فى الورقة ٤٠٢ من مخطوطة باريس رقم ١٧٠٢ : « وذكر أن سبب بناية هذا الجامع المذكور ، فى كتاب تذكرة ابن حدون ، أنه بنى فى سنة ست وتسعين للهجرة ، ووقع الصلح مع الروم على أن يبنى بالقسطنطينية جامع فبنى ، فلما طالت مدته جعلوه حبسا . وقال غيره : إن الصلح تقرر بين المسلمين والروم على أن يبنى جامع على قدر جلد بعير ، وتقررت الأيمان على ذلك ، فلما استقر الحال عمد المسلمون إلى جلد بعير فقدوه سورا ومدوها ، فأنكر الروم ذلك ، فقالوا المسلمون : إن هذا جلد بعير ما زدنا عليه شيئاً وقع الاتفاق عليه ، فسكتوا . وقيل إن بانيه مسلمة بن عبد الملك بن مروان فى أيام أخيه الوليد » . وانظر الروضتين لأبى شامة ٢ : ١٦٠ والسلوك تحقيق الدكتور زيادة ١ : ٤٧٢ .

(٣) أصل البيت للمتنبى . ديوانه ٢ : ٢٧١ . وقد غيره ليتساوق به الكلام . وإنشاده : « ضممت جناحيهم على القلب ضمة » .

(٤) السلجم : الطويل من الرجال . فى الذخيرة : « العلاجم » .

دخلتم في الدّين قُطِعت أسناهكم[١] ، وإن خرجتم منه أُخِذت التى فيها شِفاهكم[٢] ، وكنتَ أنت من رذايا ، تلك السّبايا ، ومن عَبايا ، تلك الخبايا[٣] ، ومن خطايا ، تلك المطايا ، فلا تحرِدْ حَرْدَ المقهور ، ولا تضجَرْ ضَجَر المبهور ، ولا تحنق خَنَق الأسير [على القِدّ[٤]] ، ولا تغضب غضبَ المستَقِى على العِدّ[٥] ، ولا بأس عليك فقبلَكَ قَصَروا الأُمم ، وهَصَروا القيم ، وهم أبكار الزمان ، وأفكار الأوان ، لهم العرب العاربة ، ومنهم عادٌ العالية ، ذات[٦] الأحلام السّداد ، والأجسام الشِّداد ، وإرمَ ذاتِ العماد ، التى لم يُخلق مثلها فى البلاد ، ومنهم لقمانُ صاحب النسور ، وبانى القُصور ، ومنهم ثمودُ الذينَ جابوا الصَّخرَ بالواد ، ونحتوا البيوتَ فى الأطواد ، والعمالقة والفراعنةُ أنتم لها أكّارون ، وحَرَبة عكّارون ، والتبابعة ، والمرابعة[٧] ، وذو القرنين صاحب السّدّ ، وشمِر مخرِّب سَمرقند .

٤٧ ب قال الله تعالى : ﴿أهم خيرٌ أم قومُ تُبَّعٍ﴾ ، فضربهم مثلا فى الجلالة . ولهم الملوك من حمير والمقاول [من كهلان[٨]] .

كانوا سماء الورى قبل النبيِّ وهم ... لما أتى الحقُّ فيهم أنجمٌ زُهُرُ[٩]

سموا بملكهمُ قبلَ الهدى وسَموا ... مع الهدى فهمُ آوَوْا وهُمْ نَصَروا

---

(١) كناية عن الختان .

(٢) كناية عن الرءوس . فى الأصل : « أخذت الذى فيه » ، وفى الذخيرة : « أخذت التى فيه » ، كلاهما محرف عما أثبت .

(٣) عبايا : جمع عبيئة ، وهو الشىء المعبأ . وهـذا ما فى الذخيرة . وفى الأصل : « غبايا » . والخبايا : جمع خبيئة وهو ما خبئ . فى الأصل : « الحبايا » ، صوابه فى الذخيرة .

(٤) التكملة من الذخيرة . والقد : السير يشد به الأسير .

(٥) هذا الصواب من الذخيرة . وفى الأصل : « غضب الأسير على القد » . والعد ، بالكسر : الماء الدائم الذى له مادة لا انقطاع لها ، مثل ماء العين وماء البئر . وغضب المستقى عليه غاية فى الحمق .

(٦) الذخيرة : « ذوات » .

(٧) كذا وردت فى النسختين .

(٨) التكملة من الذخيرة . (٩) فى الأصل : « لما أتى الخلق » .

ولاة ، علاة ، سماة [حماة(١)] ، لهم العلوّ والعَلاء(٢) ، وفيهم العَباهلة والأذواء .

لهم الأنفُ في وجه الزّمان ومَجدُهم على صَفَحاتِ الدّهر ليس بمجلد(٣)

وسدُّوا على يأجوجَ لما تتابعت على العَين فى قُطر من العَين مبعد

ترى كلّ معطوف الوشاحين أخمصٍ على كلّ مخطوف الجناحين أجرد

فمن أمردٍ فى السلم فى حِلم أشيب ومن أشيبٍ فى الحرب فى جهل أمرد(٤)

بأيديهم البِيضُ الرّقاقُ كأنّها جداول ماء الموت قيل لها اجعدى

فأين حَصاتك من جبالهم ، أم أين سَفَاتك من نبالهم(٥) .

(وفى فصل) : وعلامَ جثثتَ أصلك من الأنباط ، وأزحت فَصْلك عن الأقباط(٦) ، ما كان ذنبهم إليك ، وجنايتهم عليك ، حتى أخرجتهم عن جملة الأعاجم ، ونفيتَهم عن جُملة أصحاب التراجم(٧) ، بسبب كريمتهم ، ومن أجل شريفتهم ، لتسبّ العربَ بولادةٍ من تعلّق بك ، وتشبّث بنسبك . أما علمتَ أنّ أحقَ أفعالِك ، وأخرق أقوالك ، سبُّك عدوّك بولادةِ امرأةٍ من أهلك ، أما هذا من جَهْلك .

---

(١) التكملة من الذخيرة .

(٢) الذخيرة : « العلاء والتلواء » .

(٣) هذا ما فى الذخيرة . وفى الأصل : « وهم على صفحات الدهر نفس تخلد » .

(٤) هذا ما فى الذخيرة . وفى الأصل : « فى ثوب أمرد » .

(٥) السفاة : واحدة السفى ، وهو الشوك . فى الأصل : « صفاتك » ، وفى الذخيرة « سماتك » ، والوجه ما أثبت .

٦) ناظر إلى قولهم : « لا أصل له ولا فصل » ، أى لا حسب له ولا لسان . انظر اللسان (أصل) . وفى الأصل : « نصلك » وفى الذخيرة : « فصلك » .

٧) التراجم : جمع ترجمان ، وكان لملوك الفرس والروم تراجم . فى الأصل : «البراجم» وما أثبت من الذخيرة .

ولما قال ابن فَضالة(١) فى ابن الزُّبير :

وما لى حين أقطع ذاتَ عِرقٍ إلى ابن الكاهليّة من مَعادِ(٢)

قال ابن الزُّبير : لو علم لى أمًّا هى شرٌّ من عَمّته لسبَّنى بها ونسبنى إليها ! أفلا ترى كيف غلب عايه ، وسقط(٣) شِعرُه فيه ؟! وحاشا لمن كنّا فى ذِكره بل لها الشَّرف الأرفع ، والسَّناء الأمتع(٤) . هذا على اتّصال نسبك بُرومان ، فإن كنت من ولد كَنعان فما أبعدَ دارك ، وأشحطَ مزارَك ، وأطمسَ آثارك . ٤٨/١ وأمّا الخيلُ فسامِح العربَ بركوبها ووثوبها ، وخلِّ بينهم و بين عيوبها ، فلا حظَّ لك ولا لأصحابك فيها . عليكم بالبراذين المحذَّفة(٥) ، والكوادن الموكَفة ، الخيلُ حَرثُ العربِ وحَصادُها ، وعُدَّتها وأرصادها ، و إنّك لتعلم أنَّ خيلَهم أشهر من ملوككم(٦) أسماء وألقابا ، وأظهر من نُسولكم أنسابا وأعقابا . قالوا : بنات أعوجَ ، وآل الوجيه ولاحق ، و بنات المسجدى، وآل ذى العُقّال ، وداحس والغبراء ، والجرادة والحَنْفاء(٧) ، والنَّعامة والشّمّاء ، وحافِل والشقراء ،[والزّعفران

---

(١) هو عبد الله بن فضالة بن شريك الأسدى . الأغانى (١٠ : ١٦٢) . على أن الشعر ينسب أيضاً إلى عبد الله بن الزبير (بفتح الزاى) يقوله فى عبد الله بن الزبير (بضم الزاى) . زهر الآداب (٢ : ١٦٤) وخزانة الأدب (٢ : ١٠٠) .

(٢) الكاهلية هى زهراء بنت خثراء ، من بنى كاهل بن أسد ، وهى أم خويلد بن أسد بن عبد العزى ، كما فى الخزانة والأغانى .

(٣) الذخيرة : « حتى سقط » .

(٤) يقال متع النهار متوعا : ارتفع وطال . الذخيرة « الأمنع » بالنون .

(٥) المحذفة : المقطوعة الأذناب . فى الأصل : « المجدفة » ، وفى الذخيرة : « المخرفة » والوجه ما أثبت . (٦) فى الأصل : « من أسماء ملوككم » .

(٧) الكلمة مبيض لها فى الأصل ، وهى فى الذخيرة : « الحيفاء » ، والوجه ما أثبت . انظر القاموس واللسان (حنف) والخيل لابن الكلبى ٩ وابن الأعرابى ٧٠ والمخصص (٦ : ١٩٦) ونهاية الأرب (١٠ : ٤١) والعمدة (٣ : ١٨٢) . وهى أخت داحس لأبيه .

والحَرُون ، ومَـكنون والبَطين ، والصريخ وقُرزُل ، والعصا[(١)]] . وأسماؤها كثيرة وألقابها شهيرة ، ولعلَّك أن تذكر لنا من خيل آبائك الأوّلين ، وأفراس أفراقك الأقدمين[(٢)] ، فرساً مشهورا ، وفارساً مذكورا . ولو كنت فاخرت العرب بنَصْب الدَّواليب ، وعطف الـكلاليب ، وغرس الأشجار ، فى الأحجار ، وقَطْع ما عظُم من العَيدان ، وعمل العَلَاة والسَّندان ، رضينا ، وسلّمنا . فأما نحر[(٣)] الليل ، بآذان الخيل ، وطئ الفلاة ، بأيدى اليَعمَلات ، وشنُّ الغارات ، وطلب الثارات ، فلا عليكَ أن تخلِّى بينهم و بين شصائصهم[(٤)] ، والأَّ تنازعهم فى خصائصهم ، فإنَّها إليهم أقرب ، وهم بها أدرب ، وهى بهم أليَق وأعلق ، [وهم إليها أسبق[(٥)]] يركبون إلى الحرب ، فى ثياب الشَّرب ، ويعتنقون القَوارس ، كما يعتنقون الأوانس .

(وفى فصل) : وما عِبت من قوم ينزلون البَرَاح ، ويشربون القَرَاح ، ويرفعون العِماد ، ويُعظِمون الرَّماد .

الموقدون بنجـــدٍ نار بادية لا يَحضُرون وفقدُ العزِّ فى الحضَرِ[(٦)]

إذا هَمَى القطر شبَّتها عبيـــدُهُمُ تحتَ الغمائم للسَّارين بالقُطُر

---

(١) التكملة من الذخيرة . على أنه ينقص الـكلام تتمة هذه السجعة ولعلها «وتحجل» . انظر اللسان والصحاح والقاموس (حجل) وديوان لبيد ٣٦ فينا ١٨٨١ . يقول لبيد :

تكاثر قرزل والجون فيها ، وتحجل والنعامة والخبال

وقرزل جاءت محرفة فى أصلها : « قرن » ، والوجه ما أثبت . انظر الخيل لابن الـكلبى ٢٧ وابن الأعرابى ٧٥ ونهاية الأرب (١٠ : ٤١) والعمدة (٢ : ١٨٢) والحماسة بشرح المرزوقى ١٤٩٤ .

(٢) أفراق : جمع فرق ، وهذه جمع فرقة .

(٣) الذخيرة : « بحر » وهى صحيحة . والبحر : الشق .

(٤) فى الأصل : « فلا على » الشصائص : الشدائد ، يقال : نق الله عنك الشصائص .

(٥) التكملة من الذخيرة .

(٦) الأبيات لأبى العلاء فى سقط الزند . انظر الشروح ١٤٢ .

وما أدرى من أين كان فَقْدُ الأحطاب لو فقدوها مَثلبةً [وليست معدودةً فى حسب ، ولا نسب(١)] ، ولقد اهتديتَ إلى طريفة ، وانتهيتَ إلى لطيفة(٢) ،

٤٨ ب فسبحان الله ما أصدقَ حِسَّك ، وأسبق حَدْسك ، تدقَّقت وترقَّقت ، حتى توثَّقت وتحققت ، لا ولكنك تمقَّقتَ حتى تحمَّقت . فإنْ كان الأمرُ كما ذكرت ، فأين غَضَى نجدٍ وقُلامه ، وأين رَنْدُه وبَشامُه ، وأين غَرَبه وتَبْعه ، وأين سلَمه وسَلْمه ، وأين العَرَم والعَلَجان ، وأين السَّاسَم والبان ، وأين الشِّيزَى والأثْأَب ، وأين الرَّنَف والشَّوحط(٣) ، وكيف عرَفوا دوحَ الكنهبل ، ومساويكَ الإسحل ، وكتابُ النَّبات يشهد عليك ، بما فيه من الأيك .

(وفى فصل) : وكيف استجزت على فَضْلِك الباهر ، وشَرَفك — بزعمك — الظاهر ، أن تستعينَ على فخرك بخلاف الحقّ(٤) ، وتلجأ فى تهوُّرك إلى غير الصِّدق(٥) ، هل كان النُّعمانُ إلاَّ ملِكَ أملاك ، وشمسَ أفلاك ، أصلُه عريق ، وفرعُه وَرِيق ، نزل الحِيرة ، وأنتم له جيرة ، ملكٌ شهم ، من لدن مالك بن فهم ، له سَقْيُ الفرات يجبِى خراجَه(٦) ، ويستعبد أعلاجَه ، فكفاكم العربَ جمعاء ، من جلِّق إلى صنعاء ، يذبُّ عنكم بماله ، واحتماله ، بعد عَقْدٍ موكد ، وعهد منكم مؤبَّد ، وأجارت العربُ من أجار ، وأغارت على من أغار(٧) ، وحسُنَتْ حال الفُرس بمكانه ، وعزَّت بسُلطانه ، فلمَّا شمخ على أعلاجكم ، وامتنع من زَواجكم ،

---

(١) التكملة من الذخيرة .

(٢) الكلام بعده إلى « كما ذكرت » ساقط من الذخيرة .

(٣) عدم اطراد السجع هنا يشعر بسقط . والكلام بعده إلى نهاية هذه الفقرة ساقط من الذخيرة .

(٤) هذا ما فى الذخيرة . وفى الأصل : « بغير الحق » .

(٥) هذا ما فى الذخيرة . وفى الأصل : « فى قهرك » .

(٦) هذا ما فى الذخيرة . وفى الأصل : « سقيا » . و « يجنى » كذا وردت بالنون فى الأصل ، والأوفق « يجبى » بالباء ، وفى الذخيرة : « يسبى » .

(٧) هذا ما فى الذخيرة . وفى الأصل : « وأغارت ما أغار » .

وقال لباغى السَّواد : عليك ببقَر السَّـواد ، استرزتموه ، فغَدَرتموه[١] . فكيف رأيتم غضبَ العربِ لثارها ، وطلبَها لأوتارها ، ألم تصدمْكم بذى قار ، صدمةَ ذى احتقار ، فأدركَتْ فيكم رضَى الرحمن ، وأخذت بثأر النُّعمان ، وطحطحت بنى ساسان وآل كاسان ، ولم تقم للفُرس بعدها قائمة ، ولا رعَتْ لنا سائمة . ولم تزل فى قواصف تتقاذف ، وعواصفَ تترادف ، حتى تمم الله آفتَها ، واستأصل الإسلام شأفتَها . وأمَّا آل غسَّان فالشرفُ الأقدم ، والبناء الذى لا يُهدَمُ ، سالت من بلادها حينَ سال سيل العرم جائلة ، وساحَت من أرضها جافلة[٢] ، هاجرةً لأعطانها ، نافرة عن أوطانها ، وجاوَرَت الحجاز وهبطت الشَّام[٣] فوجدت بلاداً ٤٩/١
ريفاً خريفا[٤] ، ورجالا جُوفاً عُجوفا[٥] ، لا يحمون ولا يحتمون ، فقالت : غنيمةٌ باردة ، وبهيمةٌ فاردة ، فنزلَت الزَّوراء ، والغُوطة الزَّهراء .

وجالت على الجَوْلان ثم تصيَّدت مُناها بصَيداء الذى عند حاربِ[٦]

فألقتْ عصاها واستقرَّت بها النَّوى كما قرَّ عيناً بالإيابِ مسـافرُ[٧]

على رغم أنوفكم ، وقَطْع شُنوفكم ، ولَجُّوا خدورَكم ، على غيظِ صدورِكم .

وما بقيَا علىَّ تركتمانى ولـكنْ خفتُما صَرَدَ النِّبالِ[٨]

فقلتم قضيَّة كريمة ، ونعمة عميمة ، وسورٌ له باب ، [باطنُه[٩]] فيه الرحمة

---

(١) يقال غدره وغدر به ، إذا نقض عهده . الذخيرة : « شرد تموه ففرر تموه » .
(٢) فى الأصل : « وساخت » والذخيرة « سالت » ، والوجه ما أثبت .
(٣) انظر العمدة (٢ : ١٧٧ — ١٧٨) .
(٤) الذخيرة : « حريفا » .
(٥) هذه الكلمة ساقطة من الذخيرة .
حارب . موضع من أعمال دمشق .
(٧) البيت لمعقر بن حار البارق ، أو عبد ربه السلمى ، أو سليم بن ثمامة الحنفى . اللسان (عصا) . وتنسبه الجاحظ فى البيان (٣ : ٤٠) إلى مضرس الأسدى . الذخيرة : « استقر » و « المسافر » .
(٨) للعين المنقرى يهجو جريرا والفرزدق . اللسان (صرد) .
(٩) التكملة من الذخيرة .

وظاهره من قِبَله العذاب ، لا يُستكَفُّ الغَرْب ، إلا بالغَرْب ، ولا يُقطَع الحديد إلا بالحديد ، ودفع الشَّر بالشر أحزم . فمتى أدَّوا إليكم الإتاوة ، وحَملوا لكم الإداوة[1] ، وهم يَحمونكم حِمَى القُروم أشوالَهَا ، ويمنعونكم مَنْع الأسودِ أشبالَهَا . أم تُرا كم تركتم لهم الشامَ رعياً لذِمامهم ، وصِلةً لأرحامهم ! !

(وفى فصل) : وفخرت بالرياضيَّة والأرضيَّة ، صدقت وبُتَّ عنّى فى الجواب . هى كالرياضِ سريعةُ الذبول ، كثيرة الجفول ، زَهْر مشرق ، ونَور مطرِق ، لا ثمر ، ولا كَثَر[2] .

وهـــل فى الرياض لمستمتِــعٍ سِوَى أن يَرى حُسنَ أزهارِها

وكالأرض الأريضة ، ذات العَرصة العريضة ، لا بناء فيُحَلّ ، ولا سماء فيُظِل[3] ، يُدفن فيها الأموات ، وتخمد فيها الأصوات .

وأما الاسترلوميقى الهندسية[4] فعلم عملى مبنى على التقاسيم ، والتراسيم ، وكله آلات ، للحالات ، وأدوات ، للذَّوات ، ومساحات ، للساحات ، وأعداد ، للأعداد ، وفى أفانين ، القوانين ، ليس فيها معنًى من تحصيل دقائق الفصول ، ولا تفصيل حقائق المحصول ، فأهلها عُمَّال ممتهنون ، وبأشكالها مرتهَنون ، والعرب بعيدةٌ من المهنة ، نافرة من الخدمة . ومن قولكم أنّ قسم العلم أفضل من قسم العمل فهى إذن أرذَل القِسمين ، وأسقطُ العِلمين .

٤٩ ب والجومطريقَى علم الهيئات ، والطَّوالع وكوْرِها ، وجنسها ذو نوعين[5] ، وبابه على مصراعين ، القضايا ، وليست وصَايا[6] . أما الأوّلون فقسموها[7] على

(١) الذخيرة : « وأملوا » .
(٢) الكثر ، بالفتح وبالتحريك : طلع النخل . وفى الحديث : « لا قطع فى ثمر ولا كثر » .
(٣) السماء مؤنثة ، وإذا ذكرت عنوابها السقف . اللسان (سما) .
(٤) انظر ما سبق فى ص ٢٥١ .
(٥) هذا ما فى الذخيرة . وفى الأصل : « وجسمها فذ نوعين » .
(٦) هذا ما فى الذخيرة . وفى الأصل : « وليست برضايا » .
(٧) الذخيرة : « فبنوها » .

أنّ الطوالع مدبرة مقبلة ، وهى أصولٌ فاسدة ، وسوق كاسدة . وقال آخرون : هى كالعيافة ، والزَّجرِ والقِيافة . وهـذا باب مسلَّمٌ للعرب لهم فيه اليدُ الطُّولى ، والمنزلة الأولى ، لهم السَّوانح والبوارح ، والقَواعد والنَّواطح[١] ، وعندهم الأيامن والأشائم ، والأواقى والحوائم ، وغير ذلك من التمائم والرتائم ، وفيهم من لا يعتمده ولا يرتَصِده ، وفى أشعارهم[٢] شواهد على ذلك . وأما الكِهانة فكانت فيهم فاشية ، ولهم غاشية ، وقد سمعت بِشِقّ وسَطيحٍ ، وزرقاء اليمامة وطُرَيحة الأسدى ، ومُسيلِمة الحنفى ، والأسود العنسىّ ، وزُهَير بن جناب الكلبى ، وأفعى نَجران ، وحازى غَطَفان[٣] فلما جاءت الدِّيانة ، بطلت الكهانة ، ولمّا نزل القرآن ، زُجِر الشَّيطان .

وكذلك الدَّرجة الأخرى ، فالعربُ بها أحقُّ وأحرى ، وهى معرفةُ الشهور والأيّام ، وحساب الدُّهور والأعوام ، والأفلاكِ وأدرا كها ، والأبراج وأدراجها ، والنيِّرات وتعاورها ، والدَّرارى وتغاورها[٤] ، عرفوا السَّماء ومعائشها ، والأرض وحشائشها ، ووصفُوا الطَّوالع والغوارب ، ورتَّبوا الثوابت وأنواءها ، والنَّوائب وأدواءها ، والأزمنةَ وأهواءها ، فلا ينجم نجم إلّا سمَّيه ، ولا ينبت نَبْتٌ إلا وَسَمَته ، ولا عيشَ فى سائر الأقطار ، إلا بضامن الأمطار[٥] ، كما لا ثبات للحيوان إلّا بالنبات ، فقد عرفوا إذن طريقِ الحياة ، ووصفوا فريقِ النَّجاة ، وما سوى ذلك فضلٌ ، ليس فيه فضل .

---

(١) جمع قاعد وناطح ، ويقال أيضاً قعيد ونطيح . فالقعيد : ما أتاك من ورائك من ظبي أو طائر ، يتطير منه ، بخلاف النطيح .

(٢) فى الأصل : « ولا فى أشعارهم » وكلمة « لا » مقحمة . وهـذه الجملة ساقطة من الذخيرة .

(٣) الحازى : الكاهن . وفى الأصل : « جازى » ، صوابه فى الذخيرة . وانظر حواشى الحيوان (٦ : ٢٠٤) والبيان (١ : ٢٨٩ — ٢٩٠) .

(٤) بدله فى الذخيرة : « الأعراب أدرى بها » .

(٥) الذخيرة : « بعابر الأمطار » .

وأما الطِّبُّ فجمعته العربُ فى كلمتين معلومتين ، ولفظتين محفوظتين ، على رأيها فى الاقتصار ، ومذهبها فى الاختصار ، فقالت : « المعدة بيت الداء ، والحِمْية رأسُ الدواء » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أصل كلِّ داء البَرَدة[1] » ، وقالوا : « كلْ وأنتَ تشتهى ، ودَعْ وأنت تشتهى » ، فجمعوا الطبَّ بأظافيره ، والصلاحَ بحذافيره ، وإذا فتشت أصولَ سُقراط ، وتبيّنتَ فصول بُقراط ، لم تجد مُستزادا مستَجادا ، ولا مستزاداً مستفادا ، وليست هذه الأمورُ مما ينفرد بها بها أفرادُهم ، ولا يُختَصُّ بها آحادهم ، بل ينطِق بها صغارُهم وكبارهم ، ويعرفه نساؤهم ، ويهتِف به إماؤهم ، وأشعارُهم بذلك ناطقة ، وأخبارهم عنه صادقة ، ما تَلَوا فيه متلُوًّا ، ولا قرَوا به مقرُوًّا[2] ، لكنَّها الطِّباع الصافية ، والقرائح الكافية ، والغرائز السليمة ، والنَّحائز الكريمة ، تُلتَقط الحِكَمُ من مخاطباتهم ، وتسير الأمثال من محاوباتهم ، على منهاج واحدٍ من الفصاحة فى المحاورة ، والمشاورة ، وعلى طريقةٍ واحدة من البلاغة فى المسالة ، والمراغمة ، والمواجزة ، مع المناجزة ، ولا يتعلّمون ولا يتأمّلون ، بل يرسلون الحِكَم إرسالا ، ويبثون الفِطَن أرسالا . والموسيقى علم اللُّحونِ [فما[3]] بالعَجَم إليه حاجة مُجحِفة ، وضرورة مُعجِّفة ، لعجز[4] طباعِهم عن الأوزان ، وقلّة اتِّساعهم فى الميدان[5] ، لأنّ لغاتِهم قليلة ، وقُوامِ كليلة ، لا تستجيب إلّا بوسائط ، ولا تستقلُّ إلا ببسائط ، ليس عندهم شِعر موزون ، ولا كلامٌ مرصون ، ولغة العربِ واسعةُ العبارات ، ناصعة الإشارات ، لها الشِّعر الموزون ، والنَّظْم المكنون ، والكلام المنثور ،

---

(١) البردة ، بالتحريك : التخمة ، لأنها تبرد المعدة فلا تنضج الطعام .
(٢) الذخيرة : « ولا قرءوا فيه مقروا » .
(٣) التكلة من الذخيرة .
(٤) الذخيرة : « لنبو » .
(٥) هذا ما فى الذخيرة . وفى الأصل : « الميزان » .

والسَّجع الأثور ، والرَّجَز المشطور ، والمُزدوِج المبتور ، ولعبيدها فى ذلك كله اللُّحون الشجِيَّات ، المطربات ، والمعامل والمهامل[١] ، والأهزاج والأرمال ، وغير ذلك من الأعمال ، كالرَّكبانى والأعرابى ، والنَّصْبِى[٢] والمدَنى ، والثقيل الثانى ، وعمود المدنى ، والماخُورىّ والسَّرَيجى[٣] ، وخفيف المدنى ، وهى كثيرة ، أثيرة ، نُسِىَ معها الأَرغَن[٤] والسلمان[٥] والصَّنْج[٦] والكنكلة[٧] والمندورة[٨] والقيثارة[٩] ، فلا يعرفن ولا يؤلَفْن . ٥٠ ب

وما أظنُّ مَعبداً والغريضَ وأصحابهما قرءوا قطُّ موسيقَى ، ولا سمعوا مِنطيقاً .

---

(١) كذا بالإهمال فى الأصل . وفى الذخيرة : « والتهاليل والتفاليل » .

(٢) النصْبى : ضرب من الغناء . وفى الأغانى (٥ : ١٧٣) فى أخبار أحمد النصيبى : « النصيبى هو صاحب الأنصاب وأول من غنى بها ، وعنه أخذ النصب فى الغناء » . فى الأصل : « النصبى » مع إهمال النون والباء ، صوابه فى الذخيرة .

(٣) الماخورى هو خفيف الثقيل الثانى ، وهو نقرتان خفيفتان ثم واحدة ثقيلة . مفاتيح العلوم ١٤١ . وورد بكثرة فى أغانى أبى الفرج . انظر منها (٥ : ٢١ ، ٥٨) طبع دار الكتب . والسريجى : نسبة إلى سريج المغنى . والكلام بعده إلى « الشلياق » ساقط من الذخيرة .

(٤) الأرغن : آلة موسيقية هى باليونانية : «أرجن» Arghan أو أرجنون Arghanun معجم استينجاس ٣٨ . وفى مفاتيح العلوم الخوارزمى ١٣٦ « الأرغانون : آلة لليونانيين والروم تعمل من ثلاثة زقاق كبار من جلود الجواميس يضم بعضها إلى بعض ويركب على رأس الزق الأوسط زق كبير ، ثم يركب على هـذا الزق أنابيب صفر ، لها ثقب على نسب معلومة يخرج منها أصوات طيبة مطربة مشجية على ما يريد المستعمل » . ونحوه فى كشف الظنون فى رسم (الموسيقى) ، ونسب كاتب جلبي صنعته إلى « أرسطو » . وانظر ابن النديم ٣٧٧ حيث ذكر الأرغنن البوقى ، والأرغنن الزمرى .

(٥) كذا . وفى مفاتيح العلوم ١٣٦ : « الشلياق : آلة ذات أوتار لليونانيين والروم تشبه الجنك » .

(٦) الصنج : آلة وترية ، وهى بالفارسية « چنك » مفاتيح العلوم ١٣٧ ومعجم استينجاس . فى الأصل « الصلـح » بدون إعجام . وفى الذخيرة : « الفيـخ » ، صوابه ما أثبت .

(٧) فى معجم استينجاس أن « كِنكِير » اسم آلة موسيقية تستعمل فى الهند . وفى الذخيرة : «[ا]لكيكلة » .

(٨) وردت الكلمة فى الأصل مهملة . وفى الذخيرة : « الفيدورة » .

(٩) الكلمة مهملة فى الأصل . وفى الذخيرة : « القشارة » . والقيثارة : معرب من : Kithara اليونانية .

فاعرِضْ إن شئتَ ألحانَهم المطبوعة ، على أوزانكم المصنوعة ، فأظهِرْ غلطَهم في التنغُّم ، وخطأَهم في التَّرنُّم .

على أنّه من العلم المذموم ؛ روى في الحديث : « إنَّ أول مَن غنَّى وناح إبليس حينَ أكلَ آدمُ من الشجرة » . قيل : وهو أوّلُ من عمِل الطُّنبور ، فلا مرحباً بعلمٍ إبليسُ اللعينُ فيه الأستاذ .

وقد كان منهم مَن إذا غنَّى ثَنَت الوحشُ أجيادها ، وفارقت اعتيادَها ، وعطفت خُدودَها ، وتركت شُرودَها ، مصغيةً إليه ، مقبلةً عليه ، فإذا قطع عاودَتْ نِفارها ، وطلبت أوكارها ، هذا فعلُ الأوابد ، والوحوش الشوارد ، فما ظنُّك بالقلوب الرَّقيقة ، والفِطَن الرَّشيقة . ولقد ألّفَ الإسلاميُّون في الأغاني ، ومايتّصل بها من المعاني ، ما إنْ نظرْتَ بمَيْزٍ وحكمت بعدل ، وقفت[1] على الفضل ، في هذا الفصل ، ولم تُحوِجْك العصبية ، والنَّفسُ الغَضَبيّة ، إلى شهادة الزُّور ، والجور الأزور .

وأما الأنوطيقي والوطيقي[2] فهنالك جاءت الاحموقي ، والأُخروقي ، وظهر عجزُ القوم وبانَ أنّهم أغمار ، ليس فيهم إلّا حِمار[3] ، وضلّ سعيهم في الحياة الدُّنيا ثـا وصلوا إلى حيثُ تنفرد العقولُ[4] بنظرها ، والبصائر بفِكرها ، فنهم الدُّهرية أنكروا المعقول ، والعِلمَ المنقول ، والدّليلَ والمدلول ، وهم يُبصِرون تعاقب الأضداد وتعاوُرَ الكون والفساد ، ومنهم الطبيعيون وهم أيدي سبا[5] ، وفِرَقٌ شتّى ، قوم يقولون العالم من أصلين : هوائيّ وأرضيّ ، فجمعوا بين الرّاسب والطافي ،

(١) في الأصل : « ووقفت » صوابه في الذخيرة .

(٢) في الذخيرة : « الانلوطيقى والطوميقا » . وانظر ما سبق في ص ٢٥١ .

(٣) الذخيرة : « أنهم أعجاز ، ليس فيهم إلا جاز » .

(٤) الكلام بعده إلى « العقول » التالية ساقط من الذخيرة .

(٥) الذخيرة : « أيادي سبا » .

والكَدِر والصافي[١] . ومنهم من قال إنّ العناصر أربعة هي بسائط للمركَّبات ، فقضوا بائتلاف المتضادَّات ، وتركيب المُتحادَّات[٢] . ٥١/١

فإن قيل : كيف صارت متظافرة ، وهي متنافرة [وغدت متجاورة ، وهي متفاورة ، وإذا كانت تتهارج ، كيف تمازج[٣]] ، أم كيف يمتزج الصاعد بالراكد ويلتبس الحارُّ بالبارد ؟ قالوا : جمعها جامع ، وقمَعها قامع ، بطبعه لا باختياره ، وفعله لا باقتداره ، وهذا غايةُ المحال ، ونهاية الاختلال ، لأنّه لا بد أن يكون الخامس مثلَها أو مثلَ بعضها ، أو مخالفاً لكلِّها . فإن كانَ مثلها أو مثلَ بعضها فلا حاجة بها إليه مع وجود مثله ، وإن كان مخالفاً لسائرها فلا بد من سادسٍ لتغايرها ، ثم كذلك إلى غير غاية .

قال صاحب الكتاب[٤] : وبيّن أبو الطيب بُطلانَ كلامهم[٥] في احتجاجٍ طويل ، تركته تخفيفاً للتثقيل[٦] . ثم قال :

وأمّا أصحاب الطوالع ، وعُبّاد المطالع ، فاختلفوا في الهيئة أيضاً على جهات ، ووصَفوها بصفات ، لا سيّما المنجِّمين ، وهم فنونٌ ، في الجنون ، يقولون فَلَكُ الأفلاكِ ، ودَرَكُ الأدراك ، والفَلَكُ الأثير ، وهذَيان كثير ، وعبدوا الشَّمس ، وسَجَدوا للنّار والكواكب وهم يرون آثار النَّقصِ فيها ، ودلائلَ الحدث تعتريها ، من طُلوع وأفول ، ويزعمون أنَّها تتغاير وتتمانع ، وتتكاسف

(١) بعده في الذخيرة : « ذهب بقوله أبو الطيب :

تبغل أيدينـــا بأرواحنا ... على زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جنده ... وهذه الأجسام من تربه » .

(٢) التحاد : التخالف والتنازع .

(٣) التكملة من الذخيرة ، وقد بيض لها في الأصل . وفي نسخة الذخيرة « متعاورة وإنما هي « متفاورة » أي متعادية يغير بعضها على بعض .

(٤) هو ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة . انظر التقديم ص ٢٣١ .

(٥) الذخيرة : « قولهم » .

(٦) في الذخيرة : « أضربنا عنه تركا وتخفيفا للتطويل » .

وتتخاسف ، وكِلٌ بصاعِ هذا التخليط ، من هذه الأغاليط ، لا يعرفون رُشْدا ، ولا يهتدون قصدا .

هذا مقدارُ عقول حكمائك ، ونهاية آراء علمائك ، وهذا قليلٌ من كثيرِ هذيانهم ، وأوار من عُوار غليانهم . فإنْ قلت : فإنّ العرب أيضاً كانت تعبد الأصنام ؟ فنحن ما أخَذْنا لك دينَها ، ولا رضينا يقينَها ، بل نعلم أنّ من قال منها بالإشراك ، فقد قصَّر فى الإدراك . وهى على كلّ حال تذكُر الله تعالى ، كما قال عزّ وجل : ﴿ ولئن سألتَهم مَنْ خلَقَهمْ ليقولُنّ الله ﴾ وقالوا : ﴿ ما نَعْبُدُهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زُلْفَى ﴾ . وكثيرٌ من يقرُّ بالبعث والجزاء ، ويعترف بالحشر واللقاء ، وكان منهم من رغِب عن عبادة الأوثان ، وتفرّقوا فى الأديان ، فكانت حِميرُ على دينِ موسَى ، وكان بنو الدّيّانِ وأهلُ نَجْران وتغلب وغسّان على دينِ عيسى ، وكانت فيهم الملّة الحنيفية الإسلامية ، والشّريعة الإبراهيمية ، ومن أهلها كان قسُّ بن ساعِدةَ الإيادىّ ، وورَقة بن نوفل الأسدىّ ، وزيد بن عمرو من بنى عدى[١] ، وقتلته الرُّومُ لذلك[٢] . وقد قيل ، فى خالد بن سِنان ما قيل[٣] . ٥٩ ب

وكان أبو كَرِب الحميرىّ[٤] أحدُ التبابعة قد آمن برسول الله عليه السلام ، قبلَ مبعثه بسبع مائة عام ، وقال :

---

(١) هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن عبد الله بن قرط بن رياح بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى . السيرة ١٤٣ جوتنجن .

(٢) الذى فى السيرة ١٤٩ أن بنى لخم هم الذين قتلوه . فقد يكون ذلك بإيعاز من الروم .

(٣) فى الحيوان (٤ : ٤٧٦) : « أحد بنى مخزوم ، من بنى قطيعة بن عبس ، ولم يكن فى بنى إسماعيل نبى قبله ، وهو الذى أطفأ الله به نار الحرتين » . وانظر بقية خبره فى الحيوان وحواشيه ومروج الذهب (١ : ٦٧) .

(٤) سماه فى مروج الذهب « أسعد أبو كرب » . وفى التيجان ٢٩٤ أنه تبان أسعد أبو كرب . ومثله فى السيرة ١٢ . وفى العمدة (٢ : ١٧٦) « تبع بن كليكرب ، وهو أبو كرب تبع الأوسط » .

شهِدتُ على أحمدٍ أنّه رسولٌ من الله بارِى النَّسَم[١]
فلو مُدَّ عُمرى إلى عمره لكنتُ وزيراً له وابن عم

وقد ذكر بعضُ أهلِ المقالاتِ أنّ عبد المطلب بن هاشم كان من المهتدين فى الدِّين ، واستدلّ بأنه أُجيب لمّا سأل[٢] ، وسُقِىَ حين ابتهل ، وذكرَ سيفَ ابنَ ذى يزَن ، وحزِنَ على فوته أشدّ الحزن ، وأكّد له العهود ، وحذّره عليه اليهود[٣] .

ولمّا دُعُوا دخلوا فى الدِّين أفواجا ، وأتوه أزواجا ، إلّا من أدركته النَّفاسة ، وحبُّ الرياسة ، وسبقَت عليه الشِّقوة ، وورِمَ أنفُه من النَّخوة ، كأبى جهل بن هشام ، وعامرِ بن الطُّفَيل ، وأُميّةَ بن أبى الصلت وغيرهم .

وقال معاوية فى كلام له مشهور[٤] : « فما كان إلا كغِرار العَين حتّى جاء نبىٌّ لم يسمَع الأوّلون بمثله ، ولا سَمِع الآخَرون به ، ولقد كنّا نفخر بذكره على من نطرأ عليه[٤] [ويطرأ علينا[٥]] وإنا لنكذّبه ، ونتبجح بذكره وإنا لنحار به » .

هذه لمعٌ من أمور الجاهلية ، وطُرَف من مفاخر الأوّليّة ، إن أنصفتَ نفسك ، أو صدقت حسَّك ، عرفتَ أين يقع منها مُفاخِروُها[٦] ، وهل يشقّ غبارَها مُجارُوها[٧] .

---

(١) البيتان فى المراجع المتقدمة . وزاد المسعودى — فى بعض نسخه :
وألزم طاعته كل من على الأرض من عرب أو عجم
(٢) سأل الله حماية البيت من الحبشان السيرة ٣٤ — ٣٧ .
(٣) يشير الى قول سيف بن ذى يزن لعبد المطلب حين وفد عليه لتهنئته : « والبيت ذى الحجب ، والعلامات على النصب ، إنك يا عبد المطلب ، لجده غير الكذب ، فاحفظ ابنك واحذر عليه من اليهود فإنهم له عدى ... ولولا أن الموت مجتاحى قبل مبعثه لسرت بخيل ورجل حتى أصير بيثرب دار مملكته » . التيجان ٣٠٩ .
(٤) فى الأصل : « يطرأ عليه » ، والصواب من الذخيرة .
(٥) التكملة من الذخيرة .
(٦) فى الأصل : « مفاخرها » ، صوابه فى الذخيرة .
(٧) فى الأصل : « مجاورها » ، صوابه فى الذخيرة .

(وفى فصل) : وما تصنع إذا نُشِرَت الكمائن ، ونُثِرت الكنائن ، وقَرعتك القوارع ، وفَرعتك الفوارع(١) ، وماست رايات السّيادة ، وخفقت ألوية السّعادة ، وطلعت عليك طوالع النبوّة فى أبّهة الجلال والجمال ، وسَمَاحة(٢) العزّ والكمال ، وقيل لك : هذا سيِّد ولد آدم أوّلهم وآخرهم ، خاتم الأنبياء ، وقاتل الأغبياء . أشهدُ أنّ الله لم يجعل محمداً هاشمياً إلا وهاشمٌ خير قريش ، ولا قرشياً إلا وهم خير مضر ، ولا مضرياً إلا وهم خير العرب ، ولا عربياً إلا وهم خير الأمم . لهم كعبةُ الله ، وولادةُ إسماعيل ، ودَعوة إبراهيم ، وإليهم مُهاجَر هود وصالح وشُعيب وأتباعهم من المؤمنين ، وأشياعِهم من المُوقِنين . فيهم كان حِمامُهم ، وعندهم دُفِنت رِمامُهم ، لا كَكَتنائك(٣) الذى أسررت فيه حسواً فى ارتغاء ، ودفعاً فى ابتغاء ، وكشفتَ فيه ضَبابك ، عن ضِبابك(٤) ، وهتكت أستارَك ، من ابتسارِك(٥) ، وظننتَ أنّ مخَالِطَك ، تُخفِى مَعالطك(٦) ، وأنّ مدحك ، يستر قَدْحك حين مدحتَ مدحاً بجَليّا(٧) ، وأثنيت ثناء دَخَليا(٨) ، ولم يُمدَح مَن ذُمّت

٥٢/أ

(١) هذه الجملة ساقطة من الذخيرة .

(٢) فى الأصل : « شماخة » ، وأثبت ما فى الذخيرة .

(٣) فى الأصل : « لا كتنائك » ، وفى الذخيرة « لا كساءك » ، والوجه فيهما ما أثبت .

(٤) فى الذخيرة : « وكشفت فيه ضبابك » ، صوابه فى الأصل . والضباب ، بالكسر : جمع ضب ، وهو الحقد والعداوة . قال :

فما زالت رقاك تسل ضغنى   وتخرج من مكامنها ضبابى

وفى الأصل : « ضبائك » صوابه فى الذخيرة .

(٥) الابتسار : أن يؤخذ الشىء غضا طريا . فى الأصل : « من استارك » وفى الذخيرة « من ابتسارك » ، ووجههما ما أثبت .

(٦) المعالط : جمع معلط ، من المعلطة ، وهو السمة يوسم بها .

(٧) إشارة إلى قول عويف القوافى فى مدح جرير بن عبد الله البجلى :

لولا جرير هلكت بجيله   نعم الفتى وبئست القبيله

انظر الأغانى (١٤ : ١٠٧/١٩ : ١٤) .

(٨) الدخل ، بالتحريك : العيب والغش والفساد . وفى الأصل : « وخليا » ، والذخيرة « وجليا » ، صوابهما ما أثبت .

قبائله[١] ، ولم يثبت مَن جُذَّت حبائله . أجعلتَ ويلك تبره في الرَّغام ، بل الرَّغام لأنفك ، والرُّغام لوجهك[٢] . لقد أخللتَ بنفسك وزلّت قدمُك ، وأحللت بعقدك وقد حلّ دمُك . ولو صح اعتقادُك ، لصحّ انتقادك ، ولو خلص باطنُك ، لأقصرَ باطلك ، ولو اصطُلِمت ، ما ظُلِمت ، ولو اخترُمْت ، ما وفى بما اجترمت[٣] .

سمع عمر بن عبد العزيز رضي الله بعض كاتبيه ، وعُيِّر بنصرانية أبيه ، فضرب لنفسه مثلا يجلّ عنه ، ويرتفع عن قدره ، فقال له عمر : أوَ قد قلتَها ، والله لا تشرب الباردَ بعدها ! وأمر به فضربت عنقه .

فأمّا إذْ أغفل ولاةُ الأمر تأديبَك ، وتأديبَ الكافّة بك فأحلُّوا تأنيبك ، وتأنيب السُّفهاء مثلك ، فتُبْ إلى الله توبةَ تَهديك ، وتُنْجِيك . وعلى أنك خَلَفٌ ، من ذلك السّلف ، رأيك فيه رأى أهلك ، وفرعك جارٍ على أصلك ، إلاّ أنّ السيفَ قهرك ، والدِّين قسرك ، وأخذَك حكم الدّار ، وخوفُ البِدار ، فأنتَ تَشرَقُ بريقك ، وتَغصُّ برحيقك ، ولابدّ للمصدور أن ينفث ، وللمبهور أن يغوِّث[٤] . ٥٢ ب

ولا بدَّ للمــــاء في مِرجل على النّـار موقدةً أن يفورا[٥]

كمل التقييد والحمد لله كثيرا[٦] .

(١) سبقه بنحو هذه العبارة محمد بن سلام . الأغاني ١٩ : ١٤ .
(٢) الرعام بالضم : المخاط .
(٣) هذا ما في الذخيرة . وفي الأصل : « لوفى بما اجترمت » .
(٤) غوث تغويثا : قال : واغوثاه .
(٥) الذخيرة : « مسعرة » .
(٦) هذه صورة ما ورد في ختام الأصل من مجموعة الإسكوريال .

المجموعة الرابعة

وقد ألحق بها (الفهارس العامة) للمجلد الأول

١٥ ـ رسالة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، لابن بطلان.
١٦ ـ هداية المريد، في شراء العبيد، لمحمد الغزالي.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذه هى المجموعة الرابعة من (نوادر المخطوطات) ، وهى تضنق بيانا تاريخيا على ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية التى عاشتها أجيال شتى على جنبات هذه الدنيا . وهى وثيقة تاريخية للباحثين فى حضارة أسلافنا العرب وأسلافنا المصريين ، نعرضها مبسوطة فى هذين الكتابين النادرين . وقد اقتضانا موضوعهما أن نمهد لهما بكلمة فى تاريخ الرق فى العصور القديمة ، ثم فى العصور الحديثة .

كلمة فى الرق والرقيق

الرقيق كلمة مأخوذة من الرق ، وهو الملك والعبودية ، يقال رق العبدَ وأرقه واسترقه ، فهو مرقوق ومُرَقّ ورقيق ، ومرجع معناها إلى القدر المنوى المشترك فى هذه المادة ، وهى الضعف والخفة . كما أن العبد مأخوذ من العبودية ، وهى الخضوع والطاعة . و « الرقيق » من الألفاظ التى تقال للواحد وللجميع ، فالعبد رقيق والعبيد رقيق أيضاً .

الرق عند قدماء المصريين :

لم يكن نظام الرق مما ابتدع الإسلام ، وإنما كان نظاما يسود الأمم القديمة ، عرفه المصريون واستخدموا الرقيق ، ولا سيا فى قصور ملوكهم وبيوت كهانهم ورجال الحرب . وكانت الأمَـة ترفع أحيانا عندهم إلى مقام الزوجة ، وكان من شريعتهم أن من قتل الرقيق يقتل فيه[1] .

---

(١) انظر الرق فى الإسلام لأحمد شفيق باشا بترجمة أحمد زكى باشا ص ٩ .

عند الأسيويين :

وكان كذلك عند الهنود ، وكانوا يسومون الرقيق سوء العذاب ، ووضعت شريعتهم القديمة عقابا قاسياً للجرائم التى ترتكبها طبقة (السودرا) التى يؤخذ منها الرقيق (دازا) .

وكذلك عرفه الأشوريون والإيرانيون والصينيون . وكان الصينى يضطر أحيانا لبيع نفسه أو أولاده لكى يعيش .

عند الإسرائيليين :

وعرفه الإسرائيليون ، فكانوا يبيعون الفقراء ويملكونهم[١] . وكما كان الفقر من مبررات الرق كانت السرقة كذلك من مبرراته ، فمن ثبتت عليه السرقة بيع بسرقته[٢] .

ودينهم يوصى بحسن معاملة الرقيق ، بل يضرب أجلا مقداره ست سنوات للعبد العبرانى يقضيها فى خدمة مولاه ثم يضحى بعدها حراً طليقاً[٣] .

وإذا ضرب إنسان عين عبده أو عين أمته يطلقه حراً عوضاً عن عينه ، وإن أسقط سن عبده أو سن أمته يطلقه حراً عوضاً عن سنه[٤] .

عند اليونان :

وأما اليونان فكانوا كذلك يقتنون العبيد والجوارى ، وكان أرسطو يقول بأن الرق نظام مطابق للطبيعة[٥] . وكان يعرف الرقيق بأنه آلة ذات روح أو متاع

---

(١) لاويين ٢٥ : ٣٩ ، ٤٠ و ٤٧ — ٥٥ .

(٢) خروج ٢٢ : ١ — ٣ .

(٣) خروج ٢١ : ٢ وتثنية ١٥ : ١٢ .

(٤) خروج ٢١ : ٢٦ — ٢٧ .

(٥) القانون الرومانى للدكتور محمد عبد المنعم بدر ص ٩ .

قائمة به الحيـاة [١]. وأرسـطو نفسه كان له غلمان وقيان ، جاء فى وصيته عند ما حضرته الوفاة [٢]:

« ... والعناية بمـا ينبغى أن يعنوا به من أمر أهل بيتى وأربلس خادمى ، وسائر جوارىّ وعبيدى ».

وهو يأمر بعتق بعض جواريه بعد موته : « . . . ولتعتق جاريتى أمارقيس ، وإن هى بعد العتق أقامت على الخدمة لابنتى إلى أن تتزوج فليدفع إليها خمسمائة درخمى [٣] وجاريتها ، ويدفع إلى ثاليس الصبية التى ملـكناها قريباً غلام من مماليكنا وألف درخمى ».

ويرى الاحتفاظ بغلمانه فيقول فى وصيته : « ولا يباع أحد من غلمانى ولـكن يقرون فى الخدمة إلى أن يدركوا مدرك الرجال ، فإذا بلغوا فليعتقوا ».

عند الرومان :

أما الرومان فـكانوا كذلك يؤيدون نظام الرقيق ، بل يعتبره الخطيب الرومانى شيشرون : (Cicero) نظاماً ضرورياً . وكذلك يذهب سينيك : (Sénèque) أحد فلاسفة الرومان إلى أن لا غضاضة فى الرق ، فإن الحرية إنمـا هى حالة نفسانية من حالات الضمير ، فالعبد إذا كان عاقلا يمكنه أن يعيش حراً فى الواقع ، إذ العبـد الحقيق هو من كان طوع شهواته [٤].

(١) الرق فى الإسلام لأحمد شفيق ١٨ .
(٢) إخبار العلمـاء للقفطى ٢٥ — ٢٦ .
(٣) هى الـكلمة اليونانية التى جعلت فى العربية « درهم » ، وقد اختلفت قيمة الدرهم الفضى باختلاف الأزمان والبلدان ، فـكان يعادل ما يقرب من أربعين مليما مصريا وأربعين فلساً عراقياً ، وكلمة « دراخه » معناها قبضة لأنها كانت مساوية لقيمة قبضة من النقود الحديدية والنحاسية التى كان يستعملها عامة الشعب . وكانت قيمة الدراخة الشرائية عالية جداً ، حتى أن الرجل الذى يبلغ دخله خمسمائة دراخة كان يعد من الأغنياء . النقود العربية للأب أنستاس ٢٤ ، ٨٨ . هذا ، وقد جرى العرف عند فقهائنا المحدثين أن يقدروا الدرهم بخمسة وعشرين مليما أو فلساً عراقيا .
(٤) انظر القانون الرومانى ص ٩ .

وأصل نشأة الرق عندهم مبنى على المبدأ الذى كان متبعاً فى الحروب القديمة التى وقعت فى العصور البدائية ، إذ كان الناس فى أول الأمر يقتلون أعداءهم إن ظفروا بهم ، إذ لم يكونوا يستطيعون استخدامهم بطريقة مأمونة منظمة ، ولـكن بتحضر الإنسان واستيطانه لأرض معينة يقوم بزراعتها ورعى ماشيتها شعر بحاجته إلى استخدام هؤلاء الأعداء فى الزراعة والرعى بدلا من قتلهم ، فـكان الرق .

فالسبب الرئيسى للرق عند الرومان هو الأسر فى الحروب ، وكذلك الولادة من المرأة المملوكة ولو كان رجلها حراً .

والرومانى لا يمكن أن يصـير رقيقاً فى نفس البلدة التى عاش فيها حرا ، فالرومانى الذى يصير رقيقاً لا بد أن يكون تسليمه خارج روما ، إما بحكم القاضى أو بوساطة الشخص الذى يخوله القانون حق بيعه . فللقاضى أن يبيع خارج روما الرومانى الذى لم يقيد اسمه فى قوائم التعداد ، أو الذى يهرب من الحرب أو التجنيد . وللأب أن يبيع أولاده خارج روما باعتبارهم أرقاء . وللدائن أن يبيع مدينه المعسر خارج روما . وللمسروق منه إذا ضبط السارق متلبساً بالجريمة أن يبيعه كذلك . وللقاضى أن يسلم الرومانى الذى اعتدى على دولة أجنبية موالية لروما .

هذا ما كان متبعاً فى العصر الجمهورى . أما فى العصر الإمبراطورى فقد ألغى نظام استرقاق الشخص الرومانى بالمسوغات السابقة إلا فى حال السرقة واستبدل بها مسوغات أخرى ، هى أن يتواطأ الشخص مع غيره أن يبيعه على أنه رقيق حتى إذا تمت الصفقة استرد حريته وقاسم شريكه الثمن ، ففى هذه الحالة يحرم حريته ويصير رقيقاً حقاً . وكذلك المحـكوم عليهم بالإعدام أو بالأشغال الشاقة أو بمنازلة الأسود ، يضرب عليهم الرق . وتظهر ثمرة ذلك بالنسبة لورثتهم فإنهم يحرمون من ميراثهم الذى أصبح ملـكا للإمبراطورية . كما أجاز القانون أن يسترق المعتق معتوقه بعد عتقه ولا عبرة بجحود هذا الأخير .

ومع ذلك أوصت القوانين الرومانية بحماية الرقيق من سوء معاملة السيد(١) .

---

(١) انظر القانون الرومانى ص ١٦ .

وكان هناك ضرب من العبيد يسمى « عبيد الحراثة » وهم عبيد الأرض ، وهؤلاء يعدون أحسن العبيد حالا عندهم ، يتمتعون بحقوق لا يتمتع بها غيرهم[١] .

عند الأوربيين :

وكذلك كثر الرقيق فى أوربا القديمة عند الأمم المتبربرة وعند الغاليين والجرمانيين الذين بلغ من ولوعهم بالميسر أن يقامروا على نسائهم وأولادهم ، بل على حريتهم الشخصية[٢] . وكذا الفرنج واللومبارديون والأنجلوسكسون .

ومما يجدر ذكره أن من أوائل الدول الأوربية التى حرمت الرقيق الدنمرك إذ صدر بها قانون سنة ١٧٩٢ يحرم تجارة الرقيق منذ سنة ١٨٠٢ وأصدر الإنجليز قانون تحريمه سنة ١٨٠٧[٣] . وفرنسا ألغت نظامه بعد ثورتها فى فبراير سنة ١٨٤٨[٤] .

عند العرب :

وأما العرب فى جاهليتهم فكانوا فى أعقاب الغزو يستحوذ الغالب منهم على رجال المغلوب ونسائه ويتخذ منهم الرقيق . ونجد فى الشعر الجاهلى العبد والعبيد والعبدان ، والأمة والإماء والإموان ، والسباء .

وفى أسد الغابة[٥] أن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من قضاعة وأمه من طيئ ، فأصابه فى الجاهلية سباء ، لأن أمه خرجت تزور قومها بنى معن فأغارت عليهم خيل بنى القين بن جسر فأخذوا زيداً فقدموا به سوق عكاظ ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد . وقد وهبته خديجة لرسول الله فأعتقه .

وكان للعرب كذلك رقيق من الأمم الأخرى ممن حروه الإسلام فيما بعد ، ومن أشهر هؤلاء الموالى بلال الحبشى ، وسلمان الفارسى .

وأجاز الإسلام فى أول الأمر استرقاق المسلمين للعرب الذين يؤسرون فى

---

(١) انظر (أعجب ما كان ، فى الرق عند الرومان) للزعيم مصطفى كامل ص ١٨ — ١٩ .
(٢) الرق فى الإسلام ص ٣١ .
(٣) انظر : The great encyclopedia of universal Knowledges
(٤) الرق فى الإسلام ص ٤٨ . (٥) أسد الغابة ٢ : ٢٢٤ .

الغزوات ، كالذى كان فى غزوة بنى المصطلق — وهم عرب من خزاعة — يروى ابن هشام[١] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصاب منهم سبياً كثيراً فشا قسمه بين المسلمين ، وأن جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار زوج رسول الله كانت فيمن قد سبى ، ووقعت فى القسمة فى سهم ثابت بن قيس بن الشماس أو ابن عم له ، فكاتبها على نفسها ، فأتت رسول الله تستعينه فى ذلك فقال لها : هل لك فى خير من ذلك ؟ أقضى عنك كتابتك وأتزوجك . قالت : نعم يا رسول الله . وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله قد تزوج جويرية . فقال الناس : أصهار رسول الله ! وأرسلوا ما بأيديهم . قالت عائشة : فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق ، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها .

ولكن ذلك لم يدم طويلا ، إذ حتم الإسلام فيما بعد ألا يقبل من عربى إلا إحدى اثنتين : إما الإسلام وإما القتل[٢] .

وبذلك اقتصر أمر الرقيق فى الإسلام على وقوع الكفار من غير العرب أسرى فى أيدى المسلمين عند الحرب ، أو عند سقوط بلادهم المفتوحة عنوة فى أيدى المسلمين فيجوز للإمام أن يسترقهم ، ويجوز له أن يضع الجزية على رءوسهم[٣] ، يختار من ذلك ما يراه فى مصلحة المسلمين .

وهذا الرقيق يعد فى جملة الغنائم الحربية ، شأنه شأنها ، ينقلها الإمام إلى دار الإسلام ويقسمها أخماساً ، فخمس للفقراء والمساكين وسائر وجوه البر ، وسائر الأخماس تقسم على المقاتلة ، للفارس سهمان أو ثلاثة — على خلاف بين الفقهاء[٤] — وللراجل سهم واحد .

وبانتشار الفتوح الإسلامية كثر الرقيق المجتلب من البلاد المفتوحة كثرة ظاهرة ، وصار من اليسور أن تجد الرقيق فى كل بيت ، حتى كان الزبير بن العوام

---

(١) السيرة ٧٢٩ جوتنجن .

(٢) جاء فى حاشية ابن عابدين ٣ : ٣١٦ : « إلا مشركى العرب والمرتدين فإنهم لا يسترقون ، ولا يكونون ذمة لنا ، بل إما الإسلام أو السيف » .

(٣) فتح القدير ٤ : ٣٠٥ — ٣٠٦ والدر المختار بهامش ابن عابدين ٣ : ٣١٦ .

(٤) فتح القدير ٤ : ٣٢٠ .

فيما يروى المسعودى[١] مستولياً على ألف عبد وأمة . ويبدو أن كثيراً من هذه المماليك قد آلت إلى ولده عبد الله الذى طالبه أعداؤه بأن يعتقهم فقال[٢] : « وأما عتق مماليكى فوالله لوددت أنه قد استتب لى أمرى ثم لم أملك مملوكا أبداً » .

وهذا يفسر لنا حرص كثير من الرؤساء على حيازة العبيد .

والرقيق متاع مملوك مثله مثل عروض التجارة ، لمالكه أن يبيعه وأن يهبه ، وللسيد أن يستمتع بأمته ويستولدها ، فإذا ولدت منه كان ابنها ولده ، وسميت هى أم ولد له ، وبقيت فى رقها ، ولكن لا يجوز له أن يبيعها ما دام حيا ، فإذا مات صارت حرة لا سلطان لأحد عليها ، وأبناؤها منه أحرار من يوم يولدون .

والسرارى حل للرجل بملك اليمين يتسرى منهن من شاء ولو بلغن ألفا أو أكثر فى العد ، ما كن صاحبات دين سماوى .

وللرجل أن يتزوج الجارية بعقد النكاح فى حدود الزوجات الأربع والدين السماوى ، إذا كانت مملوكة لغيره ، لا يمنع من ذلك العقد إلا أن يكون متزوجاً قبلها بحرة فى عصمته أو ما تزال فى عدة الطلاق ، فقد نهى الحديث أن تنكح الأمة على الحرة[٣] .

وليس للسيد أن يتزوج أمته ، لأن ملك الرقبة يفيد ملك المنفعة وإباحة البضع فلا يجتمع معه عقد أضعف منه[٤] .

فنظام الرق فى الإسلام نظام اختيارى يقابله نظام الجزية .

وقد وضع بجانب نظام الرق نظام آخر فى مصلحة الرقيق ، هو نظام الكفارات التى من بينها عتق العبيد ، كما أوصى الإسلام فيما أوصى بحسن معاملة الرقيق .

ففى صحيح البخارى[٥] : « لا يقل أحدكم عبدى أمتى وليقل فتاى وفتاتى وغلامى » .

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٣٤٢ .
(٢) تاريخ الطبرى ٧ : ٩٤ .
(٣) فتح القدير ٢ : ٣٧٧ .
(٤) المغنى لابن قدامة ٦ : ٦١٠ .
(٥) انظر فتح البارى ٥ : ١٣١ .

وفيه أيضاً عن المرور[١] قال : « لقيت أبا ذر بالرَّبذة — وعليه حلة وعلى غلامه حلة — فسألته عن ذلك فقال : إنى ساببت رجلا فعيرته بأمه فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم : يا أبا ذر ، أعيرته بأمه ! إنك امرؤ فيك جاهلية ، (إخوانكم خولكم) جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

وقد زخرت كتب التشريع الإسلامى ببحث مسائل الرقيق ومشاكله الواقعية والافتراضية جميعاً .

الرقيق فى العصر الحديث :

وقد وجد العصر الحديث أن أمر الرقيق قد أسرف فيه ، واعتراه كثير من الخلط والفوضى ، وأن أبصار النخاسين قد اتجهت إلى اجتلابه بشتى الوسائل التى لا تمت إلى الشرع بسبب ، فبيعت فى أسواق النخاسة بنات الأسر المسلمات واختطفت كريمة قومها لتنالها يد السرىّ القادر ، فأحفظ ذلك بعض الولاة فى مصر وفى غيرها ، ووافق ذلك تكاتف الدول الأوربية على أن تقضى على تجارة الرقيق فى بلادها ومستعمراتها الإفريقية والأسيوية ، وبذل بعضها فى ذلك المال لتعويض ملاك الرقيق . يقول الرافعى[٢] : « اعتبر ذلك فى أن الحكومة الإنجليزية حينما قررت إبطال الرقيق فى أملاكها خصصت عدة ملايين من الجنيهات لتعويض موالى الأرقاء المحررين » .

ويذكر الرافعى أن الاتجار بالرقيق منع من عهد محمد على ، « ولكن هذا المنع لم يكن إلا اسميا ، وبقيت تجارة الرقيق فى السودان قائمة إلى عهد سعيد باشا بعين الحكومة وبصرها وبتأييد موظفيها ، وكان يتولاها تجار أقوياء لهم بيوت تجارية كبيرة تتجر فى حاصلات السودان وفى الرقيق ، وتربح من كل ذلك الأرباح الطائلة . وكان تجار الرقيق لما لهم من النفوذ والسطوة والمال يقيمون فى مختلف

---

(١) انظر فتح البارى ١ : ٨٠ / ٥ : ١٢٦ .
(٢) عصر إسماعيل لعبد الرحمن الرافعى ١ : ١٣٦ .

الجهات معاقل حصينة اتخذوها مراكز للتجارة واصطياد الرقيق ، فلما تبوأ إسماعيل عرش مصر اعتزم أن ينضم إلى حركة العاملين على تحرير الأرقاء فى أنحاء العالم وأن يكسب ثناء الإنسانية فى مقاومة الرقيق ، وبذل جهوداً كبيرة فى هذا السبيل (١) » .

وكان لاهتمام الوالى أثره فى ضبط سبعين سفينة مشحونة بالأرقاء بين كاكا وفاشودة أطلق سراحهم ، واعتقل التجار الذين جلبوهم ولم يفرج عنهم إلا بعد تعهد بعـدم العودة إلى ذلك . كما كان لاحتلال فاشودة سنة ١٨٦٥ أثر كبير فى سد طريق النيل فى وجه تجار الرقيق الذين كانوا يقتنصون الأرقاء فى جهات بحر الغزال وخط الاستواء ويشحنونهم فى السفن .

أما العبيد المملوكون قبل صدور هذا الأمر فقد وضع لهم تشريع يخولهم الحق فى التحرير إذا ثبت أن السيد أساء معاملتهم (٢) .

ويأخذ الرافعى على إسماعيل بعض الأخطاء فى تنفيذ هذا الأمر : منها أنه لم يفـكر فى تعويض تجار الرقيق ، وكانوا تجاراً أقوياء لهم أنصار لا يستهان بهم ، فضلا عن أن الأيدى العاملة فى الزراعة ورعى الماشية وغير ذلك كان معظمها من الرقيق . هذا إلى أن الخديوى قد جعل على رأسة مقاومة الرقيق جماعة من الأجانب منهم السير صمويل بيكر ، وغردون الذى لم يقترن اسمه إلا بمحاربة الاتجـار بالرقيق (٣) فاستثار وجودهم عواطف الأهلين الدينية ، فاستهدفت الحـكومة لعداء طبقة كبيرة من أعيان السودان وتجاره ، ممـا ظهر أثره فى نجاح دعوة المهدى فى أوائل عهد توفيق ، إذ انضم إلى الثورة تجار الرقيق فى السودان (٤) .

هذا هو الرقيق فى موجز تاريخه ، ومع ذلك فلا تزال تجارة الرقيق قائمة فى إفريقية . وفى العدد ١٥٣٠ من المصور الصادر فى أول جمادى الآخرة سنة ١٣٧٣ خلاصة تقرير يقع فى ٢٠٠ صفحة لعالمين من علماء الاجتماع هما « جاك آلان » و « جورج هيرالد » قضيا فى تتبع عصابات الرقيق أربعة أعوام . وفيه من المآسى ما ينطق بقسوة الأوربيين من تجار الرقيق وفظائعهم التى يرتكبونها فى هذه القارة البائسة .

---

(١) عصر إسماعيل ١ : ١٣٤ .
(٢) عصر إسماعيل ١ : ١٣٥ .
(٣) عصر إسماعيل ١ : ١٦٣ .
(٤) عصر إسماعيل ١ : ١٣٦ .

وهذه عجالة لم نستطع فيها أن نستقصى القول فى الرقيق الذى كان فى بعض العصور نصف الدنيا ، وكان له فى الحياة العربية أثر بالغ فى النواحى الحضارية والعلمية والأدبية والفنية ، وحفظ لنا أبو الفرج الأصفهانى فى تضاعيف أغانيه وثائق شتى فيما يتعلق بالرقيق ، كما زخرت كتب الأدب والتاريخ القديمة بذكر آثارهم وأخبارهم . وتناول الكتاب المحدثون فى أبحاثهم هؤلاء الرقيق من جوانب شتى أذكر منها فجر الإسلام وضحاه للدكتور أحمد أمين ، والرقيق فى الإسلام لأحمد شفيق (باشا) وضعه بالفرنسية وترجمه أحمد زكى (باشا) ، ومنها الفصول التى كتبها الرافعى فى (عصر إسماعيل) ، وكتاب الدكتور محمد فؤاد شكرى (الخديو إسماعيل والرقيق فى السودان) وضعه باللغة الإنجليزية . وكتبت دائرة المعارف البريطانية فصلا ضافياً فى الرق (Slavery) . وللزعيم المغفور له مصطفى كامل كتيب فى الرق ألفه عندما كان طالباً بمدرسة الحقوق ، سماه « أعجب ما كان ، فى الرق عند الرومان » طبع بمطبعة المحروسة سنة ١٣١٠ فى عشرين صفحة .

ابن بطلان وكتابه

ابن بطلان :

هو أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون الطبيب البغدادى المعروف بابن بطلان .

ويبدو أن اسمه الكنسى هو « يوانيس » كما ورد ذلك بخطه فى نص نقله ابن أبى أصيبعة [١] .

ويذكر القفطى [٢] نظيراً لذلك فى ترجمة صاعد بن هبة الله ، قال : « كان اسمه أيضاً مارى ، وهو من أسماء الكنيسة عند النصارى فإنهم يسمون أولادهم عند الولادة بأسماء فإذا عمدوهم سموهم عند المعمودية باسم من أسماء الصالحين » .

أخذ علمه فى العراق على أبى الفرج عبد الله بن الطيب المتوفى سنة ٤٣٥ ،

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة .
(٢) إخبار العلماء ١٤٥ .

وكان عالماً بالمنطق والحـكمة والطب ، وفيه يقول ابن بطلان[1] : « وشيخنا أبو الفرج عبد الله بن الطيب بقى عشرين سنة فى تفسير ما بعد الطبيعة ، ومرض من الفـكر فيه مرضـة كاد يلفظ نفسه فيها » . وكان أبو الفرج يجل تلميذه ابن بطلان ويعظمه ، ويقدمه على تلاميذه ويكرمه[2] .

ولازم أيضاً أبا الحسن ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحرانى الصابى المتوفى سنة ٣٦٩ وهو عم أبى إسحاق الصابى ، وكان من أكبر الأطباء الحاذقين فى بغداد فانتفع به ابن بطلان فى صناعة الطب ، وفى مزاولة أعمالها . وكانت صناعة الطب هى المهنة التى كان يرتزق منها ابن بطلان .

وعاش ابن بطلان حياته للعلم لم يتخذ امرأة ولا خلف ولداً . وفى ذلك يقول :

ولا أحـد إن مت يبكى لميتتى سوى مجلسى فى الطب والـكتب باكيا

رحلة ابن بطلان للقاء ابن رضوان :

كان ابن بطلان معاصراً لعلى بن رضوان الطبيب المصرى ، وكان بينهما — كما يقول ابن أصيبعة — مراسلات عجيبة وكتب بديعة غريبة ، ولم يكن أحد منهما يؤلف كتاباً ولا يبتدع رأياً إلا ويرد عليه الآخر ويسفه رأيه . قال : وقد رأيت أشياء من المراسلات التى كانت فيما بينهم ووقائع بعضهم فى بعض .

فصح عزم ابن بطلان فى مستهل رمضان سنة ٤٤٠ أن يخرج إلى لقائه فى مصر استجابة لما أملته عليه المنافسة ، فخرج عن بغداد إلى الجزيرة والموصل وديار بكر ، ودخل (حلب) وأقام بها مدة أحسن إليه فيها معز الدولة ثمال بن صالح وأكرمه إكراماً كثيراً .

ويروى لنا القفطى حياته فى حلب ، أنه لما دخل إليها تقدم عند المستولى عليها وسأله رد أمر النصارى فى عبادتهم إليه ، فولاه ذلك وأخذ فى إقامة القوانين

---

(١) القفطى فى إخبار العلماء ١٩١ ، ١٩٨ .
(٢) القفطى ١٩٢ .

الدينية على أصولهم وشروطهم فكرهوه . وكان بحلب رجل كاتب طبيب نصرانى يعرف بالحكيم أبى الخير بن شرارة وكان إذا اجتمع به وناظره فى أمر الطب يستطيل عليه ابن بطلان بما عنده من التقاسيم المنطقية فيقطع فى يده ، وإذا خرج عنه حمله الغيظ على الوقيعة فيه ويحمل عليه نصارى حلب الذين هجوه هجاء اضطر معه إلى فراقهم .

خرج ابن بطلان عن حلب إلى (أنطاكية) ، ثم إلى (اللاذقية) وقد وصف هذه البلدان التى مر بها وصفاً ناقداً عجيباً فى كتاب كتبه إلى الرئيس هلال ابن المحسن[١] ثم أتم رحلته إلى مصر فدخل (الفسطاط) فى سنة ٤٤١ وأقام بها ثلاث سنين وذلك فى دولة المستنصر بالله من الخلفاء الفاطميين ، وجرت بين الرجلين وقائع كثيرة ونوادر ظريفة لا تخلو من فائدة . وقد ضمن ابن بطلان تلك الحوادث والمحاورات رسالة بعث بها إليه بعد خروجه من مصر . وقد حفظ لنا القفطى هذه الرسالة فى كتابه[٢] ، ونشرها يوسف شاخت وماكس مايرهوف سنة ١٩٣٧ .

وقد اتسع نطاق المناظرة بين الرجلين حينما خرج من حدود المناظرة العلمية إلى حد المهاترات الشخصية ، فيذكر ابن أبى أصيبعة أن ابن رضوان كان أسود اللون ولم يكن بالجميل الصورة وكان يناضل عن نفسه من هذه الجهة حتى ألف مقالة يرد بها على من غيره بقبح الخلقة ، بين فيها « أن الطبيب الناضل لا يجب أن يكون وجهه جميلا » . فانتهزها ابن بطلان فرصة له فوقع فيه ، وكان يلقبه « تمساح الجن » وقال فيه :

فلما تبدى للقوابل وجهه نكصن على أعقابهن من الندم
وقلن وأخفين الكلام تسترا ألا ليتنا كنا تركناه فى الرحم !

ويعقد ابن أبى أصيبعة مقايسة علمية بينهما فيقول :

« كان ابن بطلان أعذب ألفاظاً وأكثر ظرفا وأميز فى الأدب وما يتعلق به ؛

---

(١) القفطى ١٩٣ — ١٩٥ .
(٢) القفطى ١٩٥ — ٢٠٧ .

ومما يدل على ذلك ما ذكره فى رسالته التى وسمها بدعوة الأطباء . وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحـكمية وما يتعلق بها » .

ويذكر صاحب النجوم الزاهرة[1] أن ابن رضوان « كان فيه سمعة خلق عند بحثه » .

خاتمة ابن بطلان :

خرج ابن بطلان من مصر غاضباً على ابن رضوان ورجع إلى أنطاكية مرة أخرى فأقام بها ونزل بعض الديرة فيها وترهب منقطعاً إلى العبادة إلى أن توفى بها[2] ودفن فى كنيستها .

فيذكر القفطى المتوفى سنة ٦٣٦ أنه توفى سنة ٤٤٤ وكذلك صنع ابن العبرى[3] المتوفى سنة ٦٥٨ على حين يذكر ابن أبى أصيبعة أنه قد أطلع على مخطوطات شتى لابن بطلان وفيها من التواريخ ما يشهد بأن حياته امتدت إلى سنة ٤٥٥ كما نقل عنه تسجيلات لوفيات أعيان العلماء الذين عاصروه ، منهم الشريف المرتضى (٤٣٦) والماوردى (٤٥٠) وأبو الطيب الطبرى (٤٥٠) ومهيار الديلمى (٤٢٨) وأبو العلاء المعرى (٤٤٩) . وهذا مما يحملنا نرجح أن وفاته كانت بعد التاريخ الذى ذكره القفطى بنحو عشر سنوات على الأقل .

آثاره العلمية :

يذكر المؤرخون له من الـكتب غير كتابنا هذا :

١ — كناش الأديرة والرهبان ، ذكر فيه الأمراض العارضة لرهبان

---

(١) ابن تغرى بردى ٥ : ٦٩ .

(٢) هذه رواية القفطى . ويذكر ابن أبى أصيبعة أنه سافر من مصر إلى القسطنطينية وأقام بها سنة . ويبدو أن رحلته إلى القسطنطينية كانت بعد ذلك ، أى فى أثناء إقامته بأنطاكية إذ يسجل ابن أبى أصيبعة أنه ألف كتاباً فى القسطنطينية سنة ٤٥٠ .

(٣) تاريخ مختصر الدول ٣٥٦ طبع ١٦٦٣ .

الأديرة ومن بعد من المدينة ، كما جاء فى مقدمة كتاب الديارات للشابستى بتحقيق كوركيس عواد . ومنه نسخة بمكتبة الفاتيكان .

٢ — تقويم الصحة ، فى قوى الأغذية ودفع مضارها . نشرت ترجمة لاتينية له فى إستراسبورج سنة ١٩٣١ وترجمة ألمانية فى استراسبورج أيضاً فى السنة التى تليها كما ما ورد فى دائرة المعارف الإسلامية ، ومنه نسخة بالمتحف البريطانى وأخرى بالفاتيكان .

٣ — مقالة فى شرب الدواء المسهل .

٤ — مقالة فى كيفية دخول الغذاء فى البدن وهضمه وخروج فضلاته وسقى الأدوية المسهلة وتركيبها .

٥ — مقالة إلى على بن رضوان عند وروده الفسطاط سنة ٤٤١ جواباً عما كتبه إليه ، وقد نشر فى (خمس رسائل) تحقيق يوسف شاخت وماكس مايرهوف ، مطبوعات كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة١٩٣٧م .

٦ — مقالة فى علة نقل الأطباء المهرة تدبير أكثر الأمراض التى كانت تعالج قديماً بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد ، كالفالج واللقوة والاسترخاء وغيرها ، ومخالفتهم فى ذلك لمسطور القدماء فى الكنانيش والأقرباذينات وتدرجهم فى ذلك بالعراق وما والاها على استقبال سنة ٣٧٧ إلى سنة ٤٥٥ صنفها بأنطاكية وكان قد أهل لبناء بيمارستان أنطاكية .

٧ — مقالة فى الاعتراض على من قال إن الفرخ أحر من الفروج بطريق منطقية ، ألفها بالقاهرة سنة ٤٤١ . وقد نشر فى مجموع (خمس رسائل) .

٨ — كتاب المدخل إلى الطب .

٩ — كتاب دعوة الأطبــاء ، صنفه على غرار (كليلة ودمنة) ألفه الأمير نصر الدولة أبى نصر أحمد بن مروان صاحب ميافارقين وديار بكر المتوفى سنة ٤٥٣ كما فى النجوم الزاهرة .

قال ابن أبى أصيبعة : « ونقلت من خط ابن بطلان ، وهو يقول فى آخرها : فرغت من نسخها أنا مصنفها يوانيس الطبيب المعروف بالمختار بن الحسن بن عبدون

بدير الملك المتنيح قسطنطين بظاهر القسطنطينية فى أواخر أيلول سنة ١٣٦٥ . هذا قوله ويكون ذلك بالتاريخ الإسلامى من سنة ٤٥٠ » .

وقد نشر هذا الكتاب الدكتور بشارة زلزل بالمطبعة الخديوية بالإسكندرية سنة ١٩٠١ عن نسخة بمكتبته ، وقد تصرف فيها ببعض التصرف بحذف « عبارات لا يألفها ذوق الأدباء من أبناء هذا العصر ! ! » كما ذكر ذلك فى مقدمته .

١٠ — كتاب وقعة الأطباء

١١ — كتاب دعوة القسوس

١٢ — مقالة فى مداواة صبي عرضت له حصاة .

هذا التأليف لهذا الكتاب :

باتساع الرقعة الإسلامية واتساع جلب العبيد تبعاً لذلك قامت تجارة الرقيق نافقة يتولاها النخاسون الذين سميت صناعتهم بالنخاسة [1] ويشرف على تجارتهم قيم يدعونه « قيم الرقيق » [2] .

والرقيق كسائر السلع يرى المشترى أن يختار لنفسه منه ، وأن يأمن جانب الغش والخدعة فيه ، فى عالم غص بأجناس شتى من الأمم من الترك والأرمن والصقالبة والهند والزنج والبربر وغيرهم ، ولكن السوق قاسية ، والبائع يحاول أن يتخلص مما فى يديه ولو سلك فى ذلك سبل الغش والخداع جميعاً ، لذلك قامت إلى جانب النخاسة مهنة أخرى هى مهنة « الدلالة » التى تكفى المشترى مؤونة الخبرة وتكفى البائع من جهة أخرى أن يبالغ فى تزييف سلعته [3] . وقد ذكر ابن بطلان رجلاً اسمه « أبو عثمان » كان من هؤلاء الدلالين ، ولكن الدلالة أو « السمسرة » بعبارة أخرى كان سلاحا ذا حدين نفاع وضرار .

---

(١) النخاس يطلق فى الأصل على بائع الدواب ، سمى بذلك لنخسه إياها حتى تنشط . وقد يسمى بائع الرقيق نخاسا . اللسان (نخس) .

(٢) الأغانى ٢٠ : ٢٧ وضحى الإسلام ١ : ٨٧ .

(٣) يذكر أحمد شفيق (باشا) فى كتابه الرق فى الإسلام عند الكلام على رق الرومان : « وكانت العادة أن المشترى يطلب رؤية الأرقاء عراة تماما لأن بائعى الرقيق كانوا يستعملون وجوها كثيرة من المكر لإخفاء عيوب الرقيق الجثمانية » . ولا تزال تلك العادة قائمة إلى الآن كما أخبرنا بذلك من شهد أسواق الرقيق .

ثم إن الأغراض التى يقتنى لها العبيد والإماء مختلفة جداً ، وهذه الأغراض لا تتحقق جميعها فى جنس واحد من أجناس العبيد ، فالخدمة والطهى ، والقيام على الخزائن والحراسة والقتال ، وطلب الولد والإرضاع ، والغنـاء والعزف ، والاستمتاع والجمال ، كلها أغراض يتحقق بعضها ممتازاً فى بعض الأجناس ولا يكون فى الأخرى .

ثم إن للعوامل النفسية كالرغبة العاجلة فى الشراء ، وهى رغبة تتجاوز عن كثير من السيئات ، والعوامل الاقتصادية كوفرة الرقيق فى المواسم واغتنام تلك الفرصة لاستعمال طرق الغش والخداع ، والعوامل الشخصية كأن يدس بين الرقيق من يتخذ من الأعداء عيناً على سيده المنتظر فيفسد عليه أمره فيما بعد ، وكذلك ما للعبد من ماض طيب أو سيئ ، أن لـكل أولئك وأمثالها آثاراً شتى يجدر بالمشترى أن ينظر فيها طويلا وأن يحزم أمره بالتريث .

وهنالك أخطاء كان يقع فيها السادة فيجنون منباتها ، هى الأخطاء الصحية والنفسية التى لا يتبينها إلا طبيب حاذق ، عالم بالطب وعالم بالفراسة التى تتأدى من النظر فى الظاهر إلى معرفة الباطن : الباطن البدنى والباطن النفسى أيضاً ، فقد يشترى عبداً معلول الجسم أو معلول النفس وظاهره لمن لا يعرف بارع خداع .

كل أولئك حفز صاحبنا المتطبب « ابن بطلان » أن يضع كتابه هذا فى ذلك الموضوع الخطير فى تلك العهود التى كان الرقيق فيها جماً هائلا له حسابه وله ميزانه .

موارد الكتاب :

وأقصد بذلك المنابع التى استقى منها ابن بطلان معارفه فى هذا الـكتاب . وهو قد صرح فى أول كتابه أنه اعتمد على رسائل معلم الإسكندر وغيره من العلماء والفلاسفة . وقد ظهر لى فى أثناء التحقيق أنه اعتمد فى باب الفراسة اعتماداً كلياً على ما ورد فى كتاب « جمل أحكام الفراسة » لأبى بكر محمد بن زكريا الرازى المتوفى سنة ٣١١ يظهر ذلك من المطابقة التامة فى الألفاظ وفى نظام التأليف .

ولــكن صاحبنا لم يظهر اسمه اكتفاء بما ورد مبهماً فى قوله « من العلماء والفلاسفة » .

التحقيق فى شراء الرقيق :

هو مخطوط قديم فى المكتبة التيمورية برقم ٤٨ فضائل ورذائل ، مجهول المؤلف ، خــدم به مؤلفه اسم « الملك الصالح أبى المظفر أحمد بن الملك الظاهر أبى المظفر غازى بن الملك الناصر أبى المظفر يوسف بن أيوب بن شادى » .

وقد اعتمد هذا الكتاب فى بيان خصائص الأجناس اعتماداً ظاهراً على ما ورد فى كتابنا هذا ، وصرح فى بعض المواضع بالنقل عنه ، كما فى ص ٢٤٣ ، ٢٥٢ باسم ابن بطلان ، وفى ص ٣٩ ، ٤٤ باسم ابن عبدون ، وكان بذلك معيناً على تحقيق أو توضيح بعض ما ورد من نصوص كتابنا هذا محرفاً أو مبهماً .

نسخة الأصل

هى نسخة جامعة القاهرة رقم ٢٣٣٢٧ المصورة عن مخطوطة برلين رقم ٤٩٧٩ ومع أنها مجهولة التاريخ هى قديمة الخط ، ولم أعثر على نسخة أخرى من هــذا الكتاب بعد بذل جهد طويل .

وإليك الكتاب فى ضوء التحقيق .

رسالة جامعة لفنون نافعة

في شري الرقيق وتقليب العبيد

تأليف الشيخ أبي الحسن المختار
بن الحسن بن عبدون البغدادي المتطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة جامعة لفنون نافعة فى شِرَى الرّقيق وتقليب العبيد

يعلم منها الراغبُ فى هذا الشأن الأعضاء السّليمة من المَؤُوفة ، والأخلاقَ الطّاهرة من الرديّة ، وأىُّ الإماء يَصلُحن للخِدمة ، وأيُّهن للمُتعة ، وأىُّ الأجناسِ عبيدُ طاعة ووَلاء ، وأيُّهم ذَوِى أنفةٍ وحمية ، وأيُّهم لا يُصلحه إلاّ الكدّ والعصا فيختارُ من كلّ جنسٍ ما يوافق غرضَه ، وينال به أَرَبه ، فإنّه يقال :

من أراد الجاريةَ للّذة فليتّخذها بربرية ، ومن أرادها خازنةً وحافظة فروميّة ، ومن أرادها للولد ففارسية ، ومن أرادها للرضاع فزِنْجية ، ومن أرادها للغِناء فمكّية .

ومن أراد العبيد لحفظ النفوس والأموال فالهِند والنُّوبة ، ومن أرادهم للكدّ والخدمة فالزّنج والأرمن ، ومن أرادهم للحرب والشجاعة فالتُّرك والصقالبة .

هذا كلامٌ جمعنا متشتّته ونظَمنا منثوره من رسائل معلّم الإسكندر[1] وغيره من العلماء والفلاسفة .

ومقالتنا هذه تشمل على فنون خمسة :

الأول منها : فى وصايا ينتفع بها فى البيع والشِّرَى .

الثانى منها : فيما يتفقّد من أعضاء الرقيق بحسب ما يراه الأطباء .

---

(١) يعنى أرسطو . قال القفطى فى إخبار العلماء : « وكان أرسطوطاليس معلم الإسكندر بن فيلبس ملك مقدونية ، وبآدابه عمل فى سياسة رعيته وسيرة ملكه ، وانقمع به الشرك فى بلاد اليونانيين ، وظهر الخير وفاض العدل . ولأرسطوطاليس إليه رسائل كثيرة معروفة مدونة » .

الثالث : فى معرفة أخلاق العبيد بقياس الفِراسة على مذهب الفلاسفة .

الرابع : فى معرفة صور كلّ جنس وما يصلحون له من الأعمال بحسب خواصّ بلادهم والمنشأ .

الخامس فى كشف تلبيسات يدلّس بها النخّاسون الرقيق على المشترِى ، يَجرى مَجرى الحِسْبة .

ومن بعد تعديدنا لهذه النُّوَب نعقد بها جملةً يَخْصِمُهَا(١) تفصيلها ، ليسهل على القارئ مأخذها فيحيط علمه بها .

والله ولى المعونةِ والعصمةِ للقوّة البشرية ، من كل خطَل وزَلّة ، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

---

(١) كذا وردت الكلمة مضبوطة فى الأصل . ومعنى يخصمها يغلبها .

مبلغ ما يحتاجه إلى معرفته من أحوال العبيد والإماء عند ابتياعهم وَبيعهم ، من وصايا يُنْتَفَع بها فى البيع والشِّرَى منتزعة من كلام الحكماء .

ومن تفقُّد أجسامهم وصحّة أعضائهم بحسب ما يراه الأطباء .

ومن تعرف أخلاقهم بقياس الفراسة على مذهب الفلاسفة .

ومن معرفة صور كل جنس وما يصلحون له من الأعمال ، بحسب خواصّ بلادهم والمنشأ .

ومن كشف تلبيسات يدلِّس بها النّخاسون الرقيق على المشترى ، يجرى مجرى الحِسبة على ما بُيِّن من أحوال ذلك .

وهى عن خمسة أشياء ما[1] :

[١]

منها الوصايا التى ينتفع بها فى شِرَى الرقيق على ما قاله الحكماء والفلاسفة ، عشر وصايا ، من ذلك ما يعم المماليك والإماء أربع وصايا :

شرحها : (الوصية الأوّلة[2]) ما أمروا أن يكون عليه[3] المستعرض عند التّقليب للشِّرَى ، وما نَهَوا عنه من القَطْع بأوّل نَظْرة ، قالوا : إنّ المستعرِض لأمرٍ ما يجب ألاّ يكون ذا فاقةٍ إليه ، فإن الجائع يستجيد كلّ طعامٍ يُشبِعه[4] ، والعُريان يستوفِقُ كلّ طِمْرٍ يدفئه ويستره ، وبحسب هذا قالوا : لا يَستعرِضْ

---

(١) كذا وردت هذه العبارة .

(٢) فى اللسان (وأل) : « حكى ثعلب هن الأولات دخولا ، والآخرات خروجاً . واحدتها الأولة والآخرة . ثم قال : ليس هذا أصل الباب ، وإنما أصل الباب الأول والأولى كالأطول والطولى » .

(٣) فى الأصل : « عليها » .

(٤) فى كتاب التحقيق ص ١٣ : « وقال الحكيم : الجائع مستجيد لكل طعام يشبعه » .

جاريةً شيِق ، فليس لمنعظٍ[١] رأى ، لأنه يقطع بأوّل نَظْرَة ، وأوّل نَظْرة سِحر والجديد وللغريب رَوعة ؛ فإذا صادف منه حاجةً داعية قطَع بما تكذِّبه الحواسُّ عند الاستغناء . ولهذا قيل : تكرير اللّحظ يُخلِق كلَّ جِدّة ، ومعاودة التّقليب يُظهِر التصنّع ، ويُبهرج التدليس .

(الوصية الثانية) ما حذَّر منه القدماء قبل الشِّرَى . قالوا : كن على حذَرٍ من شِرَى الرّقيق فى المواسم ، ففى مثل تلك الأسواق يتم للنخاسين الحِيل ، فكم من قَضِيفة بيعت بخَضِبة[٢] ، وسمراء كَمِدة بيعت بصَفْراء مُذْهَبَة ، وممسوح العجز بثَقيل الروادف ، وبَطين بمجدول الحشا ، وأبخر الفم بطيِّب النكهة ، وكم صَفَّروا البياض الحادث عن القروح فى العين ، والبرص والبَهَق فى الجـلد ، وجعلوا العين الزّرقاء كَحلاء ، وكم مِن مرّةٍ حمَّروا الخدود المصـفرّة ، وسمَّنوا الوجوه المقعقعة[٣] ، وكبَّروا القِقاح المزيلة ، وأعدموا الخُدودَ شَـعر اللِّحى ، وأكسبوا الشُّعورَ الشُّقر حالك السواد ، وجَعّدُوا الشُّعور السَّبِطة ، وبيَّضوا الوجوهَ المسمرّة ، ودَمْلَجُوا السِّيقانَ المرّقة[٤] ، ورطّلوا الشُّعور المرَّطة ، وأذهبوا آثار الجُدَرِيَ والوَشْم والنّمَش والحِـكّة .

ولـكلٍّ من هذه أسباب يعرفها الأطبّاء قد أوردناها فى مقالتنا فى الحسبة ، وسنورد منها فى الفن الخامس شَذْرَة بحسب الحاجة .

وكم مِن مريضٍ بيعَ بالصَّحيح ، وغلامٍ بجارية ، هذا زائدٌ على مايُوصَفُونَ

---

(١) فى الأصل : « لمتنبط » . وما أثبت من الصواب يوافق ما فى التحقيق ص ١٤ .

(٢) القضيفة : النحيفة . فى الأصل « قصيفة » .

(٣) لعلها « المتقفقعة » .

(٤) المرقة : الضامرة القليلة اللحم . وفى اللسان : دملج جسمه دملجة ، أى طوى طياً حتى أكثر لحمه .

به الجوارى من دَلٍ ومَجانَة[1] على مُسافِرِينَ شـبابٍ قد أُحلّ لهم لحمُ المِيتة ، سوى ما يفعلنه من زينتهن بالخضاب والحِنّاء ، والملابس المصبَّغة الناعمة .

سمعنا بعض النَّخاسين يقول : « ربع درهم حِنّاء يزيد فى ثمن الجارية مائة درهم فضة ! » .

والتحرز من هـذا لا يكون فى موقف واحد ، ولهذا قيل : اتَّهِم نظرَكَ فيما استحسنتَه حتّى يكون الاستحسان دائماً على صُورةٍ لا ينقُصها تكرار النظر ، وهذا لا يتمُّ إلا فى دفَعات ، وعلى صفاتٍ مختلفات .

(الوصية الثالثة) ما نُهى عنه من القَطع بأوّل سمْعٍ من المماليك [و] الإماء . قالوا : لا تقطعْ بِأوّلِ لفظٍ من غلامٍ أو جارية ، فربّما جاءت بالاتفاق فوافقت منك قَبولاً لا يكون وراءها أمثالُها فيتدلّس عليك بذلك مقابحُ مستورة ربّما جرى الأمر على خلاف ذلك . لـكن كنْ إلى الريبة أميَلَ منك فى هذا الشأن إلى الثِّقة ، وخُذْ بسوء الظّن تَسلمْ .

(الوصية الرابعة) ما حُذِّر منه الرؤساء خاصّة . قالوا ليحذر الرؤساء — ممن له عدوٌّ يُخشى منه غِيلةٌ ،أو[2] يخاف أن يطلع له على سِرّ — شِرَى خادمٍ أو جارية خاصةً إن كانت كاتبةً خرجت من دارسلطان ، إلّا بعدخِبرته بها ، ولاشِرَى جارية مولَّدة من تاجرٍ أو جَلّاب ، فإنّهذه حيلةٌ قد هلك بها جماعةٌ من الملوك والرؤساء .

* * *

ومن ذلك ما يختص بشِرَى المماليك خاصّة ، ثلاث وصايا ، شرحها :

(الأوّلة) ما حُظِر على المشترى من ابتياع مملوكٍ قد مَرَن على الضَّرب

---

(١) فى الأصل : « ما يوصوا به الجوارى من ذل ومحانة » . والمجانة : مصدر مجن يمجن مجوناً ومجانة ، وهو ألا يبالى ما صنع .

(٢) فى الأصل : « أن » .

والخصومة قالوا : لا تشتر مملوكاً كان مولاه يُكثِر ضربه ، ولا تترك المسألة عن مالك المملوك ، وعن سبب بيعه . واستعلِمْ ذلك قبلَ ابتياعه ، من المملوك وغيره ، ففي هذا الفحص فوائد كثيرة ، في ارتباطه ، أو تسريحه وتركه .

(الثانية) مأخوذة من جُرأة المملوك على ذمّ مولاه ، وتنقّصِه له ، أو امتعاضه من ذمّه وقلّة احتفاله به ، وهل سببُ بيعه من جهته أو من جهة مالكه .

(الثالثة) ما وُصِّي به قبل استخدامه . قالوا : المملوك على ما يراه منك أوّلَ دخولِه دارك ، فإن أطمعتَه طمع ، وإن هذّبته انقمع ، وإن خالطه مفسد من مماليكَ وغيرهم فسد .



ومن ذلك ما يختص بشراء الإماء ، وصيتان ، شرحهما :

(الأوّلة) فيما تُعلم به براءة الجوارى من الحَبَل قبل الشراء . قالوا : تحرّزْ في استبراء الإماء من الحبَل قبل التملُّك لهن ، واحذَرْ بهرجتهنّ بالسداد والدعاوى الكاذبة ، فإنّ كثيرا ما يجعلن في فروجهن خرقاً بدماء غيرهن[1] . وليكن من يستبرى ذلك منها امرأةً تكره أن تُلصِق بك ولدَ غيرِك ، ومُرها بتفقّد ثدييها وجَسِّ حشاها .

واعلمْ ذلك من شُحوب لونها وشهوتها للطعام المالح ، فإن ذلك دالٌّ على توحمها ، واستبر ذلك بتقدير الحشا وبخوراتٍ تذكر أخيراً كما وعدنا .

(الثانية) ما يراعى بعد الشرى من الغِيلَة في الحل من غير إرادة المولى . قالوا : راعِ أمراً ذا ركنين :

(١) في الأصل : « ما يجعلن في فرجهن خرق بدماء غيرهم » .

إذا اشتريتَ جاريةً غير بالغة فربَّما بلَغت فى ملكك وأنت لا تعلم ، وكتمَتْ ذلك عنك رغبةً فى الولد .

احذر الجوارىَ اللواتى يوهمنَ أنّهن عُقْم وهنَّ كارهات الحبَل ، فربَّما خدَعْنَك بذلك .

ومن ذلك ما يختص بالبائع دون المشترى .

وصـــــية

قالوا : لا تُخْرِجْ جاريةً من ملـكك إلى نخَّاس إلَّا فى دم ، فربما تَمّ عليها فى الحجَر أن تحبل فادَّعت أنه منك .

على أنَّا قد شاهدنا فى زماننا مَن حاضت مُدّةَ زمانِ حملها . وهذا نادر ..

[٢]

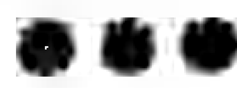
ومنها ما يتفقَّد من أجسام الرقيق بحسب كلٍّ واحدٍ من الأعضاء على مذهب الأطباء ، ثمانية وثلاثون فصلا .

من ذلك ما يعم جميع البدن ، ثلاثة أشياء ، تفصيلها :

من اللون ، وهو ألَّا يكون حائلا[1] إلى الصفرة الدَّال على ضعف الكبد وغلبة الصفراء ، ولا إلى السَّواد الدالّ على السَّوداء وضَعف الطِّحال ، لكن إنْ كان أبيضَ فليكن مُشرباً حمرة ، وإن كان أسمر فلتكن سمرته سمرةً صافية .

ومن البشرة بأن تكون لينة نقية خالية من بَهَق أو برص أو وشم أو قُوباء أو كَيّ أو صبغ أو ثآليل أو خِيلان أو أثر قُرحة ، لا سيَّما إنْ كانت عن عَضّة كلبٍ كَلِبٍ .

ومن تناسب الأعضاء ، بأن تكون بعضها مناسبةً لبعض في الطول والقصر والعظَم والصغَر ، فإنّ طول الأعضاء مع غير مناسبةٍ في العرض جيّد في مباشرة الأعمال العظيمة ، مع ضعف القوة . والقصرُ بالضدّ عن ذلك .



ومن ذلك ما يختص كل واحد من الأعضاء ، ثلاثون فصلا .

منها (ما يختص بالرأس) أربعة أشياء ، وهي شكله ، بأن لا يكون مسفَّطا[2]

---

(١) الحائل : المتغير اللون . وردت كذا بالحاء . وفي كتاب التحقيق ٦٨ : « اللون إذا كان حائلا دل على علة في الكبد » .

(٢) المسفط : الذى شكله شكل السفط . في القاموس : « رجل مسفط الرأس : رأسه كالسفط » . والسفط محركة كالجوالق أو كالقفة .

ولا مشوّها ، ولـكن يكون ككرة شمع قد غُمِزت من جانبها فصار لها نتوا من خلف وقدام .

وشعره بأن لا يكون خفيفاً أو متفرقاً ، ولا به داء الثُّعلب والحيَّة[1] ، ولا بعضُه أبيض مجتمع كالبلَق فى البهائم .

جلده بأن لا يكون قَحْلا ولا فيه سَعَفة[2] و بثور ، أو أثر جرح غائر يدلُّ على عظم .

فضلاته البارزة منه بأن لا يكون كثير المخاط والبصاق ، كثير النوم كدر العين والحواس ، فإن ذلك من أسباب الصَّرْع ، ولا سيَّما إن ارتعشت بعض أعضائه .

(ما يختص بالعين) خمسة أشياء ، وهى من حركتهما بأن لا تكونا مضطر بتين فإنَّهما من علامات الوسواس لا سيما إذا لم يكن الكلام منتظماً ، وهذا يعتبره العارف بلغة المملوك . ومن لونها بأن لا يكون بهما زُرقة فى السواد لم تكن من قبل ، لأنَّها من علامات الماء . ولا يكون بياضهما كدراً أو أصفر أو فيه عروق ، فإنّه من مقدمات السَّبَل[3] . ومن شكلها بأن لا يكون شكل العين مستديراً ، لا سيما إن كان الوجه متعجِّراً فإن ذلك من علامات الجُذَام . ولا يكون نَقْبا الحدقة سوادهما [غير[4]] متساويين ، ولا أحدهما أكبر من الآخر وكأنّه مشقوق بالطول[5] . وهذا يعتبر بأن يغمض كلّ واحدة منهما ويُرى

(١) داء الثعلب : علة يتناثر منها الشعر ، والثعالب يصيبها ذلك الداء ، كما فى اللسان (سعف) . وجاء فى كتاب التحقيق ص ٨٤ : « وآفات الشعر الحصة فإنها تشققه ، وداء الثعلب فإنه يمزقه ، وداء الحية فإنه يجرده » . وانظر الحيوان ٤ : ١٥٨ .

(٢) السعفة : قروح تخرج بالرأس تورث القرع .

(٣) السبل : داء فى العين شبه غشاوة كأنها نسج العنكبوت بعروق حمر .

(٤) فى كتاب التحقيق ٩٦ — ٩٧ : « وإذا كان حرفا العينين غير متساويين وسوادهما غير متماثلين » . (٥) فى التحقيق : « أو كان الحرفان قد شقا بالطول » .

أشكالا مختلفة . ومن المأقِ بأن لا يكون فى المأقِ ظَفَرة[١] ولا لحمٌ زائد ولاناصور[٢] . وعلامته أنك إذا عصرت المأق خرج منه مِدَّة . ومن الأجفان بأن لا يكون شعرها منتثراً ولا منقلباً ، ولا تكون الأجفان غليظة .

(مايختص بالشم والسمع) ، وهو شىء واحدٌ : تنظرهما فى الضَّوء لئلا يكون فيهما لحمٌ زائد ، وتعرض عليه الكلام والروائح بعد سدٍّ أسد ثقبيهما .

(ما يختص باللسان) وهو شىء واحد ، أن يُستنطَق لئلا تكون به لثْغة ، وهذا يكون من صِغَر اللسان وعظمه ، أو سقوط جزء منه ، أو لآفة فى عَصَبه ، أو لسقوط بعض الأسنان ، أو لالتصاقه من الجِبِلّة ، أو لأثر قُرحة به ، فَسَلْ[٣] عن جميع ذلك . فإن لم يكن فلتسىءْ ظنَّك به ، فربما كان قد عَضَّ لسانه لصَرْع به وبخِّره بقَرن المِعزى ، وأطعمه كبد تيسٍ مشوى فإنَّه يُصرَع إنْ كان مصروعا .

(ما يختص بالأسنان) شيئان ، وهما : إن لم تكن موجودة بعد الثغر فإنها لا تعود[٤] ، وإن وجدت تفقَّدْ ألوانها وصلابتها وسلامتها من الحفور ، وبعدها من الضَّرَس بصبرها على الحامض . واجتماعُها أجود من تفرُّقها ، وإنْ كان الشَّنَب مذهباً محبوباً عند العرب[٥] .

(ما يختص باللِّثة) شىء واحدة وهو أن لا تكون فيها قروح . واستنكِهْه لكيلا يكون به بخَر . وهذا يكون من عفَن اللثة ، أو تأكُّل ضرس ، أو بلغم عفن فى المعدة .

---

(١) الظفرة ، بالتحريك : جليدة تغشى العين نابتة عن الجانب الذى يلى الأنف على بياض العين إلى سوادها .

(٢) فى الصحاح : الناسور بالسين والصاد جميعاً : علة تحدث فى مآق العين يسق فلا ينقطع . قال : وقد يحدث أيضاً فى حوالى المقعدة وفى اللثة ، وهو معرب .

(٣) رسمت فى الأصل « سل » مع إهمال النقط .

(٤) فى الأصل : « تعد » . وفى هداية المريد : « وإن وجد سقوطها من بعد إثغاره فإنها لا تعود » . (٥) الشنب : التفليج فى أحد معانيه .

(ما يختص باللّهاة) شيء واحد ، وهو أن لا تكون مسترخية ، فإن ذلك سبب اتّصال السعال ، ولا نازلةً إلى أسفل ، فإنّه يتبع ذلك الخُنَان[١] . فتأمّل ذلك فى الضوء .

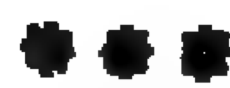
(ما يختص بالنّغانغ والأزبتين[٢]) شيء واحد ، وهو أن لا يكون فيهما أثر خنازير .

(ما يختص بالصدر) شيء واحد ، وهو ألا يكون ضيّقاً أو معوجاً أو قليل اللحم ، فإن ذلك [يكون] سبباً للرئة والسُّعال والنّزلات ، ولا سيما إن كانت الأكتاف مجنّحة .

(ما يختص باليدين) شيء واحد ، وهو ألا تكون إذا قدرتهما وجدت إحداهما أقصر من الأخرى ، أو هما قصيرتان ، فإن ذلك ردىء فى الأعمال .

(ما يختص بالسواعد) شيء واحد ، وهو أن يكون ثَنْى المرفق سهلاً بلا التواء ولا ورم ولا تشنُّج من جرح أو عرق مدنى[٣] ، واسبُرْه أن يقبضَ على يديكَ بقوة .

(ما يختص بالحشا) جميعه خمسة أشياء : منها ما يعمّ الحشا جميعها ، شيء واحد ، وهو أن لا تكون غليظةً جميعها أو بعضها . وهذا بأن تأمره أن يستلقى على ظهره وتَجُسّ حشاه من فَم المعدة إلى العانة ، فإنْ رأيت ثَمّ غلظاً أو ألماً فاقض به ، لا سيما إن وافق ذلك فساد لون وتهيج فى المحاجر . ويحقق ذلك انقطاع نَفَسه عند إحضاره وصياحه .



(١) الخنان : داء يأخذ فى الأنف تسد منه الخياشيم .
(٢) كذا وردت هذه الكلمة . والنغانغ : لحمات تكون فى الحلق عند اللهاة .
(٣) جاء فى حواشى هداية المريد : « للدنى بثرة تحدث فى الساقين تتنفط . . ثم يخرج منها شيء [كالدو] د ، ولا يزال يطول ، وربما كان له حد ، لحدة مادته ، ومدة توجع ، قطعه خطر .

ما يختص بواحد واحد من أعضائه ، أربعة أشياء . تفصيل ذلك :

(المعدة) بأن لا تكون جاسية[(١)] ، ولا بها سوء استمراء من سوء مزاج حارّ أو بارد ، ولا بها خلط داعٍ إلى أكل الطِّين والفحم .

(الـكلى والمثانة) بأن لا يكون فيها قُرحة أو حَصاة أو رَخاوة ، وهذا بأن يتبين فى البول رملاً أو مِدَّة ، ويراعى فى ليالٍ كثيرة فلا يبول فى الفراش .

(الأنثيين) بأن لا يكون فيهما دَوَالى[(٢)] ، أو بأحدهما قَيْلة المِعا .

(القضيب) بأن لا يكون ثَقب الـكَمَرة معوجًا ، وهذا يتأمّل عند البول .

ما يختصّ (بالرِّجلين) أربعة أشياء ، منها ما يعم جميعها ، شيء واحد ، وهو أن لا يكون بهما عَوَج أو تشنّج أو عِرقُ نسا أو خلع ورك . وهـذا يتبيَّن إذا أمرتَه بالإحضار و إذا قدّرتهما فلم تنقُص إحداهما عن الأخرى .

ما يختص بواحدٍ واحدٍ من أجزائها ، ثلاثة أشياء ، تفصيل ذلك : الرُّكبة بأن لا يكون فيها ورم صُلب أو شوكة . الساقان أن لا يكون بهما تقويس أو حَنَف أو فَحَج ، ولا فى باطنهما دوالى[(٣)] . القدم والـكعب بأن لا يكون فيهما داء الفِيل .

(ما يختص بالرحم) شيئان ، وهما ما يختصّ بجِرمه بأن لا يكون ما بين السُّرّة والعانة غليظاً أو صلبا ، فإن ذلك دليلُ السَّرطان . وما يختص بأيام

---

(١) جاسية : صلبة . وفى الأصل « حاسية » .

(٢) إثبات الياء فى مثل هذا جائز ، بل رجحه يونس . التصريح ٢ : ٢٤٠ . وكذا جاءت بإثبات الياء فى كتاب التحقيق ص ١٤٧ .

(٣) أى لحم زائد متدل ، وفى التحقيق ١٤٥ : « ولا فى بطنهما دوالى » .

الحيض لئلّا يعرضَ لهنّ الغَشْىُ الشبيه بالسَّكتة ، فإنّ ذلك دليل احتراق الرحم[١] الذى يتبعه موتُ الفُجاءة .

ومن ذلك ما يُتأمّل من الأعضاء فى زمان النوم خمسة أشياء ، شرحها : بأن لا يكون ممّن يتبرّز فى الفراش ، أو يهذِى فى نومه ، أو يمشى على غير علم منه أو يصرّ أسنانه ، أو ينام على وجهه ، فإنّ هذه أشياء إذا علمها الأطباء انتفعوا بها ١٤
عند التماسهم صحة المرضى .

(١) فى التحقيق ١٤٨ : « اختناق الرحم » .

[٣]

ومنها تعرُّف أخلاق العبيد والإماء بقياس الفراسة ، أحدٌ وتسعون فصلا . فمن ذلك أصولٌ تقدَّمها قبل الكلام فى الفراسة عددها أربعة ، شرحها :

حدّ الخُلق . والخلق داعية للنّفسِ للإنسانِ إلى أن يفعل أفعالا بلا رويّة ، فإنّ الجبان إذا فاجأه الصّوتُ ارتاعَ بسرعة ، والماجن يضحك من أيسر تعجُّب ، والنّذل[1] يرغب فى أدنى قيمة ، والحر بالضد . ولهذه الأخلاق دليل من الفراسة .

كيفية تعلم القياس الصحيح فى الفراسة يجرى بأن لا يتسرع الإنسان إلى الحكم فى الفراسة من دليلٍ واحد ، لكن يجمع منها ما أمكن ثم تكون قضيته بحسب ذلك . ومتى اجتمعت الدلائل المتضادّة حَكم بأقواها ورجّح أظهرها ، بعد أن تعلم أنّ دلائل الوجه والعَين خاصة أقوى الدلائل وأصحّها فى الحدّ الذى ينتهى إليه العلم بقياس الفراسة ، ويجرى هكذا من الإنصاف أن تعلم أن قياس الفراسة مقدّماته مأخوذةٌ من مشابهاتٍ موجودة بين أشخاص الناس ، أو من مشابهات موجودة بين الحيوان والإنسان . وسنورُد على ذلك مثالا من الشجاعة تراه مأخوذاً من صفات الأسد . فالاستدلال فى الفراسة على أفعال الصُّور من لازم الهيولى ، فإذا عرف القياس ذلك ... دَ ... قاس كالمطبوع[2] .

مثال من الشجاعة على قياس الفراسة ، وهو أن يكون قوىّ الشعر خشِنَه ،

(١) فى الأصل وكذا فى التحقيق ١٤٨ : « النذل » بالدال المهملة . والنذل : الخسيس المحتقر فى جميع أحواله .

(٢) كذا وردت هذه العبارة على ما بها من نقص بيض له فى الأصل . وفى التحقيق ١٢ « فإذا عرف القائس ذلك قاس كالمطبوع » .

شديدَ العظام والأطراف والأصابع ، عظيم الصدر والأكتاف والرقبة ، عريض القَص ، ضامر الورِك معرّق الجبهة[١] قويّ المفاصل ، منتصب القامة ، ممسوح الأليتين ، بعيدَ ما بين المنكبين ، ممدودَ الحاجبين ، أزبَّ الصدر والكتف .

والجبانُ بالضد .

ومن ذلك ما يختص بأخلاق الذُّكور والإناث والخِصْيان شيئان . شرحها :

الأنثى من كل جنسٍ أموتُ نفساً ، وأقلُّ جلَدا ، وأسهلُ انخداعا ، وأسرع غروراً وسكونا ، وأشدُّ مكرا ، وأصغر رأسا ، وألطف وجها ، وأدقُّ عنقا ، وأضيق أكتافاً وصدرا ، وأعظم بطناً وورِكا ، وألطف كفًّا وقدما ، وأسوأ أخلاقا من الذَّكَر فى كلّ جنس[٢] .

أخلاق الخِصيان كالمشابِهة لأخلاق النِّساء ، ومن وُلِد بلا خُصيتين أو كانتا فيه صغيرتين كان أشرّ .

ومن ذلك دلائل الشعر سبعة أشياء : تفصيلها :

اللين منه يدل على الحمق[٣] . الخشن دليل الشجاعة . كثرته على البطن دليل شَبَق[٤] . كثرته على الصُّلب دليل الشجاعة أيضاً . كثرته على العنق والكتفين دليل حمقٍ أيضاً . كثرته على الصدر دليل قِلّة الفطنة . قيام الشعر دليل جبن[٥] .

---

(١) المعرق : القليل اللحم .

(٢) انظر سائر الفروق بينهما فى كتاب الفراسة لأفليمون ١٧ — ١٨ . على أن العبارة تكاد تكون مطابقة لما ورد فى كتاب الرازى ٩ — ١٠ .

(٣) فى جمل أحكام الفراسة لأبى بكر الرازى ص ٢ وكذا فى كتاب التحقيق ٨٣ : « على الجبن » .

(٤) فى الأصل : « سبق » تصحيف . وعند الرازى : « يدل على الشبق » . وعند أفليمون ٣٩ : « كثرة شعر جميع الجسد ولا سيما البطن والفخذين دليل الحمق » .

(٥) عند الرازى : « الشعر القائم فى الرأس وعلى جميع البدن دليل على الحمق » . وعند أفليمون ٣٩ : « قيام شعر الجسد واستواؤه دليل على الحمق » .

ومن ذلك دلائل اللون ، أربع دلائل ، تفصيلها :

الأشقر والأحمر يدلّان على كثرة الدم والحرارة . اللون النارىّ دليلُ تأنٍّ . والأحمر دليل حياء . اللون الذى بين البياض والحمرة يدلان على الاعتدال . والأخضر اللون دليل سوء الخلق[١]

ومن ذلك دلائل العين سبع عشرة دلالة :

عظمُهما دليل كسل . غورهما دهاء وحسد[٢] ، جحوظهما دليل هذَر وقِحَة . زُرقة إحداهما يدل على بلادة . شدّة سوادهما دليل جبن . شبههما بعيون الأعنُز دليل جهل[٣] . سرعة حركتهما بحدّة بصرهما دليلُ مكرٍ وحيلة ، بطء حركتهما دليلُ مكر . عِظَمهما وارتعادهما دليل كسل وشبق . حمرتهما دليل شر و إقدام . سوادهما دليل كسل و بلادة . الزُّرقة مع اصفرارٍ دليل رداءة الأخلاق جداً . فإن مالت إلى الصفرة كان صاحبها سفّاكا للدماء . البقرية تدل على الحمق . النقط والشعب حوالى السواد يدل على هـذر وحمق وحسد وشر . صغرهما وجحوظهما دليل على الميل إلى الشهوات ، إذا برز السواد عن البياض دل على حمق .

ومن ذلك دلائل الحاجب ، ثلاث ، شرحها :

كثرة الشعر فيه دليلُ الهم . طوله إلى نحو الصدغ دليل التِّيه والصلف . طولُه إلى نحو الأنف دليل على البله .

ومن ذلك دلائل الأنف ، أربعة دلائل ، تفصيلها :

دقة طرفه دليل محبـة الخصومة ، فإن كان مع ذلك طول دل على الحمق . غلظه دليل على قلة الفهم . القَطَسة[٤] دليل الشبق . غلظ أرنبته دليل غضب .

---

(١) عند الرازى « من كان لونه أخضر أسود فهو سيئ الخلق » .

(٢) الرازى : « من كانت عيناه غائرتين فهو داه خبيث » .

(٣) الرازى : « من كانت عيناه تشبه عيون البقر فى لونها فإنه جاهل » .

(٤) القطسة : اسم من القطس ، وهو مرض قصبة الأنف وطمأنينتها . ونحو هذا فى كتاب التحقيق ص ١٠٤ .

ومن ذلك دلائل الجبهة :

منها : المستطيلة التي لاغضون فيها دليل شغب وخصومة . كثرة غضونها دليل صلف . كبرها دليل كسل . صغرها دليل جهل .

ومن ذلك دلائل الفم والشفة واللسان والأسنان ، أربعة . شرحها :

سعة الفم دليل شجاعة . غلظ الشفة دليل حمق . ضعف الأسنان دليل ضعف البنية . طول الأنياب دليل شره وشرّ .

ومن ذلك دلائل الوجه والصدر ، ثمانية ، تفصيلها :

من كان كأنه سكران أو غضبان أو حَيِيّ[1] فحاله كذلك . قلة لحم الوجه دليل كسل وغِلَظ طبع ، وضدّه بالضد . الوجه المستدير دليل جهل . الصغير دليل جهل : الصغير دليل خِفّة ومَلَق . العظيم دليل كسل . السمج الوجه رديءُ الخلق . طُولُه دليل القِحّة . الأوداج البارزة دليل غضب .

ومن ذلك دلائل الأذن واحدة . عظمها دليل جهل ودَهاء وطولِ عمر ، وبالضد .

ومن ذلك دلائل الصوت والنفس والكلام أربعة ، منها :

العظيم الصوت دليل شجاعة[2] سُرعة الكلام دليل عجلة وبَلَهٍ . حُسن الصوت دليل رعونة . التنفُّس الطويل دليل رداءة الهمة .

ومن ذلك دلائل اللحم اثنتان ، وهما :

اللحم الكثير الصلب دليلُ غلظِ حسّ وفهم . اللين بالضد .

ومن ذلك دلائل الضحك أربعة عشر شرحها :

---

(١) في الأصل : « حي » ، تحريف . وعند الرازي « : « وإذا كان صورة الإنسان كحال الخجل فهو حيي خجل » .

(٢) الرازي « : « من كان صوته غليظاً جهيراً فهو شجاع » .

كثرته دليل دماثة ومساعَدة وقلّة اهتمام بالأمور ، و بالضد . علوّه دليل قحة . ومن عرَض له عند الضّحك سعالٌ وربْو فهو وَقّاح[(١)] . المتبسِّم مستحيٍ .

ومن ذلك دلائل الحركات دلالتان[(٢)] وهما :

السّريعة دلالةٌ على الطيش . البطيئة دليلة البلادة .

ومن ذلك دلائل العنق ، ثلاثة ، شرحها :

صغرها دليل مكر . طولها دليل جبن . غلظُها دليل شجاعة .

ومن ذلك دلائل البطن دلالتان[(٢)] وهما :

كبرها دليل على البلادة . صغرها بالضد .

ومن ذلك دلائل الظهر ، ثلاثة ، تفصيلها :

عِرَضه يدل على القوة والغضب . استواؤه علامة العقل . انحناؤه علامة رداءة الخلق .

ومن ذلك دلائل الـكتفين ، ثلاثة ، شرحها :

العريض دليل جودة العقل . الدقيق ضده . شُخوص رأسِه دليل حمق .

ومن ذلك دلائل الذراع دلالتان[(٢)] ، وهما :

إذا بلغ منه الـكفُّ الركْبَةَ دلّ على نُبل النفس وحبّ الرياسة . قصره ضده .

ومن ذلك دلائل الـكفّ دلالتان[(٢)] ، وهما :

الليِّنة اللطيفة دليلُ سرعة العلم والفهم وبالضد . الطّويلة الدقيقة تدل على زَعارة الُخلق .

ومن ذلك دلائل الحقْو والساق والقدم ، خمسة دلائل ، تفصيلها .

القدم اللّحيم الصُّلب دليل بلادة . الصّغير الخشن دليل فُجور ومرح . غِلَظ

---

(١) الوقاح : القليل الحياء ، كالوقح . وعند الرازى ٦ : « من كان يقع عليه عند الضحك سعال فإنه سليط صخاب » .

(٢) فى الأصل : « دلالتين » .

العقِب دليلُ شِدَّة ، و بالضد [دليلُ [1]] حبُّ النساء .

ومن ذلك دلائل الخطى ، واحدة ، وهى :

الخُطى الواسعة البطيئة دليلُ تأنٍّ ، وبالضدّ[2] .

وتخصُّ النساءَ فِراسةٌ تدلُّ على أحوال من أخلاقهن وأعضائهن وشهواتهن أضربنا عن ذكرها تصوُّنا عن إثباتها ، لقباحة مخارج ألفاظها وإن كانت علماً نافعاً .

(١) مبيض لها فى الأصل .
(٢) كذا وردت العبارة مبتورة ، لعلها « والضد بالضد » .

[٤]

ومنها ذكر أجناس الرقيق بحسب بلادهم ومنشئهم ؛ ونحن نذكر ما انتهى إلينا خبره واشتهر أمره وتلقَّطناه من الكتب ، وسألنا السَّفَرة عنه من أجناس الرَّقيق على اختلافها فى الخَلْق والخُلق ، لنَكفىَ الطالبَ لهذا الشأن مؤونة التَّجارب والامتحان ، خمسة وعشرين فصلا :

من ذلك كشف ألفاظٍ يحتاج القارئ إلى معرفة دلائلها ، فصل واحد :

إذا سمعتنى أقول « فارسية » فاعلم أنها مولَّدة فارس . فإن اتفق أن يكون أبواها فارسيين ، وإلا فيكفى أن يكون أبوها حَسْب . فولد الزنجية إذا تكرَّر فى النَّسل مع البِيض ثلاثَ دَفعات صار بعد السَّواد أبيض ، وبعد الفَطَس أقنى ، ولانت أطرافه ، وتطبَّعت أخلاقه .

ومثل ذلك أفهَمْ فى كلِّ الأجناس .

وإذا سمعتَنى أقول جارية « خُماسيّة » فإنّى أريد بذلك أن طولها خمسة أشبار .

وإذا قلت « شَهْوارية » فليس بجنسٍ من الأجناس ، لكنها لفظة فارسية مشتقة من الشهوة الكاملة[1] .

وإذا قلت « منصورية » فأريد المنصورة التى فيما وراء النهر ، وهى المُلْتان ، لا منصورة العرب .

---

(١) فى معجم استينجاس أن معنى « شهوار » أحسن شىء فى جنسه . فلعلها « من الشهرة الكاملة » .

ومن ذلك ما يتعلّق بالجهات الأربعة[١] ، أربعة فصول ، شرحها :

الأول ما يختص بالبلاد الشرقية ، وهـذه ألوان أهلها بيض مُشْربة حمرة وأجسامهم خَصِبْة ، وأصواتهم صافية ، وأمراضهم قليلة ، وصورهم جميلة ، وأخلاقهم كريمة ، وأغنامهم كثيرة ، وأشجارهم عظيمة ، وما فيهم غضب ولا نجدة لاعتدال كيفياتهم ، لـكنّهم أهل سكون ودعة ، كلُّ هذا لاعتدال كون الشمس فى هذه الجهة ، فأغذيتهم معتدلة ، ومياههم صافية .

الثانى ما يختص بالبلاد الغربية ، وهؤلاء أحوالهم تـكاد تضادُّ جميع ما ذكرنا فى البلاد الشرقية ، لأن الشّمس لا تطلع عليهم بالغداءات .

الثالث ما يختص بالبلاد الشمالية ، وهى التى أهلُها يسكنون تحت بناتِ نَعْشٍ والجدى ، كالصّقالبة ، وهؤلاء عِرَاضُ الصُّدور شُجعان ، وَحْشُو[٢] الأخلاق لـكون الحارّ ، دقاق السُّوق لهربه من الأطراف ، طويلو الأعمار لجودة الهضم ، نساؤهم عواقر لأنّهن لا ينقّين من دم الحيض .

الرابع ما يختص بالبلاد الجنوبية ، وهى التى أهلها سكان تحت القطب[٣] الجنوبى كالحبشة ، وأحوالهم ضدُّ أحوال البلاد الشمالية ، وألوانهم سود ، ومياههم مالحة كدرة ، ومعدهم باردة ، وهضومهم ردية ، وأخلاقهم هادية ، وأعمارهم قصيرة ، بطونهم ليّنة لسوء الهضم .

ومن ذلك ما يختص بواحدٍ واحد من البلاد ، عشرون فصلا ، تفصيله :

المنديّات أول الجنوب على سَمت المشرق ، لهم حُسن القوام ، وسُمرة الألوان ،

---

(١) هذه عبارة صحيحة ، فإن المعدود إذا تقدم على عدده جاز فيه المطابقة وعدمها . حاشية الصبان على شرح الأشمونى فى أوائل باب العدد .

(٢) كذا وردت الـكلمة فى الأصل . ولها وجه من الوحش ، وهو النفر الخالى .

(٣) كذا فى الأصل .

وحظٌّ وافر من الجمال ، مع صفرة وصفاء بشرة[١] وطيب نكهة ، ولين ونَعمة ، لكنّ الشيخوخة تسرع إليهم ، وفيهم وفاء عهد ومودّة ، وكثرة محافظة ، و بعد غَور ، وسلاطة ، ونفوس عزيزة ، لا يصبرون على الذلّ ولا يتألمون للقتل[٢] ، ركّابون العظائم متى أحوجوا[٣] وأغضبوا . نساؤهم يصلُحن للولد ، ورجالهم لحفظ النفوس والأموال وعمل الصنائع الدقيقة ، غير أن النّزَلات تسرع إليهم .

(السنديات) بين المشرق والجنوب ، وهم قريبو الشبه بالهند لمتاخمة بلادهم لبلادهم ، غير أن نساءهم ينفردنَ بدقة الخصور وطول الشعر .

(المدنيات) سمر الألوان معتدلات القوام[٤] ، قد اجتمع فيهن حلاوة القول ونَعمة الجسم ، ومَلاحةٌ ودَلّ وحسن شكل و بشر ، ونساؤهم لا غيرة فيهنّ على الرجال ، قَنوعات بالقليل ، لا يغضبن ولا يصخَبن ، و يوجد فيهنّ الزَّنوج ، و يصلحن للقيان .

(الطائفيات) سُمر مذهبات مجدولات ، أخفُّ خلق الله أرواحا ، وأحسنهم فكاهة ومزاحا ، لسن بأمّهات أولاد ، يكسلن فى الحبل ، و يهلكن عند الولادة ، رجالهنّ أشدُّ الناس تحبُّبا وأدوَمهم عشرةً ، وأحسنهم غِناء .

(البربريات) من جزيرة بَرْبَرَة[٥] ، وهى بين الغرب والجنوب ، ألوانهم على الأكثر سُود ، و يوجد فيهن الصُّفر ، وإذا وجدت منهن الكُتامية الأم الصُّنهاجية الأب المصمودية المنشأ ، فإنّك تصادفها مطبوعةً على الطاعة والموافاة فى كل

(١) فى التحقيق ص ٤٢ : « وصفاء يسير » .
(٢) فى التحقيق ٤٢ : « ولا يألمون القتل » .
(٣) كذا جاءت « أحوجوا » بالواو بعد الحاء . وفى التحقيق : « متى ألجئوا » .
(٤) فى الأصل : « معتدلو القوام » ، وجاء على الصواب فى التحقيق ص ٣١ .
(٥) جزيرة بربرة هذه من الجزائر التى تجاوز سواحل اليمن ، ذكرها ياقوت . وهنا وهم من ابن بطلان تبعه فيه صاحب كتاب التحقيق ص ٤٤ ، فإن البربريات منسوبات إلى بلاد البربر التى فى جبال المغرب . وهى التى تقطن فيها قبائل كتامة وصنهاجة ومصمودة التى سيجرى لها ذكرا فيما بعد .

أمورهن ، نشيطات للخدمة ، ويصلُحن للتّوليد واللذة ، لأنّهنّ أحدب شيء على ولد .

وأبو عثمان — وهو من سماسرة هـذا الشأن — يقول : إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أن تُجلَب وهى بنت تِسع حجج ثم كانت بالمدينة ثلاثَ حجج وبمكة ثلاث حجج ، ثم جاءت إلى العراق ابنة خمس عشرة فـكانت بالعراق فى الأدب ، ثم مُلـكت بنت خمسٍ وعشرين سنة فتلك التى جمعت إلى جَودة الجنس شكل المدنيات[1] وخَنَث المـكيات وآداب العراقيات ، واستحقّت أن تُخبَّأ فى الجفون ، وتوضع على العيون .

(اليمانيات) فى جنس المصريات ، وخَلْق البربريات ، وشِكْل المدنيات ، وخَنَث المـكيات ، وهن أمّهات أولادٍ حسانُ الوجوه أشبه شيء بالأعراب .

(الزّرَنجيات) من بلد يقال له زَرَنج ، ذكر ابن خرداذبة أنّ من هذا البلد إلى مدينة المُلْتان مسيرة شهرين — والملتان وسط الهند — وخاصةُ هذا الجنس إذا بُوشِرن فعرِقْنَ بدا منهنّ عَرَق كالمسك ، لـكنهنّ لا يصلحن للولَد .

(الزّنجيات) مساوِيهن كثيرة ، وكلّما زاد سوادُهن قبحتْ صُوَرهنّ وتحددت أسنانهنّ وقلّ الانتفاعُ بهن ، وخِيفت المضرة منهن . والغالب عليهن سوء الأخلاق وكثرة الهرب ، وليس فى خُلقهن الغمّ[2] ، والرّقصُ والإيقاع فطرةٌ لهنّ وطبع فيهن ، ولعُجُومَة[3] ألفاظهن عُدِلَ بهن إلى الزّمر والرقص . ويقال : لو وقع الزّنجى من السماء إلى الأرض ما وقع إلا بالإيقاع . وهم أنقى النّاس ثُغوراً لـكثرة الريق ، وكثرةُ الريق لفساد المضوم . وفيهن جلَد على الـكد ، فالزّنجى إذا شبِع

(١) الشكل ، بالفتح والـكسر : دل المرأة وغزلها .
(٢) كذا . وفى التحقيق ٤٦ : « والعلوم فيهم مفقودة ، وكذلك الصنائع اللطيفة » .
(٣) المعروف « العجمة » . ولـكن ابن بطلان يعيد استعمال هذه الـكلمة فى أواخر كتابه هـذه ، فهى من لغته .

فصُبَّ العذابُ عليه صبًّا ، فإنه لا يتألَّم له . وليس فيهن مُتعة ، لصُنانهن وخُشونة أجسامهنَّ .

(الحبشيات) الغالب عليهن نَعمة الأجسام ولينُها وضعفها ، يتعاهدهن السلّ والدّقّ ، ولا يصلُحْن للغناء ولا الرقص ، دِقاق ، لا يوافقهن غيرُ البلاد التى نشأن فيها ، وفيهن خَيريّةٌ ومُياسَرة ، وسلاسة انقياد ، يصلُحْن للائتمان على النُّفوس يخُصُّهن قوةُ النفوس وضعف الأجسام ، كما يخصُّ النوبةَ قوةُ الأجسام على دِقّتها وضعف النفوس ، قصارُ الأعمار لسوء الهَضْم .

(المكّيات) خَنِثات مؤنثات ليِّنات الأرساغ ألوانهنَّ البياض المشربُ بسمرة ، قُدُودهن حسنة ، وأجسامهن ملتفة ، وثُغورهن نقية باردة ، وشعورهن جَعدة ، وعيونهن مِراضٌ فاترة .

(الزّغاويات[١]) رديات الأخلاق ذوات دمدمة ، يحملهنَّ غلظُ الأكباد وشرُّ الطِّباع على عمل عظيم الأفعال ، وهن شرٌّ من الزنج ومن جميع أجناس السُّودان ، نِساؤهن لا يصلحن لمتعة ، والرجال لا يصلحون لخدمة . .

(البَجاويات) بين الجنوب والغرب فى الأرض التى فيما بين الحَبَشَة والنُّوبة ، مُذْهبات الألوان ، حسَنات الوجوه ، مُلْس الأجسام ناعمات البَشَر ، جوارى متعةٍ إن جُلِبتْ صغيرة وقد سلمت من أن ينكّل بها ، فإنّهن يقوّرن ويمسح بالموسى بأعلى فُروجهنَّ من اللحم كلّه حتّى يبدوَ العظم فيصرن شُهرةً من الشُّهر ، وتُقطع أثداء الرجال ، وتسلُّ الرّضفة[٢] من رُكَبهن — زَعَمَ القائل — حتّى

(١) زغاوة ، قال ياقوت : بلد فى جنوبى أفريقية بالمغرب ، وهم جنس من السودان .

(٢) الرضفة ، بالفتح وبالتحريك : عظم مطبق على رأس الساق ورأس الفخذ . فى الأصل : « وسعل الرضعة » .

لا يعيا السّاعى منهم . والشّجاعة والسرقة فيهم طبع وغريزة ، ولهذا لا يُؤمَنون على مال ولا يصلُح أن يكونوا خُزّاناً[١] .

(النُّوبيات) من جملة أجناس السودان ، ذوات ترَف ولطف وتَقشُّف ، وأبدانهن يابسة مع لين بشرة ، قوية مع دقّة وصلابة ، وهواء مصر يوافقهن ، لأنّ ماء النيل شُربهن ، وإذا انتقلن عن غير مصر تسلّطت عليهن العلل الدموية والأمراض الحادة . ويسير الأذَى يقدح فى أجسامهنّ ، وأخلاقهن طاهرة ، وصورهن مقبولة ، وفيهن دين وخَيرية وعفّة وتصوُّن ، وإذعان للمولى ، كأنهنّ فُطِرن على العبودية .

(القُندُهاريات) فى معنى المنديات ، ولهنّ فضيلة على كل النساء . فإن الثّيِّبَ منهن تعود كالبكر . الصّفراء المولَّدةُ تُنسَب إلى أبيها وأمها ، وتمزج بينهما ، فأخلاقها مركّبة منهما[٢] .

(التُّركيات) قد جَمَعن الحسن والبياض والنَّعمة ، ووجوهن مائلة إلى الجهامة ، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة ، وقد يوجد فيهن السمراء الأسيلة ، وقُدُودهن ما بين الرَّبْع والقصير[٣] ، والطُّولُ فيهن قليل ، ومليحتهن غاية ، وقبيحتهن آية . وهنّ كنوز الأولاد ، ومعادن النسل ، قلّ ما يتّفق فى أولادهن وحش ولا ردىّ التركيب ولا حان[٤] ، وفيهن نظافة ولباقة ، قدورُهم مَعِدهم[٥] يعوِّلون

---

(١) فى الأصل : « خزان » .

(٢) فى الأصل : « فيمتزج بينا فأخلاقها مركبة منها » .

(٣) فى التحقيق : « ما بين الربعة إلى القصير » .

(٤) كذا وردت فى الأصل .

(٥) فى الأصل : « قد وهم » وإنما المراد أن معدهم ، بمنزلة القدور ينضج فيها الطعام .

عليها في الطّبخ والنضج والهضم ، لا يكاد يوجد فيهن نكهة متغيّرة ، ولا مَن له عجيزة عظيمة ، وفيهم أخلاقٌ سمجة وقلّة وفاء .

(الدَّيلميات) حِسانُ المنظر ، جميلات المخبر ، غير أنَّهن أسوأ الناس أخلاقا ، وأغلظهن أكباداً ، وفيهن صبر على الشِّدَّة ، شبه الطَّبريّاتِ في كل حال .

(اللانيات[1]) ألوان بيض محمّرة ، ولحوم كثيرة[2] ، وأمزجة يغلب عليها البرد ، وهنّ للخدمة أصلح منهن للمتعة ، لأن فيهن خيرية طبع ، وثقةً واستقامةً أخلاق ، وحرصا[3] على المحافظة والموافقة ، وهن بعيداتٌ عن الشَّبَق .

(الروميات) بيض شُقر ، سِباط الشعور ، زُرق العيون ، عبيدُ طاعةٍ وموافقة ، وخدمةٍ ومناصَحة ، ووفاء وأمانة ومحافظة ، يصلُحْن للمخزن ، لضَبطهن وقلّة سماحتهن ، لا يخلو أن يكون بأكفهن صنائع دقيقة .

(الأرمنيات) الملاحة للأرمن لولا ما خُصُّوا به من وحشة الأرجل[4] ، مع صحة بنية وشدَّة أسرٍ وقوّة ، والعفّة فيهن قليلةٌ أو مفقودة ، والسرقة فيهن فاشية ، وقلّ ما يوجد فيهن بخل ، وفيهن غِلَظ طبع ولفظٍ ، وليست النَّظافةُ في لغتهن ، وهن عبيدُ كدٍّ وخدمة ، متى تَهَنْهَتَ العبدَ ساعةً بغير شُغل لم يدعْهُ خاطرُه إلى

---

(١) في الأصل : « الأنيات » تحريف . وفي التحقيق ٤١ : « ذكر اللان . واعلم أن اللان جنس من الروم » . وقال ياقوت : « بلاد واسعة في طرف ارمينية قرب باب الأبواب مجاورون للخزر . والعامة يغلطون فيهم فيقولون علان ، وهم نصارى تجلب منهم عبيد » .

(٢) في التحقيق ٤١ : « ألوانهم بيض محمرة ولحومهم مكتنزة » .

(٣) في الأصل : « وحرص » .

(٤) في التحقيق ٣٨ : « وحاشة الأرجل » .

خير . لا يصلحون إلّا على العصا والمخافة ، وليس فيهم فضيلة غير تحمّل العناء[1] والأعمال الثقيلة ، والواحد منهم إذا رأيته كسلانا فذاك لِعَلَهٍ فيه[2] ليس عن عجز قوة ، فدونك والعصا ، وكن مع ضَربه وانقياده لما تريده منه على حذَر ، فإنّ هذا الجنْس غير مأمونٍ عند الرضا فضلا عن الغضب ، نساؤهم لا يصلحن لمتعة . وجملة الأمر أن الأرمن أشرُّ البيضان ، كما أن الزنج أشرُّ السودان ، وما أشبه بعضَهم ببعض فى قوة الأجساد ، وكثرة الفساد ، وغلظ الأكباد .

---

(١) فى الأصل : « عن عمل العناء » . وفى التحقيق : « وليس فيهم فضيلة غير الأعمال الثقيلة ولا يصلحون الا على العناء » .

(٢) العله : خبث النفس . وفى الأصل : « لعبه فيه » .

[٥]

ومنها التحرُّز من تدليسات النخاسين التي يدلِّسون بها في المواسم الرقيق على المشترى ، يَجرى مجرى الحِسبة ، ثمانية وعشرون فصلا .

من ذلك ما يفعلونه في الألوان ، فتغيُّر البشرة بشيئين ، وهما : أمَّا السمراء فإنَّها تصير ذهبية إذا وضعت في أَبْزَنٍ[1] فيه ماء الكراويا أربعَ ساعات[2] من النهار .

وأما الدُّرِّية اللون فتصير [بيضاء[3]] إذا غمر وجهها بباقلى قد نقع في بطِّيخ سبعة أيام ، ونقل إلى لبن حليب سبعة أيام ، وغيِّر اللبن كل ليلة .

ومما يُحمِّر الخدودَ المصفرة غَسولٌ صفته : دقيق الباقلى والكِرْسِنَّة خمسة أجزاء ، وعِرق الزَّعفران وبُورَق ، من كل واحد ربع جزء .

---

(١) كلمة « الأبزن » معربة عن الفارسية : آبزن ، وهو حوض من نحاس أو حديد يستنقع فيه الرجل ، ويعرف في ألفاظنا الدخيلة باسم « البانيو » . وفسر في معجم استينجاس ٨ بأنه حوض للاستحمام من نحاس أو حديد بطول جسم الإنسان يملأ بماء فاتر طبي يجلس فيه المريض أو يتمدد . وقد أهمل هذا اللفظ كثير من اللغويين ، منهم الليث والجواليقي وابن دريد والزمخشري . أما الليث فقد نص صاحب اللسان على إغفاله الكلمة ، وأما الجواليقي فلم يذكره في المعرب ، وكذا ابن دريد في الجمهرة ، والزمخشري في الفائق وأساس البلاغة . هذا مع أن الكلمة مستعملة قديما . جاء في شعر أبي دواد يصف فرسا وصفه بانتفاخ جنبيه :

أجوف الجوف فهو منه هواء   مثل ما جاف أبزنا نجار

اللسان ١٦ : ١٩٦ . ويفهم من هذا الشعر أنه كان يصنع أحيانا من الخشب . ويؤيده قول ابن برى : « الأبزن شيء يعمله النجار مثل التابوت » . وروى البخارى أن أنس بن مالك قال : « إن لي أبزنا أتقحم فيه وأنا صائم » . وقد فسر الأبزن في هذا الحديث بأنه الحوض الصغير » أو حجر منقور كالحوض ، أو شيء يتبرد فيه وهو صائم يستعين بذلك على صومه من الحر والعطش . عمدة القارى ١١ : ١٣ ومشارق الأنوار وشفاء الغليل ١٤ .

(٢) في التحقيق ٢٥٢ : « ثلاث ساعات » .

(٣) التكملة من كتاب التحقيق ص ٢٥٣ .

فأما السُّودان منهن فسح أطرافهنّ ووجوههن بالدُّهن الطيب . سمعنا بعض رَبّات القصور تقول : كلــكون[(١)] السودان دُهن البنفسَج .

ومن ذلك ما يتعلق بالشَّعر ثلاثة أشياء ، شرحها :

ما يكسِب الشُّعور الشُّقر السوادَ الحالك . دهن الآس ، ودهن قشور الجوز وغسله بالأملج[(٢)] ، ودهنه بدهن الشقائق وأشياء توجد فى (الزينة) لأفريطُن[(٣)] ، يطول شرحها .

ما يزيل الشعر من الوجه والأطراف ، أخذه بالمنقاش ، أو طلاؤه بالنورة ومن بعد ذلك ببَيض النمل ، أو بدهن قد طبخ فيه ضفادع خُضْر ، أو عَظَاية[(٤)] بدم الأرنب ، دفعات كثيرة ، ويغسل بالشب والبُورق والمَقْص .

ما يجعِّد الشُّعور السبطة ، غَلْفُه[(٥)] بالسدر والأزادرخت[(٦)] والآس .

ومن عادة النخاسين إذا أرادوا أن يطوِّلوا الشعور أن يوصلوا فى طرفه من جِنْسه[(٧)] ، وإذا أرادوا الوضع من الإماء أن يُلصقوا فى الأصداغ شَعراً أبيض ليحثَّ البيِّع[(٨)] على قبض الثمن .

ومن ذلك فنون مختلفة ستة عشر فصلا ، شرحها :

---

(١) قال داود : « كلــكون : غمرة من لك واسفيداج تحسن الوجه » . فى كتاب التحقيق : « أن يمسح أطرافهن ووجهن بالزيت الطيب أو دهن البنفسج » .

(٢) هو ما يسمى فى مصر بالسنانج . تذكرة داود .

(٣) فى إخبار العلماء للقفطى ٤١ : «أفريطون المعروف بالمزين ، كان زمانه قبل جالينوس وبعد بقراط ، وله كتاب الزينة » .

(٤) العظاية : دابة على خلقة سام أبرص . فى الأصل : « عضاية » تحريف . وفى التحقيق : « اعطايه » تحريف أيضاً .

(٥) الغلف والتغليف : الطلاء والتلطخ . فى الأصل : « غلفة » .

(٦) فارسى ، ويسمى فى مصر « الزنزلخت » . تذكرة داود .

(٧) كذا . وفى التحقيق : « أن يوصلوا فى ضفائرها شعراً من جنسها » .

(٨) فى الأصل : « ليحث » ، تحريف . والبيع : البائع والمشترى . وفى التحقيق : « ليحثوا به البائع على قبض الثمن » .

ما يسمّن الأعضاء المزيلة : الدَّلك بالمناديل الخشــنة والأدهان الحارة ، والطّلى بالعاقرقرحا ، والخراطيم المحرقة .

ما ينعم[1] الأطراف الخشنة : الدّهن والشمع واللوز المر[2] والخلخله[3] معمولة بماء الورد ودُهن بنفسج ، وترك مباشرة الأجسام الخشنة كالخشب والحجارة ، وهجر المآكل المولّدة[4] للمرة .

وما يذهب آثار الجدرى والنمش والوشم : غَسول معمول من عروق القصب واللوز المر[5] والكِرِسنّة والباقلى وحبّ البِطّيخ معجون بعسل .

ما يغسل به الخضاب من البرص : خل وأُشنان مُغلّى وماء الباقلى أو ناطف وماء حار .

ما يزيل الكلف من البشرة : الشّونيز[6] وأصل قِثّاء الحمار وورق الخبازى وبزر الجرجير وأصل الكرم ، يُعجَن بعسلٍ ويطلى .

ما يزيل روائح الأنف : السّعوط بدهن المَرْزَنجُوش[7] والبنفسج والنّيلوفر والنرجس والياسمين .

ما يجلو الأسنان : السواك بالأشنان والسّكّر وسحيق الصينى ، أو الفحم والملح المدقوق .

ما يخضب البرص : القُلَقَدِيس[8] والعفص والزنجار من كل واحد جزء

---

(١) فى الأصل : « ما يعم » .

(٢) فى الأصل : « واللوز والمر » صوابه من التحقيق . وانظر ما يأتى فى ص ٣٨٢ س ٦ .

(٣) فى التحقيق « ويخلخله » ، ولم أهتد إلى صوابهما .

(٤) فى الأصل : « المولودة » .

(٥) فى الأصل : « واللوز والمر » ، صوابه فى التحقيق .

(٦) الشونيز : الحبة السوداء .

(٧) هو المردقوش ، معرب مرزنكوش الفارسية . وعربيته السمسق .

(٨) هذا ما فى التحقيق ، وفى الأصل : « القلقل يس » تحريف . القلقديس هو الزاج ، كما فى تذكرة داود فى أول حرف الزاى من المفردات ، وكذا معجم استينجاس ٩٨٥ وذكر أنه من اليونانى : Kalkitys .

يعجن بماء [و(١)] لبن التين ، و يغرز مواضعه بإبرة و يطليه أربعة أيام فى الشمس يبقى أربعين يوما ، أو يطلى ببرّ وخلّ .

ما يقتل القمل والصِّئبان من الشعر والبدن ، بالبُورق والميويزج(٢) وماء السِّلق أو دُردىّ الشّراب والصابون .

ما يزيل الشَّعث الذى يكون فى أصول الأظفار : غَسْلها بالخل والعَسَل والمرتك ، أو دهن الورد واللوزِ المرّ ، ويعالج البرص منها بالزرنيخ والكبريت .

ما يطيب الفم : مضغ العُود الرطب والكُسفرة والفوفل(٣) وقشور الأترجّ ، والمضمضة بالخل والماورد والعود المنقوع فى الشّراب ، وأكل البنّ بعد الطعام وقيل الصَّحناة(٤) .

ما يطيّب الجسد : الصَّندل والورد والمرتك المربّى بماء الورد ، والبخورات بالمثلثة المآخين(٥) وخلط الثياب بالعقبات والمعمولة من الرياحين على التفاح والفواكه المبخرة بالكافور .

ما يستعمل فى الثيب لتصير كالبكر : قلوب الرمان الحامض وعَفص أخضر يُعجن بمرارة البقر و يتحمل فَرْزَجَة(٦) .

---

(١) التكملة من التحقيق .

(٢) داود : ميويزج : زبيب الجبل ، ويطلق على ضرس العجوز أيضاً . وضرس العجوز هو الحسك .

(٣) الفوفل بضم الفاء وفتحها : نخلة كنخل النارجيل تحمل كبائس فيها الفوفل أمثال التمر .

(٤) الصحنا والصحناة ويعدان ويكسران : إدام يتخذ من السمك الصغار والملح . القاموس والمعتمد لابن رسولا ١٩٧ . وقال داود : « لا تعرف إلا بالعراق ، ويقرب منها ما يعمل بمصر ويسمى : الملوحة » .

(٥) كذا فى أصله .

(٦) الفرزجة فارسية ، ومعناها ما تحمله المرأة من دواء .

ما يصبغ البياض الذى فى سواد العين : لبن أتانٍ حارّ .

ما يغير زُرقة العين لتصير كحلاء : يقطر فيها ماء قشرِ الرمان الحلو .

ما يُخفى الحمل : وَصاة النخّاس الجارية أن تعتمد الشِّداد وتُظهِر الدم الكاذبَ المصنوع من ماء الصمغ ودم الأَخَوين . هذا إذا لم يمكنها إعداد دمٍ من حيوان .

ومن ذلك ما يتعلق بالحمل : شيئان ، وهما : تحقُّق الحمل لينعلم صحته . ومعرفة ذلك يتم بأن يوضع تحت المرأة بَخورٌ كالعنبر ونحوه ويُمنع خروجه من أردانها أو فُرَج أثوابها فإنْ ظهرت الرائحةُ من فيها فليست حاملا ، وبالضد .

معرفة الحمل هو بذكر أو أنثى ، وهذا يتبين فى الذكر من سرعة الحامل وإشراق لونها ، وأن يقدَّر بخيط من وسط السّرّة إلى وسط الفَقارة المحاذية لها من أحد الجوانب ويعلَّم المكان بمدادٍ وتديره إلى الجانب الآخر ، فإنْ نقص الخيطُ عن العلامة من الجانب الأيمن فهى حامل بذكر ، وإن طال فبأنثى .

ومن ذلك ما يُوصِى به النخاسون الجوارى ، ثلاثة أشياء ، تفصيلها :

من وصاياهم لهنّ أن يَصرِفن العناية كلّها إلى النظافة والطِّيب ، والتبرج للمشترِى تارةً والاختفاء أخرى ، فإن هذا بابٌ من التحبب مالكِ القلوب .

ومن وصاياهم لهنّ أن يُظهِرن أجملَ ما فيهنّ ، ويخفين أقبح ما فيهن .

ومن وصاياهم أن يُدارِين للمشايخ والنافرِى الطباع ويستميلونهم ، ويتجنّون على الشباب ويمتنعون عليهم ، ليتمكّنوا من قلوبهم .

ومن ذلك ما يأخذونهنّ به فى زينتهنّ شيئان ، وهما : ما يُلزمونهن من تحمير

خدودهن ، بالنشاستج وغسل سواريهن بالحصر[1] ، وخضاب حواجبهن بالرّامك ، وأطرافهن إن كانت الجارية بيضاء بالخضاب الأحمر ، وإن كانت سوداء بالذّهبي والأحمر ، وإن كانت صفراء بالأسود .

ما يفعلونه فى ملابسهنّ ، فإنّهن يلبسن الأبدان البيض الخصبة[2] الشفافة الثيابَ الخفيفة الكحالىَ والمورّدة ، والسودَ الغلائلَ الحمر والصُّفر ، ويُجرون الصّناعة مجرى الطبيعة فى كشف الضدّ بالضّدّ فى ألوان الزَّهَر .

(١) كذا فى الأصل .
(٢) فى الأصل : « الحصبة » .

[٦]

وأضيف إلى ذلك ما يعتبر به أرباب الصنائع[١] من العبيد والإماء ، ثلاثة عشر فصلا ، ومن ذلك فصول ينتفع بها فيما نحن بسبيله وعددها ثلاثة فصول ، شرحها :

(الأول) : فى فصل منبه على ما فضّل فيه النساء على الرجال ، ويجرى هكذا :

طُبِع الرجالُ على جميع الصنائع ، واختصّ النساء بالغناء والغذاء ، فهنّ أطيب طبيخاً منهم لثباتهنّ فى العمل ، وأحسن غناء لأنّهن مطبوعات على النغم ، لكن فيهم دُرٌّ ومَشْخَلَب[٢] ، ولهذا يحتجن إلى جهابذة ينتقدونهنّ .

(الثانى) : فى الجيد من الغناء ، ويجرى هكذا :

إذا اجتمع للغناء أن يكون مطبوعاً سليما من الخروج والنفور ، وكانت الجارية شُحرورِيّة الصوت ، جيدة الصنعة والضرب ، صحيحة التأدية للشعر ، قد أخذت عن الحُذّاق وتزيّدت من نفسها بجودة الطباع ، فهى الغاية القصوى فى هذا الشأن ، فإن اتّفق لها مستمعٌ عارف بالطرائق والضّرب واللحن ومجرى الأصابع ، وقائلِ الشعر وما فيه من العَروض والنحو ، وما فى الصوت من ردّات وترجيحات وشذرات ونقَرات وتشييعات ، كان أوفر فى اللّذّة وأنفق للصناعة .

---

(١) وردت الكلمة قديماً فى التنبيه للمسعودى • وإنباه الرواة للقفطى ١ : ١٩٥ والدرر الكامنة لابن حجر ٣ : ٤٢٠ .

(٢) فى اللسان (شخلب) : « قال الليث : مشخلبة كلمة عراقية ليس على بنائها شىء فى العربية ، وهى تتخذ من الليف والخرز أمثال الحلى . قال : وهذا حديث فاش فى الناس : يا مشخلبة ، ماذا الجلبة ، تزوج حرملة ، بعجوز أرملة . قال : وقد تسمى الجارية مشخلبة بما يرى عليها من الخرز كالحلى » . وانظر المعرب للجواليقى ٣١٥ . وقد جاء قديماً فى قول الوليد بن يزيد :

قد راح نحو العراق مشخلبه ... قصاره السجن بعده الخشبه

الأغانى ١ : ١٦٠ .

(الثالث) : فى الطيّب من الطبيخ واللذيذ من الغناء . اختلف الناس فى ذلك ثم اتّفقوا على أنّ هذا أمر يقال بالقياس إلى السّمع والذوق ، وكلّما كانت هاتان الحاسّتان سليمتين فى جوهرهما ، معتدلتين فى مزاجهما ذكيتين فى حسهما كان ما يدركانه لذيذا فى نفسه وعندهما[1] ، ومتى خرجت عن طباعها — وهذا بلانهاية عندنا — كان اللذيذ بقياسنا لا فى نفسه . ولهذا بعض الناس يَستَفِزه نقرةٌ فيقول : الغناء ما أطرب . وآخر لاهٍ عن تلك النقرة ، وواحد يشتهى لوناً ، وآخر عنده ذلك اللون غير شهىّ .

***

ومن ذلك اعتبارات الصنائع على اختلافها فى العبيد والإماء ، أربعة فصول ، منها .

الطبّاخات : عمدة الطبيخ على طِيب المرق وجودة المزاج ، فإن اتّفق للطّباخة مع هذا جودةُ الصنعة وسرعةُ العمل فذاك غاية الأمل . وقلّ ما يتّفق أن تكون كاملةً فى البوارد[2] والشّواء والطبيخ والحلواء على أصنافها الثلاثة ، فهذا مما يعجز عنه قدر النساء . والذى يمتحنون[3] به الإسفيدباج[4] ، والدّيكبراكة[5]

(١) فى الأصل : « سليمة فى جوهرهما معتدلة فى مزاجهما ذكية فى حسهما كان ما يدركه لذيذاً فى نفسه وعندها » .

(٢) فى حواشى كتاب الطبيخ لمحمد بن الحسن البغدادى بتحقيق الدكتور داود الجلبى ص ٥٦ : « هى البقول المطبوخة الموضوعة فى الأشياء الحامضة كالخل وماء الحصرم والسماق وماء التفاح والريباس والماست . كتاب الأغذية والأشربة من الخمسة النجيبية ، لنجيب الدين السمرقندى » .

(٣) فى الأصل : « يمتحنوا » .

(٤) ضرب من الطعام يصنع من اللحم والبصل والحمص والأبازير . انظر صنعته فى كتاب الطبيخ البغدادى ٣٢ . ويقال له أيضاً « إسفيدبا » كما فى معجم استينجاس ٥٨ . ومعنى كلمة « إسفيد » فى الفارسية الأبيض ، واللامع .

(٥) جاءت فى كتاب الطبيخ ١٢ : « ديكبريكة » . ووجد الدكتور داود جلبى ضبطها فى أصل نسخته بفتح الكاف الأول وسكون الباء وكسر الراء ، قال : « وأظنها من الآرامية : « ديكابريكا » ، ومعناها الديك المبارك » . وصنعة هذا اللون قريبة من صنعة سابقه .

أما الإسفيدباج فلأنّ الأبازير مطيِّبة لها ، وكثرتها يسوِّد مرقها ، وأتقنها بياضُها[1] فلهذا يتعذَّر سلامتها . وأما الديكبراكة فلأنها لون سهل يتبين فى التلطُّف فى منع سهوكتها .

الخُزّان : يختار لحفظ الأموال الروم ، لأنّ السخاء ليس فى لغتهم[2] . واعتبارهنّ يكون بإمراجهن[3] فى مالٍ معلوم الوزن و إهمال مراعاتهنّ والتصفُّح له من بُعدٍ بغتة .

الحواضن والدايات : يختار لتربية الأطفال النُّوبة لأنهن من جنسٍ فيه رحمة وحنينٌ على الولد ، وليس يلقِّنَّ الطفلَ لغةً بَشِعةً ، ويُختار للرّضاع الظِّئر الصحيحة الجسم الحديثة السن المعتدلة المزاج ، المائلة إلى البياض المشربِ حمرة ، الصحيحة الولد واللبن . واعتبار اللّبن أن تقطر على ظفرك منه فإذا صار كالعدسة لا غليظاً مقبباً ولا مائعاً سيّالا ، وكان طيّبا فى رائحتــه ، أبيض فى لونه ، كان جيداً . و بعض الأطباء اختار الزِّنج للرضاع ، لأنّ حرارتهن البارزةَ نحو الأثداء مُنضِجة اللبن ، ولأنّهن لغلَظه أكثر غذاء . وقال قوم : إنّ قياسه قياسُ ابن الأُتُن فى اللّطافة ، لغلظ أجسامهن .

رجال الحرب والنجدة : يُختار لذلك التُّرك والصقالبة ، لحرارة قلوبهم . واعتبارُهم يكون بإيراد الأشياء المفزِّعة بغتة ، كإلقاء الحيات الحرق[4] أو طرح الأشياء التى لها صوت عظيم من علو بين أيديهم .

---

(١) فى التحقيق ٢٥١ : « وحسنها بياضها » .
(٢) فى التحقيق ٢٥٢ : « ليس فى طباعهم ولا أخلاقهم » .
(٣) كذا . وفى التحقيق : « فمن أراد أن يجعل خازناً غلاماً أو جارية فليعتبرهما بإمراجهما » وفى الأصل « بإمراحهن » تحريف . يقال أمرج الدابة : تركها تذهب حيث شاءت .
(٤) فى الأصل : « الحرث » . وفى التحقيق ٢٥٢ : « كإلقاء حيات الحرق » .

ومن ذلك ما يتعلق بالقيان ستة فصول ، شرحها :

العوّادات : يعتبرن بالعشرة الأصوات المعيّن عليها من المائة المختارة ، وخاصة بالثانى ثقيل ، وعموده ثلاث عشرة نقرة .

الرقّاصات : يحتاج الرقّاص أن يكون طريًّا فى طبعه ، مجوّدا فى صنعته ، معتدلا فى جسمه وقامتِه ، عريض الصّدر[١] ليمتد نفسه ، مجدول الحشا لتخف حركته . وهذا يعرف من إحضاره وصياحه ، ويكون قيّما بالبابات[٢] جميعها لا سيما الشّيرازية منها .

الـكرّاعات[٣] يعتبرن بالأرمال والأهزاج والنّصبى[٤] والـكاكانى[٥] .

الزوامر : يختار لهن الزنج لأنهن مطبوعات على الإيقاع . ولما يمنعهن عجومة[٦] ألفاظهن عن الغناء عدل بهن إلى الزمر والرقص .

الطنبوريات : ذوات الطنبور البغدادى ، يعتبرن بالزريقى والحجنى وخفيف رمَل ابن طَرخان . ومن آدابهن على الإجمال إصلاح آلاتهن قبل حضورهن

---

(١) فى الأصل : « الصلب » ، صوابه فى كتاب التحقيق ص ٢٤٩ .

(٢) البابات : الوجوه والطرق، أى طرق الرقص . فى الأصل : « بالنايات » ، صوابه فيا أرى من كتاب التحقيق ٢٤٩ .

(٣) الـكراعة : كلمة مولدة كما فى اللسان (كرع) . وفى شفاء الغليل للخفاجى : « كراعة : مغنية تغنى على طبل صغير . قال ابن الرومى :

ألق إليها أذناً واستمع أبرد ما غنته كراعه » .

(٤) فى الأصل : « العصبي » وفى التحقيق : « النفى » بإهمال الحروف ما عدا الفاء . وقد سبق الـكلام على « النصبي » فى حواشى ٣٢٤ من المجموعة الثالثة .

(٥) كذا فى الأصل .

(٦) انظر ما سبق فى ص ٣٧٤ س ١٥ .

الغناء ، واستصحابها إذا نهضن لا سيما إذا كن بارزات دون الستائر .

الدف بالزرفن[1] .

[صورة ما ورد فى ختام الأصل]

تمت الرسالة فى شرى الرقيق وتقليب العبيد ، تأليف الشيخ أبى الحسن المختار بن الحسن بن عبدون البغدادى المتطبب .

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

---

(١) كذا . وفى كتاب التحقيق ٢٤٩ : « والدفافات ستيرن بالزفن » . والدفافة : الضاربة بالدف . والزفن : الرقص .

هـــداية المريد في تقليب العبيد

صنيـع عـريق الـذنـوب، غـريق بحر العيـوب
راجي عفـو مولاه، والـدخول سـاحـة حمـاه
فقير ربه المتعالى، محمد الغزالي، لطف الله به

مقـــدمـــة

وهذا كتاب آخر ، موضوعه مشابه لـكتاب ابن بطلان ، يتناول الـكلام على اختيار الرقيق ، وكأنه صدى لـكتاب ابن بطلان .

ومؤلف هذا الـكتاب رجل مغمور من رجال العصر العثمانى فى مصر الذى امتد ثلاثة قرون . بين سنتى ٩٢٣ و ١٢١٢ ، هو «محمد الغزالى» الذى لم أستطع أن أعثر له على ترجمة ، ولـكنه فى مقدمة كتابه يهدى كتابه إلى أحد الرجال الرسميين فى مصر ، هو « أحمد بن محمد ، أفندى الديار المصرية » يقول المؤلف فى شأنه « فاجتمعت بمولانا فى خلوة الأنس والمدام ، فاستجزته واستأذنته فأجاز وأذن فى الإقدام ، استعطافاً لخاطر الفقير ، وجبراً منه للقلب الـكسير » .

ونسخة الـكتاب لم أهتد إلى أخت لها فيا أدانى إليه البحث ، وهى مودعة بدار الـكتب المصرية برقم (٤٠ فراســة) كتب على الصفحة الأولى منها : « أمانة سيدى عبدالله شبراوى ولله الحمد فى ٣ من صفر الخير سنة ١١٢٦ عند كاتبه حسن على محفوظ » . وفى آخرها : « عند كاتبه حسن على محفوظ لسيدى عبد الله شبراوى حفظه الله تعالى فى ٣ من صفر الخير شهور سنة ١١٢٦ » .

ولعل هـــذا المـــالك هو الشيخ عبد الله بن محمد بن عامر بن شرف الدين القاهرى الشافعى الشهير بالشبراوى ، تلميذ الخرشى . وكان الشبراوى شيخاً للجامع الأزهر ولد سنة ١٠٩١ وتوفى سنة ١١٧٢ . وترجمته فى سلك الدرر[١] .

وفى الصفحة الأولى من النسخة تمليك نصه « من نعم الله على عبده الفقير محمد الشربينى الجراح ، خادم الفقراء الضعفاء بدار الشفاء فى سنة ٩٩ » . ويحتمل أن تكون سنة ١١٩٩ ، أو ١٢٩٩ .

والنسخة فى ١٢ ورقة صغيرة بهامشها حواش وتعليقات حرصت أن أنقل المهم منها ، لما له من قيمة علمية تاريخية لا لأنه ذو فائدة محققة ، فنحن إنما نعرض هذه المنشورات للتاريخ ولبسط الثقافات العربية القديمة وتقديمها لجمهرة الباحثين .

(١) سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر ، لمحمد خليل المرادى ٣ : ٧ : ١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

وهو حسبي وكفى

حمداً لك يا من أبدع نوعَ الإنسان فى أحسن نظام ، وركَّبه من أعصاب وشراسيف وأوردة ولحم وعظام ، وجعل هيكله معرضاً للصحَّة والأسقام ، ورُوحه مركزاً لـكمال الإنعام ، وصلاة وسلاما على خلاصة العناصر ، قُطب دائرة الوجود محطِّ المآثر ، وعلى آله وصحبه ما استدلّ الآسى على اعتدال المزاج ، واستعمل قانون التدبير فى كيفية العلاج .

و بعد فلمَّا استولى على أرض الخَلَد ، حليفُ التواضعِ موقعُ الاعتقادِ والمدد ، سقَتها هامعة الغَمام من لطافته ، فاهتزَّت وربَت من ظَرافته ، وأنبتت حبة المحبة فالتقطها الأماثل ، وتناولها فضا الأفاضل(١) ، فعادت غذاء الأشباح ، وحياةَ روح الأرواح . وكيف وهى حبّة محبَّة مَن

دعا فأجابته المعانى مطيعةً ... وقد كان منها مَنعةٌ وإباء
وشُرِّفت الدُّنيا بأوصافه التى ... تقاصَرَ عن إدراكها القدماء
وألقت له العَليا زِمام انقيادها ... فمنها له ما يبتغى ويشاء

مولانا مالكِ زمام شريعة سيد المرسلين أحمد ، أحمد بن محمد ، أفندى الديار المصرية ، صاحب الأخلاق المرضية ، لا زال اقترانُ الاسمين عائداً بصلة السِّرّ الربانى عليه ، مشيرا بسَوْق يَعمَلات السَّعادة لديه ، ولا برحَ ابنُ بوجهِ البزيعُ فاتقاً لرتق أبكار المعانى ، محرزاً لقَصَبات السَّبق فى مضمار حَلِّ رموز المبانى ،

(١) كذا وردت العبارة . ولعلها « فضلاء الأفاضل » .

ما غرّدت بنات الأيك على غصون الأشجار ، وفاحت مِسكيّةُ عَرْفِ النّسيم فى غُضون الأسحار ؛ وكان الفقير الحقير ممن له تَرداد على مجلس مولانا أفندى المومأ إليه ، لمزيد حبه للفقراء وحسن تودُّده إليهم ، وشدة اعتقاده فيهم — دعانى الخاطر أن أجمع رسالة فى العلامات الدالة على صحة أبدان الأعبُد ، والعلامات الدّالة على ضعفها ، وذلك لأنَّه مما يَحتاج إليه الإنسان عند شرائهم ، وأن أرتبها على سبعة فصول وخاتمة ، وأن أقدِّمها لمولانا المشار إليه . فأبهمت الخاطرَ أيّاما فوجدته صحيحاً ، لصحَّة علّته الحاملة ، فاجتمعت بمولانا فى خلوة الأنس والمُدام ، فاستجزته واستأذنته فأجاز وأذن فى الإقدام ، استعطافاً لخاطر الفقير ، وجبراً منه للقلب الكسير . وها أنا أشرع فى التّرجمة ثم فى المقصود فأقول :

الفصل الأول : فى العلامات الدالة من جهة مزاج البدن ولونه وهيئة تركيبه وسطحه .

الفصل الثانى : فى العلامات الدالة من جهة الرأس والعنق .

الفصل الثالث : العلامات الدالة من جهة الصدر واليدين .

الفصل الرابع : فى العلامات الدالة من جهة الأحشاء والكليتين والمثانة والأنثيين والقضيب والمقعدة .

الفصل الخامس : فى العلامات الدالة من جهة الرجلين وخصوص الركبة والساقين .

الفصل السادس : فى العلامات الدالة من جهة السمن والهزال ، والطول والقصر .

الفصل السابع : فى العلامات الدالة من جهة كيفية مزاج مطلق البدن وطبعه .

الخاتمة : فيما يناسب العبد إذا اشتراه من الرياضة والراحة والدعة .

الفصل الأول

فى العلامات الدالة من جهة مزاج البدن ولونه وهيئة تركيبه وسطحه ، أى بشرته

ليُعلَمْ يا إنسانَ عين الزمان[(١)] أنه من أراد شراء عبد أبيضَ كان أو أسود ، ذكراً كان أو أنثى ، ينبغى له أن ينظر إلى لون بدنه ، فإن وجده حائلاً كالأصفر دلّ ذلك على غلَبة الصفراء ، وعلى سوء مزاج حارّ مطلقاً ، أو على سوء مزاج حارّ فى خُصوص الكبد . وإن وجده أبيضَ جِصّيًّا دلّ على سوء مزاجٍ بارد ، أو على برد الكبد ورطوبتها وغلبة البلغم . وإن وجده أسود كِدْاً يشبه لونَ الرّصاص دلّ على سوء مزاجٍ بارد يابس ، وعلى برد مزاج الكبد ويبسها ، وعلى غلبة السوداء وضعف الطّحال . وإن وجده أبيضَ تعلوه حمرةٌ قليلة أو أسمر سمرتُه صافية ، أو أسود سوادُه حالك برّاق مع حمرة الشفتَين دلّ على حُسنِ المِزاج وصحة البدن .

وأن ينظر إلى هيئة بدنه ، فإن وجد أعضاءه بعضها أكبر من بعض ، كأنْ وجدَ رأسَه كبيراً ، ورقبته دقيقة ، وصدره ضيقاً ؛ أو وجد رأسه صغيراً ، ورقبته غليظة ، وصدره مخالفا لذلك ؛ أو وجد رأسَه صغيرا ، وبدنه كبيرا ، ورجليه قصيرتين ، دلّ على رداءة الطبع وقبح المنظر . وإن وجدَها حسنةَ الشكل جيدة التركيب متناسبةَ متشابهة بعضها ببعض فى العظم والصغر ، والسمن والهزال ، والطول والقصر ، دلّ على جَودة الهيئة وصحة التركيب .

وأن ينظر إلى سطح بدنه ، أى بشرته ، فإن وجده تضيقاً جداً دلّ على

(١) انظر ما سيأتى فى أول « الخاتمة » .

شدّة الحرارة واليبس ، والاستمداد لحدوث بعض الأمراض . وإنْ وجده سميناً جداً دلّ على كثرة البرودة والرطوبة والبلغم ، ولا يأمن صاحبُه من موت الفجاءة وحدوث المرض البطىء البُرء كالسكتة والفالج ، واللّقوة والصّرْع ، وما يجرى هذا المجرى . وإن وجد فى بدنه موضعا مضيئاً فقد يكون برصاً أو قوباء أو بَهقاً أبيضَ أو أسود . وإن وجد فيه كيّا أو صَبْغا فليتفقّد ذلك تفقداً جيداً ، لاحتمال أنّه فعل ذلك بسبب برص ، وإن وجد موضعاً مغايراً للونِ البدن ، فلينظره نظراً شافياً ، لاحتمال أنّه برص صبغه بالشيطرج[1] أو غيره ، فيغسله المشترِى بالأشنان والخل ، ويدلكه بخرقة خشنة دلكا جيداً ، فإن كان برصا ظهر واتّضح . وإن وجد فى بدنه آثارَ قروح فليسألْ بائعه هل عضّه كلب ؟ فإنْ قال نعم كان ذلك فلا يشتريه ، فإنه لا يأمن من أن يكون ذلك الكلب كلِباً فيؤولَ الأمرُ بصاحبه إلى الخوف من الماء ثمّ الموت ، وإن وجد البدن خالياً عن جميع ذلك سالماً منه دلّ على صحته .

الفصل الثانى

فى العلامات الدالة من جهة الرأس والعنق

وينبغى أيضا أن ينظر إلى رأسه ، فإنْ وجده خفيفا ممرّطا ، ونباتَه متفرقا متباعداً ، دلّ على فساد جلد الرأس ، ورداءة مزاج الدماغ . وإن وجده ليِّنًا ، دل على الجبن ، وإن وجده منتقضا متساقطا بكثرة دلّ على يبس الدماغ . وإن وجد به داء الثعلب أو داء الحية[2] دلّ على أخلاط ردية مفسدة للشعر . وإن وجده سالمًا من ذلك وخشنا دلّ على جودة مزاج الدّماغ والشجاعة .

---

(١) نبات ينبت كثيراً فى القبور والحيطان القديمة والمواضع التى لا تحرث ، له زهر أحمر يطول نحواً من ذراع .

(٢) انظر ماسبق فى كتاب ابن بطلان ص ٣٨١ .

وأن ينظر إلى جلدة الرأس فإنْ وجد بها حَزَازاً[١] ، أو شـعلفة[٢] وبثراً ، أو أثر قروح وجرْح غائر ، دلّ على عظمٍ قد سقط من القِحف ، وهذا ردئٌ لا يؤمن أن يقع بهذا الموضع صدمة أخرى من شىء حادّ فيبلغ الدماغ فيخرجه ، أو من شىء ثقيل يرضّه فيتلفه .

وأن ينظر إلى شكل القِحف ، فإن وجده مسفَّطا جدًّا[٣] دلّ على الرداءة من جهتين : أحدهما : سرعة الصَّرْع ، وثانيهما قبح المنظر .

قال صاحب لقط المنافع[٤] : أما صغر الرأس وكبره فسببه المادة النُّطْفية ؛ إن قلّت قلّ ، وإن كثرت عظم .

وإذا كان الرأس صغيراً حسن الشكل ، كان أقلّ رداءة من الصغير الردىء الشكل ، على أنه لا يخلو من رداءة هيئة الدماغ ، وضعف من قواه . ولهذا قال أصحاب الفراسة : يكون هذا الإنسان لجوجاً سريع الغضب متحيِّراً فى الأمور .

قال جالينوس : لا يخلو صِغر الرأس البتة عن دلالةٍ على رداءة هيئة . وكبر الرأس ليس دليلاً فى كلّ وقت على جودة الدماغ ما لم يقترن به جودةُ الشكل وغِلَظ العنق وسعةُ الصدر ، فإنها تابعة لعِظَم الصُّلب والأضلاع التابعَين لعظم النخاع وقوّته التابعَين لقوة الدماغ .

وإذا كان الرأس مستديراً دلّ على بُعده عن الخير إذا كانت الجبهة مستديرة ، والوجه طويلا والرقبة غليظة ، وفى العين بلادة .

(١) فى حاشية الأصل : « الحزاز وهو النخالة التى تكون فى الرأس ، سببها مادة حادة بورقية أو سوداوية أو دم سوداوى أو أبخرة حادة أو يبس » . وفى اللسان : « والحزاز : هبرية فى الرأس كأنه نخالة ، واحدته حزازة » .

(٢) كذا وردت هذه الكلمة . ولعلها « السعفة » وهى قروح تخرج بالرأس .

(٣) انظر ما سبق فى حواشى ٣٥٩ .

(٤) هو ابن الجوزى . ولقط المنافع ، كتاب له فى الطب جعله على سبعين باباً ، ثم اختصره وسماه مختار المنافع . كشف الظنون .

وأن ينظر إلى عينه ، فإن وجدها عظُمت فهو قبيح كسلان ، وإن وجدها غارت فيه داء خبيث ، وإن جحظت فهو وقح مهذار ، وإن وجدها ذاهبةً فى طُول بدنِه فهو مكّار خبيث ، وإن وجدها كأنها ناتئة[١] وسائر العين لاطٍ[٢] فهو أحمق . وإن وجدها صغيرةً غائرة فهو مكار حسود . وإن وجدها ناتئة[٣] صغيرة كعين السرطان فهو جهولٌ ميّال إلى الشهوات . وإن وجدها كبيرة ترعد فهو شرّير إن صغرت حدقتها . وإن وجدها عظيمة فهو قليل الشر عظيم الحُمق[٤] . وإن وجد حدقتها شديدة السَّواد فهو جبان . وإن وجدها زرقاء صغيرةً فهو كسلانُ بطّالٌ كثير المحبّة للنساء . وإن وجدها زرقاء مشوبةً بصُفرة كالزّعفران فهو رديء الأخلاق جدًّا . وإن وجدها زرقاء وهو أشقر اللون فهو رديء جداً . وإن وجدها زرقاء مشوبةً بصُفرة وخضرة كالفيروزج فهو أردأ الناس . وإن وجد فيها نُقطاً حُمراً أو بيضاً فهو شر الناس وأردام . وإن وجدها بيضاء بياضُها كدر فهو غير جيِّد الحدقة . وإن وجدها مع ذلك مستديرة كعين الأسد ، والوجه متحجِّر ، فهو ممن حدث له الجُذَام . وإن وجدها شهلاء فهو جيِّد العين . وإذا لم يكن شَهَلها شديد البريق ، ولا مشوباً بصفرة ولا حمرةٍ فهو شديد جودة العين . وإن وجد فى عينه عُروقاً حمراء دلّ على حصول السَّبَل له[٥] ، وإن وجد حاجبَها

---

(١) فى الأصل : « ثابتة » ، صوابه من كتاب جل أحكام الفراسة س ٣ . والناتئة : المرتفعة .

(٢) اللاطئ : اللازق .

(٣) فى الأصل : « ثابتة » ، صوابه من كتاب جل أحكام الفراسة .

(٤) نص الرازى : « صاحب العين الكثيرة الرعدة شرير إن كانت صغيرة ، وإن كانت عظيمة نقص من الشر وزاد فى الحمق » .

(٥) جاء فى حواشى الأصل : « السبل : عروق تمتلئ دماً وتسودّ وتحمر ، وأكثره مع سيلان دم وحرة وحكة . وهو ثلاثة أنواع : أحدها يعرف بالسبل الرطب ، كأنه نسيج العنكبوت بعروق حمر دقاق ويكون معه رطوبة عظيمة فى العين . والثانى يعرف بالسبل اليابس وتكون معه العين ناشفة كأنها صحيحة غير أن العا (؟) يكون مسبلا . والثالث المستحكم الذى قد غلظ ومنع البصر وبيض الحدقة » .

كثير الشعر فهو كثير الهم والحزن غثُّ الكلام ، وإن وجد مُأْقها الذى يلى الأنف تسيل منه رطوبةٌ فليعصِره فإن خرج منه زيادةُ رطوبةٍ دلّ على مرض الناصور[١] ، وإن وجد فى هذه المآق زيادةَ لحميّة ناتئة منبسطة نحو الحدقة فهى ظَفَرة[٢] ، وإن وجد جفنها منتثرة[٣] ، دلّ على مادّة حادّة تصل إلى أصول الأجفان فتمنعها من جودة البصر وتسقطها ، وإن وجد الجفن ثقيلا مسبلا دلّ على غلظ أو جربٍ أو شَعرة . وإن وجده منكسراً أو مكبوباً من غير علة فهو ماكرٌ أحمق كذّاب .

وينبغى له أن يمتحن بصرَه قوّة وضعفاً ، بأن يريَه أجساما مختلفة الأشكال فإنْ كان لا ينظرها نظراً جيِّداً ، أو كان ينظر إلى القريب منها نظراً جيِّداً دون البعيد أو بخلاف ذلك فبصرُه ردىء ، ودلّت العلامة على آفةٍ قد نالت الدّماغ والرُّوح الباصر .

وأن ينظر إلى سمعِه ، فإن وجدَه ثقيلاً بأن يكلّمه فلا يجيبه ، دلّ على أنّ بسمعه آفةً ، إما من شدّةٍ عارضة فى ثَقب الأذن ، والشدة إما من لحم نابتٍ أو ثألول[٤] ، أو من قبل شىء عارض . فإن كانت من شىء عارض ، كحصاةٍ أو فُولة أو شعيرة أو وسخ ، فإنها تزول بالآلة التى يُخرج بها ما يَسقُط فى الأذن . وإن كانت من غير ذلك فبرؤه عسر ، وإن وجده كبيرَ الأذُن جاهلٌ بليدٌ طويل العمر .

وأن ينظر إلى أنفه ، فإن وجد غِلَظًا [أو] جَسًا[٥] ، دلّ على أن هناك لحما

---

(١) انظر ما سبق فى ص ٣٦١ .

(٢) انظر ما مضى فى حواشى ص ٣٦١ .

(٣) كذا فى الأصل .

(٤) هذه لغة عامية فى « الثؤلول » نص عليها ابن الجوزى فى تقويم اللسان . والثؤلول : واحد الثآليل ، وهو الخراج يخرج فى الجلد .

(٥) فى الأصل : « فإن وجده غليظا جشا » تحريف . انظر له ما سيأتى فى أول الفصل الرابع . والجسا : اليبس .

زائداً وقروحا فى المنخرين ، فينبغى أن ينظرَ إليه فى موضع مضىء مقابلِ الشمس ليظهرَ له ذلك .

قال صاحب لقط المنافع[1] : من كان طرفُ أنفه دقيقاً فإنّه يحب الخصومة ، ومن كان أنفه غليظا ممتلئاً فهو قليل الفهم ، ومن كان غليظَ الشَّفَة فهو أحمق غليظ الطبع ، ومن كان قليلَ صِبغ الشَّفَة فهو ممراض ، ومن كان كثير لحم الخدَّين فهو غليظ الطبع .

وأن ينظر إلى لسانه فإن وجده ثقيلا أو ألثغ أو ليس بيِّن الكلام دلَّ على صِغَر اللسان أو غِلَظه أو قصره ، أو قَطْعِ جزء منه ، أو آفةٍ للعصَب اللسانى ، أو غير ذلك من الآفات ، أو من سنّ قد انقلعت . و إن وجد فيه آثارَ قُروح قد اندملت ، فليسألْ صاحبَه عن السبب ، فإن قال سببه قُرحةٌ عرضت فى لسانه ، أو ورمٌ انفجر واندمل ، فلا يشتريه حتى يفحص عن ذلك فحصاً جيداً ، لاحتمال أن انصرَعَ فعضَّ لسانَه فتورَّم وتقرَّح ، وأن يسمع صوتَه فإن وجده أبحَّ حادًّا دلّ على أنَّ هناك جُذامًا سيظهر .

وقال بعض الأفاضل من العلماء : حُسن الصوت دليلٌ على الحمق وقلَّةِ الفطنة .

وأن ينظرَ إلى أسنانه ، فإن وجدها ساقطةً ، ولا سيما الثنايا والأنياب والأضراس ، دلَّ على القبح ، والمنع من بيان الكلام والمنع من جودة المضغ ، وإن وجد سقوطها من قبل أن يُثغر فإنه إذا ثُغرت عادت أجود مما كانت ، وإن وجد سقوطها من بعد إثغاره فإنها لا تعود . وأن ينظر إلى لون أسنانه ، فإن وجده أبيضَ أو أسودَ فهو عيبٌ قبيح إلاَّ [أن] يكونَ قبلَ إثغاره فإنَّ الإنسان إذا ثُغِر عادت أسنانه ولونُها إلى أحسنَ ما كانا وأجوَد وأقوى .

(١) انظر ما سبق فى حواشى ٣٩٧ .

قال أبو الفرج بن الجوزى[١] رحمه الله : وتفريق الأسنان وضعفها ورقتها دليل على ضعف الجسد[٢] وقصرِ العمر . واللَّحم الكثير الصُّلب دليلٌ على غِلَظ الحسّ والفهم . ومن وقَعَ عليه عند الضَّحك سُعال أو ربو فإنَّه وقِحٌ سليط .

وقال فى موضع آخر : وأن يتفقّد أسنانه ، فإن القويّة طويلةُ البقاء ، والرّفيعة[٣] سريعةُ السُّقوط ، والضعيفة المتفرّقة تدلُّ على قصَر العمر .

وأن ينظر إلى لَثاة أسنانه ، فإنْ وجدها متشعّبة أو مسترخية أو فيها قروح[٤] دلّ على الرداءة . وأن يشتمّ نكهته ، فإن وجدها متغيّرة ، فتغيُّرها إمّا من عُفونةِ اللّثاة أو من ضِرس متآكل أو من بلغمٍ عفنٍ فى المعدة . فإنْ كان من الأوّل فيزول بتقوية اللّثة بالأدوية القابضة ، واستعمال الأدوية الحارّة ، وإن كان من الثانى فيزول بقَلع الضرس المتآكل ، أو بتنقيته أو بكيّه ، وإن كان من الثالث فلا يسهل برؤه .

وأن ينظر إلى لَهاته ، فإن وجدها نازلةً إلى السُّفل كثيراً دلّ على الرّداءة ، من جهة أنه متى عرض لها ورمٌ تبعه الخُنَاق . وإن وجدها مسترخيةً دلّ على الرّداءة من جهة أنَّ صاحبه يَعرِض له السُّعال كثيراً .

وأن ينظر إلى حلقه من خارج ، ويمسّ الغدد التى هناك ، فإن وجدها ظاهرةً

(١) يعنى ، فى كتابه « لقط المنافع » .

(٢) فى حواشى الأصل : « قال السموأل : واجتماعها أجود من تفرقها ، وإن كان الشنب مذهباً محبوباً عند العرب » . قلت : السموأل هنا هو السموأل بن يهوذا المغربى ، من العلماء الذين قدموا إلى المشرق ، وأقام بمدينة المراغة صباغة أذربيجان ، وأولد أولاداً سلكوا طريقته فى الطب ، وأسلم فحسن إسلامه ، وصنف كتاباً فى إظهار معايب اليهود وكذب دعاويهم فى التوراة ، ومات قريباً من سنة ٥٧٠ . القفطى ١٤٢ .

(٣) الرفيعة هنا بمعنى الرقيقة . وهى صحيحة . جاء فى شرح درة الغواص للحريرى ص ١١٨ : « والناس يقولون ثوب رفيع بمعنى رقيق ، كذا فى أدب الكاتب ، وهو مجاز ، ولذلك أهملوه فى كتب اللغة » .

(٤) فى الأصل : « قروحاً » .

تحت الملمس مع صلابةٍ كان ذلك دليلاً على الخنازير[١] .

وأن ينظر إلى لون وجهه ، فإن وجده مثل لهب النّار فهو عجول مجنون ، وإن وجده رقيقاً فهو مستحيي ، وإن وجده أخضر أسود فهو سيِّئُ الخلق . وأن ينظر إلى استدارة وجهه ، وإلى نحافته ، وإلى صغرِه وطُوله ، فإن وجده شديد الاستدارة فهو جاهل ، وإن وجده نحيفاً فهو مهتمٌّ بالأمور ، وإن وجده صغيراً فهو دنيء خبيثٌ مَلاَّقٌ ، وإن وجده طويلا فهو وقح . وأن ينظر إلى عنقه ، فإن وجده قصيراً جداً فهو مكّار خبيث ، وإن وجده طويلا دقيقاً فهو صيّاح أحمق جبان . وإن وجده كثير الشعر فهو أحمق شديد الحرارة .

الفصل الثالث

فى الملامات الدّالّة من جهة الصدر والإبطين واليدين

وينبغى له أيضاً أن ينظر إلى صدره ، فإن وجده ضيقاً والكتفان مرتفعان كأنّ له جناحين والظهر منحنياً دلّ على مرض السلّ ، لا سيّما إن كان فى سنّ الحداثة والشباب وكانت النزلات تعرض له كثيراً[٢] .

وأن ينظر إلى باطنه ، فإن وجد فيها غُدَداً دلّ على حدوث خنازير هناك .

وأن ينظر إلى يديه بعد أن يجمعهما ، ويقيس إحداهما بالأخرى ، فإن وجدهما

---

(١) فى القاموس أن الخنازير قروح تحدث فى الرقبة . وفى حواشى الأصل : « الخنازير ورم صلب شبيه بالغدد ، أما فى اللحم الرخو الذى هو فى العنق أو الذى فى الأربيتين أو الذى تحت الأبطين ، وأكثر ما يكون هذا الورم فى مقدم العنق وفى جوانبه . ويكون إما غدة أو غدتين أو ثلاثا وأكثر ، وكل واحدة لها صفاق خاصة كالسلع . وإنما سمى هذا الصنف خنازير لأن هذه الغدد تكون فى أرقاب الخنازير . [وقال] قوم لأن الخنازير [تعرض به أيضاً] » .

(٢) فى حواشى الأصل : « النزلة هى تحلب فضول رطبة من بطنى الدماغ المقدمين إلى المنخرين » .

قصيرتين ، أو إحداهما قصيرة والأخرى طويلة دلّ على الرداءة والقبح ، والمنع من جودة الأعمال .

وأن ينظر إلى ساعده فإن وجـده ملتوياً لعلة عرضت فهو عيب ردىء ، وإن وجده ينقص عند ليّه عما يحتاج إليه دلّ على آفة عرضت للزَّند الأعلى . وإن وجد مَفصِل مرفقه ينقص عند التواية عما يحتاج إليـه دل على آفة عرضت للزند الأسفل .

وأن ينظر إلى مِعصَميه ، فإن وجد بهما شبه ورمٍ صغير وإذا لمسه وجد تحت اللمس ما يشبه العِرق أو الدُّود ، فإن ذلك يدل على وجود العِرق المدينى[1] .

وأن ينظر إلى كفه ، فإن وجده عسِر الحركة عند قبضها أو بسطها فهى رديئة . والدَّليل على قوَّة يده وضعفِها أن يأمره المشترى أن يقبض على بعض أعضائه قبضاً شديداً ، فيظهر بذلك قوةُ اليد وضعفُها[2] .

الفصل الرابع

فى العلامات الدالة من جهة الأحشاء والـكُليتين والمثانة والأنثيين والقضيب والمقعدة

وينبغى له أيضاً أن يتفقد أحشاءه[3] ، فإن وجد فى الناحية اليمنى أو اليسرى غِلظًا أو جَساً[4] بعد أن يأمره أن يستلقى[5] على ظهره ، ويكون رأسه غير

---

(١) فى حواشى النسخة : « للمدينى بثرة تحدث فى الساقين تتنفط . . ثم يخرج منها شىء [كالدو] د ، ولا يزال يطول ، وربما كان له حد لحدة مادته ومدة توجع ، قطعه خطر » .

(٢) فى حواشى النسخة : « قال السموأل : وينبغى أن ينظر إلى أكل الجارية وعملها للأشغال فربما كانت الجارية تأكل بيدها اليسرى وتعمل بها أكثر أعمالها ، وذلك من العيوب » .

(٣) فى حواشى الأصل : « إنما عدلنا فى هذا الفصل عن التعبير بالنظر إلى التعبير بالتفقد لأن هذه المواضع لا يجوز النظر إليها » .

(٤) الجسا : اليبس ، يقال جسيت اليد وغيرها جسواً وجسا : يبست .

(٥) فى الأصل : « يلتق » .

مرتفع ، ويبسط يديه نحو رجليه ويَشيل ركبتيه إلى فوق ، ويصفّ قدميه ، ويلمس مَرَاقَّ بطنه[١] من موضع فم المعدة وما دُون الشَّراسيف إلى أن ينتهى إلى العانة ، ويمرّ بيده على ذلك مروراً شافياً — دلّ ذلك الغلظ أو الجَسَا[٢] على أن فى الكبد أو الطحال ورماً رديئاً يؤدى إلى الاستسقاء ، لا سيَّما إن رأى مع ذلك لونَ البدن رديئاً مائلا إلى البياض ، وأسفل الجفن الأسفل متهيِّجا .

وينبغى له إذا أراد شراء جارية أن يتفقَّدها ، فربما يجد منها فيما بين السُّرة إلى العانة غلظاً أو صلابة ، فإن وجد ذلك دلّ على سرطانٍ فى رحمها[٣] ، وليتفقَّدها أيضاً إذا هى حاضت ، لاحتمال أن يعرِض لها الغشى الشَّبيه بالسَّكتة ، فإن وجدَ بها ذلك ، دلّ على أن بها اختناق الرحم ، وهـذا ربَّما أوجد موتَ الفُجاءة .

وأن يتفقَّد كُليتيه ومثانته ، فإن وجد فيهما أو فى أحدهما الحصاة ، دلّ على العيب الردىء ، ويعرف ذلك من وجود رمل فى بوله .

قال بعض الحكماء : لطافة البطن تدلُّ على جودة العقل ، ودقة الأضلاع ورقَّتها تدلُّ على ضعف القلب .

وأن يتفقَّد أنثييه فإنْ وجد عروقَهما أخذت فى الاتّساع ، دلَّ على حدوث العِرق المسمَّى بالدالية ، وهو لا يظهر فى أوّل الأمر ، بل يبدو شيئاً فشيئا على طول المدَّة ، ثم يعقبه آفة قويّة شديدة . وأن يتفقد قضيبه ، فإن وجد النقث[٤] الذى فى جانب الكَمَرَة الموجب لعدم استقامة البول مع جريانه إلى أسفل ، دلّ

---

(١) مراق البطن : أسفله وما حوله مما استرق منه ، وهى المواضع التى ترق جلودها ، قال الهروى : واحدها مرق ، وقال الجوهرى : لا واحد لها .

(٢) فى الأصل : «الجس» تحريف . انظر ما سبق فى الحاشية (٤) من الصفحة السابقة .

(٣) فى حواشى الأصل : « السرطان مرض سوداوى علامته أن يكون صلباً شديداً الصلابة بمنزلة الحجارة متمدداً ، ويكون شكله شبيهاً بالسرطان » .

(٤) كذا فى الأصل .

على الرداءة فى التوليد ، لأنّ المنىّ يحتاج إلى الاستقامة عند مروره فى الرّحم كى يصل لأقصاه .

وأن يتفقّد مقعدته ، فإن وجد بها بواسير أو توثا[1] أو نواصير ، دلّ على الرداءة .

الفصل الخامس

فى العلامات الدالة من جهة الرجلين مطلقا ، وخصوص الركبة والساقين

وينبغى له أيضاً أن ينظر إلى رجليه بعد أن يأمره المشترى أن يجمعَ رجلَيه ، ويصفّ قدمَيه فى موضع مستوٍ ، فإنْ وجد إحداهما أقصرَ من الأخرى فذاك عيبٌ ردىء ، دل على تشنُّج أو عرج نالَه من قِبَل عرق النَّسا . ويأمره بالمشى فإنْ يكن فى خطاه تقصير دلّ على قوّة العصب ، وسلامة المفاصل ، وإن كان الأمر بخلاف ذلك دلّ على آفةٍ قد نالت العصب أو مَفصِل الورك أو غيرَه من مفاصل الرجل .

وأن ينظر إلى خصوص الرّكبة ، فإن وجد بها ورماً صلباً ، أو الورم المعروف بالشّوكة[2] ، فإنّه ربّما لم يبرأ ، ويؤدّى بصاحبه إلى دقّة الساقين والزّمانة ، وإن وجد فيها اعوجاجاً أو مَيَلا فهو داء قبيح .

وأن ينظر إلى خصوص السّاقين ، فإن وجدهما متقوّسين أو متقلبين[3] إلى خارج ، فهو عَرَض ردىء يضرّ بالمشى مَضرّة قوية . وإن وجد عُروق باطن السّاقين أخذت فى الاتّساع فهو سببٌ لحدوث العروق المسمّاة بالدالية . وإن وجد فى الساقين غِلظاً وصلابةً وامتلاء فى موضع الكعبين إلى فوق فذلك يدلُّ على حدوث العلة المسمّاة بداء الفيل .

---

(١) كذا فى الأصل . (٢) فى اللسان : « الشوكة : داء كالطاعون » .
(٣) كذا . والساق مؤنثة .

الفصل السادس

فى العلامات الدالة من جهة السِّمن والهزال ، والطول والقصر

وينبغى له أيضاً أن ينظر إلى جسمه ، فإن وجده سميناً فلا يشتريه ، لأنّ الشُّمنة[1] رديئة جداً ، لاسيّما السّمنة بالطبع ، فإنّها مستعدة لحدوث أمراض رديئة لأن الحرارة الغريزية تكون فيها ضعيفة لضِيق عروقها ، وضيقُ العروق فيها لشيئين : أحدها برد المزاج . ثانيهما ضغط الأعضاء السمينة لها ، فأصحابها لذلك أقل أعماراً ، لأن ضيق العروق يتبعه ضعف الحرارة الغريزية ونقصانُها ، وهذان يتبعان نقصان الروح ، وهم معرضون للسكتة والفالج وعسر النفس .

ومن أفرط سمنه وكان ممراضاً ، فهو على خطر . وإن وجده قضيفاً مهزولا نحيفاً فلا يشتريه ، لأن النحيف ردىء لِمَا يغلب على مزاجه من اليُبس ، فهو لا يقدر على الرياضة والأعمال الكثيرة ، لأن ذلك مما يسخّنه و يجفّفه فيزداد نحافة . وصاحب النحافة لا يقدر على الحرّ والبرد ، لأنهما يصلان إلى أعضائه الباطنة بسرعة فيعرّيانها من اللحم . وإسهال النحيف خَطر .

وإن وجده معتدلّا ليس بالسمين ولا بالهزيل ، فليشتريه[2] فإنه من أحسن العبيد بدناً ، وأدومهم صحة ، وأصبرهم على الأعمال ، وأبعدِهم عن الأمراض ، لأن الحرارة الغريزية متوفرة فيه ، والهضم جيِّد ، والأعضاء قوية لذلك .

وإن وجده طويلًا دلّ ذلك على غباوته وغفلته وقلة عقله . وإن وجده قصيراً دل ذلك على خُبثه وخداعه ومكره .

---

(١) هذه الكلمة بمعنى السمن مما لم يذكر فى المعاجم المتداولة . وقد وردت بهذا المعنى أيضاً فى شرح الحماسة للمرزوقى ١٢٦٢ ، ١٤٣٦ .

(٢) كذا جاءت بالأصل . وإثبات حرف العلة مع الجازم لغة لبعض العرب ، كقوله :

ألم يأتيك والأنباء تنمى ... بما لاقت لبون بنى زياد

قال الجاحظ : الغباوة والغفلة فى الطِّوال أكثر ، والخُبث والخداع فى القصار أبيَن ، واللُّطف فى النِّحاف والقِضاف أظهر ، والفِلظة والجفاء فى السِّمان أكثر ، وما سوى ذلك نادر .

قال صاحب لقط المنافع : قالوا : والطِّوال من الناس فى الشبيبة أحسن ، وفى الكبر أقبح ، لسرعة الانحناء إليهم . والمعتدلون فى الطُّول صالحو الحال .

قال الجاحظ : أجمعَ الناسُ على أنْ ليس فى الدنيا أثقلُ من أعمى ، ولا أبغض من أعوَر ، ولا أخفُّ روحاً من أحوَل ، ولا أقوَدُ من أجدَب .

قال بعض الحكماء : لا تبتاعنَّ مملوكا قوىَّ الشهوةِ فإنَّ له مولًى غيرك ، ولا قوىَّ الرأى فيستعمل الحيلةَ عليك . لكن اطلبْ من العبيد مَن كان حسن الانقياد ، قوىَّ الجسم ، شديد الحياء . واعلم أنه ما من شىء تنتفع به إلاَّ وفيه مضرّة ، فإن الخادم الذكىّ الفطن الذى يُريحك من كدِّ الإفهام ويُقنِعه منك الإشارةُ فى تبليغ الأغراض ، لا تقدر أن تستر عنه شيئاً من أمرك ، فسرُّك معه شائع ، وهو قادر لفطنته على الاحتيال عليك فى كل ما تريد . وإن كان الخادم غبيًّا وقفت أمورُك ، وانكسرت أغراضك ، ولا يفى كتمانُ سرِّك بوقوف أغراضك . فينبغى أن تستخدم الفطناء فى الأمور الخارجة عن المنزل ، وتستخدم البُلْه فى الأمور الداخلة . وكذلك الأصدقاء فى معاملتهم والمعاملون .

الفصل السابع

فى العلامات الدالة من جهة كيفية مزاج مطلق البدن وطبعه

فعلامات رطوبة مزاج بدنه كثرة الشحم ، ، واعتدال اللحم ، ولِين الجسَد ، ورخاوة الجلد ، وضَعف العصب ، واسترخاء المفاصل ، وعدم الشَّعر ، وكثرة النوم

وعلامات يبس مزاجه ، قضافة البدن ، وصلابة الملمس ، وقلّة الشحم .

وعلامات حرارة مزاجه سخونة الملمس ، وحمرة اللون ، وسرعة نبات الشعر وكثرته وخشونته وسواده ، ويكون صاحبه ذكيًا فطناً سريع الحركة والغضب ، عجولًا مبادراً ، غير متثبت ، شجاعاً بطلا مقداماً متهوّراً[(١)] قليل التهيب للأمور العظام ، ويكون نبضه سريعاً متواتراً ، ويكون هو سريعَ النموّ والنشوّ ، قويَّ الشهوة ، جيِّد الهضم ، كثير الباه ، كثير اللحم ، قليل الشحم ، جهش الصوت[(٢)] .

وعلامات برودة مزاجه برودة الملمس ، و بياض اللون ، وقلّة الشعر و بياضه و بطء إنباته ، ويكون صاحبه بطيء المشي ، بليداً قليل الفهم ، ثقيل اللسان ، بطيئاً فى الحركات ، متوقفاً فى الأمور ، جباناً فزِعاً خائفاً قليل الغضب .

وعلامات حرارة ورطوبة[(٣)] مزاجه كون الشعر أسود رَجِلًا سبطا ، وكثرة اللحم وقلة الشحم وحرارة الملمس ولينه ، فإن غلبت الرطوبة كان البدن ممراضاً لحصول التعفّن ، وإن غلبت الحرارة كان البدنُ أصحّ . وإن كانا معتدلين كان اللون مختلطاً فى الحمرة والبياض .

وعلامات حرارة و يبوسة مِزاجه : كثرةُ الشعر وجعودته وسواده — لأنّ مادة الشّعر هو البخار الحارّ اليابس الذى يخرج من مسامّ البدن ، ويدفع بعضه بعضا إلى خارج ولا ينقطع خروجه — وقضافة البدن ، وحرارة الملمس ، وأُدمة اللون ، والذّكاء والذهن والشجاعة وقوّة الشهوة ، وجودة هضم الأغذية الغليظة ، والحرص على الباه .

وعلامات برودة ورطوبة مزاجه سبُوطَة الشعر[(٤)] وشُقرته و بياض اللون ،

(١) فى الأصل : « مهوراً » .
(٢) كذا وإنما يقال أجش الصوت ، أى غليظ .
(٣) فى الأصل : « وبرودة » .
(٤) سبوطة الشعر ، أى انبساطه واسترساله . وفى الأصل « شوطة الشعر » .

وسمن البدن من كثرة الشحم ، ويكون صاحبه بليداً كثير النسيان ، قليل الفهم ، جبانا ، ضعيف الشهوة ، بطىء الهضم ، قليل الباه .

وعلامات برودة و يبوسة مزاجه بياض اللون الذى يضرب إلى الكمودة ، وقضافته ، و برودة الملمس وشقرة الشعر الذى يضرب إلى الصُّفرة ، مع قلته ، وامتناع الباه .

وعلامات مزاج البدن المعتدل : أن يكون متوسِّطا فى الهزال والسِّمَن ، وأن يكون لونه مختلطا ببياض وحمرة ، أشقر إلى الحمرة ما دام صبيًّا ، فإذا صار إلى سنّ الشباب صار الشَّعر أسود ، ويكون ملمسه معتدلا فى الحرارة والبرودة ، والصَّلابة واللِّين ، بمنزلة جلد بطن الراحة ، ويكون فِهمًا فطِنا عاقلا ، شجاعًا غير أهوجَ ولا جبان ، بَيْنَ الرحيم والقاسى ، عفيفًا متوسطا فى العلامات .

الخاتمـــة

فيما يناسب العبد إذا اشتراه ، من الرياضة والراحة والدعة

ليُعلَمَ يا مِغناطيسَ الفؤاد[1] ، أنَّ من اشترى عبـداً ينبغى له أن يستعملَه فى الرياضة ، وهى عند الأطبّاء عبارةٌ عن الحركات البدنيـة ، ولها وقتٌ وفوائدُ وغاية تنتهى إليها .

فوقتها قبـل الغِذاء ، حين يكون البدنُ نقيًّا ويكون طعامُ أمسٍ قد انحدر وانهضم ، وحضرَ وقتُ طعامٍ آخر . ولا تجوز الرياضة فى وقت الجوع . واستعمالُها قبل انحدار الطعام مولِّد للسُّدَد فى العروق التى بين الـكبد والمعا .

قال جالينوس : رياضة قبل الطعام خير عظيم ، وسببٌ وكيدٌ فى حفظ الصحة

---

(١) انظر ما سبق فى مبدأ الفصل الأول ص ٣٩٥ .

ومن فوائدها : تنبيه الحرارة الغريزية التى فى البدن ليَقوَى بذلك على جذب الغذاء وسرعة هضمه وقَبولِ الأعضاء له ، وتنظيفُ فضُول البدن وتحليلُها ، وتنقية المنافذ ، وتوسيع المسام ، وتصليب أعضاء البدن[1] ، وتنضيج الطعام الغير النضيج .

والرِّياضة بعد الغِذاء خطأ ، لأنها توجب انحدار الطعام وهو غير منهضم ، فإنْ كان لزِجًا وصادف مجارىَ ضيِّقة أحدث سُدَدا ، وإلّا أوجَب أمراضا مختلفة .

وغايتها أن يحس الإنسانُ بالعِىّ والتَّعب .

ومن أنواع الرياضة الرُّكوب لمن اعتاده ، والمَشْي السريع ، والقراءةُ بصوتٍ عال ، والرَّمى بالنِّبال ، والثِّقاف والصِّراع ، واللَّعب بالأُكرة[3] ، والصعود والقعود فى المراجيح ، والمباطشة ، وشَيل الأحجارِ والأعمدة ، والتَّصفيق والشِّباك ، وتحريك أوتارَ الميدان ، وضرْب الطبول ، وتحريك الرِّجلين بسَعة الخُطَى وغيرها ، والانحناء والاستلقاء ، و بَسط القامة[4] ، والدَّلك بالأيدى والمناديل .

وأما الراحة والدعة ، فهما ضدُّ الرياضة ، ويخشى منهما إذا داما أن تنطفئ البرودة والحرارة الغريزية ، فإنهما يحدثان فى البدن البرودة والرطوبة ، وكَثرةَ البلغم والفضول ، ويُفسدان المزاج ، وقد يُحدثان حرارةً لاحتقان البخار الحارّ .

قال جالينوس : السكون الدائم يخاف منه أن يُطفئ الحرارةَ الغريزية .

فينبغى لمن أراد حِفظ صحته أن يتجنب الدَّعة ، إلا أن يكون البدن متخلخلا .

وليتعهّد صاحبُ الدَّعة نفسَه كلَّ قليلٍ بالتنقية .

نقَّى الله نفوسَنا من درَن الذنوب ، وغفر لنا العيوب ،

بجاه ترجمان لسان الغيوب . آمين

---

(١) فى الأصل : « توسع » و « تصلب » بدل « توسيع » و « تصليب » .

(٢) الثقاف والثقافة بالكسر فيهما : المجالدة بالسيوف .

(٣) فى اللسان (أكر) : « ومن العرب من يقول للكرة التى يلعب بها أُكرة ، واللغة الجيدة الكرة » . وفى القاموس : « الأُكرة بالضم : لغية فى الكرة » .

(٤) سابقة ساذجة لما يسمى اليوم « الألعاب السويدية » .

الفهارس العامة

المجلد الأول

من نوادر المخطوطات

١ – فهرس الأعلام(*)

(*) ما قرن من الأعلام بنجم فهو مما ورد فى الشعر فقط .

٢ – فهرس القبائل والطوائف ونحوها

٣ — فهرس البلدان والمواضع ونحوها

٤ — فهرس الأشعار

(١) ولجرير أيضاً .

شطر بيت

تخميس

٥ — فهرس الأرجاز

٦ — فهرس الأمثال

٧ — فهرس الكتب

التي وردت في أثناء نصوص النوادر

مراجع الشرح والتحقيق

اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطمية الخلفاء ، للمقريزى ، تحقيق الدكتور الشيال . دار الفكر ١٣٦٧ .
الإحاطة ، فى أخبار غرناطة . طبع الموسوعات ١٣١٩ .
أخبار عبيد بن شرية الجرهمى ، حيدر أباد ١٣٤٧ .
إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، للقفطى . السعادة ١٣٢٦ .
أدبيات اللغة العربية ، للجنة من رجال نظارة المعارف . بولاق ١٩٠٦ .
أساس البلاغة ، للزمخشرى . دار الكتب ١٣٤١ .
أسد الغابة ، لابن الأثير . الوهبية ١٢٨٦ .
الاشتقاق ، لابن دريد ، تحقيق وستنفلد . جوتنجن ١٨٥٣ .
الإصابة ، فى أسماء الصحابة ، لابن حجر . السعادة ١٣٢٣ .
الأصمعيات ، اختيار الأصمعى . ليبسك ١٩٠٢ م .
الاعتبار ، لأسامة بن منقذ . نشرة فيليب حتى . جامعة برنستون ١٩٣٠ .
إعجاز القرآن ، للباقلانى . السلفية ١٣٤٩ .
أعجب ما كان ، فى الرق عند الرومان ، لمصطفى كامل . المحروسة ١٣١٠ .
الأغانى ، لأبى الفرج الأصبهانى . الساسى ١٣٢٣ .
ألف باء ، للبلوى . الوهبية ١٢٨٧ .
الألفاظ الفارسية المعربة ، لأدى شير . بيروت ١٩٠٨ م .
الأمالى ، لأبى على القالى . دار الكتب ١٣٤٤ .
الأناجيل الأربعة .
إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطى ، بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم . دار الكتب ١٣٦٩ .
الأنساب ، للسمعانى . ليدن ١٩١٢ م .
الإنصاف والتحرى ، لابن النديم . ضمن تعريف القدماء . دار الكتب ١٣٦٤ .
بدائع البدائه ، لابن ظافر الأزدى . بولاق ١٢٧٨ .
بغية الوعاة ، للسيوطى . السعادة ١٣٢٨ .
البيان والتبيين ، للجاحظ ، بتحقيق عبد السلام هارون ، لجنة التأليف ١٣٦٩ .
تاج العروس ، الزبيدى . الخيرية ١٣٠٦ .
تاريخ الإسلام ، للذهبى . مخطوط دار الكتب رقم ٤٢ تاريخ .
« « ، للذهبى . القدسى من سنة ١٣٦٧ .
« الأمة القبطية ، لجنة التاريخ القبطى . المقتطف ١٩٢٥م .
« بغداد ، للخطيب البغدادى . القاهرة ١٣٤٩ .
« دمشق ، لابن عساكر . مخطوطة المكتبة التيمورية رقم ١٠٤١ تاريخ .
« الطبرى . الحسينية ١٣٢٦ .

تاريخ طرابلس الغرب ، لابن غلبون . السلفية ١٣٤٩ .
« قضاة الأندلس ، النباهي . تحقيق بروفنسال . دار الكاتب المصرى ١٩٤٨ م .
« مختصر الدول ، لابن العبرى . أكسفورد ١٦٦٣ .
التبصر بالتجارة ، للجاحظ ، تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب . الرحمانية ١٣٥٤ .
التحقيق فى شراء الرقيق ، لمؤلف مجهول . مخطوط بالمكتبة التيمورية رقم ٤٨ فضائل ورذائل.
تذكرة أولى الألباب ، لداود الأنطاكى . الشرفية ١٣١٧ .
تذكرة الحفاظ ، للحافظ الذهبي . حيدر أباد ١٣٤٤
تذكرة الطالب النبيه ، عن نسب إلى أمه دون أبيه . لأحمد بن خليل اللبودى . مخطوط بالتيمورية رقم ١٤٠٧ تاريخ .
التصريح ، بمضمون التوضيح ، للشيخ خالد الأزهرى . الأزهرية ١٣٤٤ .
تعريف القدماء ، بأبى العلاء ، للجنة من رجال وزارة المعارف . دار الكتب ١٢٦٣ .
تفسير أبى حيان ، وهو البحر المحيط . السعادة ١٣٢٨ .
« الطبرى . بولاق ١٣٣٠ .
تكملة التكملة . طبع مدريد ١٩١٥ م .
تكملة الصلة ، لابن الأبار ، تحقيق كوديرا . مدريد ١٨٨٧ م .
تهذيب التهذيب ، لابن حجر . حيدر أباد ١٣٢٥ .
التنبيه والإشراف ، للمسعودى . الصاوى ١٣٥٧ .
التنبيه على أمالى القالى ، لأبى عبيد البكرى . دار الكتب ١٣٤٤ .
التيجان ، فى ملوك حمير ، لوهب بن منبه . حيدر أباد ١٣٤٧ .
ثمار القلوب ، فى المضاف والمنسوب ، للثعالبي . الظاهر ١٣٢٦ .
جذوة المقتبس ، للحميدى . تحقيق محمد بن تاويت . السعادة ١٩٥٣ م .
جمل أحكام الفراسة ، لأبى بكر الرازى . حلب ١٣٤٧ م .
جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم . تحقيق بروفنسال . دار المعارف ١٩٤٨ م .
جمهرة خطب العرب ، لأحمد زكى صفوت . الحلبى ١٣٥٢ .
حاشية ابن عابدين . بولاق ١٢٩٩ .
حسن المحاضرة ، فى أخبار مصر والقاهرة ، للسيوطى . السعادة ١٣٢٤ .
الحلة السيراء ، لابن الأبار . ليدن ١٨٥١ م .
حلية الفرسان ، لعلى بن عبدالرحمن الأندلسى . تحقيق محمد عبدالغنى حسن . دار المعارف ١٣٦٩ .
الحماسة ، لأبى تمام . السعادة ١٣٣١ .
الحماسة للبحترى . الرحمانية ١٩٢٩ م .
الحماسة لابن الشجرى . حيدر أباد ١٣٤٥ .
الحيوان ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون . الحلبى ١٣٥٧ — ١٣٦٤ .
خاص الخاص ، للثعالبي . السعادة ١٣٢٦ .
خريدة القصر ، للعماد الأصفهانى ، تحقيق أحمد أمين وشوقى ضيف وإحسان عباس. لجنة التأليف ١٩٥١ م .
خزانة الأدب ، للبغدادى . بولاق ١٢٩٩ .
خطط المقريزى ، وهو المواعظ والاعتبار . مطبعة النيل ١٣٢٤.

خلاصة الأثر ، فى أعيان القرن الحادى عشر ، للمولى المحبى . الوهبية ١٢٨٤ .
الخيل ، لابن الأعرابى . ليدن ١٩٢٨ م .
» ، لابن الكلبي . ليدن ١٩٢٨ م .
دائرة المعارف الإسلامية . الترجمة العربية .
» » البريطانية .
الدرر الكامنة ، فى أعيان المائة الثامنة ، لابن حجر . حيدر أباد ١٣٥٠
درة الغواص ، للحريرى . الجوائب ١٢٩٩ .
الديارات للشابشتى ، تحقيق كوركيس عواد . بغداد ١٩٥١ م .
ديوان الأخطل بيروت ١٨٩١ .
» الأرجانى . بيروت .
» أسامة بن منقذ . نسخة دار الكتب رقم ١٦٨٧٧ ز .
» الأعشى ، بتحقيق جاير . ڤينا ١٩٢٧ م .
» امرئ القيس . هندية ١٣٢٤ .
» البحترى . هندية ١٣٢٩ .
» بشار ، بشرح ابن عاشور . لجنة التأليف ١٣٦٩ .
» أبى تمام ، نشرة محى الدين الخياط . بيروت ١٣٢٣ .
» تميم بن المعز . مخطوط دار الكتب رقم ١٦٠٢٥ز .
» جرير . الصاوى ١٣٤٥ .
» حاتم الطائى . الوهبية ١٢٩٣ .
» حسان بن ثابت . الرحمانية ١٣٤٧ .
» الحطيئة . التقدم ، بالقاهرة .
» الخنساء . بيروت ١٨٨٨ م .
» ابن الدمينة . المنار ١٣٣٧
» زهير بن أبى سلمى دار الكتب ١٣٦٣ .
» سلامة بن جندل . بيروت ١٩١٠ م .
» أبى طالب . مخطوطة الشنقيطى بدار الكتب رقم ٣٨ ش .
» طرفة بن العبد . قزان ١٩٠٩ م .
» العباس بن الأحنف . الجوائب ١٢٩٨ .
» عمر بن أبى ربيعة . الميمنية ١٣١١ .
» الفرزدق . الصاوى ١٣٥٤ .
» ابن قيس الرقيات . ڤينا ١٩٠٢ م .
» لبيد . ڤينا ١٨٨٠ ، ١٨٨١ م .
» المتنبى ، بشرح العكبرى . الشرفية ١٣٠٨ .
» أبى محجن . الأزهار .
» المعانى ، لأبى هلال العسكرى . القاهرة ١٣٥٢ .
» ابن المعتز . المحروسة ١٨٩١ م .
» معن بن أوس . ليبسك ١٩٠٣ م .

ديوان مهيار الديلمي . دار الكتب ١٣٤٥ .
» النابغة . من مجموع خمسة دواوين .
» أبي نواس . العمومية ١٨٩٨ م .
» الهذليين . دار الكتب ١٣٦٩ .
الذخيرة ، لابن بسام . مخطوطة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٢٢ .
الرق في الإسلام ، لأحمد شفيق ، ترجمة أحمد زكي . بولاق ١٣٠٩ .
روضات الجنات ، في أحوال العلماء والسادات ، لمحمد باقر الموسوي . العجم ١٣٠٤ .
الروضتين ، في أخبار الدولتين ، لأبي شامة . وادي النيل ١٢٨٨ .
زهر الآداب ، للحصري . الرحمانية ١٩٢٥ .
سفر التكوين .
سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، لمحمد خليل المرادي . بولاق ١٣٠١ .
سمط اللآلي ، للراجكوتي . لجنة التأليف ١٣٥٤ .
سير النبلاء ، للذهبي . مصورة دار الكتب رقم ١٢١٩٥ ح .
السيرة ، لابن هشام . جوتنجن ١٨٥٩ م .
شذرات الذهب ، لابن العماد الحنبلي . القدسي ١٣٥١ .
شرح الحماسة ، للتبريزي . بتحقيق فريتغ . بون ١٨٢٨ م .
» » للمرزوقي بتحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون . لجنة التأليف ١٣٧٢ .
» شواهد شروح الألفية ، للعيني . بهامش خزانة الأدب .
» » المغني ، للسيوطي . البهية ١٣٢٢ .
» المضنون به على غير أهله ، لعبيد الله بن عبد الكافي . السعادة ١٣٣١ .
» المفصل ، لابن يعيش . محمد منير .
شرح المفضليات لابن الأنباري ، تحقيق ليال . بيروت ١٩٢٠ .
» نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد . الميمنية ١٣٢٩ .
شروح سقط الزند ، للتبريزي والبطليوسي والخوارزمي . دار الكتب ١٣٦٨ .
الشعر والشعراء ، لابن قتيبة . بتحقيق أحمد شاكر . الحلبي ١٣٧٠ .
شفاء الغليل ، للخفاجي . السعادة ١٣٢٥ .
الشقائق النعمانية ، في علماء الدولة العثمانية ، بهامش وفيات الأعيان .
صبح الأعشى ، للقلقشندي . دار الكتب ١٣٤٠ .
الصلة ، لابن بشكوال . مدريد ١٨٨٢ م .
الطالع السعيد ، الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ، للأدفوي . الجمالية ١٣٣٢
طبقات الأطباء ، لابن أبي أصيبعة ، وهو عيون الأنباء . الوهبية ١٢٩٩ .
طبقات الشعراء ، لابن سلام . السعادة .
الطبيخ ، للبغدادي . الموصل ١٣٥٣ .
عصر إسماعيل (من تاريخ الحركة القومية) للرافعي . مطبعة النهضة ١٩٣٢ م .
العقد الفريد ، لابن عبد ربه . لجنة التأليف ١٣٧٢ .
العمدة ، لابن رشيق . هندية ١٣٤٤ .

عمدة القارى ، شرح صحيح البخارى ، للعينى . محمد منير ١٣٤٨ .
عيون الأخبار ، لابن قتيبة . دار الكتب ١٣٤٣ .
عيون التواريخ ، لابن شاكر الكتبي . مخطوطة دار الكتب رقم ١٤٩٧ تاريخ .
غرر الخصائص ، للوطواط . بولاق ١٢٨٤ .
الفائق ، للزمخشرى . حيدر آباد ١٣١٤ .
فتح البارى ، شرح صحيح البخارى ، لابن حجر . بولاق ١٣٠١ .
فتح القدير ، للكمال بن الهمام . بولاق ١٣١٨ .
الفراسة ، لأفليمون حلب ١٣٤٧ .
الفصل ، فى الملل والأهواء والنحل ، للشهرستانى . الأدبية ١٣١٧ .
الفصول والغايات ، لأبى العلاء المعرى . حجازى ١٣٥٦ .
الفهرست ، لابن النديم . الرحمانية .
فوات الوفيات ، لابن شاكر . بولاق ١٢٨٣ .
فيض الخاطر ، للدكتور أحمد أمين . لجنة التأليف .
القانون الرومانى ، للدكتور محمد عبد المنعم بدر . لجنة التأليف ١٩٣٧ م .
قلائد العقيان ، للفتح بن خاقان بولاق ١٢٨٣ .
الكامل فى التاريخ ، لابن الأثير . محمد منير ١٣٤٨ .
الكامل ، للمبرد . ليبسك ١٨٦٤ م .
الكتاب ، لسيبويه بولاق ١٣١٦ .
كتاب : حرب بكر وتغلب . الهند ١٣٠٥ .
الكتاب المقدس . الأمريكانية ١٩٠٦ .
كشف الظنون ، لحاجى خليفة . تركيا ١٣١٠ .
الكنايات ، للثعالبى . السعادة ١٣٢٦ .
« ، للجرجانى . السعادة ١٣٢٦ .
كنى الشعراء لابن حبيب ، ملحق بكتابه أسماء المغتالين . مخطوط دار الكتب ٢٦٠٦ تاريخ .
لباب الآداب ، لأسامة بن منقذ ، تحقيق أحمد شاكر . الرحمانية ١٣٥٤ .
لسان الميزان ، لابن حجر حيدر أباد ١٣٣٠ .
مجالس ثعلب . بتحقيق عبد السلام هارون . دار المعارف ١٣٦٩ .
مجلة الجمعية الألمانية الشرقية : (Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft)
مجمع الأمثال . للميدانى . البهية ١٣٤٢ .
مجموع خمسة دواوين . الوهبية ١٢٩٣ .
مجموعة المعانى ، لمؤلف مجهول . الجوائب ١٣٠١ .
محاضرات الأدباء ، للراغب الأصفهانى . الشرفية ١٣٢٦ .
المختار من شعر بشار ، للخالديين . الاعتماد ١٣٥٣
مختارات ابن الشجرى . العامرة ١٣٠٦ .
مختصر تاريخ دمشق ، لابن بدران . روضة الشام ١٣٣٢ .

المخصص ، لابن سيدة ، بولاق ١٣١٨ .
مخطوطات الموصل ، للدكتور داود جلبي . الفرات ببغداد ١٩٢٧ م .
مروج الذهب ، للمسعودي . السعادة ١٣٦٧ .
مسالك الأبصار ، لابن فضل الله العمري . مصورة دار الكتب ٢٥٦٨ تاريخ .
مشارق الأنوار ، القاضي عياض . السعادة ١٣٣٢ .
المعارف ، لابن قتيبة . الإسلامية ١٣٥٣ .
معاهد التنصيص ، للعباسي . البهية ١٣١٦ .
المعتمد ، في الأدوية المفردة ، لابن رسولا . الحلبي ١٣٢٧ .
المعجب ، للمراكشي . السعادة ١٣٢٤ .
معجم الأدباء ، لياقوت . دار المأمون ١٣٢٣ ومرجليوث .
معجم البلدان ، لياقوت . السعادة ١٣٢٣ .
معجم الشعراء ، للمرزباني . القدسي ١٣٥٤ .
المعجم الفارسي الإنجليزي : (Persian English Dictionary by F. Steingass)
معجم المجمع العلمي الأسباني : (Dictionario de La lingua Española)
المعرب ، للجواليقي ، بتحقيق أحمد شاكر . دار الكتب ١٣٦١ .
المعلمة الكبيرة للمعارف العامة : (The Great encyclopedia of universal knawlages)
المعمرين ، للسجستاني . السعادة ١٣٢٣ .
المغرب لابن سعيد . مخطوطتي دار الكتب ٢٧١٢ تاريخ و ١٠٣ تاريخ م .
» » » ، بتحقيق الدكتورشوقي ضيف . دار المعارف ١٩٥٣ م
المغني ، لابن قدامة الحنبلي . دار المنار ١٣٦٧ .
مفاتيح العلوم ، للخوارزمي . محمد منير ١٣٤٢ .
مفتاح الأفكار ، في النثر المختار ، للشيخ أحمد مفتاح . مطبعة جريدة الإسلام ١٣١٤ .
مفرج الكروب ، لابن واصل . مخطوطة مكتبة باريس رقم ١٧٠٢ .
المفضليات ، بتحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون . دار المعارف ١٣٦١ .
مقاييس اللغة ، لابن فارس ، بتحقيق عبد السلام هارون . الحلبي ١٣٦٦ — ١٣٧١ .
مقدمة ابن خلدون . البهية ١٩٢٨ م .
المؤتلف والمختلف للآمدي . القدسي ١٣٥٤ .
النجوم الزاهرة ، لابن تغري بردي . دار الكتب من سنة ١٣٤٨ .
نزهة الألباء ، لابن الأنباري . القاهرة ١٢٩٤
نفح الطيب ، للمقري . نشرة محمد محيي الدين السعادة ١٣٦٩ .
النقائض ، رواية أبي عبيدة . ليدن ١٩٠٥ .
النقود العربية وعلم النميات ، للأب أنستاس ماري الكرملي . العصرية ١٩٣٩ م .
النهاية ، لابن الأثير . العثمانية ١٣١١ .
نهاية الأرب ، للنويري . دار الكتب ١٣٤٢
الوزراء والكتاب ، للجهشياري . الحلبي ١٣٥٧ .
الوساطة بين المتنبي وخصومه ، للجرجاني . صيدا ١٣٣١ .
وفيات الأعيان ، لابن خلكان . الميمنية ١٣١٠ .
يتيمة الدهر ، للثعالبي . دمشق ١٣٠٣ .

استدراك وتذييل

١ — ص ٢٢ س ٥ العبارة بكمالها كما ورد فى الخريدة : « وقد تعاور الشعراء وصف وقوع الشعاع على صفحات الماء » .

٢ — ص ٢٣ س ٢ — ٣ البيتان كما فى الخريدة :

بشاطئ نهر كأن الزجاج . وصفو اللجين به ذوبا

إذا جمشته الصبا بالضحى توهمته زرداً مذهبا

انظر ص ١١٦ من نوادر المخطوطات .

٣ — ص ٥٤ س٧ — ٨ البيتان رواهما العماد فى الخريدة ٢ : ١٢٠ منسوبين إلى العينى المصرى ثم قال : « ووجدت هذين البيتين فى رسالة أبى الصلت منسوبين إلى ظافر الحداد » .

٤ — ص ٣٧ س ١٢ إلى ص ٤١ س ١٢ . هذا الكلام ورد فى إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، للقفطى ص ١٥٩ .

٥ — ص ١٤١ س ١٢ انظر لهذا البيت نهاية الأرب ٤ : ٢٧١ .

٦ — ص ١٤٢ س ١٦ وقع فى الحاشية سقط ، وتمامها كما فى الكامل : « وقد فضل نصيب على الفرزدق فى موقفه عند سليمان بن عبد الملك ، وذلك أنهما حضرا فقال سليمان للفرزدق : أنشدنى » . إلخ

٧ — ص ١٤٧ س ٨ نسب ابن خلكان فى ترجمة (يزيد بن المهلب) هذا البيت إلى بشر بن قطبة الأسدى .

٨ — ص ١٦٨ س ٢ البيت ليزيد بن الجهم الهلالى ، كما فى الحماسة ١٧٣٠ س ١ بشرح المرزوقى .

٩ — ص ٢٨٨ س ٦ « أبى عبيد المختار » ، كذا فى الأصل ، وصوابه « ابن أبى عبيد المختار » .وهو المختار بن أبى عبيد .

١٠ — ص ٢٣٤ س ٤ « الماخورى » . جاء فى مروج الذهب ٤ : ٢٢٤ :

« وخفيف الثقيل منهما يسمى بالماخورى . وإنما سمى بذلك لأن إبراهيم بن ميمون الموصلى — وكان من أبناء فارس وسكن الموصل — كان كثير الغناء فى هذه المواخير بهذه الطريقة » .

١١ — ص ٣٢٤ س ٥ « السلمان » جاء فى مروج الذهب ٤ : ٢٢١ : « والسلبان ، وله أربعة وعشرون وترا ، وتفسيره ألف صوت » .

١٢ — ص ٣٢٤ س ٥ « الصنج » ، وهى فى الأصل « الصلح » بدون إعجام . وورد فى مروج الذهب ٤ : ٢٢١ : « ولهم الصلنج وهو من جلود العجاجيل » .

١٣ — ص ٣٢٤ س٥ « الكنكلة » فى مروج الذهب : « وللهند الكنكلة، وهو وتر واحد يمد على قرعة فيقوم مقام العود والصنج » .

١٤ — ص ٣٨١ س ٣ « لخلخله » صوابها « لخلخه » ، وهى فارسية ، ومعناها ضرب من الطيوب مركب من العود والعنبر والمسك واللادن والكافور انظر الألفاظ الفارسية لأدى شير ص ١٤١ واستينجاس ١١٢٠ .

١٥ — سيضم (فهرس اللغة) الخاص بهذ المجلد إلى نهاية المجلد الثانى ليكون فهرساً للمجلدين معاً بعون الله .

فهرس مضامين المجلد

الفهارس العامة

صدر من هذه السلسلة

٢٠ – تجريد الأغانى جـ ٢

٢١ – تجريد الأغانى جـ ٣

٢٢ – تجريد الأغانى جـ ٤

٢٣ – تجريد الأغانى جـ ٥

٢٤ – تجريد الأغانى جـ ٦

٢٥ – الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة جـ ١

٢٦ – الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة جـ ٢

٢٧ – حلبة الكميت

٢٨ – البرصان والعرجان والعميان والحولان جـ ١

٢٩ – البرصان والعرجان والعميان والحولان جـ ٢

٣٠ – رسائل ابن العربى جـ ١

٣١ – رسائل ابن العربى جـ ٢

٣٢ – منامات الوهرانى

٣٣ – الكشكول جـ ١

٣٤ – الكشكول جـ ٢

٣٥ – أخبار الاول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول

٣٦ – بدائع الزهور فى وقائع الدهور (الجزء الأول – القسم الأول)

٣٧ – بدائع الزهور فى وقائع الدهور (الجزء الأول – القسم الثانى)

٣٨ – بدائع الزهور فى وقائع الدهور (الجزء الأول – القسم الثالث)

٣٩ – بدائع الزهور فى وقائع الدهور (الجزء الثانى)

٤٠ – بدائع الزهور فى وقائع الدهور (الجزء الثالث)

٤١ – بدائع الزهور فى وقائع الدهور (الجزء الرابع)

٤٢ – بدائع الزهور فى وقائع الدهور (الجزء الخامس)

٤٣ – بدائع الزهور فى وقائع الدهور (الفهارس – الجزء الأول – الأعلام– القسم الأول)

٤٤ – بدائع الزهور فى وقائع الدهور (الفهارس– الجزء الأول– الأعلام – القسم الثانى)

٤٥ – بدائع الزهور فى وقائع الدهور (الفهارس – الجزءالثاني– الموظفون والوظائف)

٤٦ – بدائع الزهور فى وقائع الدهور (الفهارس – الجزء الثالث–الاماكن و البلدان)

٤٧ – بدائع الزهور فى وقائع الدهور

(الفهارس – الجزء الرابع–المصطلحات– القسم الأول)

٤٨ – بدائع الزهور فى وقائع الدهور

(الفهارس – الجزء الرابع–المصطلحات– القسم الثانى)

٤٩ – فتوح مصر والمغرب الجزء الأول

٥٠ – فتوح مصر والمغرب الجزء الثانى

٥١ – المواعظ والاعتبار الجزء الأول

٥٢ – المواعظ والاعتبار الجزء الثانى

٥٣ – المواعظ والاعتبار الجزء الثالث

٥٤ – المواعظ والاعتبار الجزء الرابع

٥٥ – سيرة أحمد بن طولون

٥٦ – مجموعة مصنفات الشيخ إشراق الجزء الأول

٥٧ – مجموعة مصنفات الشيخ إشراق الجزء الثانى

٥٨ – اتعاظ الحنفا الجزء الأول

٥٩ – اتعاظ الحنفا الجزء الثانى

٦٠ – اتعاظ الحنفا الجزء الثالث

٦١ – مقالات الإسلاميين

٦٢ – ديوان أبى نواس هانئ الحكمى الجزء الأول

٦٣ – ديوان أبى نواس هانئ الحكمى الجزء الثانى

٦٤ – ديوان أبى نواس هانئ الحكمى الجزء الثالث

٦٥ – ديوان أبى نواس هانئ الحكمى الجزء الرابع

٦٦ – ولاه مصر تآليف محمد بن يوسف الكندى

٦٧ – المنتخب من الأدب العربى الجزء الأول

٦٨ – الهوامل والشوامل لأبى حيان التوحيدى، ومسكويه

٦٩ – المنتخب من الأدب العربى الجزء الثانى

٧٠ – نوادر المخطوطات تحقيق عبد السلام هارون

رقم الايداع : ٢٠٠١/١٥٧٠١

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)

إننا – فى هذه المجموعة – أمام حشد من الموضوعات منها ما يهم دارس اللغة وما يهم دارس الأدب وتاريخه وما يهم صاحب التاريخ العام وتاريخ الفكر والسياسة وما يهم صاحب الاجتماع، هذا إلى بعض الرسائل التى قد يتجاذبها أكثر من مجال معرفى وربما أكثر من نوع أدبى، كالذى نلاحظه فى أولى رسائل هذا المجلد، وهى (الرسالة المصرية) التى يتجاذبها التاريخ العام، وأدب الرحلات، وتاريخ الأدب، إلى جانب الترجمة الذاتية. فإذا جئت إلى عصور مؤلفيها – مجموعة الرسائل – رأيتها تمتد بك من القرن الثانى الهجرى إلى القرن الحادى عشر وربما إلى ما بعده، وإذا نظرت إلى بلدانهم وجدتها تمتد من شرق العالم الإسلامى إلى أقصى غربه، ومن شماله إلى أقصى جنوبه، وهكذا يجىء تفاوت أزمان المؤلفين وتعدد مواطنهم مطرداً مع تعدد موضوعات مؤلفاتهم.

شركة الأمل للطبـ...

السعر : خمسة جنيهات